

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

الفقر بالمغرب الإسلامي مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13/15 م) واقعه وآثاره

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الطور التاريخ الوسيط

مشروع : الحوض الغربي للمتوسط: تاريخ وحضارة

إعداد الطالب: | التخصص: الغرب الإسلامي. تاريخ وحضارة | إشراف الأستاذ الدكتور:

بختة خليلي | ا.د: بوداود عبيد

أعضاء لجنة المناقشـــة

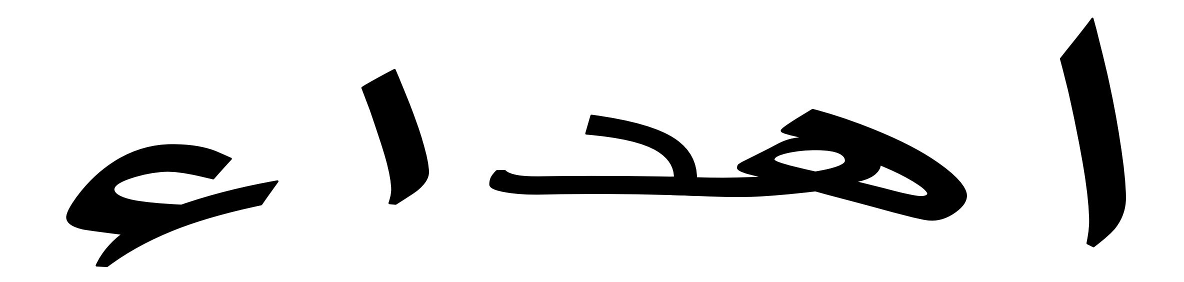
– د. عمر بلبشير	–أستاذ محاضر"أ"–	– جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر	– رئيسا ومقررا.
– أ.د. عبيد بوداود	– أستاذ –	– جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر	– عضوا مشرفا.
–أ.د. خالد بلعربي	– أستاذ –	– جامعة جيلالي ليابس– سيدي بلعباس	– عضوا مناقشا .
–أة.د فاطمة بلهواري	– أستاذ ة –	– جامعة وهران 1، أحمد بن بلة	– عضوا مناقشا .
– د. مصطفى مغزاوي	– أستاذ محاضر"أ"–	– جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف	– عضوا مناقشا.
–دة.تواتية بودالية	– أستاذة محاضرة "ب"	– جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر	– عضوا مناقشا.

السنة الجامعية: 2015/ 2016م



« فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ »

سورة الحج:28.



إلى الشموع التي ذابت في كبرياء.....

إلى ينبوع العطاء بدون انتظار...إلى من كان دعاؤها سر نجاحي وانتصاري....

إلى معنى الحب والحنان والتفاني بلا كلل ولا ملل .... والدتي العزيزة

إلى من كلله الله بالهيبة والوقار ...إلى سندي وبه أزداد افتخار..........

إلى الذي لاتفيه الكلمات والشكر والعرفان بالجميل .... والدي الغالي

إلى ينابيع الصدق الصافي وبهم أستمد عزمي وإسراري................. إخوتي الأعزاء

إلى من تطلع لنجاحي بنظرات الأمل وشاركني هموم السفر..... زوجي الفاضل

إلى من تحلو بالإخاء وتميزوا بالوفاء ....إلى من معهم سرت وبرفقتهم أنست...

إلى من لم أعرف كيف وجدتهم وعلموني أن لاأضيعهم .... أصدقائي الأحباء

شكر واعتراف

الحمد لله الذي تتم بفضله الصالحات، جاعل بوادر الأعمال النيات، فالحمد لله والشكر لله عز وجل، أحمده على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، أحمده على كل ما مدني به من معونة وقوة، وما سخر لي من وسائل، وما ذلل لي من مصاعب ومتاعب، ووفقني لإتمام هذه الأطروحة التي ما كانت لترى النور لولا سند الوالدين الكريمين لما شملاني به من عطف ودعاء وتحفيز طيلة أيام البحث، فهما اللذان بذرا البذرة وسقياها بعرقهما، فأسأل الله تعالى أن يحفظهما ويجزل ثوابهما.

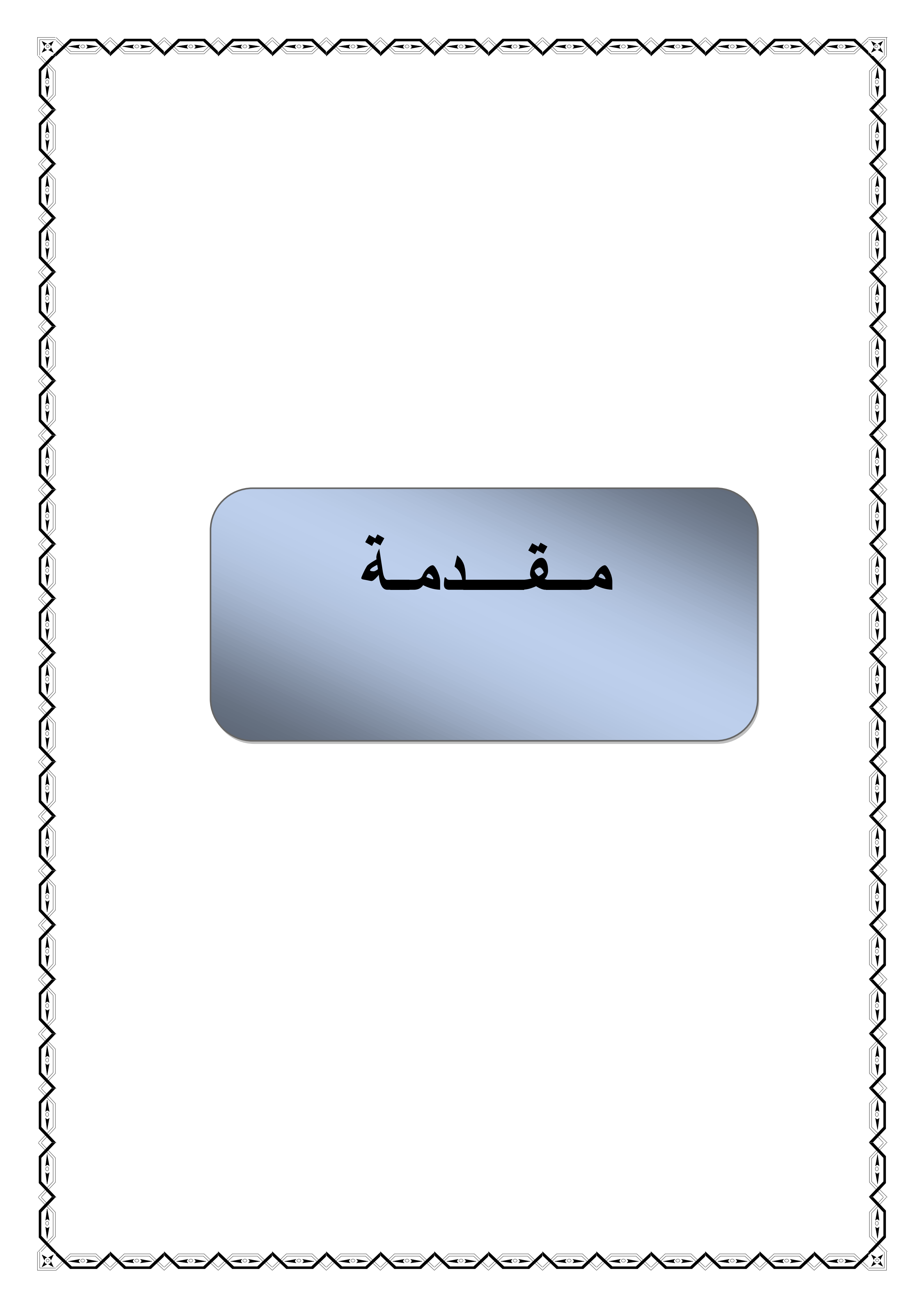
كما لا يسعني بعد حمد الله وشكره، إلا أن أتقدم بعظيم الشكر والعرفان والامتنان إلى المشرف الأستاذ الدكتور: عبيد بوداود الذي تفضل مشكورا بقبوله الإشراف على هذا البحث، فأُحَيي فيه صبره معي رغم انشغالاته، ورحابة صدره على ما أحاطني به من رعاية كاملة اتخذت صورة إرشادات وتوجيهات علمية نيرة أغنت البحث، وكانت نبراسا للتغلب على الصعاب التي واجهتني أثناء إعداده، فوفاه الله عني خير الجزاء.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بخالص الشكر لكل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل، وأخص بالذكر الدكتور مغزاوي مصطفى الذي لم يبخل عليا متى احتجت مساعدته فجزاه الله عني كل الخير، والشكر موصول كذلك للأستاذ لخضر بولطيف أطال الله في عمره، الذي أعانني بالكثير من النصائح والإرشادات والكتب القيمة، كما أحمد الله أنه أحاطني بالرفقة الطيبة كل من الأساتذة: حليمة صراندي وسالم عطية أمال وعايدة عيسى بروجة اللذين وقفوا إلى جانبي طيلة إنجازي لهذا البحث فجزاهما الله عني كل الخير.

كما لا يفوتني أن أتقدم بأرقى عبارات الشكر والعرفان للسادة الدكاترة أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة هذا العمل وتصويبه، وعلى تكبدهم المشقة في قراءته وتصحيحه رغم انشغالاتهم وارتباطاتهم الدائمة، فلهم مني كل التقدير والاحترام.

قائمة المختصرات

الرمز	الكلمة
ت	توفي
تح	تحقيق
تر	ترجمة
ج	جزء
د.ت	دون تاريخ
د.ط	دون طبعة
ص	الصفحة
ط	الطبعة
م	ميلادي
هـ	هجري
(....)	كلام مبتور
/	إشارة بين التاريخين الهجري والميلادي
"......"	إقتباس مباشر
مج	مجلد



مقــــدمـة

يندرج موضوع الفقر الذي -يعَدُ من أشد البلايا وقعا على المجتمع- ضمن الدراسات الاجتماعية والاقتصادية وتاريخ البنى والذهنيات وتاريخ الأمراض والأوبئة وتاريخ الفئات المهمشة، التي لقيت في الفترة الأخيرة عناية كبيرة من الباحثين، وأعطت للتاريخ صبغة أكثر شمولية، وأزالت عنه قيود الرؤى التقليدية التي كانت مهيمنة عليه، بتأريخ الإنسان في علاقته بالإنسان، والتي تقوم أساسا على التأريخ في الغالب للطبقة الحاكمة والنخب العاملة سواء من حيث الأصول أو من حيث الوظائف، وكذا الإشادة بسيرهم وبطولاتهم العسكرية والسياسية، أكثر من اشتغالهم بتأريخه في علاقته بمجتمعه وظواهره، وكل هذا يجعل دراسة التاريخ الاجتماعي في وسط اعتراه نوع من الضبابية التاريخية ضربا من المغامرة.

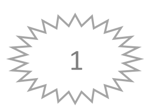
ويزيد الأمر تعقيدا عندما يكون الموضوع المدروس معطى اجتماعيا متميزا يكتنز الحمولات الثقيلة المرتبطة بالحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية، ما يجعله أثقل من أن يتجرأ أي باحث على خوض غماره. وأي شيء في المجتمع ارتبط بالحياة والإنسان أخطر من الفقر؟.

الفقر، هذا المصطلح الذي أحاطت به معاجم وكتب التفسير واللغة، تفسيرا لمصطلحاته وماهيته وفق المفهوم اللغوي والشرعي، متجاوزة مواقف بعض النظريات الحديثة والمعاصرة له، بتبيين نظرة وموقف الإسلام منه.

ويطرح هذا الإشكال المدروس صعوبة عندما يدرس في إطار الحضارة الإسلامية، بما هي حضارة نابعة من دين، لورود نصوص قرآنية لها علاقة بالفقر كقوله تعالى" **يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلىَ اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**"[1]وقوله أيضا" **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**..."[2].

1- سورة فاطر، الآية 15.

2 -سورة البقرة، الآية 273.



فإذا كانت الموضوعات التاريخية الجادة، هي التي تتناول بعمق، جانبا من علاقة الإنسان ببني جنسه وبيئته ومجتمعه فإن الاهتمام بالفقراء والمساكين في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي من القضايا ذات الصدارة بالنسبة إلى تلكم العلاقة.

في هذا الإطار جاءت هذه الدراسة الموسومة بالفقر بالمغرب الإسلامي مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين(ق13-15م) واقعه وآثاره.

ومن هذه النظرة المؤسسة، أدركنا ما لهذا الموضوع من أهمية بارزة تكمن في محاولة إزالة العتمة عن ظروف صعبة عاشها بعض أفراد مجتمع المغرب الإسلامي، إبان تعرضه لمختلف التحولات والاضطرابات الحاسمة في مساره التاريخي، والتي لها من دون شك آثار سلبية على الناحية الاقتصادية والاجتماعية والديمغرافية. تمثلت أساسا في أزمات وكوارث وآفات طبيعية وغير طبيعية كانت من أعظم البلايا وقعا وفقرا على أفراد مجتمع المغرب الإسلامي، لما أفرزته من واقع مرير صعب على إنسان المغرب الإسلامي معايشته في تلك الفترة.

وكَوْن أن الموضوع يبرز لنا حلقة من حلقات التاريخ المنسي لبعض فئات وشرائح مجتمع المغرب الإسلامي، لاسيما الفئات المستضعفة والفقيرة منها، باعتبارها الطبقة الأكثر عددا التي تشكل قاعدة الهرم الاجتماعي وأساسه، وبالرغم من الأدوار الشامخة التي لعبتها داخل مجتمعاتها، فإنها لم تذكر في المصادر إلا بنصف الكلمات المحتقرة كالهمج والرعاع والغوغاء والسفلة والدهماء، إلا أن إقصاء هذه الفئات من كل تسجيل تاريخي يعد تعسفا يجزئ الحقيقة التاريخية.

والحاصل من هذا وذاك أن معظم الفئات الفقيرة المستضعفة قد تعرضت للظلم والافتراء، إما من طرف السلطة، أو بالطمس والتهميش والسكوت، وهو ما صعب مهمة الباحث في الإحاطة بأسباب تغييب الفقراء والمستضعفين في الكتابات التاريخية للعصر الإسلامي الوسيط.

.

على أن اختياري لموضوع الفقر بالمغرب الإسلامي كان لأجل الرغبة في الكتابة عنه والاشتغال به تاريخا وواقعا يرتكز في مسائله على الجانب الاجتماعي، وبالأخص على الوضعية المتردية التي تعيش عليها معظم الشعوب الإسلامية المشكلة في غالبيتها من الفقراء والمساكين.

وقد كان اختيار مجال الدراسة مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين(ق13-15م) له ما يبرره، كَوْن أن بوادر التراجع والانهيار العام تبدو أكثر وضوحا وتجليا فيه، إن لم نقل إنه يمثل المرحلة الحاسمة والمنعطف الأكبر في تاريخ المغرب الإسلامي الذي ترك أثره الواضح على تطورات لاحقة شهدها هذا المجال كمسار طبيعي لحركة التاريخ، والزمن العصيب الذي انتقلت فيه موازين القوى والثقل الحضاري لصالح الأوربيين.

ولاشك أن اضمحلال الدولة الموحدية بعد انهزامها في معركة العقاب(609هـ/1212م)، وظهور الكيانات السياسية الثلاثة (الزيانيين، الحفصيين، المرينيين)، وضياع الأندلس من المسلمين، وهجرة أغلب ساكنيها إلى بلاد المغرب الإسلامي، فضلا عن طلائع الهجمات النصرانية في الخارج التي كانت تصل إلى شواطئ المغرب الإسلامي، بالإضافة إلى تزامن هذه الفترة وظهور وباء الطاعون الجارف سنة(748هـ/1450م) الذي طوى البساط بما فيه، والذي نجم عنه ولا شك تأثير كبير على الإنسان والحيوان.

كلها أحداث ومعطيات ساهمت في إفراز انعكاسات عميقة على البنيات الاجتماعية و الإقتصادية، وسط رهانات سياسية مليئة بالصراعات الداخلية والخارجية مدار ثلاثة قرون من الزمن، تكبدت نتائجها الفئات الدنيا المستضعفة والفقيرة من المجتمع.

فكان البحث في موضوع الفقر بالمغرب الإسلامي، هو اتجاه إلى دراسة سلوك وذهنيات الفرد زمن حدوث الأزمات الاقتصادية وما انجر عنها من بؤس وفقر، فضلا عن إماطة اللثام عن الجوانب المسكوت عنها في التأريخ لواقعهم ومكانتهم بين الأغنياء.

ولأن كثير من قضايا تاريخ المغرب الإسلامي مازالت قائمة لم تحسم بعد، على الرغم من وجود مؤلفات جادة ومهمة حول التاريخ الاجتماعي للمغرب الإسلامي، ودراسات أكاديمية محضة عن تاريخ الدويلات الثلاثة، وأبحاث متخصصة تناولت قضايا اقتصادية واجتماعية، فثمة عنصر فاعل في الإقتصاد والمجتمع ظل بمنأى عن الإهتمام، فلا نكاد نقف على دراسة متخصصة مستقلة حول الفقر والفقراء بالمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، مكتفين بالإشارة إليه من بعض الزوايا لا غير ، فارتأينا أن تكون هذه الالتفاتة العلمية لسد ثغرة من ثغرات البحوث، ذلك أنه موضوع يستوجب الإلمام بكل حيثياته، إذ ظل الإهتمام بالجانب السياسي والعسكري والعلمي، وعليه لا نحسب أننا مغالين إذا اعتبرنا أن موضوع الدراسة جديد في طرحه.

وانطلاقا من هذه الدراسة التاريخية-السوسيو اقتصادية- ومن خلال البحث بين مظان الدراسات الأكاديمية التي لها السبق في معالجة أوضاع وأحوال مجتمع المغرب الإسلامي، يظهر لنا أن دراسة موضوع الفقر في الفترة الوسيطة عموما محدودة جدا، باستثناء بعض الدراسات الاجتماعية التي كانت بمثابة أرضية لهندسة الموضوع وحيثياته، سواء على مستوى المنهج أو على مستوى التنظير، وأهمها: كتاب "فقه الفقراء"، الذي تناول فيه مؤلفه مفهوم الفقر والفرق بين الفقير والمسكين من خلال النصوص القرآنية والسنية، وكذا فضل الفقراء والمساكين وإنصافهم ووجوب الإنفاق عليهم. وما يمكن أن يكون أصلا للموضوع في المطمح والمبعث هو كتاب مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام للمؤلف يوسف القرضاوي الذي عالج فيه نظرة الإسلام للفقر وموقف الناس منه، وتطرقه إلى الوسائل البديلة لمعالجته.

كما كان لكتاب المقريزي الموسوم با: "إغاثة الأمة بكشف الغمة " نصيب في دعم هذه الدراسة من حيث الاطلاع على مدى تأثير الجوع في حياة البشرية .

أما بالنسبة للدراسات المغاربية فقد كلل موضوع الفقر بقسط قليل من البحوث لا يستهان بها، وأهم هذه الكتابات نذكر: كتاب"جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين" للمؤلف الحسين بولقطيب،



والذي تناول فيه أهم المجاعات والأوبئة والأمراض والحروب والصراعات والأزمات التي عصفت بمجتمع المغرب الإسلامي زمن الموحدين. وأما كتاب" تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" لمؤلفه الأمين بزاز، وإن كان بعيدا عن الفترة الزمنية المخصصة للدراسة، إلا أن ما يوجد به من رصيد علمي أفادنا كثيرا من حيث تخريج الموضوع.

وجاءت دراسة الأستاذ محمد أستيتو المعنونة با: الفقراء في المغرب"-نماذج من القرنين 16و17م- محيطة بالموضوع رغم اختلاف المجال الزمني بين الدراستين، وهذا لا يمنع من الاستفادة منها، فظاهرة الفقر باعتبارها ظاهرة أزلية لا تتوقف عند زمان أو مكان معين فما نتج عن ظاهرة الفقر قبل فترة دراستنا هو بمثابة أرضية ننطلق منها، وما حصل بعد ها هو امتداد لما سبق من نتائج الظاهرة، وعليه فالدراسة أفادتنا كثيرا من حيث تطرقه لأوضاع الفئات الفقيرة وما تكبدته من معاناة.

إضافة إلى بعض الدراسات البحثية التي أشارت ولو بقليل إلى موضوع الفقر بالمغرب الإسلامي نذكر دراسة تحت عنوان" جوانب من التاريخ الاجتماعي للمغرب في العصر المريني: المجاعات والأوبئة" للأستاذ مصطفى نشاط، كما كان لكتاب: المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي للأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش دور كبير في رسم معالم تاريخ الفئات المهمشة والمستضعفة، والذي أفادنا كثيرا من حيث تحديد الخلل الذي سقطت فيه الكتابة التاريخية الإسلامية الوسيطية ورصد موقفها من تاريخ المهمشين، فضلا عن العديد من كتبه التي ساعدتنا على مستوى المنهج والتنظير.

كما كان لكتاب عبد الهادي البياض الموسوم با:"الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس" إسهام كبير في معرفة ذهنيات وسلوك الإنسان المغربي أوقات زمن الشدة والمحن.

أما عن الدراسات الأكاديمية التي تناولت موضوع الفقر ولو بصفة غير مباشرة في شكل رسائل جامعية أو مقالات نذكر: رسالة: " المجاعات والأوبئة بالمغرب الأوسط (588-759هـ/1192-1520م) للباحثة سمية مزدور والتي استفدنا منها في دراسة أثر الأمراض والمجاعات والأوبئة في ظهور

الفقر داخل مجتمع المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة. في حين حظيت ظاهرة الفقر خلال الفترة الحديثة والمعاصرة في المغرب الإسلامي ببعض الدراسات والبحوث الأكاديمية العديدة، وهو الأمر الذي يفسر لنا بأن سبب التغييب لدراسة هذه الظاهرة بالمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط يرجع أساسا إلى نقص المادة المصدرية الكافية لمثل هذه الدراسات.

كما تناولت الرسالة الموسومة با: دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنيين الثامن والتاسع الهجريين(14-15م) للباحث نبيل شريخي بعض جوانب الموضوع من خلال التطرق إلى مساعي وجهود العلماء تجاه الفئات الفقيرة بتقديم بعض المساعدات المادية لهم وقضاء حوائجهم عن طريق الدعاء أو التوسط لدى الحكام.

وتأسيسا لما سبق ذكره عن موضوع الدراسة وما يطرحه من إشكالات عديدة؛ باعتباره موضوعا له تأثير عميق على الناحية الاقتصادية والدينية والاجتماعية والديمغرافية لأفراد مجتمع المغرب الإسلامي، سيتم التركيز في هذه الدراسة على واقع الفقر وأسبابه بالمغرب الإسلامي خلال الفترة الزمنية المدروسة، ودوره في الكشف عن الهوة الفاصلة بين مختلف فئات مجتمعه، وما انجر عنه من مظاهر وانعكاسات على مختلف نواحي الحياة، وأهم آثاره ونتائجه على الفرد والجماعة، وأبرز السلوكات والذهنيات التي أفرزها الفقر داخل المجتمع، وفيما تمثلت جهود ومساعي السلطة والفقهاء والصلحاء تجاه الفئات الفقيرة والمعوزة ؟.

بناء على ذلك درسنا الموضوع وفق منهج علمي قائم على استقراء المادة المصدرية وتحليلها، لأننا أمام ندرة المادة الخبرية التي اهتمت بواقع شريحة الفقراء والضعفاء، فضلا عن توظيف مفاهيم التحليل النفسي والسلوكي عندما احتاجت الدراسة إلى الكشف عن الآثار النفسية والذهنية للفقر، كما تطلبت الدراسة استعمال "الوصف" لإبراز أهم المظاهر التي رافقت ظاهرة الفقر طيلة الفترة الزمنية المدروسة، فكان المنهج الاستقرائي والتحليلي والوصفي أداة لتجاوز النقص الحاصل في بعض

العناصر. إلى جانب الاعتماد على المنهج الكمي في رسم بعض الجداول الخاصة بسعر المواد الغذائية وذكر أهم الكوارث الطبيعية والبيئية التي كان لها سبب في انتشار الفقر بالمغرب الإسلامي.

وانطلاقا من ذلك قسمنا هذه الدراسة وفق خطة منهجية بحسب ما توفر لنا من مادة مصدرية، فجاءت مهيكلة في مدخل وأربعة فصول، تتصدرهم مقدمة وتنتهي بخاتمة ضمناها النتائج التي توصلنا إليها وذيلنا الدراسة بملاحق.

كان من الضروري التمهيد للموضوع بمدخل موسوم با: مفهوم الفقر ونظرة الإسلام له، لأجل معرفة أهم المفاهيم والاصطلاحات اللغوية والشرعية لآفة الفقر، الذي تعددت ألفاظه وتعقدت إشكالاته، فضلا على أننا أبرزنا رأي الفقهاء المسلمين في معنى الفقير والمسكين، كما كان لابد لنا من تعريف الفقر من منظور اقتصادي واجتماعي باعتباره ظاهرة لها أبعاد اقتصادية واجتماعية تؤثر على الفرد والمجتمع معا، وهو الأمر الذي اقتضى منا أيضا عرض بعض الآراء لأفراد المجتمع تجاه مشكلة الفقر والتي تباينت بين الخضوع والتسليم بالقضاء والقدر وبين مسؤولية الفرد عن فقره، في حين كان هناك من يرى أن الفقر أساس الصراع الطبقي في المجتمع، على أن تكون نظرة الإسلام للفقر نظرة أحادية غير مذهبية ولا طائفية فهو يعتبرها آفة عويصة تستدعي المكافحة والعلاج. وكان لزاما علينا إبراز معايير قياس الفقر وأنواعه وفق المنظور الاقتصادي.

أما الفصل الأول فقد تطرقنا في بداية عرضه إلى إعطاء لمحة عن الأوضاع الاقتصادية و الإجتماعية للمغرب الإسلامي مطلع القرن السابع الهجري (13م) بالحديث عن تراجع أحوال دولة الموحدين وانهيارها بعد معركة العقاب، وما خلفته من أوضاع اقتصادية واجتماعية مزرية أثرت على مختلف نواحي الحياة.

ثم أعقبنا الحديث بعرض قراءة في الأسباب التي تقف وراء انتشار الفقر داخل المجتمع، والتي تنوعت بين الأسباب البشرية التي تمثلت في تلك الخلافات والأزمات السياسية بين الكيانات الثلاثة وفساد لأنظمة الحكم، وما انجر عنها من قيام حركات شعبية مناهضة للسلطة، وكذا الحروب



والحصارات التي ساهمت في تفقير الفرد والجماعة معا، وأسباب طبيعية تمثلت في تأثير العامل المناخي والجغرافي على طبائع وأحوال الناس وسلوكهم، من خلال العديد من الظواهر، أهمها دور المناخ في سيادة حالتي العطاء والجوع الذي يعتبر أثرا من أثار الفقر، فضلا عن عامل الجوائح بأنواعها المختلفة كالقحوط وشبح المجاعات والأوبئة التي تعتبر سببا من الأسباب الرئيسة المؤدية إلى الفقر بمختلف أشكاله لما أفرزته من أضرار معنوية وبشرية، وأسباب اقتصادية تناولنا فيها عامل جباية الضرائب وما لها من تأثير مباشر على الفئات ضعيفي الدخل، كما أدرجنا ضمنها عامل الإحتكار وغلاء الأسعار اللذين طالما شكلا هاجسا كبيرا أمام أفراد مجتمع المغرب الإسلامي، فضلا عن ذكرنا للأسباب الروحية وعلاقتها بالفقر، وذلك من خلال اختيار بعض المتصوفة حياة الزهد والتقشف ونبذ شهوات وملذات الدنيا، مفضلين ضنك المعيشة وحياة الفقر شعارا لهم.

وأملت الدواعي المنهجية أن نخصص الفصل الثاني إلى ضبط الأسس المعتمدة في التصنيف الإجتماعي بين عناصر المجتمع فتطرقنا إلى ذكر أهم العناصر التي شكلت خريطة سكان بلاد المغرب الإسلامي خلال فترة زمن البحث، فضلا عن ذكر البناء الطبقي للمجتمع وما تخلله من تنوع وتجانس في تركيب طبقاته، الأمر الذي أفضى إلى تقسيم المجتمع إلى طبقتين الخاصة والعامة حسب استقراء بعض المصادر التاريخية المتنوعة، وفي هذا الفصل وقفنا أيضا على أوضاع الفئات المهمشة الفقيرة من خلال ذكر بعض المهن والحرف الخسيسة التي كانوا يمتهنوها.

بينما ركزنا في الجزء الآخر منه على ذكر بعض مظاهر الفقر في كل من الطعام واللباس والمسكن كمعايير يقاس عليها المستوى المعيشي للفرد.

وبناء على ما يخلفه الفقر من آثار مختلفة، خصصنا الفصل الثالث إلى ذكر أهم الآثار الناجمة عنه، كالآثار الاجتماعية والآثار النفسية التي أفرزت سلوكات عدوانية تمثلت في السرقة والغش واللصوصية وقطع الطرق والقتل وأخرى إستسلامية، وحاولنا عرض بعض الطقوس والخرافات التي حاول الإنسان الانجراف وراءها كأسلوب لمواجهة ظاهرة الفقر، لأجل التخفيف من ضغطه.

كما سعينا إلى استنباط خطاب الفقر من خلال الموروث الشعبي وما قيل فيه من أمثلة اقتضتها الضرورة الظرفية. فضلا عن ذكرنا للآثار الديمغرافية وما انجر عنها من وفيات وهجرة الأفراد والجماعات هروبا من شبح اسمه الفقر.

وخصصنا الفصل الرابع لإبراز أثر الفقر في سيادة ثقافة التكافل والتآزر لدى السلاطين والفقهاء والصلحاء تجاه الفئات المحرومة والمهمشة في المجتمع، وذلك من خلال تقديم لهم المساعدات المادية والمعنوية وقضاء حوائجهم.

أما الخاتمة فكانت عبارة عن زبدة ما انتهى إليه التحليل من الاستنتاجات التي تمخضت عنها هذه الدراسة، والإشارة إلى بعض الأفاق القابلة للبحث والدراسة. وأردفنا ذلك بمجموعة من الملاحق التي لها صلة بالموضوع .

والمتتبع للمصادر التي اعتمدنا عليها في انجاز هذه الدراسة يجدها متنوعة منها ما هو خاص بالتاريخ الاجتماعي للدول الثلاثة (الحفصيين، المرينيين، الزيانيين)، أو مصادر عامة عن بلاد المغرب والأندلس، ومنها ما يتعلق بالسير والتراجم والمناقب والتصوف وكتب الرحلات والجغرافيا والمدونات النوازلية، يدرك أن الجانب الاجتماعي حاضر في مجتمع المغرب الإسلامي، فمعظمها أشارت ولو بصفة مقتضبة إلى أوضاع الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي ميزت زمن الفترة المدروسة، وقد اقتصرنا على ذكر أهم المصادر مراعيين مجالات الاستفادة منها ومن جملة هذه المصادر نذكر:

١–كتب النوازل والفتاوى:

لا يخفى على باحث التاريخ أن كتب النوازل والفتاوى تهتم بباب التشريع والإفتاء في مختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية، وبذلك فهي تعتبر من المصادر المهمة التي تساعدنا على تحليل الكثير من الشفرات المبهمة في المسائل المتعلقة بالأمور الفقهية ومنها نذكر:

-كتاب جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام: لمؤلفه أبو القاسم بن أحمد بن المعتل البلوي القيرواني، الشهير بالبرزلي (ت 844هـ/1440م)[3]، يعتبر هذا الكتاب من أهم المصنفات الفقهية في حقل النوزال، وتكمن أهميته بالنسبة لهذه الدراسة فيما يخص تقديمه لنا بعض الفتاوى الخاصة بالحياة الاجتماعية للفئات الفقيرة من ناحية المهن التي كانوا يزاولونها وما يتعرضون له من تحقير وتصغير، كما مدنا ببعض الفتاوى المتعلقة بالسرقة واللصوصية داخل المجتمع الحفصي.

-الدرر المكنونة في نوزال مازونة: لمؤلفه أبي زكريا يحي بن عيسى المغيلي المازوني (ت883هـ/1478م)[4]، جمع المازوني في موسوعته فتاواه باعتباره أحد القضاة، إضافة إلى فتاوى كثيرة من فقهاء المغرب الإسلامي، وتتضمن هذه المدونة العديد من الفتاوى الخاصة بالمغرب الأوسط، والتي أفادتنا كثيرا في الحديث عن أوضاع الفئات الضعيفة بتلمسان وبجاية زمن المجاعات والأوبئة التي اجتاحت المنطقة،كما زودنا بمادة وافية عن بعض التدابير الميدانية للفقهاء تجاه الفئات المخصوصة زمن المحن والشدائد.

-**المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**: لمؤلفه أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي (ت 914هـ/1508م)[5]، وتكمن أهمية هذه المدونة الفقهية بالنسبة لكل باحث له اهتمامات بالناحية الاقتصادية والاجتماعية للمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، في كون مؤلفها جاء متأخرا، وعمل على جمع فتاوى الفقهاء الذين سبقوه أو المعاصرين له.

هذه المدونة جاءت بنوازل استقاها صاحبها من عمق المجتمع، لما احتوته من مادة خصبة ثرية أفادتنا كثيرا، لاسيما تلك المتعلقة بحياة الفئات الدنيا من المجتمع وجهلها لأمور الدين والشرع فقد أمدنا الونشريسي بمادة خام حول جهل العامة، وبعض الفتاوى حول النفقة على الفقراء وتحبيس لهم بعض الأوقاف، وكذلك زودتنا هذه الموسوعة ببعض النوازل الخاصة بوجوب إعطاء الزكاة للفقراء

---

[3] -تقديم وتحقيق :محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي ،ط1، 2002.

[4] -تحقيق مختار حساني، ومراجعة : مالك كرشوش الزواوي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

[5] -أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981.

والمحتاجين، فضلا على أنه أطلعنا على بعض النوازل الخاصة بالظروف الصعبة التي تعترض طبقة العامة من المجتمع عند الإقدام على الزواج و كذلك أسباب الطلاق التي كانت ترجع أحيانا إلى ظروف الحاجة والخصاصة.

الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية: لمؤلفيه: محمد المواق (ت897هـ/1492م) ومحمد الرصاع (ت894هـ/1489م)، جاء هذا الكتاب إثر مراسلة من محمد المواق إلى الرصاع سنة (886هـ/1481م)[6]، خاصة ببعض الأسئلة حول الطاعون وأسبابه وأعراضه وبعض الأسئلة الأخرى حول مستجدات الجباية والريع العقاري، ويعتبر هذا الكتاب مصدرا مهما لنا في هذه الدراسة، رغم أن الأسئلة الواردة فيه خاصة بمجال الأندلس، إلا أن هذا لم يمنع مجال استفادتنا منه فالأجوبة التي رافقت تلك الأسئلة من الرصاع كان لها مكانا في دراستنا خاصة عند معالجتنا لمفهوم الوباء والفرق بينه وبين الطاعون.

ب/كتب المناقب:

-أنس الفقير وعز الحقير: لمؤلفه ابن قنفد أبي العباس أحمد الخطيب القسنطيني (810هـ/1408م)[7]، الذي خصه للترجمة للشيخ أبي مدين وأصحابه التابعين من أهل التصوف وابن القنفد أشار من خلال هذا الكتاب إلى ما شاهده من سير عن رجال التصوف، وكان مجال استفادتنا منه بالاطلاع على سير بعض التراجم ودورهم وتكافلهم تجاه الفئات الفقيرة من المجتمع، وما قدموه من مساعدات مادية ومعنوية.

-البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان: لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني المتوفى على الأرجح بعد (1616/1025م)[8] أي بعد انتهائه من تأليف الكتاب، وهذا الكتاب هو عبارة عن تراجم للعلماء والأولياء الذين عاشوا في بلاط الدولة

[6] -تحقيق ودراسة:محمد حسن، دار المدار الإسلامي ،ط1 ،2007.

[7] -نشر وتصحيح،: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.

[8] -تحقيق: عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر، 2011.



الزيانية، وكان لهم إسهامات كبيرة على مختلف النواحي منها الدور الاجتماعي، على أن ابن مريم يذكر لنا بعض الأدوار التي قام بها بعض العلماء والأولياء تجاه الفقراء والمساكين أيام الشدة والمجاعة، كما زودنا بمادة كبيرة عن أحوال العلماء أنفسهم وما اعترتهم من مشاكل جراء الفقر الذي عايشوه حتى لحق بهم الأمر إلى التخلي عن التعليم واحتراف مهنة لأجل تحصيل القوت.

ج/كتب الرحلات والجغرافيا:

تعتبر كتب الرحلات الجغرافية من أهم المصنفات المعتمد عليها في هذه الدراسة، رغم حديثها عن بعض الأوضاع الاجتماعية لأفراد المجتمع بطريقة عرضية، إلا أنها تخدم الموضوع ومنها:

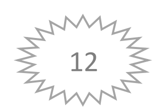
-**وصف إفريقيا**: لمؤلفه الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي(توفي بعد 957هـ/1559م)[9]، ويهتم هذا المصدر بوصف كل المدن الواقعة بإفريقيا، وكان هذا الكتاب من أهم المصادر التي أفادتنا كثيرا في هذه الدراسة، لأنه أشار إلى العديد من العناصر التي ارتكزت عليها الدراسة منها: مظاهر الفقر التي تفشى خطرها على الفرد والجماعة في كل من الطعام واللباس والمسكن، كما أحاطنا بمادة كبيرة خاصة بأنواع الأمراض التي كانت منتشرة خلال فترة البحث عند الأفارقة، ولمح أيضا عن التفاضل في نمط العيش بين السكان من خواص وعوام، فضلا عن ذكره لبعض المجاعات وما خلفته من نزيف ديمغرافي كبير.

– **الرحلة المغربية**: لمؤلفها العبدري محمد بن محمد الحاحي (7هـ/13م)[10]،لقد مر المؤلف في رحلته بالمغرب الأوسط فقدم لنا وصفا عن تلمسان وما حل بها من أثر للمجاعات التي نزلت بها، وأشار إلى موقف السلطة تجاه هذه الأزمات.

-كتب الطب والأغذية والأعشاب:

[9] -ترجمة : محمد حجي ومحمد الأخضر،ج1،ج2، ط2،دار الغرب الإسلامي، 1983.

[10] -تقديم سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2007.



-**تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد**: لمؤلفه ابن خاتمة المري الأنصاري (توفي بعد 770هـ-1369م)[11]، وجاء هذا الكتاب ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية بتحقيق محمد حسن وقد تطرق فيه صاحبه إلى الحديث عن الوباء ومصدره ومناطق انتشاره،كما عدد لنا الوفيات الناتجة عنه وقد أفادنا كثيرا في الكلام عن مختلف الأوبئة وأعراضها، وأعطانا مفهوم الطاعون الأسود وأثره على الفئات العامة من الناس.

-**مقنعة السائل عن المرض الهائل**: للمؤلف لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي(ت776-1374م)[12]، كذلك جاء هذا الكتاب ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية ، والذي خصه صاحبه للحديث كذلك عن وباء (749هـ/1348م)، الذي اكتسح العالم ككل، وهذا الكتاب أمدنا بمادة قيمة حول أسباب حدوث الوباء وأثره، وبَيَنَ لنا الناس الأكثر عرضة له، أما عن أهمية هذا الكتاب بالنسبة لدراستنا هذه، فقد أفادنا من ناحية توضيح خطر الوباء على الفئات الفقيرة المعدمة .

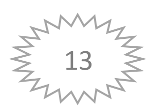
-**كتب التاريخ العام**:

-**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**: لعبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1406م) [13]، وهو كتاب شامل لتاريخ البشرية ككل، وإن كان يطغى عليه الجانب السياسي والعسكري، إلا أن ابن خلدون لم يغفل عن ذكر أزمات الجوع والوباء التي تجتاح الدول، والأهم من ذلك أنه المصدر الوحيد الذي فصل في ذكر المجاعة الواقعة بتلمسان زمن الحصار المرييني عليها سنة (698-707هـ/1298-1307م)، ويعتبر المصدر الأهم كذلك في هذه الدراسة لأنه جاء ببعض المعلومات حول تفاضل الفئات الفقيرة بين المغارب الثلاث.

[11] -تحقيق محمد حسن، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، ط1، قرطاج، 2013.

[12] -المصدر نفسه.

[13] -ضبط ووضع الحواشي: خليل شحادة ومراجعة:سهيل زكار، دار الفكر، 2000.



-الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: لمؤلفه ابن أبي زرع الفاسي (كان حيا سنة 729-1328م)[14]، وقد أهدى المؤلف هذا الكتاب إلى السلطان التاسع من ملوك بني مرين أبي سعيد عثمان الثاني بن يعقوب (710-731هـ/1309-1330م) ، وهذا المؤلف يذكر المجاعات والأوبئة التي حدثت بالمغرب ككل، والأهم من ذلك أنه ذكر بعض مظاهرها، كغلاء الأسعار وعدد الوفيات كمنعكس ديمغرافي ناتج عن هذه الأزمات، وأثرها على الفئات العامة من المجتمع، كما يذكر لنا جهود بعض السلاطين و مساعي بعض الفقهاء لأجل بث الأمن والاستقرار داخل المجتمع المريني.

-تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية: للزركشي وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي التونسي الذي استمر بقيد الحياة حتى عام(884هـ/1488م)[15] ، هذا المؤرخ الذي عاش الفترة الأخيرة من الحكم الحفصي، والذي استطاع أن يؤرخ لأخبار إفريقية والمغرب خلال الفترتين الموحدية والحفصية، ويعتبر هذا التأليف مصدرا مهما عن التاريخ الموحدي والحفصي، والكتاب يحمل أخبارا متنوعة بين السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية، بذكر تراجم بعض العلماء والحكام والصلحاء ،وتمثلت أهميته بالنسبة لدراستنا هذه، في تزويدنا بمادة مصدرية هامة حول نظام الحكم الحفصي، واطلاعنا عن بعض الجهود التي بذلها الخلفاء الموحدين تجاه رعيتهم، فضلا عن ذكره للكثير من المجاعات والأوبئة الحاصلة خلال الفترتين الموحدية والحفصية، كما قدم لنا معلومات في شأن أوضاع بعض الفئات العامة وثورتهم تجاه بعض الخلفاء الظالمين.

-**الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية:** لمؤلفه ابن الشماع أبو عبد الله محمد بن أحمد المتوفى حوالي سنة (873هـ/1459م)[16]، يعتبر هذا الكتاب مصدرا مهما في التعريف بتاريخ الحفصيين، حيث يقول" أما بعد؛ فإني أذكر في هذا التقييد نبذة كافية من أخبار السادات الموالي

[14] --صور للطباعة والوراقة، الرباط ، 1972.

[15] -تحقيق وتعليق :محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس ، ط2، 2002.

[16] - تحقيق الطاهر من محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984.



الحفصيين الخلفاء الموحدين ملوك إفريقية... ونبينها على وجه الإيجاز والاختصار"[17]، والكتاب يتضمن حدود كل من المغرب الإسلامي وإفريقية، والتعريف بمدينة تونس، كما تطرق إلى من ولي إفريقية من ملوك بني حفص، وذكر حد الحرابة وبعض أحكامها، وقيمة الكتاب تتجلى في كونه مؤلفه انفرد ببعض المعلومات التي لم يتكلم عنها بعض مؤرخي الفترة الحفصية، وذلك لكونه اشتغل في خطة القضاء، وتكمن أهميته بالنسبة لبحثنا هذا في كونه أمدنا بمادة لا يستهان بها عن أوضاع المجتمع الحفصي الاجتماعية وكذا مساعي بعض الفقهاء تجاه الفئات الضعيفة.

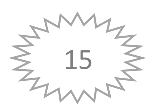
-**الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**: لمؤلفه ابن قنفد القسنطيني وهو أبو العباس أحمد بن حسين بن علي الشهير بابن الخطيب (ت809هـ/1406م)[18]، كان له الحظ في الاتصال الوثيق مع الأمراء الحفصيين، لأجل ذلك خصص هذا الكتاب لتاريخ الدولة الحفصية وقدمه للسلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز، يتضمن هذا الكتاب معلومات هامة عن الحكام الحفصيين، وما طرأ في البلاد من حروب وثورات، كما تطرق بين الحين والآخر عن علاقة الدولة الحفصية وجيرانها المرينيين والزيانيين و ما كان بينهم من خلافات سياسية، والكتاب يعتبر مصدر مهم في هذه الدراسة، وذلك للمادة المصدرية التي وافانا بها، فيما يخص كل من جهود ومساعي الخلفاء والفقهاء الحفصيين تجاه الرعية، لأجل بث الأمن والاستقرار ومواجهة خطر الفقر، كما تطرق إلى بعض الكوارث والآفات التي حلت ببلاد تونس الحفصية، فضلا عن ذكره لبعض التراجم خاصة بمناقب العلماء والأولياء.

-**المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن**: لابن مرزوق الخطيب، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني (ت781هـ/1380م)[19]، ألف ابن مرزوق هذا الكتاب بدافع الشكر والتقدير والامتنان لبني مرين، حيث خصه للكلام عن السلطان المريني أبي الحسن، وذكر فضائله وخصاله والثناء عليه في مزاياه الروحية وكذا سيرته مع رعيته وما قدمه لهم من خدمات

[17] – المصدر نفسه، ص27.

[18] – تحقيق وتقديم: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر،1968.

[19] – دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، 1981.



اجتماعية وثقافية ودينية، وتحدث عن الأمور السياسة للحكم خلال فترة أبي الحسن، فضلا عن الإشادة بإنجازاته العمرانية كالزوايا والمدارس، كما تطرق إلى الأوقاف التي حبسها على هذه المنشآت، وكان مجال استفادتنا منه كبيرا، خاصة ما له علاقة بجهود هذا الحاكم تجاه رعيته وسياسته الحكيمة والرزينة، وسيرته اللبقة مع الفقراء والمحتاجين.

وطبعا لا يخلو أي عمل من عراقيل وصعوبات، تمثلت أساسا في بعض الإشكالات المنهجية لعل أبرزها إشكالية المصطلحات لبعض الألفاظ: كالفقير والمسكين وأيهما المقصود في الكتابة التاريخية، ومصطلح العامة و تموقعه في المصادر التاريخية، فبعض الأحيان يقصد بالعامة الفئات غير المتعلمة وليست الفقيرة، وأحيانا أخرى العكس، أي أن ليس كل عامي فقير، وليس كل فقير عاميا فممكن أن يكون فقيرا ولكنه عالم، وممكن أن يكون عاميا وليس فقيرا، فهنا يجد الباحث نفسه ملزما بالبحث والتقري عن تموقع المصطلح والغاية من ذكره في المصدر، سواء بالمقارنة أحيانا بين النصوص، وأحيانا أخرى بالعودة إلى دراسة شخصية صاحب المصدر والظروف التي أحيط بها زمن كتابة مؤلَفه.

كما تجلت الصعوبات في هذه الدراسة عندما تُقَابَلُ النصوص الزهيدة التي تم جمعها بثراء النصوص لدى غيرها، فمثلا نجد النصوص عن أوضاع الفئات الفقيرة المستضعفة لدى الحفصيين قليلة مقارنة بالمرينيين والزيانيين، الأمر الذي جعل الباحث عاجزا أمام خلق توازن بين بعض العناصر في الفصول عن الأخرى، فهو إن روعي داخل بعض الفصول والعناصر، فإنه لم يُراعَ في بعضها الآخر وبالطبع ذلك راجع إلى طبيعة مادة كل عنصر.

وكان للتداخل الحاصل بين بعض العناصر في الفصول أن شكل صعوبة منهجية في توظيفها، ومثال ذلك أننا إذا ما تحدثنا عن المجاعات والأوبئة كسبب في تفشي وانتشار الفقر بتأثيرها الطبيعي وغير الطبيعي على الإنسان، نجدها تمثل أيضا أثرا من الآثار الناجمة عن ظاهرة الفقر. والحال نفسه ينطبق على ظاهرة التسول التي تعتبر مظهرا من مظاهر الفقر وأثرا ناجما عنه، فهي مظهر وأثر في نفس الوقت، أي أن الإنسان عندما يجوع سبيله الوحيد هو التسول.

وفضلا عن ذلك، كان لنقص المادة المصدرية المتخصصة التي تتناول حيثيات الموضوع بالمغرب الإسلامي، أمرا حائلا أمام دراسة جوانب كثيرة من الموضوع، وصعب علينا الإجابة على العديد من الإشكالات التي طرحت نفسها في لب الموضوع، ومثال ذلك تغييب ذكر بعض الحركات المناهضة، و رودود فعل الفئات الفقيرة ضد السلطة ونظامها الجائر، من دائرة الكتابة التاريخية خلال العصر الوسيط، وبالتالي انعدام النصوص ما عدا بعض النتف التاريخية المبعثرة بين متون المصادر لا تعدو أن تكون مجرد إشارات باهتة قدمت في صورة معادية لا يمكنها أن تعطي عرضا وافيا، سببا في عدم تمكننا من تناول هذه العناصر خلال زمن الدراسة بشيء من التفصيل.

كما كان لشساعة المجال المخصص لهذه الدراسة بفضاء جغرافي واسع كفضاء المغرب الإسلامي، الذي ظل مسرحا للأحداث التاريخية طيلة ثلاثة قرون من الزمن لم تثبت فيها الحدود ولم تستقر إلا فترات فقط، فضلا عن كونه موضوع دقيق ومتشعب في طرحه من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الجانب الفقهي، هذا ما أوجد لنا صعوبة في التحكم والإلمام بكل حيثيات البحث.

المدخل: مفهوم الفقر ونظرة الإسلام له

أولا: مفاهيم واصطلاحات.

1: الفقر بين المفهوم اللغوي والشرعي.

2: مفاهيم أخرى للفقر

3:إشكالية المصطلحات.

ثانيا: آراء بعض النظريات في الفقر.

1: الجذور التاريخية للفقر في الفكر الاقتصادي.

2: تفسير بعض النظريات للفقر.

ثالثا: معايير قياس الفقر وأنواعه.

1: خطوط الفقر ومؤشرات قياسه

2: إشكالية قياس الفقر

3: أنواع الفقر

أولا: مفاهيم و اصطلاحات:

لا شك أن ظاهرة الفقر واحدة من أهم وأقدم المعضلات المثيرة للكثير من الحروب والأزمات والتي شهدتها المجتمعات وأقرتها النظريات الاقتصادية والاجتماعية، وأنها من بين الآفات الخطيرة التي ظلت تفتك بالحشود من البشر وتهدد الإنسان وتنذره بشر أكيد. ومازال أمرها يتفاقم فلا يكاد يخلو منها أي مجتمع مع التفاوت في حجمها والتي تشكل الآن بالنسبة للأمم والدول، القنبلة الموقوتة. فظاهرة الفقر هي معضلة أزلية تتصل خيوطها ببني آدم على تعاقب الأزمنة واختلاف الأمكنة.

إن أول الأمور التي تعترضنا عند الحديث عن ظاهرة الفقر هو غياب تعريف محدد ودقيق لمفهومه، فإلقاء نظرة على التعريفات التي نشرت أو تنشر حول هذه الظاهرة الاجتماعية والاقتصادية يفيد أن لا علماء الاجتماع ولا الاقتصاد أنجزوا تعريفا محددًا ودقيقًا لهذه الظاهرة، وقد يرجع ذلك إلى أن الفقر هو مفهوم نسبي يأخذ هذه الصفة من اختلاف وتباين الأطر الاجتماعية والزمنية، وأدوات القياس والخلفية السياسية لهذه الظاهرة، في حين المعاجم اللغوية وكتب التفسير والحديث أوضحت مفهوم هذه الظاهرة ومدلولها اللغوي والشرعي فهل تمكن العلماء اللغويون والفقهاء من تحديد مفهوم لظاهرة الفقر؟.

1: الفقر بين المفهوم اللغوي والشرعي:

ا: الفقر لغة:

إن أي مصطلح يعبر عن ظاهرة تاريخية ما، إلا وله مرادفات في اللغة وتأويلات عديدة ينبغي الإلمام بها، حتى يبسط علينا فهمها وتتبع مسارها تاريخيا واقتصاديا وسياسيا، وعليه فللفقر مجموعة من التعاريف اللغوية، التي يتم فيها وصف الفقر والفقراء في لغة العرب وحالاتهم المعيشية.

الفَقْر والفُقْر في اللغة ضد الغنى مثل الضَّعْفِ والضُّعْف[1]، والفُقْرُ لغة رديئة ؛ قال ابن سيده : وقدر ذلك أن يكون له ما يكفي عياله، ورجل فقير من المال، وقد فَقُرَ، فهو فَقِير[2]، والفَقِير على وزن فَعِيل بمعنى فاعل ويقال فَقِير، وتجمع على فُقَرَاءُ،"يقال فَقُرَ يَفْقَرَ"إذا قل ماله، ويقال في المؤنث فَقِيرَةٌ وجمعها فُقَرَاءُ[3].

وقد ورد بمعنى الحاجة والعوز والفَاقَةُ والهم والحرص يقال فلان محتاج أي قليل الزاد والمال والمتاع[4]، الفَقْرَ: الحاجة: يقال شكا إليه فُقُورِه: حاجته، أخبره فُقُورِه: أحواله[5].

فَالفَقْرَ هو عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا[6] فهو الحاجة ومصدره الافْتِقَارُ والنعت فَقِيرٌ: المحتاج[7]، قال سيبويه: وقالوا: افْتَقَرَ كما قالوا اشْتَدَّ، ولم يقولوا: فَقُرَ كما لم يقولوا شَدُدَ، ولا يستعمل بغير زيادة[8]. قال ابن عرفة، الفَقِيرُ، عند العرب ،المحتاج. لقوله تعالى:« **يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلىَ اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**»[9].أي المحتاجون إليه[10]، يقال عال الرجل عياله إذا افْتَقَرَ وأَخَلَّ وأَعْوَزَ وأَمْعَرَّ الرجل إذا ذهب ما في يديه نفق ماله[11]، كما قيل فَقِرَ يَفْقَر من باب تعب إذا قلَّ مَالُه وزاده. قال ابن السراج ولم يقولوا فَقُرَ أي

---

[1] – ابن منظور أبي الفضل الإفريقي المصري، لسان العرب، مج 05، دار صادر، بيروت، دت، ص60.

[2] –المصدر نفسه، ص 60.

[3] – عبد السلام حمدان اللوح و محمود هاشم عنبر: "**علاج مشكلة الفقر**"، **مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية)**، مج 17، ع/1، 2009، ص317.

[4] –عبد السلام الخرشي، فقه الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة، أطروحة دكتوراه في القرآن والحديث، منشورة، دار المؤيد، ط2، 2002 ، ص19.

[5] –صالح العلي صالح وأمينة الشيخ سليمان الأحمد، المعجم الصافي في اللغة العربية، الرياض،1401هـ، ص500.

[6] – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، قسم الفقر والزهد، ج2، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2004، ص1473.

[7] –عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص19.

[8] –أبو الحسن المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي ،ج6، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، ص378.

[9]– سورة فاطر، الآية 15.

[10] –ابن منظور، مج5، ص 61.

[11] –عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص19.

بالضم استغنوا عنه بافتقر والفَقْر بالفتح والضم لغة اسم منه[1]،كما قال المسوحي: الفَقِير الذي لا تغنيه النعم ولا تفقره المحن[2]، وقد ورد مصطلح الفَقْر في المعاجم اللغوية بعدة معاني:

1: الفقر: انكسار الظهر.

إذا بحثنا في اشتقاق لفظة الفَقْرَ في مختلف المعاجم العربية اللغوية تبين لنا أن لفظة الفقر توحي من خلال حروفها الثلاثة (الفاء، القاف، الراء) إلى وجود انفراج في فِقَارِ الظهر لقول ابن العربي"ورجل مَفْقُور وفَقِير، مكسور الفَقَار"[3]. وحسب قول لبيد في وصفه لُبَدًا وهو السابع من نسور لقمان ابن عاد:

لَمَّا رَأَى لُبَدُ النَّسُورَ تَطَايَرَتْ ***** رَفَعَ القَوَادِمُ كَالفَقِيرِ الأَعْزَلِ[4].

والأعزل من الخيل حسب ابن منظور: المائل الذنب.وقيل: الفَقِير المكسور الفَقَار؛ يضرب مثلا لكل ضعيفٍ لا يَنفُذ في الأمور[5].

والفَاقِرَةُ: الداهية الكاسرة للفَقَارِ وجمعها فَوَاقِر، يقال فَقَرَتْهُ الفَاقِرَةُ أي كسرت فِقَارَ ظهره[6]، والفَقَارَةُ: بالفتح هي واحدة من عظام السلسلة العظيمة الظهرية الممتدة من الرأس إلى العصعص[7] أي من الكاهل إلى العجب[8]، والجمع فِقَر وفَقَارُ وقيل في الجمع: فِقْرات وفِقَرات وفِقِرات.قال ابن

[1]- أحمد بن محمد الفيومي المقرئ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان، 1987، ص182.

[2]- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب عوارف المعارف،ج2، ص2139.

[3]- أبو الحسن المرسي، مرجع سابق، ج6، ص379.

[4] - ابن منظور، مج5، ص62.

[5] - المصدر نفسه، ص62.

[6]- محمد عبد اللطيف السبكي ومحمد محي الدين عبد الحميد، المختار من صحاح اللغة، مطبعة الاستقامة، دت، ص400.

[7]- العصعص: يعرف في الطب بعظم صغير في نهاية العمود الفقري في الإنسان ويتكون من التحام ثلاث فقرات أو أربع./ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص697.

[8]- ابن منظور، مج5، ص62/ ينظر: المعجم الوسيط، ص697.

الأعرابي: أَقَلُ فِقَر البعير ثماني عشرة وأكثرها إحدى وعشرون إلى ثلاث وعشرين، وفَقَار الإنسان سبع[1].

والفَقِير في كلام العرب الَمَفْقُور الذي نزعت فِقَره من ظهره فانقطع صلبه من شدة الفَقْر فأصبح كبير الفَقَار[2]، ويقال أصابته فاَقِرة وهي التي فَقَرَتْ فَقَارِه أي خرز ظهره[3].

ويقال أن أكثر ما يستعمل في ضعف النفس الفَقْر أما الفَقِير يستعمل في ضعف الحال فمن اشتدت به الحاجة أذله الفَقْرَ وأقعده وانكسرت فَقَارِه، فانكسرت نفسه وامتهنت كرامته[4].

فالجدير بالقول أن من منعته هذه المعضلة من الحركة والتنقل إلى كسب قوت العيش، وأصبح صاحب عاهة مستديمة يقال له رجل فَقِرٌ لأنه أصبح يشكوا من ألم في عموده الفقري لقول طرفة:

وَإِذَا تَلْسُنُنِي أَلْسُنُهَا ***** إِنَني لَسْتُ بَمَوْهُونٍ فَقِرْ[5].

2: الفقر: بمعنى الضعف والذل والهوان.

حينما تشتد الحاجة بالإنسان يعصف الهم والحزن بالنفس، فتذل وتهان. وفقور النفس و شقورها: همها، ويقال: "ومع ضنك العيش وجدبه تنكسر النفس، وينكسر الظهر من شدة الذل والسؤال والهوان [6]، وجاء في قول أبي تمام:

ذُلُّ السؤالِ شجاَ في الحَلْقِ مُعترِضُ ***** من فَوقِه شَرَقُ من تَحْتِه جَرَضُ [7]

[1] – ابن منظور، ج5، ص 61.

[2]– عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص21.

[3]– ابن منظور، ج5، ص62.

[4] - عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص21.

[5] – ابن منظور، ج5، ص 62/ ينظر: عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص21.

[6] –المرجع نفسه، ص20.

[7] – الثعالبي النيسابوري إسماعيل، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003، ص540.

وقيل أيضا :

يَقُولُ النَاسُ كَسْبُ فيه عَارُ ***** فَقُلْتُ العَارُ فِي ذُلُ السُؤَالِ[1]

كما قال ابن أبي سرح:

صَحِبْتُكُمْ حَوْلَيْن في حَالِ عِزَةٍ ***** أُرْجِي نَدَاكُمْ وَالجُنُونُ فُنُونُ

فَمَا نِلْتُ منكم طَائِلاً غَيرَ أَنَنِي ***** تَعَلَمْتُ ذُلَ الفَقْرِ كَيفَ يَكُونُ[2]

فالفَقْر يذل الإنسان ويقيده ويذهب بأنفته، وعزته وقد قيل إن اشتقاق الفَقِير من فَقَرَات البعير، وجاء في المحكم الأعظم: قال أبو زيد: "الفَقْر إنما يكون للبعير الضعيف" قال: وهي ثلاث فِقَر، ومنه قول عائشة رضي الله عنها "إسْتَعْتَبتموه ثم عَدوتُمْ عليه الفُقَر الثلاث": قال أبو زيد: وهذا مثل يقول: "فعلتم به كفعلكم بهذا البعير الذي لم تبقوا فيه غاية"[3]. والفَقَار: ما وقع على أنف البعير الفقير من الجرير، قال:

يَتُوقُ إلى النَّجاء بِفَضْلِ غَرْبٍ ***** وَتَقْذَعُه الخِشَاشَةُ وَالفَقَارُ[4].

ونقول الفقر: أن يُحَزَ أنف البعير.وفَقَر أنف البعير يَفْقِرُه وَيَفْقُره فَقْراً، فهو مَفْقُورُ، وَفَقِيرُ إذا حزه بحديدة حتى يخلص إلى العظم أو قريب منه ثم لوى عليه جريرا (حبلا) وذلك لأجل أن يذلل الصعب ويروضه بعد صعوبته[5].

3: الفقر: بمعنى السقوط والهاوية.

[1]- إسماعيل الثعالبي النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص 540.

[2]- المصدر نفسه، ص540.

[3]- أبو الحسن المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، مصدر سابق ،ج6، ص381.

[4] – المصدر نفسه، ج6، ص 381.

[5] – ابن منظور، ج5، ص64./ ينظر: أبو الحسن المرسي، ج6، ص380.

جاء لفظ الفُقْرَةُ بمعنى الحُفْرة في الأرض التي تغرس فيها الفَسِيلَةُ[1]، والفَقِيرُ: تعني أيضا البئر التي تغرس فيها الفسيلة ثم يكبس حولها بترنوق المسيل، وهو الطين[2].

إذن يمكن أن نقول فَقَرَ الأرض بمعنى حفرها [3] وقيل الفقير: مخرج الماء من القناة التي تجري تحت الأرض، وجاء في اللسان عن حديث عبد الله بن أنس رضي الله عنه"ثم جمعنا المفاتيح فتركناها في فَقِيرٍ من فُقُر خيبر أي في أحد أبارها"[4]، قال الأصمعي: الودية إذا غرست حفر لها بئر فغرست، ثم كبس حولها بئر فوق المسيل والدمن فتلك البئر هي الفَقِيرُ، أما الجوهري: فقال: الفَقِيرُ حفير يحفر حول الفسيلة إذا غرست، وفَقِيرُ النخلة: حفيرة تحفر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها. وفي الحديث: قال لسلمان: أذهب فَفَقِر الفسيل أي أَحْفِرْ لها موضعا تغرس فيه، واسم تلك الحفرة فُقْرَةُ وفَقِيرُ،[5]والفَقِير: الآبار المجتمعة الثلاث فما زادت[6]، وما جاء في لسان العرب أن سيف النبي عليه الصلاة والسلام سمي با: ذا الفَقَار لأنه كانت فيه حفر صغار حسان واستعاره بعض الشعراء للرمح، فقالوا:

فَمَا ذُو فَقَارٍ لاَ ضُلوُعَ لِجَوْفِهِ ****** لَهُ آخِرُ من غيره وَمُقَدَّمُ ؟

عني بالآخر والمقدَّم في البيت الشعري بالزُّجَّ والسِّنانَ[7]، ومن خلال التفسير اللغوي المسبق يفهم أن الفَقِير هي آبار تحفر ويمر بعضها إلى بعض وجمعه فُقَرٌ، ، إذن فمن عظمت حاجته ذل وأنكسر، وتراه كأنما هوى وسقط في بئر عميقة يصعب الخروج منها من هول ما لحق به، فكأنما الفَقِير المحتاج قد دفن في قبر لعمقه وشِّدة الظلام به، وذلك للزمانة التي حلت به.

[1] – المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص297/ ينظر: المعجم الصافي، مرجع سابق، ص500.
[2] –ابن منظور، مرجع سابق، ج6، ص 63.
[3] – عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص22/ ينظر: المعجم الصافي، مرجع سابق، ص500.
[4] –ابن منظور، ج5، ص 63.
[5] – نفسه، ج5، ص63.
[6] – أبو الحسن المرسي، مصدر سابق، ج6، ص380.
[7] – المصدر نفسه، ج5، ص63.

4: **الفقر: بمعنى الالتصاق بالتراب.**

عندما يصاب الإنسان بكسر في الظهر فيؤدي ذلك إلى عجز في المشي والحركة فيصبح ذلك الإنسان طريح الفراش أي لصيق بالتراب، قال ابن العربي "فإن لم يبق له شيء قيل أعدم و أملق فإذا ذل في فَقْره حتى لصق بالدقعاء[1] وهي التراب، والتصاق الإنسان بالتراب يعني السكون إلى الأرض.

5: **الفقر: بمعنى الموت.**

جاء في قول ابن السكيت: "أَسَافَ يُسِيفُ إِسَافَةً. وَالسُّوَافُ اَلْمَوْتُ"[2]، ولأن الفَقِير مأخوذ من فَقَار الظهر إذا انكسرت وذلك شأن الموت.

ب: الفقر في الاصطلاح:

اختلفت وجهات نظر الفقهاء والعلماء من أهل الحديث والتفسير واللغة في معنى الفقر شرعا وحَدُه أو حَدْ الحاجة التي يسمى الإنسان معها فَقِيرًا، وذلك انطلاقا لما ورد في شأنه من شواهد لغوية وآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة.

1: **الفقر في القرآن:**

لاشك أن تعريف الفقر شرعا عند علماء المسلمين يتوقف على آرائهم في موضوع الصدقات وتوزيعها على مستحقيها بدليل قوله تعالى: «**إِنمَّاَ الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ**

---

[1] –قال ابن السكيت في باب الفقر والجدب"ومنهم الفقير المقنع وهو الذي يتكرم عن شيء أخذه وإن قل .وأدفع فلان إلى فلان في الشتيمة في أي فعل ما كان. و أدقع له، قال الأصمعي المدقع الذي لصق بالدقعاء وهي التراب /ينظر: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت، مختصر تهذيب الألفاظ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1897، ص11.

[2]- المصدر نفسه، ص11.

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ عليها وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[1].

ووردت كلمة الفقر في عدة آيات من القرآن الكريم، بعض منها حثت على البر والإحسان للفقراء، وتبين أنهم أولى الناس بالصدقات كما في قوله تعالى: «**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**»[2] وقوله تعالى: «**فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ**»[3]، وبعض الآيات حذرت من سلوك طريق الشيطان وإتباعه حيث يعد إتباعه بالفقر ويأمرهم بالفحشاء كقوله عز وجل: «**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ**»[4]كما وردت كلمة الفقر في مواضع أخرى:

1-كقوله تعالى:« **يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**»[5].

2-وقوله عز وجل: « **فَقَالَ رَبِّ إِنِي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**»[6].

3- قوله تعالى: « **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا...**» [7].

4-قوله عز وجل أيضا: «**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ...**» [8].

---

[1] - سورة التوبة، الآية 60.
[2] -سورة البقرة، الآية 271.
[3]- سورة الحج، الآية 28.
[4] -سورة البقرة، الآية 268.
[5] -سورة فاطر، الآية 15.
[6] -سورة القصص، الآية 24.
[7] -سورة البقرة، الآية 273.
[8] -سورة آل عمران، الآية 181.

5-وقوله في موضع آخر « **وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**»[1].

6- قوله سبحانه وتعالى:« **إِن يَكُنْ غَنِيًا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا** »[2].

7- قوله تعالى:« **وَأَنْكِحُواْ الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**»[3].

8- قوله عز وجل:« **ومَّن يَبْخَلْ فَإِنمَّاَ يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ**»[4].

9-قوله تعالى: «**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وِأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِن اللَّهِ وَرِضْوَانًا**»[5]. واختلفت آراء الفقهاء في بيان حد الفقر وعليه سنعرض بعض آرائهم:

2: الفقر في رأي الفقهاء:

ا: رأي المالكية:

يرى المالكية أن الفقير هو الذي يملك الشيء اليسير الذي لا يكفيه لمعيشته[6]، ويقول أبو القاسم أحمد بن محمد بن جزي الغرناطي (741هـ/1443م): فأما الفقراء فهم الذين لا يملكون ما يكفيهم[7].

ب: رأي الشافعية:

---

[1] -سورة النساء، الآية 6.

[2] -سورة النساء، الآية 135.

[3] -سورة النور، الآية 32.

[4] -سورة محمد، الآية 38.

[5] -سورة الحشر، الآية 8.

[6] -شهاب الدين القرافي، الذخيرة، تح: محمد بوخبزة، دار الغرب الإسلامي، ج3، بيروت، ط1، 1994، ص143.

[7] - عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص62.

قال الشافعي: الفَقِيرَ – والله أعلم – من لا مال له، ولا حرفة تقع منه موقعا، زمنا كان أو غير زمن، سائلا كان أو متعففا، أي هو الذي لا يقدر على ما يقع موقعا من كفايته بمال ولا بكسب. وشرحه أصحاب الشافعي بقولهم من لا مال له ولا كسب أصلا، أو له ما لا يقع موقعا من كفايته، فإن لم يملك إلا شيئا يسيرا بالنسبة إلى حاجته بأن كان يحتاج كل يوم إلى عشرة دراهم وهو يملك درهمين أو ثلاثة كل يوم فهو فقير؛ لأن هذا القدر لا يقع موقعا من الكفاية وقال أيضا: قال أصحابنا والمعتبر في قولنا:"يقع موقعا من كفايته" المطعم والملبس والمسكن وسائر ما لابد منه على ما يليق بحاله بغير إسراف ولا إقتار لنفس الشخص ولمن هو في نفقته[1].

ج: رأي الحنفية:

ورد عند علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكساني الحنفي قال الحسن: الفقير الذي لا يسأل، وقيل الفقير الذي يملك شيئا بقُوتِه، وقالوا الفقير من له أدنى شيء أي دون نصاب، أو قدر نصاب غير نام مستغرق في الحاجة [2]، فالفَقِيرَ عند الحنفية هو من يملك أقل من نصاب الزكاة أو قدر النصاب ولكنه مال ثابت لا يستثمر أو ينمو وهو مع ذلك معد لضروريات الإنسان وما لابد له منه أي أنه ليس فائضا عن الضروريات.

وإذا كان نصاب الزكاة عند الحنفية مائتي درهم من الفضة أو عشرين مثقالا من الذهب[3]، وإذا كان الدرهم عند الحنفية يساوي وزنا 3.125 غرامات[4]، فإذا ضربنا هذا القدر في مائتين فإنه يساوي 625غراما من الفضة. وإذا كان المثقال من الذهب يساوي وزنا 4.25 غرامات[5] فإذا ضربنا هذا القدر في عشرين فإنه يساوي 85 غراما من الذهب، وعلى ذلك فالفقير عند الحنفية

---

[1] – النووي أبي زكريا يحي، المجموع شرح المهذب للشيرازي، ج6، تح: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الرشاد، جدة، دت، صص169-170.

[2]– ابن عابدين محمد أمين بن عمر الدمشقي الحنفي، الدر المختار، ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2 ،1987، ص85.

[3]– شمس الدين السرخسي، المبسوط، ج2، دار المعرفة، بيروت، ط2، دت، ص191.

[4] – علي جمعة محمد، المكاييل والموازين الشرعية، القدس للإعلان والنشر، القاهرة، ط2، 2001، ص19.

[5] – المرجع نفسه، ص19.

هو من يملك أقل من 625 غراما من الذهب أو أقل من قيمة كل منهما، أو يملكهما ولكنهما لا يفيضان عن حاجاته الضرورية.

د: رأي الحنابلة:

يقول أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقديسي: الفقير: وهو الذي لا يجد ما يقع موقعا من كفايته، ولا له من الأجرة أو من المال الدائم ما يقع موقعا من كفايته ولا له خمسون درهما ولا قيمتها من الذهب؛ مثل الزمنى و المكافيف وهم العميان. لأن هؤلاء –في الغالب – لا يقدرون على اكتساب ما يقع موقعا من كفايتهم، وربما لا يقدرون على شيء أصلا، قال الله تعالى: «**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**... »[1] فمعنى قوله: يقع موقعا من كفايته: أنه يحصل به معظم الكفاية أو نصفها، مثل من يكفيه عشرة فيحصل له من مسكنه أو غيره خمسة فما زاد، والذي لا يجد إلا ما لا يقع موقعا من كفايته؛ كالذي لا يحصل إلا ثلاثة أو دونها فهذا هو الفقير[2].

2: مفاهيم أخرى للفقر:

الفقر من المفاهيم المجردة النسبية فهو مفهوم يعبر عن ظاهرة اجتماعية واقتصادية شديدة التعقيد والتشابك، وتختلف باختلاف المجتمعات والفترات التاريخية، والخلفيات الفكرية للباحثين والمفكرين وغيرها من أسباب الاختلاف. ولكن من المؤكد أن مفهوم الفقر شهد تطورا وتحولا نوعيا، فهناك مفاهيم أخرى حديثة وعصرية له، إلا أنها إذا ما اختلفت فيما بينها، لا يعني أنها متناقضة، وإنما يُكمل بعضها البعض، ومن بين هذه التعاريف نذكر:

ا: الفقر من منظور اقتصادي:

[1] – سورة البقرة، الآية 273.

[2] – عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص 26.

الفقر عند علماء الاقتصاد يعني عدم القدرة في الحصول على الاحتياجات الضرورية لعدم توفر الملكية التي يمكن الاستعانة بها في عملية الإنتاج نتيجة قلة الدخل أو انعدامه بصورة شبه دائمة أو أنه مستوى من إجمالي الكسب أو الدخل الذي لا يكفي للحصول على الضروريات اللازمة، وهو العجز عن إشباع الحاجة الأساسية أو الضرورية سواء ذلك بالنسبة للأفراد أو الشعوب[1]، ويعني ذلك أن الفقير لا يجد طعامه أو ملبسه أو مسكنه بشكل كاف لاحتياجاته.

يقول الدكتور حمدي عبد العظيم" الفَقْر معناه أن الفرد لا يمتلك شيئا أما الشعوب الفقيرة هي التي يكون أغلبية مواطنيها من المعدمين وذلك تمييزا لهم عن أولئك الأغنياء الذين يمتلكون معظم وسائل الإنتاج"كما يقول أن هذا التعريف يرتبط بالفكر السائد إبان النظام الإقطاعي حينما كان المجتمع ينقسم إلى ملاك ومعدومين، فالملاك يملكون المال والنقود، والفقراء لا يملكون شيئا، وينظر إلى الملكية المصدر الوحيد للدخل، ومن ثم فإن الذي لا يمتلك شيئا لا يتوفر له دخلا يعيش عليه[2]، فيعرف الفقر "على أنه عدم القدرة على الحصول على الاحتياجات الضرورية نتيجة عدم توفر الملكية التي يمكن الاستعانة بها في عملية الإنتاج والحصول على عائد، و نتيجة قلة الدخل أو انعدامه بصورة شبه دائمة"[3]، ويعرفه عالم اقتصادي آخر"الفقر أن يصبح الإنسان محتاجا أو ليس له ما يكفيه"[4].

أما تعريف البنك الدولي للتنمية لمفهوم الفقر فهو"عدم القدرة على تحقيق الحد الأدنى من مستوى المعيشية"[5].

---

[1] – محمد حركات، الاقتصاد السياسي وجدلية الثروة والفقر، مطبعة المعارف الجديدة، المغرب، ط2، 2002، ص223.

[2] –عبد العظيم حمدي، فقر الشعوب بين الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1995، ص10.

[3] – المرجع نفسه، ص15.

[4]– محي محمد مسعد، نظام الزكاة بين النص والتطبيق، مكتبة الإشعاع الفنية، الإسكندرية، 1998، ص141.

[5] –محمد عبد الحليم عمر، موقف الإسلام من الفقر والفقراء، ضمن أبحاث ندوة الفقر والفقراء في نظر الإسلام، مركز صالح كامل بجامعة الأزهر، القاهرة، 1999، ص9.

في حين عرفته منظمة الأمم المتحدة على أنه" عجز الأفراد أو الأسر الموجودة في المجتمع عجزا تاما عن توفير الحد الأدنى من الموارد أو القدرة على تحقيق أقل قدر من الإشباع للحاجات الأساسية أو الضروريات التي تمكنهم من البقاء على قيد الحياة، ومزاولة أعمالهم، وقد تم استنتاج الفقر على أنه قصور القدرة الإنسانية"[1].

إذن ووفقا لمنظور الأمم المتحدة يتجاوز مفهوم الفقر الحرمان المادي ليعكس عدة أبعاد منها: البعد الاقتصادي الذي يتمثل في عدم قدرة الفرد على كسب المال، والاستهلاك، والتملك، والوصول إلى الغذاء، والبعد الإنساني الذي يتجلى في عدم تمكن الفرد من الحصول على الصحة، التربية، التغذية، المسكن، بالإضافة إلى البعد السياسي الذي يتمثل في غياب حقوق الإنسان، والمشاركة السياسية، وهدر الحريات الأساسية والإنسانية[2].

وبالمثل عرفته منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية بأنه"عزل فئات معينة من المجتمع ويتم النظر إليها بوصفها محتاجة أو فقيرة أو محرومة وتضم هذه الفئات المسنين، العاطلين، الأيتام والجماعات ذات الدخل الضعيف"[3].

ويصنف بعض العلماء الفقر ضمن المشكلات الاقتصادية، لأن الفقر يعني عجز الموارد المالية للفرد أو للمجتمع عن الوفاء بحاجاته الاقتصادية[4]، وصار الفقر مدار اهتمام الكثير من الاقتصاديين، فمنهم من ذهب إلى حد القول بأن الخروج من الفقر هو الاقتصاد الذي يعتد به

---

[1]- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير اجتماع الخبراء عن القضاء على ظاهرة الفقر، وتوفير سبل العيش المستدام في الدول العربية، المجلد1، 1996، ص13.

[2] – سهيل يخلف، تقنيات قياس وتحليل الفقر في الجزائر، رسالة ماجستير في الديمغرافيا، جامعة باتنة، 2008، ص26.

[3] –سالم توفيق النجفي، أحمد فتحي عبد المجيد، السياسات الاقتصادية الكلية والفقر مع إشارة خاصة بالوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 42.

[4] – يوسف القرضاوي، دور الزكاة في معالجة المشاكل الاقتصادية، قراءات في الاقتصاد الإسلامي، مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي، كلية الاقتصاد والإدارة، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، 1987، ط1، ص148.

حقا إذ قال العالم تيودور شولتز"أن معظم الناس في العالم فقراء، فإذا عرفنا اقتصاد حالة الفقر فسنعرف الكثير عن الاقتصاد الهام حقا"[1].

كما يراد بمفهوم الفقر من منظور الدخل ذلك المستوى من الدخل، أو الإنفاق المطلوب للوصول إلى الحد الأدنى لمستوى الحياة المعيشية، أو الحد الأدنى للعيش أو البقاء[2]، ويمثل هذا الفقر حالة أو مستوى من الرفاهية تقاس عادة بالدخل، أو باستخدام الإنفاق الاستهلاكي الذي يترجم بقيمة نقدية، وللتفرقة بين الفقراء وغير الفقراء وفق هذا المفهوم يتم تحديد عتبة نقدية تسمى"خط الفقر"[3].

ب: الفقر من منظور اجتماعي:

ورد تعريف الفقر في أحد قواميس علم الاجتماع على أنه مستوى معيشي منخفض بالاحتياجات الصحية والمعنوية المتصلة بالاحترام الذاتي للفرد أو مجموعة من الأفراد[4]، وينظر لهذا المصطلح نظرة نسبية بفعل ارتباطه بمستوى المعيشة العام في المجتمع وبتوزيع الثروة ونسق المكانة والتوقعات الاجتماعية[5]، ومن المفاهيم الاجتماعية أيضا هو حالة من العيش أو الحياة حول أو أقل من الاحتياجات المادية، ويمكن قياسها عن طريق الدخل، والنقص في المتطلبات الأساسية، ومن المفاهيم الاجتماعية اعتبار الأفراد والأسر فقراء عندما يفتقرون إلى الموارد اللازمة للحصول على

---

[1] -محمد شابرا، الإسلام والتحدي الاقتصادي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي والمعهد العربي للدراسات المالية والمصرفية، عمان، ترجمة :محمد الزهير السمهوري، مراجعة محمد أنس الزرقاء، ط1، 1996، ص223.

[2] - بدر صالح عبيدة محمد، النموذج القياسي للفقر في الجمهورية اليمنية، مجلة بحوث اقتصادية عربية، العدد:17، القاهرة، 1996، ص 53.

[3] -فاطمة الزهراء لمودة، إستراتجية التنمية البشرية في معالجة الفقر،-دراسة حالة الجزائر-رسالة ماجستير في العلوم الاقتصادية، جامعة الجزائر، 2012، ص3.

[4]- عاطف غيث محمود، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997، ص342/ علي عزت بيجو فيتش، الإسلام في الشرق والغرب، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران، ط1، 1994، ص 296.

[5] - المرجع نفسه، ص342.

الغذاء، ويعجزون عن المشاركة في الأنشطة المجتمعية، وليس لهم القدرة على العيش، أي أن مواردهم المعيشية أقل بكثير مما يحصل عليه الفرد العادي[1].

والفقر ظاهرة متعددة الأبعاد تبرز في المجتمعات على مستويات مختلفة وفي صور أشكال متباينة تعكس وضعية البناء الاجتماعي وهناك في نظر علماء الاجتماع ثلاث معاني للفقر[2] وهي:

1-الفقر الاجتماعي:

يعتمد تحليل وفهم الفقر كظاهرة اجتماعية على تحليل كيفي لظاهرتين أساسيتين أولهما عملية التعاون في توزيع الدخل وإعادة توزيعه على الفئات الاجتماعية، وثانيهما قضية التعاون الطبقي والتمايز المعيشي، وتشير الظاهرة الأولى إلى تباين واضح بين العلماء في رؤية وتحليل الفقر وتحديد العوامل المساهمة في انتشاره وبينما ترى فئة أخرى من العلماء ضرورة التركيز على المفهوم النسبي للفقراء في إطار السياسات الاقتصادية للدولة[3].

كما يمكن تعريفه بأنه لا يعني عدم المساواة الاقتصادية الناتجة عن نقص الدخل والممتلكات وانخفاض مستوى المعيشة، وإنما يشمل أيضا عدم المساواة الاجتماعية والشعور بالنقص و الاستغلال وهنا الفقر يكون نسبيا لا يقاس بمستوى معين من الدخل أو حجم الملكية[4].

2-الفقر: العوز والحاجة

---

[1]- عبد العزيز الغريب، الفقر في السعودية، قراءة في التدابير المتخذة، مجلة المستقبل العربي، العدد:311، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ص45.

[2]- بلقاسم سلاطنية، سامية حميدي، العنف والفقر في المجتمع الجزائري، دار الفجر للنشر والتوزيع، الجزائر، دت، ص81.

[3]- باتر محمد علي وردم، العولمة ومستقبل الأرض، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2003، ص88.

[4]- عبد الرحمن محمد العيسوي، تحليل ظاهرة الفقر –دراسة في علم النفس الاجتماعي – منشورات الجلي الحقوقية، ط1، بيروت، 2009، ص216.

هذا المصطلح يشير إلى فئة من الأفراد غير قادرين على تأكيد وجودهم على المستوى التقليدي العادي الذي يعتبر أدنى مستوى دون أي مساعدات خارجية كما يحدد نموذجا للعلاقات الاجتماعية التي تشير إلى من هم المحتاجين والمعوزين الذين يتسولون[1].

3-الفقر الأخلاقي:

الجدير بالإشارة هنا أن الفقر لا ينحصر معناه فقط كما تحدده الرؤية الاقتصادية في عجز الإنسان عن تلبية حاجاته البيولوجية الأساسية وإنما يعني أيضا عجز البناء الاجتماعي عن توفير مستلزمات الإنسان المادية والمعنوية وتأثير ذلك على طريقة الاندماج في المجتمع، والعلاقات الاجتماعية وتكوين شخصية الفرد في المجتمع، فضلا عن تحديد مكانته ودوره السياسي[2].

من خلال ما سبق ذكره يتبين لنا أن المفكرين والخبراء الاقتصاديين اختلفوا في تحديد مفهوم الفقر فعلماء الاقتصاد يعتمدون في تعريفهم على معايير كمية، وعلماء الاجتماع يركزون أكثر على الأبعاد الاجتماعية .

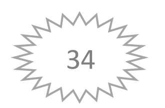
3: إشكالية المصطلحات:

وردت كلمة الفقر بعدة ألفاظ أخرى مرادفة له، وحملت في طياتها معنى الافتقار والخصاصة والعوز والحاجة، إلا أنها شكلت التباسا لبعض العلماء من حيث مدلولها ومن بين تلك المرادفات نذكر:

1- الفقر بلفظ المسكين:

لفظ المسكين مشتق من السكون فقالوا: تمسكن الرجل أي صار مسكينا. وسكن الرجل وأسكن إذا كان مسكينا. وقيل في اللسان لابن منظور: المسكين الذي أسكنه الفقر، أي قلل

1 – عبد الرحمن العيسوي، المرجع السابق، ص 216.
2 – المرجع نفسه، ص 216.



حركته[1]. والمسكنة معناها (العجز عن إدراك المطالب الدنيوية)، يقال استكان الرجل أي خضع وذل ومنه حديث توبة كعب: أما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما، أي خضعا وذلا[2]؛ وقال سيبويه: المسكين من الألفاظ المترحم بها قلت وسمعتهم يقولون عند الترحم مسكين بالتصغير. وأسكن صار مسكينا، واستكن: خضع وذل[3]؛ فالمسكين من أسكنته الحاجة عن الحركة وجعلته لا يبرح مكانه فهو الساكن الجامد شأنه شأن الفقير لقوله سبحانه وتعالى: «**يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**»[4]، وقال الفخر الرازي في تفسيره لهذا القول إن المسكين لصق بالتراب من فقره وضره، فليس فوقه ما يستره ولا تحته ما يوطئه فالمسكين ذو المتربة هو الفقير الذي لا يملك شيئا، وكأنه لصق بالتراب لفقره إذ ليس له مأوى إلا التراب[5]،كما تأتي المسكنة بمعنى الذل والضعف والسؤال والطواف على الأبواب وتكفف الناس[6].

وقد ورد خلاف بين جمهور العلماء والفقهاء في شأن الفَقِير والمسكين أيهما أسوأ حالا وتنازع الناس في أيهما له البلغة من العيش وعمق هذا الخلاف أمران:

ا/ العطف المشعر بالتغاير في الآية الكريمة التي جمعت بين الفقراء والمساكين في قوله تعالى: «**إِنمَّاَ الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ**»[7].

ب/ بيان حقيقة المسكين في الحديث الشريف والذي ورد بصيغ مختلفة أهمها: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ**»، **قَالُوا: فَمَا**

---

[1] –ابن منظور، مصدرسابق، ج13، ص217.

[2]–الزبيدي محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مصطفى حجازي، ج35، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط1، الكويت، 2001، صص200-203/ ابن منظور، ج13، ص218.

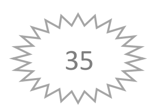
[3]– نفسه، ص212.

[4] –سورة البلد، الآية 15-16.

[5] – محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ج2، ط2، 1964، ص445.

[6] – عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص23.

[7] –سورة التوبة، الآية 60.



الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟، قَالَ :« **الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ**»[1]، فهذا بن عطية فسر هذا الأمر بقوله: (ومع هذا الاختلاف فإنهما صنفان يعمهما الإقلال والفاقة، فينبغي أن يبحث عن الوجه الذي من أجله جعلهما الله اثنين، والمعنى فيهما واحد)[2]، كما ذكر الكاساني: أن أهل التأويل واللغة اختلفوا في معنى الفقير والمسكين وفي أيهما أشد حاجة وأسوا حالا وقد ذهب إلى أنهما جنسان مختلفان واستدل بعطف أحدهما على الآخر. والعطف دليل المغايرة في الأصل[3].

ونظرا لهذا الخلاف فيمن هو أسوأ حالا من الآخر وأكثر فاقة من الآخر، أبدى العلماء آراءهم في هذه المسألة بشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف وأشعار العرب وأقوالهم للتدليل على ما احتجوا عليه أيهما أسوأ حالا الفقير أم المسكين؟.

1/1- المسكين أسوأ حالا من الفقير:

من علماء اللغة الذين قالوا بهذا الرأي أبو عمرو ابن علاء وأبو عبيدة و الأخفش وابن سكيت وابن قتيبة.

قال الأخفش: والفَقِير من قولهم: فَقَرْتُ له فُقْرَة من مالي أي أعطيته؛ فيكون الفقير من له قطعة من المال. والمسكين من السكون؛ ولو أخذ الفقير من الذي قالوه، فالذي سكن عن الحركة أقرب للموت منه[4] ،كما قال أبو عبيدة: الفقير الذي له شيء وإن كان قليلا، والمسكين الذي لا شيء له،كما احتج اللغويون بقول الراعي (يمدح عبد الملك ويشكوا إليه سعاته):

---

[1]- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشري النيسابوري، صحيح مسلم، باب الزكاة، عناية :أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 1426هـ، رقم الحديث: 1039، ص459.

[2] -ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في الكتاب العزيز، ج3، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ص48.

[3] -الكاساني علاء الدين أبي بكر بن مسعود الحنفي، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ج2، تح: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 ، 2003، ص465-467.

[4] -شهاب الدين القرافي، ج3، ص145.

أَمَا الفَقِيرُ الَّذِي كانت حَلُوبَتُهُ **** وِفْقَ العِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ[1]

قال يونس بن حبيب: ألا ترى أنه قد أخبر أن لهذا الفقير حلوبة؟ فالفقير يملك هنا حلوبة؛ فهو أحسن حالا من المسكين أما حججهم من النص القرآني فتتمثل في: قوله تعالى:« **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ** »[2]، ويقول القرطبي أنه لا حجة في قول من احتج بهذه الآية؛ (لأنه يحتمل أن تكون السفينة مستأجرة لهم)،كما يقال: هذه دار فلان إذا كان ساكنها، وإن كانت لغيره[3].

وحجتهم كذلك في قوله تعالى:« **أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**»[4]معناه: أو مسكينا لصق بالتراب من شدة الفقر. فالمسكين وصف هنا بالمتربة، والمتربة هي الفقر[5].

2/1-الفقير أسوأ حالا من المسكين:

هناك أيضا من اللغويين من اتخذ حججا من التفسير اللغوي كحجة على أن الفقير أسوأ حالا من المسكين كالأصمعي وابن الأعرابي وأحمد بن عبيد والثعالبي، فنجد ابن يونس يحتج بقول الراعي الذي سأله: أفقير أنت؟ فقال: لا، والله بل مسكين؛ يجوز أن يكون أراد لا والله، بل أنا أحسن حالا من الفقير[6]، وقول قتادة: الفقير الذي به زمانة وله حاجة؛ والمسكين المحتاج؛ الذي لا زمانة به. وهذا يدل على أن الفقير أحوج[7].

1- الثعالبي النيسابوري إسماعيل، فقه اللغة- في تفصيل الفقر و ترتيب أحوال الفقير، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1885، ص53.

2- سورة الكهف، الآية 79.

3- عبد السلام الخرشي، مرجع سابق،ص31.

4-سورة البلد، الآية 16.

5- عبد الرحمن الهمداني، ألفاظ الأشباه والنظائر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1981، ص130.

6- الكاساني، مصدر سابق سابق، ج2، ص466/ ينظر: ابن منظور، ج5،ص60.

7 -ابن عطية، مصدر سابق، ص48.

كما استدل أهل اللغة من خلال ما جاء في كتاب معالم السنن لأبي سليمان الخطابي بقوله" والفقر هو الذي يقابل الغنى، إذا قيل فقير وغني؛ فصار أصلا للفاقة، وعنه يتفرع المسكنة وغيرها من وجوه الحاجة "[1].

وبنو أدلتهم من القرآن الكريم في قوله تعالى:« **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ**»[2]، ففي الآية تقديم شريحة الفقراء على المساكين يعني الاهتمام بهم ربما لأنهم أكثر فاقة فإن لم يتهمم بهم هلكوا، في حين المساكين يلحون ويذكرون بأنفسهم[3]. وإنما يبدأ بالأهم فالأهم[4].

أما حجتهم من الحديث الشريف فبنوه على حديث رسول الله في قوله:"**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين**"[5] ففي الحديث تعوذ رسول الله من الفقر وشره، وتعليق القرطبي على الحديث بقوله (فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لتناقض الخبران؛ إذ يستحيل أن يتعوذ الرسول من الفقر ثم يسأل الله ما هو أسوأ حالا منه. وقد استجاب الله دعاءه وقبضه وله مال مما أفاء الله عليه[6]، فالمراد بالحديث هنا التواضع أي الخضوع والتذلل وعدم التكبر وليس يراد بالمسكين هنا الفقير المحتاج [7].

3/1- من جعل الفقير والمسكين لفظا واحدا:

قال أبو حيان (وأما أن الفقراء غير المساكين، فذهب جماعة من السلف إلى أن الفقير والمسكين سواء، لا فرق بينهما في المعنى؛ وإن افترقا في الاسم وهما صنف واحد[8].

---

[1] – الخطابي أبي سليمان ، معالم السنن، تح: أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي، ج2، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1980، ص233.

[2]–سورة التوبة، الآية 60.

[3]–ابن عطية، مصدر سابق، ج3، ص49.

[4] – ابن قدامه المقدسي، الشرح الكبير، دار الكتب العلمية، ج2، دت، ص690.

[5] – أبو بكر الكناني، مصباح الزجاجة، تح: محمد المنتقي الشناوي، ج4، حديث ضعيف، دار الكتب العربية، بيروت، 1403، ص218.

[6]– عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص34.

[7]– ابن حزم الأندلسي، المحلى بالآثار، ج6، تح :أ حمد محمد شاكر، إدارة الطباعة المنيرية، مصر،1349، صص147-148.

[8]– أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ص57.

قال ابن رشد أن الخلاف بين العلماء حول لفظ الفقير والمسكين وأيهما أسوأ من الآخر خلاف لغوي إن لم تكن له دلالة شرعية. والأشبه عند استقراء اللغة أن يكونا اسمين دالين على معنى واحد يختلف بالأقل والأكثر في كل منهما، لا أن هذا راتب من أحدهما على قدر غير القدر الذي الآخر راتب عليه[1].

كما يعلق القرطبي بقوله: (ظاهر اللفظ يدل على أن المساكين غير الفقراء، وأنهما صنفان؛ إلا أن أحد الصنفين أشد حاجة من الآخر، فمن هذا الوجه يقرب قول من جعلهما صنفا واحدا)[2]، وعليه فما يمكن استنتاجه هو أن الفقر والمسكنة لفظتان يراد بهما معا الحاجة وضعف الحال.

2- الفقر بلفظ القانع المعتر:

ورد الفقير في القرآن الكريم بلفظ القانع و المعتر وذلك في قوله تعالى: «**وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**»[3].

وقد اختلفت الأقوال في معنى القانع والمعتر فقيل القانع هو السائل والمعتر هو المعترض بغير سؤال، والقانع الراضي بما عنده أو بما يعطى من غير سؤال من قنعت قناعة و المعتر المعترض بسؤال[4]، وقال أبو زيد: ومنهم القانع وهو الذي يتعرض لما في أيدي الناس. يقال قد قنع فلان إلى فلان قنوعا وهو ذم وهو الطمع. وقال الأصمعي: القانع السائل والقنوع المسألة. قال الشماخ "لمال المرء يصلحه فيغني مفاقره أعف من القنوع"[5]، وذكر ابن كثير قولا لابن عباس أن القانع

---

[1] - أبو الوليد بن أحمد بن رشد القرطبي المعروف بابن رشد الحفيد، شرح بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تح: عبد الله العبادي، ج2، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ط1، 1995، ص652.

[2] - عبد السلام الخرشي، مرجع سابق، ص 35.

[3] -سورة الحج، الآية 36.

[4]- الزمخشري أبي القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض،ج4، مكتبة العبيكان، ط1، 1418هـ/1998م، ص197.

[5]- ابن السكيت، تهذيب الألفاظ، باب الفقر والجدب، مرجع سابق، ص11.

المستغني بما أعطيته وهو في بيته والمعتر الذي يتعرض للناس في الصدقات يمد يده لهم في الطرقات من غير أن يسألهم[1].

ذكر القرطبي في معنى القانع و المعتر أن من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة: وهي الرضى والتعفف وترك المسألة يقال: قنع الرجل فهو قَنِعُ: إذا رضي، وأما المعتر فهو الذي يطوف بين الناس يسأل ما عندهم سائلا كان أو صامتا[2]، وفي هذا المقام قيل:

عَلىَ مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَن يَعْتَرِيهِم **** وَعِندَ المِقِلِينَ السَّمَاحَة وَالْبَذْل[3]

ويفهم من خلال هذا التفسير للعلماء أن الله سبحانه وتعالى قد عبر بقوله عن القانع و المعتر بصنفين من أصناف الفقراء الذين يستحقون الصدقة والإنفاق والإطعام عليهم وهما:

ا/**القانع**: وهو الفقير الذي يتعفف عن السؤال ويرضى ويقنع بما قسمه الله له ويقعد في بيته ولا يدفعه فقره إلى الخروج والتسول وطرق بيوت الناس أعطوه أو منعوه[4].

ب/المعتر: وهو الفقير الذي يجوب البيوت والطرقات ويعترض الناس في الشارع يمد يده للصدقات، قال أبو عبيدة في شأنه"والمعتر الفقير الذي يعتر بك ويتعرض، وأنه لمخف ومخفق وقد أخفق وأخف، ويقال قد ألفج بالأرض إذا لزق بالأرض إما من كرب وإما من حاجة[5].

3–الفقر بلفظ البائس

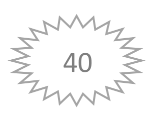
[1] – ابن كثير أبي الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي، تفسير القرآن الكريم، ج5، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999، ص428.

[2]– القرطبي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان،، ج14، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2006، ص401.

[3] – المصدر نفسه، ص402.

[4] - ابن السكيت، مرجع سابق، صص11– 12

[5] –نفسه، صص11– 12.



يقال: بئس يبئس بأسا: إذا افتقر، فهو بائس فالفقير من صفة البائس وهو الذي ناله البؤس وشدة الفقر[1]، وقال ابن كثير رحمه الله في معنى "البائس الفقير" قال عكرمة هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس وهو الفقير المتعفف، وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده، وقال قتادة هو الزَمِن، وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير[2]، وقال الطبرسي في معنى البائس: "البائس الذي ظهر عليه أثر البؤس من الجوع والعرى، وقيل البائس الذي يمد يده بالسؤال و يتكفف للطلب، أمر الله سبحانه وتعالى أن يعطى هؤلاء من الهدي"[3]وعبر القرآن الكريم عن الفقير بالبائس وجعل الفقر نعتا من نعوته وذلك في قوله تعالى:« **فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ** »[4].

4-الفقر بلفظ الإملاق:

ورد لفظ الإملاق في القرآن الكريم في قوله تعالى:« **وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُم مِّن إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَاهُمْ**»[5]، الإملاق في الآية الكريمة بمعنى الفقر حسب تفسير ابن كثير رحمه الله في قول الله تعالى«**خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ**[6]»أي خوف أن تفتقروا[7].

وقوله تعالى: «**وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُم خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَاكُمْ إِنَ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**»[8].فحسب تفسير الزمخشري في قوله تعالى: « **مِّن إِمْلَاقٍ**» أي من خوف الفقر[9].

---

[1]-القرطبي، مصدر سابق، ج14، ص377.
[2] - ابن كثير، مصدر سابق، ج5، ص417.
[3] -عبد السلام حمدان اللوح ومحمود هاشم عنبر، مرجع سابق، مج17، العدد:1، ص 323.
[4] -سورة الحج، الآية 28.
[5] -سورة الأنعام، الآية 151.
[6] - سورة الإسراء، الآية 31
[7] -ابن كثير، مصدر سابق، ص72.
[8] -سورة الإسراء، الآية 31.
[9]-الزمخشري، مصدر سابق، ص515.

في ضوء ما تقدم من مفاهيم وألفاظ لمصطلح الفقر كالبائس، والمسكين، والإملاق والقانع المعتر، يظهر أنها كلها ألفاظ موحية بالمعنى تشدهما الحاجة وترمي بهم إلى الأرض فلا يجدان منها مخرجا، يتجرعان الهم، فيضمران أمام قساوة الحياة، وقد يؤدي ذلك بهم إلى الموت.

ثانيا: تفسير بعض النظريات للفقر.

1: الجذور التاريخية للفقر في الفكر الاقتصادي:

يعد الفقر ظاهرة تاريخية درستها النظريات في إطار المدارس والسياسات الاقتصادية المختلفة، لذا فإن دراسة ظاهرة الفقر يتطلب معرفة جذوره التاريخية، فنجد أن الفكر الإغريقي اهتم بالمشاكل الاقتصادية وأغفل المشاكل الاجتماعية لاسيما حالة الفقر التي كانت منتشرة بين أوساط الشعب الإغريقي، وذلك لأن الإمبراطورية الإغريقية تأسست بفضل عنصر الرق، وباعتبار أن جل الرق هم من الفقراء فكانت ظاهرة الفقر عندهم من المسلمات والبديهيات، وفي ظل هذا التعريف ظهرت مقولة الفيلسوف أفلاطون الذي أكد " أن الفقر المدقع والغنى الفاحش لا ينبغي وجودهما في المجتمع المثالي"[1].

كما أن الثقافة الرومانية لم تهتم بالفقر باعتبارها ظلت تابعة لليونان معرفة وفكرا، وبالتالي ظل الفقر حالة عادية لديهم ومن المسلمات، وبعد اضمحلال وسقوط الحضارة الرومانية، واعتلى النظام الإقطاعي في أرويا القائم على الرق وسيطرة الكنيسة، اعتبرت ظاهرة الفقر على أنها ليست مشكلة اقتصادية، وإنما هي حالة يتصف بها أشخاص بسطاء لا يعطى لهم أدنى اهتمام، وخلال هذه الفترة بزغ شعاع الفكر الإسلامي، ببروز ثلة من العلماء لهم بعض الأفكار، التي أولت اهتمام

[1] -صلاح الدين نامق، قادة الفكر الاقتصادي، دار المعارف، القاهرة، 1978، ص9.

بالغ لمعالجة هذه الظاهرة، وفق ما شرعه الدين الإسلامي الحنيف في كتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، على اعتبار أن الإسلام كرم الإنسان وأنصفه حقوقه في العيش الكريم[1].

إلا أن الأمور تغيرت ولم تستمر على ذلك المنوال، بحيث عملت الحروب الصليبية التي دامت أكثر من قرون على قلب الموازين، بالاستحواذ على التجارة بين الشرق والغرب على حساب التجارة الإسلامية، وبذلك تحولت السيادة نحو أرويا وظهر ما يسمى بالفكر التجاري الذي اعتمد على مبدأ " أن قوة الدولة تعتمد على ما تملكه من ذهب وفضة "وهذا الأمر جعل الثروة ترتكز بيد أقلية معينة مما زاد الفقراء فقرا، والأغنياء غِنًا، ونتيجة لهذه الأوضاع ظهرت عدة مواقف و نظريات تجاه الفقر[2].

2: آراء بعض النظريات في الفقر:

كان لأفراد المجتمع مواقف متباينة تجاه مشكلة الفقر منذ الأزل البعيد، واختلفت هذه المواقف باختلاف الطوائف و الدعاة و أصحاب النظريات الاقتصادية والسياسية، وعليه سنقوم بعرض بعض المواقف والنظريات تجاه الفقر.

1: رأي أنصار النظرية الجبرية في الفقر:

يرى دعاة هذه النظرية أن كل ما يحصل للإنسان من خير وشر وبلاء، هو قضاء وقدر ومكتوب عليه من السماء لا يجدي معه لا طب و لا دواء، ولا ينفك مهما فعل، وحسبهم في ذلك أن فقر الفقير وغنى الغني قضاء وقدر من الله على عبده. ولو شاء الله لجعل الناس كلهم أغنياء، ولكن شاء الله أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ليبلوهم

[1] –علي خالفي، علاقة التنمية البشرية بجهود محاربة الفقر لدى المنظمات الدولية ، أبحاث ندوة: تجارب مكافحة الفقر في العالمين العربي والإسلامي، جامعة سعد دحلب، البليدة،2007، ص29.

[2] –روبرت هيلبرونر، ترجمة دانيال رزق، ماذا يعرف الاقتصاديون عن التسعينات وما بعدها،الدار الدولية للنشر والتوزيع، مصر، 1994، ص 40.

فيما آتاهم، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه. ونصيحتهم لطبقة الفقراء: هذا قسَم الله لكم فأرضوا وأقنعوا به، ولا تطلبوا أمرا آخر فوقه[1].

غير أن صاحب كتاب الفلاكة و المفلكون لأحمد الدلجي ردَ على أصحاب هذا الاعتقاد الذي يؤدي بالفقير أن لا يحاول علاج الفقر الواقع عليه واستسلامه للحالة التي هو عليها من الفقر، بإعطاء مفهوم صحيح للقضاء والقدر بشأن الفقر، وإبطال تعلق الفقير بالقضاء والقدر من خلال بعض الأدلة نذكر منها:

-الفقير فاعل فقره -أي متسبب فيه-إما استقلالاً أو مشاركة.

-يتفق العلماء على أن القضاء والقدر لا يحتج به.

-حركة العبد للسعي تجامع التعلق بالأسباب ولا تنافيها.

-الاكتساب لإحياء النفس ولغير ذلك واجب.

-الله سبحانه وتعالى قال: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ»[2].

- وجود المال في اليدين لا في القلب، ودخول الدنيا على العبد وهو خارج عنها، لا ينافي الزهد[3].

والأدلة التي عرضها الدلجي تبطل تعلق الفقراء بالقضاء والقدر لتبرير استسلامهم للفقر.

2: رأي الزهاد والمتصوفة الفلاسفة في الفقر:

يطلق لفظ الفقير أيضا على الصوفي الزاهد المتعبد وذلك لافتقاره إلى الله[4]، ويقول أبو محمد رويم[5] في هذا الشأن نقلا عن كتاب الإحياء"التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر، والافتقار، والتحقق بالذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار"[6] ويرى أصحاب هذا الاتجاه

[1] – يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ص8.

[2] – سورة النساء، الآية71.

[3] – محمد الحسن الدلجي، الفلاكة و المفلكون، مطبعة الشعب، مصر، 1322، صص7-11.

[4] – ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق، التصوف، دار الكتاب اللبناني، دار المدرسة، لبنان ، ط1، 1984، ص 62.

[5] –أبو محمد رويم بن أحمد بن زيد، من أهل بغداد، ومن جلة مشايخهم، كان فقيها على مذهب داود الأصبهاني، وكان مقرئا، توفي سنة 303 هـ/ ينظر: السُلمي بن أبي عبد الرحمن، طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفية، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2003، ص147.

[6] – أبو حامد الغزالي، الإحياء، ج2، ص60.

أن الفقر ليس شرا يطلب الخلاص منه، بل هو نعمة من الله يعطيها لمن يحب من عباده، لكي يبقى قلب ذلك الإنسان منشغلا بأمور الآخرة وينسى شهوات الدنيا، ومن مبادئهم ترك كل حظوظ النفس للحصول على النصيب الحق، وكان أول من سلك طريق الزهد والتقشف هم أهل الصُفة من فقراء المسلمين انقطعوا للعبادة وانصرفوا عن ملذات الدنيا ونعيمها، وبجانب هذه الجماعة سلك أفراد من الصحابة طريق الزهد والتقشف منهم أبو ذر الغفاري[1]،وأبو الدرداء[2]. والصوفية يحبون تربية النفس والزهد والتقشف والحرمان والزلفى إلى الله[3]، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه جمهور الناس من لذة ومال وجاه[4].

وقد وجد في الأديان الوثنية والأديان السماوية من يسلك هذا النهج ويمجد الفقر ويقدسه، لأنه في نظرهم وسيلة لتعذيب الجسد، وتعذيب الجسد وسيلة لترقية الروح، وشاع هذا عند بعض المتصوفة المسلمين بتأثير الثقافة الأجنبية،كالصوفية الهندية والمانوية الفارسية، والرهبانية المسيحية، ونحوها من الفرق الدخيلة على حياة المسلمين[5]. ويستشهد الشيخ القرضاوي بنص من كتب هذه

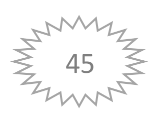
[1] –أبو ذر الغفاري: يلقب بزعيم المعرضة وعدو الثروات، ما يعرف عنه أنه دخل إلى مكة متنكرا خوفا من أهل مكة وباحثا عن الرسول عليه الصلاة والسلام ليستمع إلى كلامه،كان من قبيلة غفار المشهورة بقطع الطرق، و بعد ملاقاته به وسماعه لحديثه تلفظ بالشهادة ودخل الإسلام، فكان ممن شاء لهم الله لهدى وأراد لهم الخير، كان إسلامه مبكرا أي في مرحلة الدعوة السرية،و كان أول صاحب صيحة في الإسلام واعتلاء كلمة الله في المسجد، وقال فيه الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام" فالصدق الجسور هو جوهر حياة أبي ذر كلها...صدق باطنه وصدق ظاهره...صدق عقيدته وصدق لهجته..."وهو صاحب المقولة" عجبت لمن لا يجد القوت في بيته،كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه" ،كان زاهدا في الدنيا ،هاجرا لملذات الدنيا وما فيه، وكان محبا للمساكين والفقراء حتى كان يقول أوصاني خليلي بسبع "أمرني بحب المساكين ، والدنو منهم ...وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي ...وأمرني ألا أسأل أحدا شيئا..وأمرني أن أصل الرحم ..." ولقد عاش هذه الوصية، وصاغ حياته وفقها، حتى صار ضميرا بين قومه. / ينظر: خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت، 2000، ص47،44، 54-55.

[2] –أبو الدرداء: يلقب بضياء الحكمة وعبير الإيمان، عكف عل إيمانه مسلما، وعلى حياته يصوغها وفق إيمانه الصادق حيث بلغ مستوى الصدق الوثيق، كان مجاهدا ضد نفسه قال أبو الدرداء" أسلمت مع النبي عليه الصلاة والسلام و أنا تاجر ... وأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة فلم يجتمعا...,فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة ... ، فقد أراد أبو الدرداء العبادة كمعراج يرفعه إلى عالم الخير الأسمى، ويشارف به الحق في جلاله، كانت الدنيا في عينه مجرد عارية ،كان يدعو الناس إلى امتلاك الدنيا بالاستغناء عنها، والعبادة عنده ليست غرورا ولا تألبا، إنما هي التماس للخير، وتعرض لرحمة الله ./ينظر: خالد محمد خالد، مرجع سابق، ص249،246،244.

[3] –عبد السلام العز، زبد خلاصة التصوف –المسمى بحل الرموز ومفاتيح الكنوز– تح: أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبه، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2009، صص31، 33.

[4] –ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2012، ص462.

[5] – يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص7.



الطائفة في نظرتهم للفقر في قوله نقلا عنهم" إذا رأيت الفقر مقبلا فقل: مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته"[1].

3: رأي أهل الخير والإحسان في الفقر:

تدعو هذه الطائفة إلى فعل الخير وتقديم يد العون للفقراء والمساكين، فتوصي الأغنياء بالبذل والإحسان والصدقة التطوعية على المحتاجين، وتوقض ضمائر المحسنين إلى اليسر واللطف بالفقراء[2]. لأن الله تعالى نوه بذكر الضعفاء والإحسان إليهم في غير ما آية من القرآن الكريم، وأعلى مقامهم وأمر العباد وحضَّهم على إيصال الخير والبر إليهم، وحثهم ورغبهم ووعدهم على ذلك بالثواب الجزيل لقوله تعالى: « **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**»[3] وقال أيضا:« **وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا**»[4] ، وهذا ما كان يفعله الكثير من الناس بمختلف مراتبهم منذ سالف العصور تجاه الفئات الضعيفة، ولازال هذا الفعل ساري التطبيق حتى يومنا هذا، ثم إنه لما كان لإطعام المساكين الفقراء والتماس ثواب الله بالإحسان إليهم موقع من الإسلام كبير، وله تأثير في الأعمال في الدار الآخرة، حكى الله تعالى عن أهل النار في جوابهم لأهل الجنة عندما دار السؤال بينهم في الأسباب التي أوجبت لهم دخول النار قالوا « **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**" ؟! "**قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ**»[5] ففي الآية الكريمة قرن الله تعالى إطعام المسكين بوجوب الصلاة[6]، فالإحسان للمساكين والضعفاء الفقراء من الأسباب الموجبة لدخول الجنة مع وجود التوحيد وبعد رحمة أرحم الراحمين لاسيما أوقات المجاعات والأزمات.

---

[1] – أبو حامد الغزالي، مصدر سابق، ج4، ص191، وهو حديث ضعيف، يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص8.

[2] – المرجع نفسه، ص8.

[3] – سورة البقرة، الآية 195.

[4] –سورة الإسراء، الآية 26.

[5] – سورة المدثر، الآية 42.

[6] –ابن حزم الأندلسي، المحلى بالآثار، ج6، ص157.

4: رأي أصحاب الأنظمة الاقتصادية في الفقر:

1: دعاة الرأسمالية:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الفقر هو مشكلة عويصة من مشاكل الحياة، ويرجعون أسبابه إلى الفقراء أنفسهم أي بفعل أيديهم نتيجة لممارستهم أمور الحياة بدون ضابط، فلا الأمة ولا الدولة ولا الأغنياء لهم دخل في ذلك فكل فرد مسئول عن نفسه، حر في ماله[1].

وحسب اعتقادهم أن ما جمعوه من المال إنما جمعوه بكدهم ومهارتهم، وأن صاحب المال أحق بماله من سواه، وله حرية التصرف فيه بما يرى ويشاء، فإذا تكرم على الفقير بشيء من المال فهو صاحب الفضل، وحسب المجتمع في نظر هؤلاء أن تعطى الحرية للجميع ليكسبوا ويكتنزوا الأموال، فمن لم يسعى منهم إلى الكسب والغنى، فليس المجتمع مسؤولا عنه، وليس لأصحاب المال أن يلتزموا بحمله والإنفاق عليه، إلا من باب فعل الخير والإحسان، وحسب قول القرضاوي" لاشك أن الفقراء في مجتمع هذا شأنه، وتلك فلسفته، أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ... لاحق لهم يطالبون به، ولا سند لهم يعتمدون عليه"[2].

2: دعاة الاشتراكية:

يتزعم هذا الاتجاه، كارل ماركس الذي يرى أن الفقر أساس الصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي، فالطبقة الغنية تسيطر على الطبقة الكادحة، وهكذا فإن الأمن المادي للفرد في رأيه يعتمد بصورة رئيسية على انتمائه الطبقي، ولا يمكن تغيير هذا الوضع دون إزالة التركيب الطبقي نفسه[3]، وذلك عن طريق القيام بالثورة ضد الأغنياء ومصادرة أموالهم وإلغاء ملكياتهم الخاصة،

---

[1] – فطيمة حاجي، إشكالية الفقر في الجزائر في ظل البرامج التنموية للجزائر– للفترة 2005-2014–، رسالة دكتوراه في العلوم الاقتصادية، غير منشورة، جامعة بسكرة، 2013، ص11.

[2] – يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص 10.

[3] –عدنان داود محمد العذاري، هدى زوير مخلف الدعمي، قياس مؤشرات ظاهرة الفقر في الوطن العربي، دار جديد للنشر والتوزيع، الأردن، 2010، ص40.

وتحريم التملك على الناس أيا كان مصدره، ولإنجاح ذلك كان من الواجب شحن الطبقات الأخرى من المجتمع عليهم، بتأجيج نيران الصراع بينهم وإثارة الفتنة في صدورهم تجاههم، حتى ينتصر في النهاية أكثرها عددا[1]، وهي الطبقة المهمشة والفقيرة التي يسمونها " البروليتاريا"[2].

كما ظهرت عدة نظريات للفقر تزعمها باحثين من علماء الاقتصاد والاجتماع خلال العصر الحديث، اختلفت وتنوعت فيما بينها فمنها: نظرية ثقافة الفقر، نظرية رأس المال البشري، نظرية ماركس القائمة على الجانب المادي للحياة، نظرية الحلقة المفرغة، النظرية الاجتماعية، نظرية مالتوس، نظرية الرفاهية وغيرها من النظريات التي تعددت في ظل التعريفات الجديدة لمفهوم الفقر[3].

5: موقف الإسلام من الفقر:

إن الإسلام يعتبر الفقر آفة عويصة تستدعي المكافحة والعلاج والآيات التي سبق وذكرناها في التعريف الاصطلاحي تثبت صحة ذلك، وينكر الإسلام تلك الأفكار التي تجعل من الفقر نعمة من الله يمنحها لمن يحب من عباده، لأنه لو كان الفقر نعمة لا مدحه الله ورسوله، فليس في مدحه آية واحدة من كتاب الله ولا حديث من سنة رسوله الكريم والذي استعاذ منه، فالأحاديث الواردة في مدح الزهد في الدنيا لا يراد بها مدح الفقر فإن الزهد يقتضي ملك شيء يزهد فيه. فالزاهد حقا من ملك الدنيا فجعلها في يده وليس في قلبه[4]، عكس الغنى الذي وردت فيه عدة

[1] – يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص 11.

[2]– البروليتاريا: هي كلمة مشتقة من اللاتينية (*proletarius*) وهو مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر ضمن كتاب بيان الحزب الشيوعي لكارل ماركس وفريدريك أنجلز يشير فيه إلى الطبقة التي ستتولد بعد تحول اقتصاد العالم من اقتصاد تنافسي إلى اقتصاد احتكاري، ويقصد كارل ماركس بالبروليتاريا الطبقة التي لا تملك أي وسائل إنتاج وتعيش من بيع مجهودها العضلي أو الفكري، ويرى ماركس أن الصراع التنافسي في ظل الرأسمالية، سيتولد عنه سقوط للعديد من الشركات واندماج شركات أخرى، حيث أنها في النهاية تتحول إلى شركات كوسموبوليتية أي لا قومية وتصبح شركات احتكارية و يصبح نضال شعوب الأرض موحدا لعدو واحد وتسمى هذه الطبقة الناشئة عن الاحتكارات العالمية بطبقة البروليتاريا، وهي تبيع عملها الفكري والثقافي والعضلي ولا تملك أي وسائل إنتاج، ويعتبر ماركس البروليتاريا هي الطبقة التي ستحرر المجتمع وتبني الاشتراكية بشكل أممي/ ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

[3] – فطيمة حاجي، مرجع سابق، صص 13–16 .

[4] – يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص13.

آيات وأحاديث تمدحه فنجد قول الله تعالى في امتنانه على الرسول الكريم بالغنى قوله:« **وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**»[1]، وقوله تعالى في جعل منح المال من عاجل صفحه ومغفرته في قوله:« **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ...**» [2]، ومن الأحاديث النبوية الدالة على مدح الغنى نذكر: عن أبي هريرة – رضي الله عنه–قال :قال النبي صلى الله عليه وسلم « **لَا تحاسد إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ فهو يقول: لو أتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ فيقول: لو أوتيت مثل ما أوتي، عملت فيه مثل ما يعمل**[3]»، والمراد بذلك حسب شرح النووي قال: قوله صلى الله عليه وسلم: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ**» قال العلماء: الحسد قسمان حقيقي ومجازي، فالحقيقي تمني زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة. وأما المجازي فهو الغِبْطَة وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوال عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة وإن كانت طاعة فهي مستحبة، والمراد بالحديث: لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما[4]. وقال أيضا: معناه: ينبغي أن لا يغبط أحد إلا على هاتين الخصلتين[5]. وقال ابن علان الدمشقي –معللا عبارة النووي الأخيرة–: "لعظم نفعهما وحسن وقعهما"[6].

---

[1] – سورة الضحى، الآية 8.

[2] – سورة نوح، الآية 10–12.

[3] – البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري –كتاب التوحيد– باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار» رقم الحديث: 7528، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 2002، ص1860.

[4] – النووي محي الدين يحي بن شرف ، المنهاج بشرح صحيح مسلم، ج6، دار الخير، بيروت، 1999، ص421.

[5] –النووي، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – باب الكرم والوجود والإنفاق في وجوه الخير، رقم 549، تح: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، الرياض، ط1، ، 1421، ص250.

[6] – ابن علان الصديقي، دليل الفالحين بشرح رياض الصالحين– باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير تح: عصام الدين الصباطي ،ج2، رقم: 544، دار الحديث، القاهرة، 1998، ص475.

فالحديث كما نرى فيه مدح للغنى وحث صريح على التنافس في كسب المال من حله وإنفاقه في وجوهه وأن من فعل ذلك كان بأفضل المنازل عند الله عز وجل.

كما ورد عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنه– أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة:« **الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، فَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ**» [1]، في هذا الحديث فَضَّل النبي صلى الله عليه وسلم اليد المنفقة وهي يد الغني على يد السائل أو الآخذة وهي يد الفقير.

وفي قول عمرو بن العاص –رضي الله عنه– أنه قال: بعث إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « **خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي**»، فأتَيْتُه وهو يتوضأ، فَصَعَّدَ فِيَّ النظر ثم طَأْطَأَهُ، فقال: «**إِنِي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ الله وَيُغْنِمَكَ وَأُرْغِبُ لَكَ مِنَ المال رَغْبَةٍ صَالِحَة**» قال: قلت يا رسول الله: ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله فقال:« **يَا عَمْرُو، نَعَمْ، و نِعْمَا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»[2]. ففي الحديث مَدح النبي صلى الله عليه وسلم المال –الذي هو وسيلة الغنى– إذا كان صاحبه صالحا يستخدمه في طاعة الله عز وجل.

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «**اللّهُمَّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ**»[3]. وفحوى النص أن

---

[1]– البخاري، المصدر السابق– كتاب الزكاة– باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم: 1427، صص346-347.

[2] –الإمام أحمد بن حنبل، المسند ،ج4، رقم: 17798، مؤسسة قرطبة، القاهرة، دت، ص197 / الطبراني، المعجم الأوسط، تح: أبو معاذ طارق بن عوض الله–عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، ج9، دار الحرمين، القاهرة، 1995، ص21-22/ الهيثمي الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد– كتاب البيوع– باب اتخاذ المال، ج4، رقم: 6242، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ص73.

[3] – أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، سنن أبي داود– كتاب الصلاة– باب الاستعاذة،ج2، رقم: 1544، تح: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، طبعة خاصة، بيروت، 2009، ص244/ ابن حبان، الإحسان في تقريب صحيح بن حبان – باب ذكر ما يستحب للمرء أن يتعوذ بالله جل وعلا من أن يظلم أحدا أو يظلمه أحد، تح: شعيب الأرناءوط،ج3، رقم: 1030، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ص305.

النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ بالله من الفقر، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يستعيذ إلا من شيء هو شر أو ضرر.

وفي حديث آخر عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله:«**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ؛ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ؛ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ**»[1]. وفي هذا الحديث الشريف يظهر استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم بالله من الجوع وهو أثر من آثار الفقر.

إذن هذه كلها أحاديث صحيحة تمدح الغنى وتذم الفقر، الذي يرى الإسلام فيه، أنه خطر كبير على سلوك وعقيدة الفرد والمجتمع معا. وهذا لا يعني أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفضل الأغنياء على الفقراء لأنهم يتقربون بالصدقات والخيرات، والفقراء عاجزين عن ذلك. بل كان يحب الفقراء المستضعفين ويحض الأغنياء على الإحسان إليهم والصدقة لهم، وكان يتقرب منهم، ويجالسهم، وحسبهم في ذلك ما رواه بعض الفقهاء من أحاديث حتى وإن كانت ضعيفة عن النبي عليه الصلاة والسلام في تفضيله للفقراء على الأغنياء.

فحسب ما جاء عند الغزالي" أن الغني المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع، وقد يشهد له ما روي في الخبر: أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد، فعلمهم كلمات في التسبيح وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه، فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال عليه السلام:« **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**»[2]. وعن عمران بن الحصين –رضي الله عنه– أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:« **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ عَبْدَهُ**

[1] – أبو داود، سنن أبي داود ، مصدر سابق،ج 2، رقم:1547، ص646 .

[2] – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب الفقر والزهد، ص 1495.

الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ»[1]، فهو في قوله هذا يبين أن بعد الإيمان تتبعه ثلاث صفات: الفقر والتعفف، وأبوة العيال ويلاحظ كذلك أنه جمع بين الفقر والتعفف لأن الفقر قد يكون عن ضرورة وصاحبه غير صابر عليه ولا راض به ، فإذا أدمج إليه التعفف أشعر ذلك بالصبر والقناعة، وعن أنس–رضي الله عنه–أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[2].

وهذه الأحاديث حتى وإن لم تكن صريحة في الدلالة على ما سعوا إلى إثباته الفقهاء في فضل الفقير على الغني لدى الله ورسوله، فنقول أن الله منح المال للغني ليشكره ويمتحنه في عطائه وصدقته على الفقراء، ومنح الفقر للفقير ليختبر درجة صبره، وبذل شكره، وإن كان في كل خير.

ثالثا: معايير قياس الفقر وأنواعه:

قامت العديد من الدراسات على تحديد معايير الفقراء وتصنيفهم على أساس نسبة دخلهم الغير الكافي، ومن هذه المستويات الدخل الذي يحفظ لهم كفاءتهم الجسمانية، فتفترض هذه الدراسات أن خط الفقر يمكن تحديده بالمستوى الذي يسمح بالإنفاق الضروري للبقاء أو القدرة على العمل[3].

---

[1]– الطبراني، المعجم الكبير،ج18، رقم: 15317، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، دت، ص242./ الرافعي، التدوين في أخبار قزوين، ج1، تح: عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص 164. وإسناده ضعيف لأن فيه حماد بن عيسى وموسى بن عبيدة وكلاهما ضعيف، وفيه القاسم بن مهران وهو مجهول.

[2] –الكتاني أبي بكر، مصباح الزجاجة، تح: محمد المنتقي الشناوي، ج4، دار الكتب العربية، بيروت، 1403هـ، ص218. الحديث ضعيف، لأن فيه الحارث بن النعمان وهو ضعيف الإسناد، وفيه ثابت بن محمد العابد وهو صدوق يخطئ. ويأتي بيان معنى متنه، وأنه لا دليل فيه، لأن المسكنة ليست بمعنى الفقر وإنما هي التواضع أي أن الرسول كان مراده الخشوع أي خاضعا لك يارب ذليلا غير متكبر، وليس المراد به قلة المال.

[3]– ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل مختار الهواري، وسعد عبد العزيز مصلوح، دار المعرفة الجامعية، 1999، ص 553.

فإن أي تشخيص للفقر لابد أن يأخذ في الاعتبار الجوانب المتعددة للظاهرة، ألا وهي دخل النشاط الاقتصادي والاجتماعي، لذا فقد تعددت وتنوعت المفاهيم والتفاسير المتناولة والمفسرة لظاهرة الفقر لدى علماء الاقتصاد.

1:**خطوط الفقر ومؤشرات قياسه:**

يعتبر الفقر ظاهرة قديمة تعرف امتداداً متواصلا، وهو مشكلة اقتصادية ذات تأثير كبير على الفرد والمجتمع، لهذا اتخذت وسائل علمية لتحديد نسب الفقر وقياسه.

ا: **خطوط الفقر:**

يقصد بخط الفقر المستوى الذي يعجز الواقعون تحته عن توفير ضرورات المعيشة[1]، أو هو الحد الفاصل الذي يعتبر الإنسان عنده فقيرا إذا نزل عنه، وهو أسلوب من الأساليب الأوسع استخداما من طرف البنك الدولي لتحديد نسب الفقر، كونه يرتبط بتحديد المستوى الأدنى للرفاهية وبالتالي يسمح بإجراء المقارنات بين الزمن وبين الأقاليم وهو أنواع:

1: **خط الفقر المطلق:**

هو تلك الحالة التي لا يستطيع فيها الإنسان بدخله الوصول إلى إشباع الحاجات الإنسانية المتمثلة في الغذاء والمسكن والملبس والتعليم والصحة[2]، كما يستخدم تعبير خط الفقر المطلق على وجود قدر معين من الدخل، لا يسمح بالحصول على الحد الأدنى من السلع الغذائية التي يستحقها الإنسان في الظروف العادية [3].

2: **خط الفقر النسبي:**

---

[1]–جوردون مارشالي، موسوعة علم الاجتماع، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، مراجعة وتقديم محمد الجوهري، المطبوعات والنشر، ط1، 2000، ص1081.

[2]– أنطوان حداد، الفقر في لبنان، سلسلة مكافحة دراسات الفقر، ع/2، الأمم المتحدة، دت، ص14.

[3] – عبد العظيم حمدي، مرجع سابق، ص72.

يعني افتقار الفرد أو الجماعة إلى الموارد بالمقارنة بأفراد مجتمع الآخرين، فهو يبين مستواهم المعيشي النسبي، ويتعلق بالفروق في مستويات الموارد المادية، أي عدم المساواة في توزيع تلك الموارد في المجتمع[1].

3: خط الفقر المدقع:

هو تلك الحالة التي لا يستطيع فيها الإنسان عبر التصرف بدخله، الوصول إلى إشباع الحاجة الغذائية المتمثلة بعدد معين من السعرات الحرارية التي تمكنه من مواصلة حياته عند حدود معينة[2].

4:خط الفقر القومي:

يعد الفقر القومي معيار مقارنة بين الدول المتخلفة، يحدد بمقدار الحاجات اللازمة من المواد الغذائية الأساسية والمعدلة في إطار معيار القوة الشرائية[3].

ب: مؤشرات قياس الفقر:

دفع العديد من المهتمين بتقييم أوضاع الفقر وما يتمخض عنه من استراتيجيات باتجاه خفض الفقر، محاولة وضع مقاييس متعددة وبديلة بالشكل الذي يحقق مؤشرات كمية لمفاهيمه المختلفة، لذا نذكر مؤشرات قياس الفقر، والتي تتمثل فيما يلي:

1: مؤشرات الدخل:

هي أحد المؤشرات المعبرة عن قدرتها للحصول على السلع والخدمات الاستهلاكية الأساسية التي يمكن أن تحدد موقع الفرد أو الأسرة دون خط الفقر أو فوقه[1].

---

[1] -جوردن مارشالي، مرجع سابق، ص1080.

[2]- العربي عطية، الياس بن ساسي، التحليل الكمي للفقر الإنساني، دراسة تحليلية لمستوى الفقر البشري في الجزائر والمنطقة العربية، الملتقى الدولي حول مؤسسات الزكاة في الوطن العربي، دراسة تقويمية لتجارب مؤسسات الزكاة ودورها في مكافحة ظاهرة الفقر، جامعة البليدة، 2004، ص3.

[3] – ياسين حفصي بونبعو، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة حالة صندوق الزكاة في الجزائر، رسالة ماجستير في الاقتصاد، فرع التحليل الاقتصادي، جامعة الجزائر، 2010، ص19.

2: مؤشرات التنمية البشرية:

إن الاعتماد على الدخل الصافي بوصفه خطوة أولى لقياس مستوى الفقر يدفعنا إلى الانتقال نحو الأسلوب الاجتماعي، المتمثل بمؤشرات التنمية البشرية[2].

3:نسبة الفقر:

تعرف بأنها نسبة السكان تحت خط الفقر إلى إجمالي السكان، وهذه النسبة تقيس الأهمية النسبية للفقر سواء كان على مستوى الأفراد أو على مستوى الأسرة[3].

4: فجوة الفقر:

تمثل حجم الفجوة الإجمالية بين مداخيل الفقراء وخط الفقر، أو مقدار الدخل اللازم للخروج من حالة الفقر إلى مستوى الفقر المحدد[4].

5: شدة الفقر:

يقيس التفاوت الموجود بين الفقراء، ويمكن حسابه بوصفها تساوي الوسط الحسابي لمجموع مربعات فجوة الفقر النسبية للفقراء كافة [5].

2: إشكالية قياس الفقر:

يوجد العديد من المعوقات لقواعد بيانات قياس الفقر بمختلف الأساليب ومن أهمها: بيانات الفقر المتوفرة بشكل عام لا تتضمن معلومات كافية عن بعض شرائح المجتمع، كشريحة الأغنياء التي يكون لسلوكياتها آثارا مباشرة بالنسبة للفقراء والفقر.

---

[1] -سالم توفيق النجفي وأحمد فتحي عبد المجيد، مرجع سابق، ص48.

[2] -المرجع نفسه، ص55.

[3] - عبد الرزاق الفارس، الحكومة والفقراء والإنفاق العام، دراسة لظاهرة عجز الموازنة وأثارها الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2002، ص29.

[4] -المرجع نفسه، ص29

[5]- المرجع نفسه، ص29.

-فقدان البيانات اللازمة لحساب بعض المؤشرات، مما يؤدي إلى اللجوء لأساليب التقدير، أو إلى تنفيذ مسوح صغيرة لتوفير البيانات المطلوبة .

-عدم توفر بيانات تفصلية على مستوى الوحدات التحليلة، فمثلا في مسح نفقات ودخل الأسرة لا نستطيع الحصول على بيانات عن الإنفاق على مستوى الأفراد، كون الوحدة الإحصائية في المسح هي الأسرة[1].

-تطرح عملية قياس الفقر مشكلة أخرى تتمثل في كون: ما هي وحدة القياس المستعملة ؟ هل هي العائلة، أم أن العائلة قد تكون من فرد واحد، أو عدة أفراد؟.

-صعوبة التعبير الكمي عن العديد من المفاهيم النوعية المتداخلة، والمتنوعة، وهي مهمة صعبة من الناحية الفنية[2].

- شح البيانات عن الفئات الأشد فقرا، فغالبا ما تكون هذه الفئات محرومة من الخدمات العامة، وبالتالي ليست مقيدة ضمن سجلات الخدمات، كما أن أوضاعها غير مستقرة تؤدي إلى عدم تقييدها ضمن المسوحات[3].

3: أنواع الفقر:

الفقر ظاهرة اجتماعية، تعني عجز الفرد عن توفير ما يحتاجه من حاجات ضرورية لتحقيق الحد الأدنى من مستوى المعيشة المقبول، لذلك فقد تعددت واختلفت أشكاله وأنواعه داخل المجتمع منها:

1: الفقر البشري:

[1] – محمد عبد الله الرفاعي، معوقات بيانات قياس الفقر، المؤتمر الإحصائي العربي الأول حول الفقر، عمان، 2007، ص479.

[2] –إبراهيم العيوسي، مناهج قياس التنمية، رسالة ماجستير في الاقتصاد، معهد التخطيط القومي، القاهرة، 1997، صص1، 16.

[3]– المسوحات: من أهم المسوح نجد مسح الأسرة متعدد الأهداف، الذي يتم من خلاله جمع بيانات تتعلق بالجوانب الاقتصادية للأسر والأفراد كبيانات الإنفاق والاستهلاك والدخل والتعليم، ويشمل هذا المسح قياس مستوى المعيشة الذي طور من قبل البنك الدولي/ ينظر: فطيمة حاجي، مرجع سابق، ص 40.

وهو عجز فئة من أفراد المجتمع على تحقيق المستويات الدنيا من الاحتياجات الأساسية كالرعاية الصحية والتعليم والقدرة على المشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية بكل حرية[1].

2: الفقر النقدي:

على خلاف الفقر البشري الذي يعتبر نقصا في مجموعة من العناصر، نجد أن الفقر النقدي هو نقص في عنصر واحد هو الدخل.

إن مضمون الفقر البشري يعتبر أن نقص الدخل أساسي لوجود الفقر ولكن ليس هو الوحيد، وعليه نجد أن كل أنواع الفقر لا يمكن أن نرجعها إلى الدخل لأن الحياة البشرية لا تتلخص في الدخل، فالنقص في الدخل لا يعبر على كل العناصر الأخرى التي تؤثر على البشرية[2].

وإجمالا، يمكن أن نستنتج من خلال ما تم ذكره أنه لا يوجد تعريف محدد وموحد للفقر فقد اختلفت معانِ الفقر في كل من المعاجم اللغوية وكتب الفقه والتفسير والحديث وحتى لدى علماء الاقتصاد والاجتماع أنفسهم.

ويبدو أن موقف الإسلام من الفقر كان صريحا للغاية، من خلال معارضته لمواقف بعض الأفراد من المجتمع، فهو لا يوافق الذين يرون أن الفقر قدرا وقضاء محتوما على الفرد منذ ولادته، ولا سبيل في رأيهم إلا الرضا والقناعة به، وهي نظرة بائسة تجعل من الإنسان كائن خامل راكد لا يسعى في بذل الجهد من أجل تغيير وضعه، و الإسلام دائما يدعوا إلى تحرير الإنسان من رق الفقر والعوز. ويعارض أيضا نظرة أصحاب الاتجاه الرأسمالي المطلق إلى الفقراء، وحقوقهم على الأغنياء وعلى الدولة، ولا يقبل تلك الحلول الضعيفة التي طبقتها الرأسمالية والتي لا تجدي نفعا، ورفض الإسلام بشدة الذين دعوا إلى محاربة ومجابهة طبقة الأغنياء وإن كان الغنى مشروعا، فالإسلام يرفض مجمل هذه الآراء وما تحمله من أفكار ضيقة وبعيدة عن الصراط السوي المستقيم.

[1] – العربي عطية، إلياس بن ساسي، مرجع سابق، ص5.

[2]– سليمة بوعوينة، ظاهرة الفقر وانتشارها في الجزائر، رسالة ماجستير في العلوم الاقتصادية، جامعة الجزائر، 2003، ص7.

وعليه يمكن القول أن الإسلام لم يذم الفقر في ذاته إن كان قدرا من أقدار الله عز وجل، أما أن يرضاه الإنسان لنفسه ويسعى إليه ويضيع ماله ويرى أن ذلك أفضل له فهذا شيء لا يرضاه عقل ولا دين.

الفصل الأول: الفقر وأسبابه بالمغرب الإسلامي (ق7-9هـ/13-15م)

أولا: لمحة عن أوضاع المغرب الإسلامي مطلع القرن السابع الهجري

1: تراجع أحوال دولة الموحدين وانهيارها

2: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للموحدين في ظل رهانات التفكك والانحطاط

ثانيا: الفقر، قراءة في الأسباب.

1: الأسباب السياسية

2: الأسباب البشرية

3: الأسباب الطبيعية

4: الأسباب الاقتصادية

5: الأسباب الروحية

أولا: لمحة عن أوضاع المغرب الإسلامي مطلع القرن السابع الهجري:

إن الحديث عن أوضاع المغرب الإسلامي مطلع القرن السابع الهجري، يدعونا إلى إلقاء الضوء على بوادر الضعف والانحطاط الذي أصاب الدولة الموحدية عقب انهزامها في معركة العقاب[1]، هذه الوقعة التي أصبح عدد من المؤرخين يعودون إليها مرارا وتكرارا لأجل تفسير ملامح ذلك التراجع والتدهور الذي أصابها.

1: تراجع أحوال دولة الموحدين وانهيارها

تغيرت الأوضاع مع مطلع القرن السابع الهجري/ 13م، إذ بدأت بوادر الانهاك السياسي تنهش كيان الموحدين ومسلسل التدهور يزداد خاصة بعد معركة حصن العقاب (609هـ/1212م)، وأنها منذ ذلك الحين لم تعرف الاستقرار الذي عرفته من قبل، بعدها دخل الموحدون في دوامةلم تنتهي إلا بنهاية دولتهم.

كان أثر وقعة حصن العقاب بالأندلس[2] أسبق منه في بقية أجزاء الإمبراطورية الموحدية، فمنذ سنة(610هـ/1210م) أخذت مدن الأندلس تسقط بيد إسبانيا النصرانية دون أن يستطيع

---

[1]-حصن العقاب: يقع في موضع بين جيان و قلعة رباح يوجد في إحدى الوديان الفسيحة عند السفح الجنوبي لجبل الشارات في مكان يسميه الإسبان las Navas de Tols ، المعركة وقعت في هذا المكان و مني فيها الموحدون بهزيمة فادحة في(609هـ/1212م) قضت على سلطانهم /ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، دمشق،2005، ص318/ ينظر: ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تح: عبد القادر بوباية ، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2010، صص244.

[2]- الأندلس: يقال بضم الدال وفتحها، وهي كلمة أعجمية لم تستعملها العرب في القديم، وإنما ظهرت خلال فترة الإسلام، تنسب إلى أول قوم سكنوها يعرفون بالأندلش معجمة الشين و عرّب فيما بعد بالسين غير المعجمة، ويقال أن إسم أندلس مشتق من فنداليشيا، في حين يقال أن الأندلس هو الاسم العربي لشبه الجزيرة الأيبيرية، ويقال أن هناك صلة بين اسم أندلس بن طوبال بن يافث وبين إسم القبيلة الجرمانية الفندال، وانفرد ابن الأثير بأن النصارى يسمون الأندلس بإشبانية نسبة إلى رجل من القوط يقال له إشبانس، وقيل باسم ملك كان بها في الزمان الأول إسمه إشبان بن طيطس وهذا هو إسمها عند بطليموس، وعليه فالملاحظ أن كلمة الأندلس اشتقتها العرب من كلمة واندلوس وهي إسم لإحدى القبائل الجرمانية مثل الآلان، الوندال، ثم عربت هذه الكلمة أثناء الفتح الإسلامي للأندلس. /ينظر: أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شرحه وضبطه: مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل،ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، صص127_135/ ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم وتحقيق: محمود زينهم محمد عزت، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994، صص17-18/ينظر: أبو الحسن علي الجزري المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، تقديم: أبو الفدا عبد الله القاضي ومحمد يوسف الدقاق، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2006، ص264.

الموحدون الدفاع عنها، وفي المغرب الإسلامي يبتدئ الانحلال الموحدي سنة(615ه/1215م) ، وتلاحقت بوادر الضعف به، فقد انحسر نفوذ السلطة إلى المدن خاصة، حيث اعتصم بها الولاة الذين لم يعد لهم نفوذ على البوادي، كما اشتعلت الثورات في كثير من الجهات، ومازاد الأمر خطورة أن السلطة المركزية انتابتها فوضى، وأصبح أشياخ الموحدين يتلاعبون بملوكهم، فخلعوا عبد الواحد بن يوسف الأول، ثم قتلوه وبايعوا بعده العادل ثم خنقوه، وبايعوا المأمون ثم نكثوا، وبايعوا ابن أخيه يحي[1].

بعدها امتد الخلاف داخل الأسرة الحاكمة بتصارع أفرادها على السلطة مهملين بذلك أمور الخلافة والرعية مما جعل الدولة الموحدية تدخل في دوامة من الحروب والفتن الخارجية والداخلية، وهو ما انعكس سلبا على الخلافة التي تراجعت في جل الميادين، لم يفوت الفرصة بعض ولاة الموحدين إذ إستقلوا بولايتهم عن الدولة الموحدية[2]، وعند تولي يحي ابن الناصر خلافة الموحدين ظهر ابن هود واستولى على حصون مرسية وخطب بها لبني العباس معلنا استقلاله عن الموحدين[3]، وبذلك انتهت سلطة الموحدين على إقليم غرناطة، وكان أبو العباس إدريس الواثق بالله المعتمد عليه الملقب بأبي دبوس آخر الخلفاء الموحدين الذي قتل سنة(668ه/1271م)، وبموته انقرضت دولة الموحدين[4].

2: الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية للموحدين في ظل رهانات التفكك والانحطاط:

لاشك أن مستوى المعيشة لأي مجتمع يرتكز على الوضعية الاقتصادية السائدة، فيتحسن نسبيا في أوقات الرخاء ويتدنى في فترات الأزمات[5]، ولأجل ذلك أخذ تحسين المستوى المعيشي لأفراد المجتمع الموحدي بحظ وافر من اهتمام خلفاء الدولة الموحدية، ونظرا لكون المغرب الإسلامي، يزخر

---

[1] -محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرنين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ط3، 2000، صص 11-12.

[2] - Abdallah Larawi. L,histoire du Maghreb un essai desnthese Casablanca ,Maroc. 1995 ;p210.

[3] -الصدفي صلاح الدين: الوافي بالوفيات، ج8، إعتناء محمد يوسف نجم، مطابع دار صادر، بيروت، 1971، ص 322.

[4] -نوارة شرقي، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين، رسالة ماجستيير في التاريخ الوسيط، غير منشورة، جامعة الجزائر، 2008، ص 26.

[5] - إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص 210.

بإمكانيات جعلت منه إقليما فلاحيا، انتهج خلفاء الدولة الموحدية سياسة اقتصادية برزت ملامحها باستقامة أحوال الناس في كثير من الميادين، حيث حرص الخلفاء الموحدون على النهوض بالمنطقة في شتى المجالات زراعية كانت أم صناعية أو تجارية، وكان النظام المالي وما تضمنه من إدارة مالية مع سياسة مالية خاصة بالمصادر التي تجبى منها الأموال للحكومة المركزية[1]، وموازنة ذلك بالنفقات التي كانت تشمل أوجه الإنفاق المختلفة، وإصدار عملات نقدية تنتظم بها المعاملات بين السكان، كان لذلك كله أثر كبير في دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد إلى الازدهار، وبالتالي عم الرخاء والأمن واستقرار السكان[2].

وقد أشار المراكشي إلى تلك البحبوحة الاقتصادية التي عاشها أفراد المجتمع الموحدي خلال أزهى فتراته في قوله"ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعيادا وأعراسا ومواسم كثيرة خصب، وانتشار أمن، ودرور أرزاق، واتساع معايش، لم ير أهل المغرب أياما قط مثلها، واستمر هذا صدرا من إمارة أبي يوسف"[3]، واستمرت فترة الرخاء بالبلاد في عهد المنصور الموحدي "حتى كانت الضغينة تخرج من بلاد نول لمطة حتى تصل وحدها لاترا من يعارضها ولا من يكلمها حتى تصل إلى برقة"[4].

وأشار بعض الرحالة الجغرافيون إلى تمتع كثير من مدن وقرى بلاد المغرب الإسلامي بوفرة في المزروعات كمدينة تلمسان وما فيها من الغلات والمزارع الخصبة، ومكناسة وما احتوته من مزروعات وحدائق، ومدينة مراكش ومافيها من الزرع، وكذلك مدينة سجلماسة، التي وصفها صاحب الاستبصار بقوله"وقمحهم الرقيق الحب يسع مد النبي صلى الله عليه وسلم من قمحهم 57 ألف حبة"[5]، كما صور لنا ابن صاحب الصلاة الكميات الضخمة من القمح والشعير الذي أعده عبد

---

[1] - حسن محمد حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس- عصر المرابطين والموحدين-، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980، صص182-183.

[2] -المرجع نفسه، ص 184.

[3] - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1962، ص330.

[4] - ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس- في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- صور للطباعة والوراقة ، الرباط، 1972، ص 217.

[5] -مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، دت، ص201.

المؤمن لجنوده حين عزم على العبور إلى الأندلس في قوله "وأعد-أي عبد المؤمن – من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة ما عاينته مكدسا كأمثال الجبال، بما لم يتقدم لملك قبله،...بقي في ذلك الموضع معدا من عام سبعة وخمسين إلى عام اثنين وستين وخمسمائة حتى فني في أكداسه..."[1]، وهي صورة تعبر عن مدى وفرة محصول القمح وغيره من المحاصيل الأخرى الدالة على أن المستوى المعيشي للسكان كان في أحسن حال خلال العهد الموحدي.

لكن تلك الأوضاع سرعان ما تغيرت بعد وقعة حصن العقاب، لما خلفته تلك الهزيمة من نتائج وخيمة على الأندلس خاصة والمغرب الإسلامي عامة، فكان الخراب الاقتصادي والعمراني، ففي المغرب توقفت حركة الحراثة في البوادي[2]،كما أن عددا من المدن انتابها الخراب: مثل مدينة فاس التي اضمحلت كثير من منشآتها الصناعية والعمرانية، كما كثر الخراب في ديار مدينة مراكش[3]، وفي مكناس اندثرت مدائنها القديمة ولم يبق منها سوى الصوامع والأطلال العتيقة[4]، يضاف لهذا أن أمن المغرب الإسلامي الخارجي صار مهددا نتيجة ضعف القوى الداخلية وهكذا تعرضت عدة مدن ساحلية لهجمات بحرية كمدينة سبتة[5] التي شدد الجنويون الحصار عليها حتى صالحهم أهلها بأربعمائة ألف دينار فأقلعوا عنها سنة(636ه/1235)[6]، وفي سنة(668ه/1270م) دخل النصارى

[1]-ابن صاحب الصلاة، المن بالامامة،-تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين- تح: عبد الهادي تازي، دار الغرب الاسلامي، بيروت،1987، ص148.

[2]- ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، 1972، ص36/ ينظر: محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرنيين، ص12.

[3] -محمد حسن محمد، مرجع سابق، ص12.

[4] - ابن غازي المكناسي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تح: عطا أبو ريا وسلطان بن مليح الأسمري، ط1، مكتبة الثقافة الدينية،2007، ص79.

[5] -هي مدينة من أشهر وأقدم مدن موريطانيا، تقع في شرقي القصر على مستوى الجزيرة الخضراء، وهي على ضفة البحر الرومي (بحر الزقاق) البحر محيط بها شرقا وشمالا وقبله، وهي مدينة مصورة بسور كبير ينباع عبد الرحمن الناصر لدين الله، أهلها عرب وبربر، كان الرومان يترددون عليها كثيرا لموقعها في حلق ضيق، حيث لا يتجاوز فرسخين، لاتبعد عن اسبانيا من هناك الا بخمسة فراسخ في أطول طريق / ينظر: أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، تح: جمال طلبة، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ط1، صص285-286/ ينظر:كربخال مرمول، إفريقيا، ج2، =ترجمة: محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بن جلون، دار المعارف الجديدة للنشر والتوزيع، 1989، صص216-217.

[6] - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 276.

حصن العرائش[1]وحصن تشمس فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأموال وأضرموا الحصنين نارا ثم ارتحلوا[2]، إضافة إلى الأزمات والكوارث التي اجتاحت بلاد المغرب الإسلامي و الأندلس من ثورات ومجاعات وقحط وغلاء فاحش للأسعار، فتعسرت الأوضاع، واشتد البلاء على الجميع لانعدام موارد العيش، الأمر الذي تسبب في كارثة اجتماعية وديمغرافية خاصة مع ما فقده الموحدون من قوى بشرية مقاتلة في وقعة حصن العقاب على حد تعبير صاحب الحلل " وفي صفر سنة تسع وستمائة كانت عليه (أي الناصر لدين الله)، وعلى المسلمين الهزيمة العظمى التي فني فيها أهل المغرب والأندلس الشهيرة بكائنة العقاب"[3]، كما يعلق على ذلك صاحب الذخيرة " فوجدوا المغرب خاليا قد باد أهله ورجاله، وفني خيله وحماته وأبطاله، وقتلت قبائله وأقياله، وقد استشهد الجميع في غزوة العقاب فافقرت بلادهم فعمرها البوم والسباع والذئاب"[4].

وعموما، لم تعرف الدولة الموحدية الاستقرار بعد العقاب، وذلك لتوالي سلسلة من الثورات والفتن الداخلية فانعدم الأمن، وامتنع الناس عن دفع الضرائب، وهذه كلها مظاهر أدت إلى ظهور إرهاصات التفكك والضعف الذي لحق الدولة الموحدية خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري، وطبيعي أن يتبع هذا انحطاط في شتى العلوم والصناعات وتدهور في المستوى المعيشي والأخلاقي والاجتماعي وقد كانت هذه –مضافة إلى مظاهر الضعف الأخرى –من الأسباب التي أطاحت بالدولة الموحدية، حيث تناثرت أجزائها في الأندلس والشمال الإفريقي.

ثانيا: الفقر، قراءة في الأسباب

1: الأسباب السياسية

[1] –مديمة قديمة أسسها أهل البلاد على الساحل، عند مصب وادي ليس في المحيط، يحدها البحر من جهة ، والنهر من جهة أخرى، وكانت عامرة قبل أن تؤول أصيلا الى المسحيين، لكنها هجرت من طرف السكان خيفة، المدينة كانت محاطة بأسوار وتحيط بها سهول كبيرة ومستنقعات يكثر بها الأسماك، جل تجارها يتاجرون في الفحم. وللمزيد من المعلومات ينظر: كربخال مرمول، مصدر سابق، ج2، صص188-189.

[2] –ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص121.

[3] –ابن السماك العاملي، مصدر سابق، ص 244.

[4] – ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص26.

بدأ العامل السياسي يلعب دوره[1] عقب انهيار الدولة الموحدية في معركة حصن العقاب بالأندلس ضد النصارى(609هـ/1212م)، هذه المعركة التي أدت إلى انكماش الإسلام أمام حروب الاسترداد النصرانية، وكانت البداية الفعلية لتفكك عرى قوتها ووحدتها على حد قول صاحب الذخيرة "إلى أن كانت وقعة العقاب التي أذنت لدولتكم بالذهاب"[2]، ونتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة فانفصلت فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين[3]، وظهرت أول مبادرة للانفصال بالشرق(المغرب الأدنى) بزعامة أبو زكريا الحفصي بن عبد الواحد بن أبي حفص والي افريقية في سنة(625هـ/981م)[4]، الذي اتخذ من تونس عاصمة لملكه، وقام بخلع الطاعة للمأمون الموحدي وأسقطه من الخطبة واكتفى بالدعاء للمهدي فقط[5]، واعتبر الحفصيون أنفسهم الورثة الشرعيين للخلفاء الموحدين، وبذلك يكون لهم الحق في وراثة السلطة الموحدية لأجل تنفيذ مشروعهم التوسعي نحو الغرب فاستولى الأمير أبو زكريا على قسنطينة سنة(628هـ/984م)، ثم على بجاية وأصبح بذلك نفوذه يشمل إفريقية كلها[6].

وفي الوقت الذي انفصلت فيه الأندلس وإفريقية بدأت أحوال الخلفاء في المغرب الإسلامي تضطرب والولايات تستقل ومنها الجهة الغربية (تلمسان)، والتي شهدت بوادر إنشاء إمارة بني زيان أحد بطون قبيلة زناتة[7]،كان بنو عبد الواد عبارة عن قبائل رحل يجوبون صحراء المغرب الأوسط ما بين ميزاب إلى واد ملوية،[1]وفجيج ثم إلى سجلماسة[2].

---

[1] – بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، ص31.

[2] – ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة، ص22.

[3] –هوارية بكاي، العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى خلال القرنين السابع والعاشر، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، غير منشورة، جامعة تلمسان، 2013-2014، ص8.

[4] –محمد حسن العيدوسي، المغرب العربي في العصر الإسلامي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1 ،2008، ص197.

[5] – الزركشي أبي عبد الله بن ابراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 2002، صص23-24.

[6] –رشيد بورويبة وموسى لقبال وعبد الحميد حاجيات وعطاء الله دهينة ومحمد بلقراد، – الجزائر في التاريخ –العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني–، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص312 .

[7] – زناتة: من ولد أجانا أو زانا (شانا) بن يحي بن ضريسبن زحيك بن ما دغيس الأبتر أضيفت إليه التاء للتعميم عند الجمع على طريقة البربر، فصارت جانا أو زانات فلما عربه العرب عاملوه معاملة المفرد وأضافوا إليه هاء الجمع فصارت زناتة وهذا الشعب من أكبر شعوب البربر وكانت مواطنهم

عمل بنو عبد الواد على توطيد سلطانهم وكسب ثقة أهل المنطقة، ثم ما لبثوا أن أصبحوا سادة البلاد وحماتها وكانوا في كل صيف يتركون الصحراء ويستقرون في أراضي المراعي جنوبي وهران، ويضعون أنفسهم في خدمة الموحدين بتلمسان كلما احتاجوا إليهم في حماية تلك الأراضي من أعداء الموحدين[3]، كان من أعظم الخدمات الجليلة التي قدمها بنو عبد الواد للموحدين تدخلهم لمنع سقوط تلمسان في أيدي بني غانية[4]، الموالين لدولة المرابطين، ولأجل ذلك كافأهم الموحدون بإقطاعهم أراض واسعة في المغرب الأوسط[5]، وفي سنة(627ه/1229م) ، عقد لهم الخليفة أبو العلاء إدريس المأمون على ولاية تلمسان، وأوكل ولايتها لجابر بن يوسف ليدير شؤونها فكان هذا التعيين بادرة لظهور إمارة بنو عبد الواد كولاية مستقلة عن مراكش على حد تعبير ابن خلدون "وكانت هذه الولاية ركوبا إلى صهوة الملك الذي اقتعدوه من بعد "[6].

وكان انفرادهم بسلطة المغرب الأوسط والاستقلال عنهم سنة(633ه/1235م)، مكونين بذلك الإمارة الزيانية متخذين من تلمسان عاصمة لهم[7].

=بصحراء المغرب مابين غدامس إلى الساورة واستوطنت جماعات المغرب الأوسط وشرق المغرب الأقصى إلى جبل تازا / ينظر: ابن السماك العاملي، المصدر السابق، ص68.

[1] –واد ملوية: يقع إلى واد صاع فيجتمعان معا ويصبان في البحر ما بين جراوة ابن قيس ومليلة. /ينظر: الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تح: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص149.

[2] –سجلماسة: مدينة كبيرة كثيرة العامر وهي مقصد للوارد والصادر،كثيرة الخيرات والجنان رائقة البقاع والجهات ولا حصن عليها وإنما هي قصور وعمارات متصلة على نهر لها، كثيرة الماء يصب اليها من جهة الشرق من الصحراء ويزيد في الصيف ومنها الى أغمات وريكة ثمان مراحل ومنها إلى مدينة درعة ثلاث مراحل كبار/ينظر: الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص128/ ينظر: ابن السماك العاملي، المصدر السابق، ص67./ينظر: مجهول، الاستبصار، ص201/ ينظر: البكري أبو عبيد الله، مصدر سابق، ج1، ص332.

[3] –محمد حسن العيدوسي، مرجع سابق، ص212.

[4] –بنو غانية: هم أبناء غانية بنت عم يوسف ابن تاشفين وابوهم بن يحي المسوفي نسبة الى قبيلة مسوفة بصحراء لمتونة كان قريبا من الأمير يوسف فزوجه ببنت عمه فأنجب منها ولدين يحي ومحمد وكلاهما نشأفي بلاط المرابطين، فولاهم الامير يوسف بالأندلس، يحي على غربها ومحمد على شرقها، ويشهد ليحي أنه دوخ المغرب الأوسط وإفريقية وخرب تاهرت/ ينظر: آغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر والاسبان وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح : يحي بوعزيز، دار البصائر،ج1، 2009، ص137.

[5] –رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص359.

[6]– ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر(العبر) ، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج7، ص100.

[7] – يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج1، تح: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، صص220-225.

كما شجع هذا الفراغ السياسي قبيلة بني مرين من اعتلاء الحكم بمراكش (المغرب الأقصى) سنة(668هـ/1269م)، بعد سقوط الموحدين، فقد كانوا عبارة عن قبائل تنتقل مابين بلاد القبلة من زاب افريقية إلى سجلماسة، إلى واد ملوية وربما وصلوا في بعض الأحيان إلى بلاد الزاب بالمغرب الأوسط[1]، فلما حل الضعف بدولة الموحدين طمح بنو مرين إلى الحكم والانفصال وتكوين إمارة، فجرت بينهم العديد من المعارك إلى أن تحقق مبتغاهم في قيام دولة لهم سنة(688هـ/1269م)[2]، فكانت إيذانا بسقوط دولة الموحدين.

وبقيام هذه الكيانات السياسية الثلاثة عادت منطقة المغرب الإسلامي إلى الصراع القبلي الذي كان سائدا قبيل عصر المرابطين. وعلى الرغم من أن هذه القبائل تكتلت في تشكيلات سياسية إلا أن الصراع بينهما تفاقم نتيجة لذلك العداء القائم والحروب المستمرة والحصارات الطويلة الأمد بين الكيانات الثلاثة، من أجل بسط النفوذ على كامل بلاد المغرب الاسلامي، ومحاولة توسيع الرقعة الجغرافية لإماراتهم، وكذا سعي كل كيان إلى ضرورة الحفاظ على الموارد الاقتصادية التي ورثوها من قبل الدولة الموحدية، فراحوا يستعملون شتى الطرق والوسائل لتحقيق مآربهم غير مبالين بانعكسات تلك الأزمات والصراعات على أفراد مجتمعاتهم، فظلت العلاقة بينهم متوترة، في مد وجزر على طول تاريخ الدويلات الثلاث تتخللها بعض فترات السلم والهدنة. ولأجل ذلك لابد من طرح التساءل الأتي: ما هي أبرز الخلافات السياسية والفتن الداخلية والخارجية ؟ وفيم تمثلت انعكاساتها على الفرد والمجتمع معا؟.

ا: الخلافات السياسية

1: الخلافات السياسية بين الزيانيين والحفصيين

[1] -سمية مزدور، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط من القرن (6-10هـ/12-16م) ، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة قسنطينة، غير منشورة، 2008، صص 34-38.

[2] -محمد حسن العيدوسي، مرجع سابق، ص197/ ينظر: رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص 205.

لما تمكن يغمراسن بن زيان من زمام السلطة والملك وعلت مكانته بمملكته أصبح الخطر يحدق ببلاده شرقا وغربا بحكم موقعها الوسطي، كان العرب يسيطرون على وديان الساحل الشمالي ويفرضون الأتاوات على سكانه ولم تكن آنذاك دولة بني زيان بالقوة التي تمكنها من إخضاعهم، إضافة إلى منافسة بني توجين ومغراوة الذين خرجوا عن طاعتها مما دفع بيغمراسن إلى محاربتهم ومنازلتهم في ديارهم، الأمر الذي جعل هذه القبائل تتحالف مع الأمير الحفصي أبي زكريا الحفصي، إذ كانت له مطامع توسعية ترمي إلى الاستلاء على بلاد المغرب كلها.

كان الأمير الحفصي أبا زكريا يخشى أن يعقد السلم بين بني زيان وبني مرين لأجل التحالف ضده، فعزم على محاربة بني زيان الذين اعتبرهم حجرة عثر أمام طريقه إلى مراكش، فظل يتحين الفرصة السانحة حتى يكتسح تلمسان ويقضي على يغمراسن ويستولي على مملكته، وفعلا استغل فرصة ذهاب وفد من قبائل بني توجين وبني منديل (مغراوة) بزعامة عبد القوي التوجيني وأمراء مغراوة طالبين منه المساعدة ضد يغمراسن ويعدونه بالطاعة ومساندته للسيطرة على تلمسان وجعل زناته تحت رايته[1]، وكانت البداية الفعلية لتوتر العلاقات السياسية وظهور الأزمات والحروب والفتن بين الإمارتين الزيانية والحفصية، فقويت أمال أبا زكريا، واستعد لذلك بضم إليه أعراب رياح وسليم ونزل بمليانة سنة(640ه/1242م)، ومنها راسل يغمراسن يطلب طاعته فأبى ورفض، حينئذ تحرك أبا زكريا نحو تلمسان وبالغ في التنكيل بأهلها تأديبا ليغمراسن، واستطاع أن يسيطر على تلمسان[2]، وجعلها ولاية تابعة له.

واستمر التوتر بين الحفصيين والزيانيين حين ساند أبو سعيد عثمان بن يغمراسن لأبي حفص سلطان بجاية الذي استنجد به إثر مهاجمة أبو زكريا بن أبي إسحاق الحفصي صهر أبي سعيد عثمان بمساعدة عرب الذواودة على بجاية[3]. وربما كان هدف أبو سعيد من هذا الأمر هو التوسع شرقا وبالفعل نهض بجيوشه سنة (668ه/1269م) في اتجاه بجاية فاستولى على بلاد بني توجين ومغراوة

[1] – محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية، ص 142.

[2] – المرجع نفسه، ص143.

[3] –عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الثاني، حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص14.

وما وراءهما من أعمال الحفصيين وحاصر بجاية فاستعصت عليه فاضطر إلى العودة إلى عاصمته تلمسان واستولى في طريقه على مازونة وتنس[1].

كما زادت بؤرة التوتر لما غزا السلطان المرييني يوسف بن يعقوب تلمسان سنة(698هـ/1299م)، وفرض عليها الحصار المشهور، عندئذ استعان عثمان بن يغمراسن بأمير بجاية الحفصي الذي قدم مساعدة كبيرة لبني عبد الواد، عملت على إلحاق هزيمة عظيمة بالمرنيين في جبل الزاب عرفت المعركة بمرسى الرؤوس لكثرة ما تساقط فيها من رؤوس العباد[2]، وهذه الحادثة زادت من حدة الوضع، والمنافسة بين يوسف المريني وصاحب بجاية أبو زكريا الأوسط الحفصي الذي كان على خلاف مع صاحب عرش تونس الحفصي، ولأجل ذلك استقل سلطان تونس الحفصي وحاول أن يوطد علاقته بالسلطان المرييني فعرض عليه التعاون لإسقاط عرش تلمسان، فرد عليه الأمير عثمان بن يغمراسن بإسقاط الدعوة الحفصية من منابر تلمسان وقطع حبل التبعية التي كانت بينهما[3].

وفي خلافة أبي تاشفين الأول كان الصراع الزياني الحفصي قد بلغ أوجه عندما قدم أبو يحي الحفصي بجيش هام لصد الجيش الزياني عن بجاية، فانهزم أبو يحي شر هزيمة، إذ استولو بني عبد الواد على ممتلكاته وأفلت هو جريحا إلى قسنطينة ثم دخلوا تونس فأقاموا فيها أربعين يوما، وأسلموها لابن أبي عمران وحمزة بن عمر السلمي، وقفلوا راجعين سنة(730هـ/1329م)[4] .

كثرت الحملات الزيانية المتكررة على الأراضي الحفصية ولم يجد السلطان الحفصي بديلا إلا الإستعانة ببني مرين، وهي الفرصة نفسها التي كان ينتظرها المرينيون، فبعث السلطان المريني رسلا إلى أبي تاشفين الأول يدعوه إلى الكف عن محاصرة بجاية لكن الطلب قبل بالرفض[5]. وبعد وفاة السلطان

[1] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص123.
[2] –المصدر نفسه، ج7، ص122.
[3] –المصدر نفسه، ج7، ص122.
[4] –يحي ابن خلدون، البغية، ج1، ص242.
[5] – أبو عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود آغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر،2011، ص145/ يحي بن خلدون، البغية،ج1، ص160.

أبو سعيد عثمان خلفه ابنه أبو الحسن المريني صهر الحفصيين الذي أعاد طلب والده على أبي تاشفين بالكف عن مهاجمة أراضي الحفصيين فكان الرفض للمرة الثانية[1].

لم يترك هذا الرفض أي مجال لاستمرار السلم بين الدولتين، فشنى أبو الحسن حملة لغزو تلمسان وفرض عليها حصارا مرة ثانية سنة(737هـ/1339م)، فَرَضُوا خلاله السيطرة المرينية على كل تلمسان و المدن المجاورة لها مدة طويلة[2].

في خضم هذه الأحداث أصبح بنو حفص بمنأى عن خطر الزيانيين إلى أن تولى أبو مالك الزياني زمام الحكم سنة(814 هـ/1411م)[3].

كان أول ما بدأ به هذا السلطان أن استعاد من الحفصيين كل المناطق التي استولوا عليها بشرق دولته.كما جهز السلطان الحفصي أبو فارس عزوز حملة لغزو تلمسان، فتمكن خلالها من دخول تلمسان عام(827هـ/ 1424م)، وإزاحة السلطان أبا مالك عن عرشها، بعدها توجه السلطان الحفصي نحو فاس أين تمت مبايعته فور وصوله إليها، فعاد إلى عاصمة ملكه بتونس وقد أحكم سيطرته على بلاد المغرب الإسلامي[4]، ولكن سرعان ما عاد أبو مالك واستطاع دخول تلمسان واسترجاع عرشه سنة(831هـ/1423م)[5].

تباينت علاقات الزيانيين بالحفصين بعد هذه الأزمات بين مد وجزر حتى سنة(866هـ/1463م)، أين علم السلطان الزياني المتوكل بما أقدمت عليه قبائل العرب من بني سويد وبني عامر والذواودة، وأعيان بني عبد الواد ناقمين وساخطين منه وراغبين في طاعة الحفصيين، حينها

---

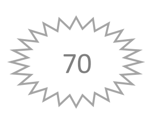
[1] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص146.

[2] –عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، ص21./ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، صص146-148.

[3] –عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، الجزائر، 2008، ص195.

[4]– محمد العروسي المطوي، مرجع سابق، صص570-571.

[5] –المرجع نفسه، ص 24.



أرسل وفدا إلى السلطان الحفصي أبي عمروا مبايعا له ومعلنا فروض الطاعة والولاء وعقد معه عقد الصلح وكان ذلك سنة(866هـ/1464م)[1].

لكن يعود الصراع من جديد في عهد السلطان أبو ثابت محمد المتوكل(870هـ/1466م)، حين رفض دعوة الحفصيين وقام بطرد ولاتها وعمالها من بني عامر وبني سويد معلنا إستقلاله عن السلطان الحفصي، لكن سرعان ما تراجع عن موقفه وقدم البيعة مجددا للسلطان الحفصي[2].

وبذلك يمكن القول أن الخلافات السياسية بين الدولتين الزيانية والحفصية ظلت قائمة خلال هذه الفترة، وأن الدولة الزيانيةلم تستطع ما يقارب الستين سنة أن تتخلص من السيطرة الحفصية التي ما فتئت تلعب دورا رئيسيا في تاريخ بني زيان، تلك الخلافات التي نجم عنها حروب وحصارات طويلة الأمد، والتي أودت بحياة الكثيرين من أفراد المجتمع وعملت على تجويعهم وتفقيرهم.

2: الخلافات السياسية بين الزيانيين والمرينيين

كان أكثر ما ميز العلاقات المرينية الزيانية، هو ذلك الصراع السياسي والعسكري الذي غذته الضغائن، والرغبة اللامتناهية في تحقيق السيادة وبسط النفوذ على كامل بلاد المغرب الإسلامي.

لم تكن دولة بني مرين الفتية لترضى بمجاورة بني عبد الواد المنافسين لها، وذلك بعدما رأت من المكانة التي يتبوأها السلطان يغمراسن في ميدان السياسة والحرب، فنشأ عن ذلك حقد وعدواة كان مبعثها المنافسة على رئاسة زناتة والسلطة المطلقة على المغرب الأوسط[3].

ويرجع تاريخ بداية الخلافات بين الدولتين إلى ما بعد هزيمة الموحدين بضواحي تلمسان أمام بني مرين، واستيلاء الأمير أبو بكر على فاس سنة(647هـ/1249م)، حينها استنجد الخليفة المرتضى

---

1 – عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج2، صص 272-273.

2 –هوارية بكاي، مرجع سابق، ص 33.

3 –عبد الرحمن الجيلالي، ج2، ص154.



بايغمراسن بن زيان واعد إياه بالتنازل له عن كل الأراضي التي يستولي عليها خلال زحفه على فاس، وهي الأراضي التي تملكها بني مرين[1].

لبى يغمراسن دعوة المرتضى وخرج من تلمسان في حشد كبير من قواته وقوات بني توجين وكافة القبائل من زناته[2]، وإلتقى الجمعان في منطقة وادي ايسلي في ذي الحجة (647ه/1250م)، بالقرب من وجدة، أين دارت بينهما معركة كبيرة وكان النصر حليف بنو مرين[3]، وفَرَّ على أثرها يغمراسن تاركا محلته بما فيها نهبا وسلبا لبني مرين[4].

كان للتحالف الذي دعى يغمراسن إليه الخليفة الموحدي أبي دبوس سنة(665ه/1267م) ضد بني مرين في قوله" إياك أن تطمع بني مرين فيما لديك، وأنا أكفيك شرهم"[5]، سببا في محاصرة جيوش الأمير أبو يوسف لعاصمة الموحدين مراكش وتشديد الخناق عليها، الأمر الذي أدى بالخليفة الموحدي طلب النجدة من يغمراسن، فهَمَّ هذا الأخير بشن غارات على الحدود الشرقية لبني مرين، الأمر الذي أدى بأبي يوسف إلى رفع الحصار مؤقتا واتجه صوب فاس أين جهز جيشا سنة(666ه/1267م)، وإتجه نحو الأراضي التلمسانية والتقى الجمعان في منطقة وادي تلاغ[6]، وتعد هذه الوقعة من أعنف المعارك بين الدولتين إذ قتل فيها أبو حفص عمر أكبر أولاد يغمراسن وولي عهده، بالإضافة إلى عدد كبير من خيرة رجاله ووجهاء عشيرته فكانت هذه الهزيمة ضربة قاسية لبني عبد الواد[7].

---

[1] -ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، صص72-73.

[2] - ابن خلدون، العبر، ج7، ص112.

[3] -المصدر نفسه، ج7، ص172.

[4] -هوارية بكاي، مرجع سابق، ص452.

[5] -ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، ص 112.

[6] -ابن خلدون، العبر، ج7، ص117/ ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة، ص116/ينظر: أبو العباس الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة المرينية، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1997، ج3، ص 25.

[7] -ابن خلدون، العبر، ج7، ص115/ينظر: محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، دار القلم، ط1987،2، ص218 /ينظر: ابن أبي زرع، الروض القرطاس، ص130/ ينظر: السلاوي،ج2، ص26.

وفي سنة(670هـ/1272م)، تجدد الصراع من جديد بعد رفض يغمراسن الصلح مع السلطان يعقوب بن عبد الحق المرييني[1]. نتيجة لهذا الرفض ترك السلطان أبو يوسف يعقوب شأن الأندلس وسار نحو تلمسان لقتال يغمراسن فكان اللقاء في منطقة ايسلي قرب وجدة سنة(670هـ1272م)[2]، وطبعا انهزم فيها الزيانيون مرة أخرى وهرب يغمراسن من محلته بعدما أضرمت فيها النيران وقتل ولده أبو عنان فارس، وخلالها حطم المرينيون مدينة وجدة وتلمسان وأطلقوا الأيدي فيها بالسلب والنهب[3].

واستمر العداء والصراع بين الطرفين بشن السلطان يعقوب حصارا على تلمسان الذي"عاث في ساحتها نهبا وشنى الغارات في بسائطها فاكتسحها سبيا وسفها، وكان ذلك بدعم عبد القوي بن العباس بن عطية كبير بني توجين من زناته"[4].

وبعد توالي الهزائم على يغمراسن من طرف بني مرين، تأكد أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال مجابهتهم لعدم تكافؤ القوى فأوصى ولده عثمان بمسالمة بني مرين وعدم الإعتداء على أراضيهم[5].وعملا بوصية يغمراسن استهل عثمان فترة حكمه بمهادنة بني مرين، وتوجه لتأديب الإمارات الشرقية الموالية للحفصيين، وبني توجين ومغراوة[6].

لكن يعود تأزم العلاقات من جديد بين الدولتين على إثر حادثة وهي أن ابن أبي يعقوب يوسف يسمى أبا عامر كان واليا على مراكش فثار على أبيه يعقوب وظاهره في ذلك وزير يسمى بن عطو فسار إليه أبوه وأدبه وهزمه، فانتهب الأمير ووزيره مال مراكش وهم بالفرار إلى إمارة تلمسان يطلب الحماية من أبي سعيد عثمان بن يغمراسن سنة(688هـ/1289م)، فما كان منه إلا إكرامهما وأجار

[1] -هوارية بكاي، مرجع سابق، ص 193.

[2] - ابن خلدون، العبر، ج7، صص120،115.

[3] -المصدر نفسه، ج7، ص115/ ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، صص 104-105 .

[4] -المرجع نفسه، ص 195.

[5] - ابن خلدون، العبر، ج7، صص283،123.

[6] -المصدر نفسه،ج7، ص283. /ينظر: محمد بن عمرو الطمار، بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور–دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص98.

أبا عامر على أبيه[1]، ثم عفي السلطان المريني عن ابنه وأعاده إلى فاس، بعدها طلب من السلطان أبي عثمان أن يسلمه الوزير ابن عطو، فرفض هذا الأخير مما أثار حفيظة السلطان المريني، خلالها قرر غزو تلمسان فأحتشد في ذلك القبائل وكافة أهل المغرب، وسار ينسف في نواحي تلمسان الأثار ويخرب العمران. على حد قول ابن خلدون" ونزل بذراع الصابون بساحتها. ثم انتقل منه الى تامة، وحاصرها أربعين يوما، وقطع أشجارها، وأباد خضراءها"[2].

كما عاود محاصرتها سنة(698ه/1298م)، ونصب عليها المجانيق، وقطع أشجارها وخرب ما حولها من القرى والزرع في قول ابن خلدون " أنه أدار الأسوار سياجا على عمرانها كلّه، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى"[3]، وكان هذا الحصار من أطول الحصارات على تلمسان إذ دام حوالي ثمانية أعوام وثلاثة أشهر[4]، وقد بلغ من مات من أهل تلمسان في هذا الحصار حوالي مائة ألف وعشرون ألف شخص[5].

وفي فترة حكم أبي حمو موسى الأول وجه نظره إلى الجهة الشرقية ليضرب على يد من طغى وعصى الطاعة أيام الحصار[6]، فقصد بني توجين ومغراوة فشرد محمد بن عطية على الونشريس وراشد بن محمد عن نواحي الشلف، وعقد لمحمد بن عمه يوسف على مليانة، ومدا سيطرته بعد ذلك إلى متيجة[7].

ومما زاد من حدة توتر الأزمات بين الطرفين، لما استولى الزيانيون على تونس سنة(729ه/1328) عمل الحفصيون على الاستنجاد بالمرنيين فبدؤوا المرنييون بسلسلة من الحملات العسكرية على حدود الدولة الزيانية ظاهرها مساعدة الحفصيين وحقيقتها السيطرة على المغرب

[1] -ابن خلدون، العبر، ج7، صص281-282.
[2] - المصدر نفسه، ج7، ص 284.
[3] - المصدر نفسه، ج7، ص292.
[4] - يحي ابن خلدون، البغية، ج1، ص234./ينظر: السلاوي، ج3، ص79-80.
[5] - يحي ابن خلدون، ج1، ص234.
[6] - هوارية بكاي، مرجع سابق، ص 465.
[7] - يحي ابن خلدون، ج1، ص236/ ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، ص132.

الأوسط ثم على المغرب الإسلامي كله[1]، فلما رفض الزيانيون الخروج من قسنطينة وجد بنو مرين ذلك فرصة للتدخل، فزحفوا نحو تلمسان سنة(735هـ /1335م)، وحاصروها وعمدوا إلى قطع عنصر هام وهو المياه، فاستولوا عليها وقتلوا أبا تاشفين سنة(737هـ/1337م[2])، وبذلك سيطر بنو مرين مرة أخرى على المغرب الأوسط لمدة زمنية زادت عن اثني عشرة سنة[3].

لم تهدأ الأوضاع في منطقة المغرب الأوسط كثيرا ففي سنة(750هـ/1349م) قام الأمير المريني أبو عنان بمساعدة الزيانيين في حربهم ضد والده أبي الحسن الذي كان بالجهة الشرقية، وضد أخيه الناصر سنة(751هـ/1350م)[4]، لكن المرينين قاموا بعد انتصار أبي عنان على أبيه بمحاصرة تلمسان سنة(753هـ/1352م)، والاستيلاء عليها وقتل سلطانها أبي سعيد[5].

ولما أحي أبو حمو موسى الزياني الثاني الدولة من جديد حاول المرينيون الإستيلاء على تلمسان أربع مرات في هجمات مكثفة ومتفرقة من سنة(760-774هـ/1372م–1359م)، وكانت سنة (768-774هـ) هي الأطول زمنيا، وتمكن السلطان المريني عبد العزيز من احتلالها والهيمنة على المغرب الأوسط الذي أصابه خلال هذه الفترة ضيقا شديدا[6].

وكانت هناك مواجهات أخرى بين المرينن والزيانيين بين الحين والآخر، حتى أصبحت الدولة المرينية تتدخل مباشرة في شؤون البيت الزياني تطيح بمن تشاء وتولي من تشاء على تلمسان، فكثرت خلالها الفوضى السياسية والفتن الداخلية التي أفقدتها الكثير من أقاليمها وصارت تحت نفوذ القبائل المعادية لها، وتدخل المرينين في شؤون المغرب الأوسط ظلّ قائما، وصار بنو زيان لعبة في يد المرينين يسيطرون عليهم بالترهيب حينا وبالترغيب أحيانا، فأضعفوا كيان الدولة وكسروا شوكتها بهذا التدخل

[1] -سليمان ولد غسال، جهود الفقهاء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين ستة (922/633هـ)، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية- تخصص: أصول الفقه- جامعة الجزائر، غير منشورة، دت، ص 282.

[2] -ابن خلدون، العبر، ج7، ص 341.

[3] -عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، ج1، الجزائر، 2011، ص 47.

[4] - ابن خلدون، العبر، ج7، ص157.

[5] -يحي ابن خلدون، البغية، ج2، صص264-265. /ينظر: السلاوي، ج4، صص68،57.

[6] -يحي ابن خلدون، ج2، ص179. /ينظر: ابن الأحمر بن الوليد إسماعيل، روضة النسرين في دولة بني مرين، مطبوعات القصر الملكي، الرباط، 1968، ص56.

المستمر[1]. كما إعترى بنو مرين الضعف جراء التكاليف الباهظة التي كانت تسخرها للحملات العسكرية المتكررة ضد بني زيان وبني حفص، إضافة إلى الفتن الداخلية وكذا غارات القبائل المجاورة لها بين الحين والآخر مما كان لها نفس المصير إذ تولى أمر حكمهم بنو وطاس(875-957هـ/1470-1550م)[2].

والظاهر لنا من خلال تتبع صيرورة الخلافات والأزمات السياسية بين المرنيين والزيانين التي تم ذكرها يلاحظ ما تمخض عنها من حروب وحصارات طويلة الأمد تكبد خسائرها الطرفين، إلا أن المغرب الأوسط كان أكثر ضررا لأنه كان مسرحا للأحداث بحكم موقعه الوسطي.

3: الخلافات السياسية بين المرنيين والحفصيين

بالرغم من أن العلاقات بين المرنيين والحفصيين شهدت خلافات وأزمات سياسية أدت إلى حروب إلا أنهالم تكن بنفس الحدة وبالحجم الذي شهدته علاقات الزيانيين والمرنيين، ربما كان ذلك لبعد المسافة بينهم وكذا وجود قوة الزيانيين أمامهم كحصن متين يصعب قهره.

ويبدو أن بداية ظهور الخلافات وتأزم العلاقات بينهم كان نتيجة رد فعل المرنيين عندما قام الحفصيون بإحتضان بعض الثوار المعادين للمرنيين[3]. وكذالك لما تمت المصاهرة بين السلطانيين الحفصي والمريني،كتب السلطان الحفصي وثيقة ولاية العهد لإبنه أبي العباس أحمد، وجعل صهره أبا الحسن المريني الضامن لالتزام سائر الأمراء الحفصيين بتنفيذ الوصية[4].

---

[1] – عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج1، ص69.

[2] –هوارية بكاي، مرجع سابق، صص488-489.

[3] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص 297/ ينظر: الحريري، مرجع سابق، ص 213.

[4]– الزركشي، مصدر سابق، ص67 /ينظر: الحريري، مرجع سابق، ص214 .

ويبدو أن هذه الظاهرة كان لها الأثر السلبي على واقع الحفصيين، إذ بمجرد مقتل أبي العباس ولي العهد من قبل أخيه أبي حفص عمر سنة(747هـ/1346م)، مما اتخذه المرينيون كمبررا لدخولهم إلى إفريقية[1].

وعليه تم غزو إفريقية على فترتين: الأولى كانت من سنة(748هـ-1347م/750هـ-1349م)، خلال عهد السلطان أبي الحسن المريني، والثانية من سنة(753هـ-1352م/761هـ-1360م)، خلال عهد السلطان أبي العنان[2].

فضلا عن ذلك،كانت هناك بعض التوترات والأزمات الداخلية كمجابهة الأعراب وثوراتهم، و تنامي دور العامة السياسي داخل السلطنة الحفصية كحركة بن أبي عمارة في نهاية القرن السابع الهجري، التي كادت أن تهدد كيان الحكم الحفصي وكذا ثورة بن الكعوب[3].

وصفوة القول أن العلاقات السياسية بين الدويلات الثلاثة، ظلت مهددة بالتوتر خلال الفترة الممتدة من القرن السابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري وما بعده، مما انعكس ذلك سلبا على الناحية الاجتماعية للسكان وساهم في تأزم أوضاعهم المادية.

ب: فساد الحكام وأنظمتهم السياسية وأثرها في قيام حركات شعبية ضد الجوع والفقر:

للحكام أثر كبير في قيادة الشعوب نحو الخير أو الشر على السواء؛ فبصلاحهم تصلح البلاد وبفسادهم تسوء، ويعود ذلك إلى قضية الأخلاق، والشخصية المنحرفة في نظر الشارع المقدس هي من تقوم بأي عمل يفسد النظام، مما يلحق الضرر بالمصلحة الفردية أو المصلحة الاجتماعية أو بكلتيهما معا[4]، والباحث في تاريخ المغرب الاسلامي يجد أن معظم الثورات والحركات الشعبية التي قامت داخل مجتمعاته، كان محركها ودافعها فساد أنظمة الحكم وجورها وتسلطها على الرعية، من

---

[1] -الزركشي، مصدر سابق، ص 69.

[2] - المصدر نفسه، ص 69./ ينظر: سليمان ولد غسال، ص 284.

[3] - حسن محمد حسن، مرجع سابق، ص 677.

[4] - تواتية بودالية، البيئة في بلاد الأندلس عصري الخلافة وملوك الطوائف، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، غير منشورة، جامعة وهران، 2013-2014، ص 111.

خلال تركيز ملكية الأراضي في يد الأقلية، وشطط موظفي الدولة في جباية ضرائب مجحفة، وتجاهل حقوق الفئات الشعبية الضعيفة، وعدم مبالاة السلطة بالشؤون الإقتصادية والإجتماعية للناس لاسيما أوقات الظروف الحالكة[1]، مما أدى إلى تفشي الفقر داخل المجتمع وبالتالي قيام تلك الإنتفاضات والتمردات وحسبنا في ذلك شهادة مرمول في قوله" إذلم يترددوا في بعض الأحيان عن قتل الحكام المعينين من قسنطينة، لأنهم لم يرضوا بظلمهم ولم يتحملوا استبدادهم"[2].

ولأن الكتابة التاريخية ظلت أسيرة البلاط السلطاني، ومتفننة في سرد تاريخ الحاكم ووصف إيجابياته فقط، متغاضية عن أعماله الإنحرافية، بانصرافه وانكبابه في اللهو والملذات، فضلا عن الجرأة في ارتكاب المعاصي وتعدي حدود الله، ومعرضة كذلك عن ذكر سياسته الإستبدادية وتجاوزاته الظالمة ضد من أسماهم بن خلدون بصانعي وسائل المعاش[3]، هذه الكتابات التي أقصت وتناست من دائرتها الحديث عن هذه الحركات والإنتفاضات التي حركتها دوافع بيولوجية حتمية، ربما كان ذلك التغييب لأبعاد سياسية إيديولوجية رسمية، أو كان مستهدفا باعتبارهم أنها فئات متمردة أو جماعات شاردة مما يستوجب إقصائهم وإبعادهم من دخول دائرة التاريخ[4]، أو كان ذلك بقصد الإعراض والتناسي وتقزيم أخبار الجماعات المغيبة والمهمشة في مؤلفاتهم، وقد يكون إغفال المؤرخين للكتابة عن هذه الشرائح، راجع إلى كون الناس كما يقول بعض الباحثين" تدفن في ذاكرتها الأكثر ظلاما هذه المآسي اليومية، وأولئك الذين ساهموا فيها ألا يسردوا على أولادهم ولا على أنفسهم، إلا ما هو جدير بأن يكون"[5]، أو ربما كان لاعتبارات أخرى كسيادة الشخصية البارزة على تفكير المؤرخ الذي رأى في سيده مسيدا لرمز البطولة والقدرة على صنع مسار التاريخ، لذلك إتبع التفسير الأحادي لأحداث التاريخ متجاهلا

---

[1] -فاطمة العيساوي، عن الفقر والفقراء في تاريخ المغرب- ضمن كتاب وقفات في تاريخ المغرب،-دراسات مهداة للاستاذ إبراهيم بوطالب، تنسيق: عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الرباط، ط1، 2001، ص154.

[2] - مرمول كربخال، إفريقيا، ص14.

[3] - إبراهيم القادري بوتشيش، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014، ص 28-33.

[4] - نفسه، صص28-33.

[5] - خالد بلعربي، "**المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني (698-845ه/1299-1442م)**" ، "**دورية كان التاريخية**"، ع/4، 2009، ص20.

الفئات الأخرى التي أعلنت الإنتفاضات والإحتجاجات الإجتماعية[1]، وهي كلها مؤلفات عملت على مناصرة السلطة ومساندتها، وكبح وإدانة دور الفئات الشعبية وحركاتها، الأمر الذي أدخل نوعا من التشكيك لدى الباحث المعاصر في معرفة الحقيقة التاريخية.

تأسيسا لهذه الرؤية، سنسعى إلى محاولة البحث عن أهم الثورات والحركات الشعبية الناقمة من سياسة بعض الحكام الجائرين والمتسببيين في طمس تاريخ الفئات المستضعفة، من خلال بعض النصوص التي كتب لها الظهور والتدوين في متون التاريخ.

إن الصورة التي قدمتها لنا النصوص عن مظاهر الحياة الإجتماعية للفئات الفقيرة في المغرب الإسلامي، والتي تعلقت بالجوانب الثلاث: الغذاء واللباس والمسكن،كشفت عن حياة بائسة وشاقة لكثير من الفئات الفقيرة الضعيفة الدخل، كما ترجمت لنا الآثار الناتجة عنها من سلب ونهب وقيام بعض الثورات والحركات الناقمة والساخطة على تلك الأوضاع المزرية.

ومن الحركات الشعبية التي ظهرت زمن الدراسة بالمغرب الإسلامي، حركة بن أبي عمارة بالمغرب الحفصي والتي كانت ناجمة عن الإستبداد السياسي من طرف الحكام وتدهور الأوضاع الإجتماعية زمن الكوارث الطبيعية والمجاعات التي حلت أواسط القرنين السابع والثامن الهجريين/13-14م. ففي أواسط القرن السابع حل بمدينة تونس جوع ناجم عن نقص في الإنتاج الزراعي، رافقه إرتفاع باهض لأسعار الحبوب[2] نتيجة طغيان حشرة الجراد على أكل الزروع حسب قول الزركشي" تسلط الجراد على بلاد المغرب فألتهم الأشجار والمزروعات، وبلغ ثمن صاع القمح 10دراهم وأصبح في العام الموالي4 دنانير أكل القمح فريكا ثم عدم في سنبله"[3]، وهذا الأمر كان سببا في انتفاضة العامة وتمردها ضد حكام الدولة ناقمين على سياستهم وحكمهم.

---

[1] – إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، صص30-33.

[2] - محمد حسن، حركات العامة بمدن افريقية في العهد الحفصي، ضمن كتاب: المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة قرطاج، 1999م،ص230.

[3] – الزركشي، تاريخ الدولتين، ص45.

كما كان لكثرة الأوبئة والطواعين التي داهمت عديد البلدان المتوسطية خلال فترة الدراسة مثل الطاعون الجارف سنة (749هـ/1348م)، أن أسفرت عن مناخ إجتماعي متردي، أدى إلى إنتشار شبح الجوع داخل المجتمع التونسي حسب شهادة الزركشي في قوله"وفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة إرتفع سعر الطعام بالمدينة حتى بلغ القفيز من القمح 11دينارا ذهبا والشعير إلى نصف ذلك"[1]، ورغم القحوط والمجاعات التي إعترت المجتمع خلال هذه الفترة إلا أن المصادر لم تذكر أية رودود فعل للفئات الفقيرة تجاه السلطة. ماعدا سنة(862هـ/1457م)، أين ارتفعت سعر الحبوب بأنواعها فشكى الناس قلة الطعام وغلاءه للسلطان، "فأمر بالتصدق عليهم في كل يوم ألف خبزة على الفقراء بباب ينتجمي"[2].

ومن خلال القراءة بين متون المصادر يلاحظ أن جل الكوارث البيئية التي عصفت بالمغرب الإسلامي لم تؤد إلى رد فعل قوي للعامة على غرار الأزمات الاقتصادية الناجمة عن سياسة لا شعبية للسلطة[3]، فكثيرا ما أسفرت عن إضطرابات إجتماعية، ومثال ذلك ما حصل أيام حكم أبي إسحاق (679-681هـ) بظهور أخطر حركة هددت كيان الحكم الحفصي، وكادت أن تعصف به، خاصة أنها تزامنت واستفحال ظاهرة الجوع في البلاد[4].

كان للسياسة التي انتهجها السلطان أبي إسحاق تجاه الرعية، والتي تميزت بالإسراف في زمن الشدة [5]حسب قول ابن الشماع" فزاد في العوائد ليجد الراحة في لذاته بعد تقدم غزواته، وقلت المجابي في أيامه وكثر الإخراج والإنفاق"[6]، عملت هذه السياسة على إزدياد التوتر الإجتماعي داخل البلاد

[1] - الزركشي، تاريخ الدولتين، ص95.

[2] - المصدر نفسه، ص 150.

[3] - محمد حسن، مرجع سابق، ص232.

[4]- ابن الشماع أبو عبد الله أحمد، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984، ص136.

[5] - محمد حسن، مرجع سابق، ص 234.

[6] - ابن الشماع، صص136-137.

الإفريقية، إذ "إستولى العرب في أيامه بتونس على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم، وهو أول من كتب البلاد الغربية للعرب بالظهائر"[1]، الأمر الذي أخل التعايش بين البدو والحضر.

فضلا عن الإستبداد السياسي الذي مورس من قبل هذا السلطان، وذلك بالتخلص من خصومه عن طريق التنكيل بهم وقتلهم الواحد تلو الآخر[2]، مما كثر أعداؤه داخل البلاط الحفصي وخارجه وإزدادت الهوة بينه وبين الرعية.

كلها عوامل أثارت سخط أفراد المجتمع التونسي وتذمره منه، فكان الناس حسب تعبير بن قنفد"على تزلزل لأجل سطوته وانقطاعه إلى شهوته"[3].

قاد هذه الحركة الحرفي بن أبي عمارة المسيلي سنة(681هـ/1283م)[4]، بمعاونة الفتى نصير المعروف بنوبى مولى الواثق، والذي لقنه الدور الذي يجب أن يقوم به لإدعاء الانتساب إلى البيت الحفصي، باعتباره الفضل بن الواثق، وما ساعده أيضا مبايعة وانضمام أولاد دباب وعلى رأسهم الشيخ أبي علي مرغم بن صابر بن عسكر الذي عضده وجمع عليه العرب[5].

ولم تكتسب هذه الحركة عصبية قوية إلا بالتحاق قبيلة بني كعب بها، واعتراف الكثير من المدن[6] مثل: جربة، ونفزاوة، وقابس، وتوزر، والقيروان، والمهدية، وصفاقس، بسلطة بن أبي عمارة، فضلا عن إلتحاق طبقات الجنود وشيوخ الموحدين وعلى رأسهم كبير الدولة بن ياسين[7].

إتسمت سياسة هذا الدعي برفع ضريبة الإنزال عن الناس، والإنتقام من بعض الشخصيات من أهل البيت الحفصي،كقتله صاحب الأشغال أبي بكر بن الحسين جد بن خلدون، وقتل بعض

---

[1] -ابن قنفد القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968، ص139.

[2]- الزركشي، تاريخ الدولتين، صص 43-44.

[3] - ابن قنفد، المصدر السابق، ص140.

[4]- هو أحمد بن أبي عمارة، ولد سنة 642هـ/1245م بالمسيلة، أمه فرحة من فران من بلاد الزاب، وتربى ببجاية، وكان خامل الثناء كثير التطور، كان قتالا سفاكا للدماء، ظالما يظهر قطع المنكر ويأتيه/ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص46-47.

[5] - الزركشي، مصدر سابق، ص45.

[6] - محمد حسن، مرجع سابق، ص241.

[7] - الزركشي، مصدر سابق، ص46.

الأعراب بسبب تعديهم على الناس، فضلا عن قتله وتنكيله بواحد وثمانون شخص من النصارى، وقام كذلك بهدم الفندق الذي كانت تباع فيه الخمر التابع للمصالح الأوروبية، وأمر ببناء مكانه جامع [1].

واستطاع أن يسلب عقول العامة فالتفوا حوله، وتنكروا للسلطة الحفصية رغم الجهود التي بذلت من قبل بعض الفقهاء لإظهار الصورة الحقيقية لهذا الدعي، إلا أن العامة رفضت الإنصياع لكلامهم وعمدت إلى قتل بعض أولادهم كقتل بن الفقيه القاضي عبد المنعم بن عتيق الذي كان يدعوا الناس لإعتراف بسلطة بني حفص[2].

وكان حال الأمير الحفصي أبو زكريا في ظل هذه الأوضاع، أن قامت العامة بملاحقته بعد هروبه وقامت بقتله، والتشهير "برأسه في وسط الأسواق والسفهاء يضحكون والنساء يولولن"[3]، ولكن سرعان ما تراجعت هذه الحركة بسبب فسخ بن أبي عمارة علاقته مع البدو، وذلك من خلال تتبع سياسة منح إمتيازات لعامة المدن والتخلص من عنصر العرب، الأمر الذي أدى إلى محاربته من قبل البدو بعد أن خابت أمانيهم فيه[4]، وبالنظر إلى هذه الحركة وما قامت به، يظهر أنها حركة أبقت على السياسة السابقة التي انتفض العامة منها، ولم يغير أي شيئ في نظام الحكم.

وبالمثل قامت بعض الإنتفاضات بالمغرب الأوسط ولكن ليس بحجم حركة بن أبي عمارة، فقد بانت بعاصمة بني عبد الواد ظاهرة التمرد والخروج عن السلطان في عدة أشكال:

1-الثورة على السلطان من قبل أبنائه أو أشقائه، لكن لم يكن الغاية منها دافع الفقر أو الجوع وإنما البحث عن الملك لاغير.

---

[1] - الزركشي، مصدر سابق، صص46-48.

[2] -ابن قنفد القسنطيني، مصدر سابق، ص 143.

[3] -الزركشي، مصدر سابق، ص 49.

[4] - محمد حسن، مرجع سابق، ص243.

2-الثورة والتمرد على السلطان من قبل أقربائه، أي أصحاب البيت الزياني، كمحاولة كذلك للحصول على العرش فقط.

3- ثورة الرعية على السلطان وعزله، وهي ثورة سخط وتذمر للسياسة الحاكمة، وشعور الرعية بعدم أحقية السلطان في الحكم، ومثال ذلك ماحدث مع الأمير عثمان بن جرار سنة(749ه/1448م)، الذي وضعه الأمير أبو عنان نائبا عنه في تلمسان، إلا أنه أعلن نفسه سلطانا على المدينة، لكن العامة رفضته وطردته من مركزه بمساعدة الأمير أبي سعيد الزياني[1]، وقد خلع السكان السلطان عبد الله الأول بن السلطان أبي حمو موسى الثاني فحسب قول التنسي"فدبر الجميع في خلعه أمرا أبرموه في الليل، فلم يشعر إلا وقد دهمته في مرتبته من مرين"[2]، كذلك فقد إحتج السكان بتلمسان على تصرفات السلطان السعيد بن أبي حمو سنة(814ه/1411م)، الذي لم يستطع إدارة الدولة بشكل جيد، وخاصة في جباية الضرائب والإنفاق، إذ ضيع أموال الدولة وحسب ذات المصدر"فوجد قصر الملك مملوءة مفعمة من بدرات النقود متخمة... حتى أصارته إلى العدم بعد الجود"[3]، مما دفع الناس إلى الطلب من السلطان المريني أبي العباس خلعه[4].

وبالطبع لم تتأخر الثورات والإنتفاضات في المغرب المريني من الظهور، وكنموذج لفساد السلطة بكل خصائصها ومميزاتها، فقد إعترى السياسة الداخلية لدولة بني مرين بعض التسيب لاسيما الفترة الأخيرة من الحكم، إذ أصبح السلاطين ألعوبة بيد الوزراء الذين نصبوا أنفسهم وزراء تفويض لاوزراء تنفيذ[5]، وانفردوا بترشيح من يرونه مناسبا وخلع أو قتل من لا يتوافق مع رغباتهم ومصالحهم، فقد كان لهذا الإستبداد آثار وتداعيات كثيرة أدت إلى إضعاف الدولة وتبديد طاقاتها وتقسيمها ومن ثمة إنهيارها، وقد وردت عدة أمثلة في المصادر التاريخية عن خلع السلاطين وتنصيب سلاطين صغار

[1] -ابن خلدون، العبر، ج7، ص116./ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 85.

[2] - التنسي أبو عبد الله، نظم الدر والعقيان، ص229

[3] -المصدر نفسه، صص234-235.

[4] - المصدر نفسه، ص235

[5] - عامر أحمد عبد الله حسن، دولة بني مرين، تاريخها وسياستها تجاه مملكة غرناطة والممالك النصرانية في إسبانيا(668-869ه/1269-1465م) رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة النجاح، نابلس، 2003، ص196.

السن[1]، لاسيما خلال فترة الوزير الفودودي الذي جر البلاد باستبداده وسياسته الداخلية والخارجية إلى وضع مأساوي، كما أدى تعيين وزراء آخرين لا يحضون بإجماع شعبي إلى أوضاع سياسية صعبة جدا[2]، الأمر الذي أدى إلى نقم العامة من ذلك، إلا أن وحسب المصادر المتوفرة لنا، لم تطلعنا عن قيام حركات شعبية من أجل الفقر أو الظلم أو الجوع بالمغرب المريني.

وإجمالا يمكن القول أن فساد أنظمة الحكم ببلاد المغرب الإسلامي، بكافة أساليبه كالاسراف والتبذير والإستبداد والظلم،كان له تأثير كبير في ظهور الهوة بين السلطة والرعية، مما أسفر عن تشكل تكتلات ظهرت في شكل ثورات وانتفاضات ضد السلطة، لأجل التغيير والنظر في شؤون الفئات الضعيفة والفقيرة.

2: الأسباب البشرية:

ينطوي تحت هذه الأسباب كل ما له علاقة بسلوكات وأفعال الإنسان تجاه أخيه الإنسان، فالطبيعة الفطرية للمرء محمولة بين أمرين النفس الخيرة والمؤذية، وإنسان المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط لم يكن بمنأى عن هذه الأوصاف، فحسب ما جادت به متون الفترة يظهر أن الحروب والحصارات الطويلة الأمد هي السمة الغالبة على العصر. فلاطالما اعتبرت الحرب خاصية من خصائص النوع البشري وسنة من سنن الكائن البشري[3] حسب قول بن خلدون" أن الحرب أمر طبيعي في البشر لاتخلوا منه أمة ولا جيل"[4]. فهي إذن تشكل مظهر من مظاهر تنازع البقاء لتأمين الوجود الذي يعتبر سلوكا عدوانيا متأصلا في طبيعة الإنسان البيولوجية[5].

[1] -أبو العباس الناصري السلاوي، ج4، 1955، صص3-4.

[2]- نفسه، ج4، صص7، 33.

[3] – حميد تيتاو، الحرب والمجتمع، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، منشورات عكاظ، 2010، ص90.

[4]– ابن خلدون، المقدمة، ص258.

[5] – حميد تيتاو، مرجع سابق، ص 90.

كما ارتبطت أحيانا بعنصر التوجه نحو الخصب ثم بعنصر الجوع حين تصبح الحرب وسيلة بدائية لرد غائلته، وتصبح حينها تنافسا بين الجماعات من أجل امتلاك الخيرات المادية، ويستند هذا الطرح إلى مقولة "اقتصاد الندرة"[1]، و"اقتصاد الكفاف"[2]إذ أرجع بعض الباحثين أن غاية الحرب في المجتمعات البدائية تعود إلى كونها وسيلة للكسب ورد شبح الجوع، فالحرب إذن ترتبط أشد الارتباط بالفقر وتصبح في هذه الحالة قوام معاش البدويين ومصدرا عاديا للكسب والعيش[3].ويبدو أن قليلا من الحروب تستجيب لهذا المنطق، وإذا ما أردنا أن نضرب أمثلة ألفينا القبائل البدائية المتأملة من معاش غير مرن تغزوا جيرانها للإستيلاء على مدخراتهم الغذائية[4].

أما إذا نظرنا إلى ظاهرة الحرب من منطلق سياسي نجدها لا تفسر بردها إلى خاصية الإنسان البيولوجية أو الإقتصادية بل هي قبل كل شيء أداة سياسية تحافظ من خلالها الجماعة على هويتها وكينونتها السياسية[5].

على أن الباحث في معالجته لعلاقة الحرب بالفقر يجب أن يبتعد عن المسار المعتاد الذي يجعل من الحروب مجرد وصف ومشاهدة تعكس أصوات السيوف وعليه أن يرتحل من عالم الحروب إلى عالم المسكوت عنه في الحروب، ليرسم مسارا يروم البحث والتنقيب في العلاقة السببية بين الحرب والفقر من أجل الكشف عن انعكاسات الحروب في بنيات مجتمع المغرب الإسلامي وعن دورها في الحراك الإجتماعي، ووقعها على الجانب النفسي للإنسان، وأثر ذلك في مخيال الفرد وعاداته وسلوكياته،

[1] -اقتصاد الندرة: هو الندرة النسبية للموارد الاقتصادية اللازمة لإشباع رغبات الإنسان أو هي عبارة عن معنى نسبي عن العلاقة بين الحاجات الإنسانية ووسائل إشباعها، فقد تكون الكميات الموجودة من مورد ما كبيرة نوعا ما ولكنه يعتبر موردا نادرا إذا ما قيس بالرغبات البشرية التي ينبغي إشباعها، أي أنه نادر من حيث كمية عرضه المتاح قياسا بمستوى الإشباع المطلوب للحاجات /ينظر:فرحي كريمة، فراح رشيد، محاضرات في مدخل للاقتصاد، جامعة البويرة، 2014/2013، ص10.

[2]- اقتصاد الكفاف: هو الاقتصاد الذي تحاول به مجموعة ما إنتاج منتجات في فترة معينة بحيث لا تزيد ما يجب أن يستهلكوه في تلك الفترة لكي يبقوا على قيد الحياة، ولا يحاولوا تجميع الثروات أو نقل الإنتاجية من فترة زمنية إلى فترة زمنية لاحقة. في مثل هذا النظام، فإن مفهوم الثروة لا يتواجد، وكما يوجد اعتماد على التجدد وإعادة الإنتاج في داخل البيئة الطبيعية. قبل أن يتم اختراع العملة كان يعتبر اقتصاد الكفاف هو الاقتصاد المسيطر كنظام اقتصادي .كما لا زال هذا النظام يعتبر الأساس التقليدي في العديد من المجتمعات./من موقع : w.w.w. ar.wikipedia.org

[3] -حميد تيتاو، مرجع سابق، صص91-92.

[4] -المرجع نفسه، صص91-92.

[5]- المرجع نفسه، ص93.

ورصد الجدل القائم بين الفقر والإنسان خلال الحروب[1]. وعليه يمكن طرح الإشكال التالي: ما علاقة الحروب والفتن بظاهرة الفقر؟ وانعكاساتها ووقعها على مجتمع المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط؟ وماهو أثر تلك الحصارات على البنية الإجتماعية خلال الفترة المدروسة ؟.

1: الحروب والفتن وعلاقتها في انتشار الفقر:(دراسة وتقييم)

قد لا نبالغ إن قلنا أن الحروب والحصارات والجوائح الطبيعية كانت من خصائص العصر الوسيط، فقد تبادلت الأدوار لتعصف وتؤثر بإنسان المغرب الإسلامي بشكل كبير[2]. ويبدو من خلال المادة التي عثرنا عليها في مختلف المتون أن ظاهرة الحرب والصراع بين القبائل حول المجال ازدادت تجذرا خلال القرن السادس الهجري والقرون اللاحقة، فالحروب التي كانت تنشب بين الكيانات السياسية الثلاثة (الزيانيين، الحفصيين، المرنيين) خلال العصر الوسيط مثالا واضحا لهذه المعاناة، من حيث الضرر والخراب الذي انجر عنها كطول أمدها وتعدد مناطق الصراع بها، وأكثر من ذلك تشابهها مع الكوارث الطبيعية المنشأ لما تلحقه من ضرر بالكائنة والساكنة في أي زمان ومكان، كالمجاعات والأوبئة والأمراض وغلاء الأسعار وتدني المستوى المعيشي لإنسان المغرب الوسيط، بتفشي ظاهرة الفقر نتيجة ما تتطلبه تلك الحروب من أموال وعدة ورجال، مما ينعكس ذلك سلبا على البنيتين الديمغرافية والاقتصادية معا بالنسبة للطرف الغازي، أما الطرف المقصود بالغزو فتكون وطأة الفقر عليه أعظم. فضلا عن الخراب العمراني الذي ألم بالمدن والبوادي على حد سواء، وهو الأمر الذي يؤدي إلى تراجع حضور السلطة مما يعطي انطباعا بضعفها وانكماشها.

كانت الحرب[3]هي المهيمنة على نظام الحياة في بلاد المغرب الإسلامي خلال معظم الفترات، وما دل أكثر على ذلك ماورد في قول صاحب الذخيرة"فكثرت الفتن والحروب بين قبائل المغرب، واشتد

---

[1] - حميد تيتاو، مرجع سابق، صص13-14.

[2] - ظافر بلطي، من فتاوى الطعام –الونشريسي منطلقا–ضمن كتاب خطاب الطعام في الثقافة الاسلامية ، اعداد: سهام الدبابي الميساوي ووسام العريبي، أعمال اليوم الدراسي بكلية الآداب والفنون والانسانيات(منوبة، 2013) ،كلية الآداب والإنسانيات بمنوبة، تونس 2014، ص67-84.

[3]- الحرب: عرفت الحرب في كثير من القواميس اللغوية على أنها مفهوم ارتبط بمفاهيم العنف والقوة والصراع، وهناك تعاريف أخرى فقد اعتبرتها دائرة المعارف "بقية من بقايا تنازع الطوائف البشرية على الحياة "، في حين عرفها مارتن "على أنها صراع بين الناس"،أما فون بو جسيلا فسكي فعدها "المعركة التي تشنها جماعة معينة من الرجال أو القبائل أو الأمم أو الشعوب أو الدول ضد جماعة مماثلة أو شبيهة لها "في حين يضيف لاجورجيت، سمتين

الخوف في الطرقات، ونبذ أكثر القبائل الطاعة وفارقوا الجماعة، وقالوا لاسمع ولا طاعة، فأكل القوي الضعيف، واستوي الدنيء والشريف فكان كل من قدر على شيء صنعه فانقطع الحرث، واشتد الغلاء في البلاد بسبب ذلك الإهمال والفساد"[1].ونوه في قول آخر"وسبب هذه الحرب إما غيرة ومنافسة؛ وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه؛ وإما غضب للملك وسعي في تمهيده: فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. والثاني: وهو العدوان، أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر، والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد. والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عنها والمانعين لطاعتها"[2].

كما يذكر ابن أبي زرع أنه كانت قبائل بني مرين وغيرها من قبائل زناته الساكنة بالمناطق الجدباء تعيش في حروب متواصلة بسبب التنازع في المجال القبلي، فكانت لا تخمد واحدة إلا لتشتعل أخرى وكان ذلك طبعهم على حسب قوله" أن جل أموالهم الإبل والخيل ودأبهم الحرب وخواضان الليل"[3]. فلطالما كانت الحروب حالة شبه دائمة خلال فترة العصر الوسيط.

ا: الحروب وإفقار المجال الفلاحي

مثلت الحرب وما تدره من أموال وغنائم مصدرا هاما من مصادر الثروة، وموردا أساسيا من موارد بيت مال الدولة[4]، والدويلات الثلاثة لم تكن في أصلها سوى قبائل من تلك الأمم البربرية الساكنين بقفار الصحاري"والتي كان يقضي أفرادها حياتهم كلها حتى الموت في الصيد، واختطاف جمال أعدائهم"[5]، وكان لقلة الأرض وجدبها، فضلا عن توالي سنوات القحط وارتباط نشاط القبيلة على

أساسيتن لابد أن تتوفر في شكل الصراع ليسمى حربا، وهما الرغبة أو الإرادة ثم التنظيم لذلك يعرف الحرب بأنها "حالة من الصراع العنيف الذي يقوك بين جماعتين، أو عدة جما عات من أفراد منتمية إلى نفس النوع بناء على رغبتهم أو إرادتهم"/ حميد تيتاو، مرجع سابق، صص 39-40.

[1] -ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، ص36/ ينظر: ابن زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص288.

[2]- ابن خلدون، المقدمة، ص258/ ينظر: ابن الأزرق أبي عبد الله، بدائع السلك في طبائع الملك، تح: علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط2، 2008، ص 131

[3]- ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص25.

[4] - حميد تيتاو، مرجع سابق، ص180.

[5] -الحسن الوزان، وصف افريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983، ط2، صص58-59.

الأرض بمدى وفرة المياه، تدفع القبائل إلى غزو بعضها البعض، حيث تبدو الحرب انعكاسا مباشرا لعوامل اقتصادية غير ملائمة وظروف معاشية قاسية.

من أجل ذلك ركزت دويلات المغرب الإسلامي خلال فترة مدار الدراسة على التفكير في الملك الذي يقر ابن خلدون بأنه"منصب شريف ملذوذ، ويشتمل على جميع الخيرات الدنيوية، والشهوات البدنية، والملاذ النفسانية"[1]، فسعت من خلال الحروب إلى اغتنام الغنائم بالسبي والحرق ونهب للمحاصيل الزراعية للحصول على الأموال والسلاح، وكل ما قد يقوي بقائها ويوفر لها الأمن والإستقرار الإقتصادي والسياسي لأجل الإستمرار والبقاء.

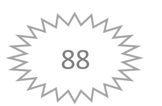
شكل النشاط الفلاحي المورد الأساسي لغالبية سكان بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، فهو المصدر الضروري للقوت المكمل لحياة الإنسان غالبا، ولا يمكن وجوده من دونه، فلا حاجة إذن إلى كبير عناء لإثبات أهمية رصد العلاقة بين النشاط الفلاحي وتأثيرات الحرب ما دامت الحرب تحيل في أكثر دلالاتها الاجتماعية على الخراب والفقر، واختلال أمر الناس ومعاشهم وفساد أحوالهم.

الظاهر أن مصادر الفترة الوسطية قد أبدت آراء مختلفة حول الكيفية التي تأثر بها المجتمع الفلاحي من جراء تلك الحروب. فهناك شهادات توردها بعض المصادر في سياق حديثها عن بعض الحملات التي كان يقوم بها بعض السلاطين المرنيين على بعض المناطق، كما هو حال مناطق مراكش وأحوازها التي أفناها يعقوب بن عبد الحق بالغارات، ونهب زروعها ومواشيها، وقطع أشجارها، وكذلك فعل بتادلة ودرعة[2].

فقد كانت للحروب التي بدأت تنشب بين بني عبد الواد بتلمسان وبني مرين منذ النصف الأول من القرن السابع الهجري/13م دور واضح في تخريب كثير من المجالات الزراعية والرعوية، مما أثر كثيرا

[1] -ابن خلدون، المقدمة، ص 156.

[2] - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، صص 304، 306.



على الجانب الفلاحي. إذ لم يتردد يغمراسن بن زيان في شن الغارات على ثغور المغرب، وإضرامها نارا[1]، كلما سنحت له الفرصة لذلك، فيحرق وينسف ويستبيح كل ما مرت به جيوشه.

ومن جهته لم يتوان أمير بني مرين عن القيام ببعض الغارات والحروب على معظم الأراضي التلمسانية واكتساحها "بتخريب الرباع، وانتساف الجنات، وقطع الثمار، وإفساد الزرع، وإحراق القرى والضياع، لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك وأكثر"[2]. وهو الأمر الذي أنهك الفلاح بالمغرب الإسلامي وزاد من بؤسه وفقره.

كما قام أبو سعيد عثمان الزياني بتكرير هجماته وغارته العسكرية على بلاد بني توجين بمنبت عزهم وقاعدة ملكهم بجبال الونشريس، فكانت أول غزواته نحوهم سنة (686ه/1288م) فحاصرهم، وألحق بهم الفساد والخراب، وعمل على نقل خيرات البلاد من زروع وحبوب نحو مازونة، ثم عاود مناهضتهم سنة(687ه/1288م) بعدما شتت شملهم فملكه[3].

وكثيرا ما كانت البوادي أوقات الحروب عرضة لعمليات السلب والنهب التي تشمل المزروعات والحيوانات بمختلف أصنافها من قبل الجيش المار بها، حتى يضمن غذاء يومه فضلا عن عمليات التخريب والحرق وإتلاف الزروع[4]، وثمة نص أورده ابن الأحمر يوضح فيه لنا مدى تضرر بوادي وقرى المغرب الأوسط جراء الحروب المتكررة عليه من قبل بني مرين في قوله"ثم إرتحل حتى أحاط بتلمسان ويغمراسن لها محاصرا، فقاتلها وانتسف ضياعها وجناتها وبعث السرايا على بواديها وأحوازها ينهبون

---

[1] - السلاوي، ج3، ص20.

[2]- نفسه، ج3، ص33.

[3] -عربية بورملة، إمارة بني توجين بالونشريس خلال القرنين 7-8ه /13-14م من خلال كتاب العبر لعبد الرحمن ابن خلدون، رسالة ماجستير، جامعة معسكر، غير منشورة ، 2009-2010، ص 32.

[4] - عبيد بوداود، ظاهرة التصوف بالمغرب الأوسط مابين القرنيين السابع والتاسع الهجريين (ق13/15م) -دراسة في التاريخ السوسيو ثقافي-، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003، صص 158-160.

ويخربون القرى والعمارات، ولم يزل يغمراسن نهبة سيوف بني مرين إلى أن مات"[1]، مثلما أنه في حملة أخرى اكتسح بنو مرين نواحي تلمسان، وأصطلموا نعمها عام(714ه/1314م)[2].

ونظرا لأن البوادي هي المعول الرئيسي للمدن بمختلف المنتوجات الضرورية، فإن الحركة التجارية بينهما كانت تتعطل في أوقات الحروب والفتن، سواء بسبب تلف المحصول أو الخوف من التنقل، فترتفع أثمان مختلف السلع الغذائية في أسواق المدن نتيجة قلتها فتحدث المجاعات في كثير من الأحيان[3].

كما لم يسلم المجال الفلاحي من التخريب خلال فترة أبي حمو موسى الزياني(766ه/1364م) في إحدى حملاته على بني مرين، ولعل ما يدل على ذلك قول ابن خلدون "انتهب الزروع، وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي...، وانكفأ راجعا إلى حضرته، وقد عظمت ببني مرين وثغورهم نكايته، وثقلت عليهم وطأته"[4].

الراجح أن الحروب التي شهدها المغرب الأقصى خلال فترة مدار الدراسة قد أضرت كثيرا بالإنتاج الفلاحي، بفعل نهب المحاربين وإحراقهم للقرى وتخريبهم للمحاصيل الزراعية[5]، ومن الأمثلة على ذلك ما حل بالمناطق الوسطى من المغرب الأقصى جراء الصراع حول الحكم بعد وفاة الأمير أبي عنان، حين أجلب بعض الأمراء" فلما دخل إلى البلد الجديد أجلبوا بالغارة على النواحي، وكثر العيث"[6] وهو مثال حي يبرز درجة الضرر الذي لحق بالبلد بسبب تلك الحروب المتكررة بين الحين والآخر.

---

[1] – ابن الأحمر إسماعيل، روضة النسرين في دولة بني مرين، ص 49.

[2] – ابن خلدون، العبر،ج7، ص321.

[3] –سمية مزدور، مرجع سابق، ص 96.

[4] –ابن خلدون، العبر، ج7، ص171.

[5] – حميد تيتاو، المرجع السابق، ص234.

[6] –ابن خلدون، العبر، ج7، ص421.

وكان للتحالف بين تونس ومراكش بغية القضاء على الدولة الزيانية وبجاية الحفصية معا. حال دون استيلاء بني مرين على بجاية فتجاوزوها إلى غيرها من نواحيها، وعاثوا في جهاتها فسادا وملؤها رعبا[1].

على أن أبرز نموذج لحروب هذه الفترة، وما خلفته من نتائج كارثية على الفلاح ومنتوجه، تتمثل في حروب وغارات الأعراب والتي كان لها أثر كبير على المجال الفلاحي خلال هذه الفترة، والذين قال عنهم ابن خلدون"بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث" وقوله أيضا"إن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب"[2] مبينا عدم طاعتهم للدولة، ولعل أوضح كلام ما تذكره النصوص عن استفحال أمر هؤلاء الأعراب بمجرد إنهيار الدولة الموحدية حين"خربوا ما بين الأعياص، وظاهروا الخلافة وأكثروا الفساد"[3]، وهو ما حدا ببعض الباحثين الأجانب إلى استغلال هذه الصورة، وتحميل هذه القبائل دون غيرها، مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية منذ بدايات القرن (7هـ/13م)[4]. ومن الشواهد الدالة على ذلك ما يوضحه ابن عذارى عن وضع ضواحي مكناسة جراء غارات قبائل رياح ونهبها للمحاصيل الزراعية في قوله" أشد ضرار في تلك الجهات على الناس... بالاختلاس والافتراس لاسيما بأحواز مكناسة وفاس"[5]، وتكفي الإشارة إلى التخريب الذي ألحقه عرب الخلط بمدينة مراكش ومنطقة الحوز عامة سنة(635هـ/ 1234م)، وللوقوف على الأثر الذي مس الفلاحة فقد"شرعوا في تدمير البحائر وقطع مياهها، وشجراتها ...وعظم انتقامهم وعيثهم في الحوز فضاقت الأرض بما رحبت على الناس...، وقل كل مرفق، فأعوز وجدان ما ينتفع به الناس من الحطب والتبن والفواكه وما يجلب من البوادي، وأقشعرت الجلود من هول المكابدة في طلب شيء من أنواع الحنطة، وبلغت مبلغا لا عهد بمثله حتى انتهى الربع الواحد من

1 -محمد العروسي المطوي، مرجع سابق، ص291.

2 - ابن خلدون، المقدمة، ص151.

3- حميد تيتاو، مرجع سابق، ص 36.

4- المرجع نفسه، ص 36.

5- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تح: محمد ابراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بروت، 1985، ص351.

الدقيق الفاسد إلى ثلاثة دنانير، والناس في ازدحام على من يشعرون عنده زنة الخردلة منه أو من سواه"[1].

كما انطلقت أيدي الأعراب بالعيث في ديار تونس سنة(772ه/1370م)، أثناء إنتقال السلطة بين الأمير أبي العباس أحمد والأمير أبي البقاء خالد إذ قاموا باغتصاب أموالهم وتحاملهم عليهم، واضطرمت نار العيث في دورهم ومخلفهم، فلم تكد أن تنطفي[2].

وكان لهجوم الذواودة برفقة أبي حمو موسى الثاني على مدن قسنطينة قصد محاولة إجلاء بني مرين عنها وعن الأراضي التي اعتادوا ارتيادها لمواشيهم، "فأغاروا عليهم ونهبوا ممتلكاتهم واحتلوهم في آواخر شوال(758ه/1357م)"[3].

لم تقتصر تعسفات الأعراب الساكنين بالمغرب الإسلامي بتخريب المجال الفلاحي، بل تعدته إلى التحكم في ملكيات الناس والتسبب في فقرهم نتيجة سطوة العرب المسئولين في بعض القرى على أملاكهم، وكذا تجويعهم من خلال إفساد معاملاتهم بل العمل على هجرتهم من قراهم أيضا،كما عمدو هؤلاء الأعراب إلى امتهان اللصوصية والحرابة وقطع الطريق على المسافرين والقوافل التجارية، ومثال ذلك ما جاء في إحدى النوازل التي سئل عنها الفقيه ابن عرفة وذلك سنة(796ه/ 1393م)، حول محاربة قطاع الطرق من أعراب المغرب الأوسط الذين يقدر عددهم بعشرة آلاف فارس أو أكثر، اشتهروا بشن الغارات واستحلال دماء الناس وحرماتهم فكان جواب ابن عرفة "جميع ما ذكر من قتال هؤلاء وجهادهم والإشارة لثواب مجاهدتهم ورجحانه على جهاد الكفار غير مبتدئين قتال المسلمين حق صحيح لاينبغي لمسلم مخالفته"[4] .

---

[1] – ابن عذارى المراكشي، مصدر سابق، صص318-319.

[2] – محمد حسن، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج2، جامعة تونس، 1999، ص 684.

[3] – رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص 400.

[4] – أبو العباس أحمد الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والمغرب(في فقه النوازل)، أخرجه جماعة من الفقهاء باشراف محمد حجي، نشر: وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية للملكة المغربية، 1901، ج6، صص153-156.

ونتيجة لهذه الوضعية عاش أهل القرى والبوادي وسكان الصحراء الرحل في خوف دائم من هؤلاء الأعراب الذين مثلوا خطرا يهدد أمنهم في أي لحظة يداهمونهم فيها وينتهبون أموالهم ويعيثون محاصيلهم ويستحلون دمائهم وحرماتهم، الأمر الذي جعل الفلاحين ينزحون ويهجرون أراضيهم وتركها بورا. وتجدر الإشارة إلى ظاهرة رافقت هذه الأوضاع وأسهمت في تأزم الوضع الفلاحي، ويتعلق الأمر بالمجاعات التي عرفها المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة نتيجة "قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر" على حسب قول ابن خلدون[1].

ومجمل القول عموما، فقد أضرت حروب وغارات العصر الوسيط بالمجال الفلاحي، وقلصت من إنتاجه بفعل تخريب وإحراق الجند للمحاصيل الزراعية، ولاشك أن دورية هذه الأوضاع، واستمرارها أدت إلى تقلص المساحات المزروعة، وهذا نتج عنه إنحطاط وفقر إقتصادي شامل، إنعكس بدوره على خزينة الدولة ومدخول القبيلة ثم أفراد المجتمع.

ب: الحروب وإفقار العمران:

كان لظاهرة الحروب والفتن بالمغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطة، دور كبير في تراجع العمران وخرابه وانهياره، بتخريب مدن وقرى بكاملها، والقضاء بصفة نهائية على أخرى[2]. وهو الأمر الذي أضر البنية العمرانية من طغيان الهاجس العسكري والحربي، وعمق الأثر على الناحية الاجتماعية للسكان، مما اضطر الناس إلى فراق مداشرهم وقراهم بعد أن أجلتهم الفتن" ولجئوا إلى الجبال المنيعة لتكون لهم حصنا ومآلا"[3]، ومما يعزز هذا الطرح ما رددته مؤلفات الفترة على حد قول صاحب بدائع السلك في طبائع الملك" لما تناقص عمرانها (إفريقية وبرقة) ، تلاشت أحوال أهلها، وانتهوا إلى الفقر والخصاصة، وضعفت جبايتها، وقلت أحوال دولها"[4]، وفي قوله أيضا "وقطر المغرب، إن كان في القديم دون افريقية، فلم يكن بالقليل في ذلك، لاسيما في دول الموحدين، وهو لهذا العهد قد أقصر

---

1 -ابن خلدون، المقدمة، ص 288.

2 -حميد تيتاو، مرجع سابق، ص511.

3 -ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 283.

4 -ابن الأزرق، بدائع الملك في طبائع الملك، ص195.

عن ذلك التناقض عمرانيا ...وهي اليوم كلها قفار أو صحاري إلا ما هو بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول أما عن الأمصار الصغيرة فتجد لذلك أهلها ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة، إلا في النادر؛ إذ لافضل لهم يتأثلون به كسبا"[1].

يبدو أن إستقراء بعض ملامح تاريخ المدن والقرى بالمغرب الإسلامي خلال فترة مدار الدراسة، ما يفصح عن الضرر الذي لحق بالعديد منها نتيجة الإضطرابات والفتن السياسية المتلاحقة الناتجة عن توالي الحروب والحملات العسكرية الداخلية منها والخارجية بين الكيانات الثلاثة وكذا غارات القبائل والأعراب عليها.

ما كان لتوالي هذه الحروب بين الكيانات الثلاثة إلا أن تضعف بالبلاد، وتدفع بكثير من المدن إلى حافة الزوال، والخراب الذي انعكس سلبا على جل القبائل وأفراد المجتمع، تجلى في العديد من المدن منها مدينة أغمات[2] التي خربت وأصبحت مكانا مهجورا لا يسكنه إلا العدد القليل من الناس حسب قول الوزان "غير أن هذه المدينة أصبحت اليوم مأوى للذئاب والثعالب والغربان وما شاكلها من الطيور والوحوش. ولم يعد يسكن الحصن في هذه الأيام سوى ناسك مع مائة من مريديه"[3]، والمصير نفسه تعرضت له مدينة أصيلا[4] التي أقدم العزفيون بسبتة على"هدمها وتخريب قصبتها؛ لأنها قد خلت من الناس"[5].

---

[1] – ابن الأزرق، بدائع الملك في طبائع الملك، مصدر سابق، ص 196.

[2] –هي مدينتان سهليتان تسمى إحداهما أغمات إيلان والأخرى أغمات وريكة وبها كان ينزل التجار والغرباء أما إيلان فلا يسكمنها غريب، تحتوي على بساتين وأنهار، وهو بلد واسع يسكنه قبائل معمورة في قصور وديار، وبها أسواق جامعة، وساحلها رباط قور على البحر المحيط، وفيه تنزل السفن من جميع البلاد، وهي مدينة بعيدة عن مراكش بثمانية فراسخ، الواقعة على منحدر أحد جبال الاطلس الكبير، كانت حاظرة الامبراطورية الرومانية قبل أن تبنى مراكش، عمروها الموحدون بعد إخلائها، فاصلحو من شأنها إذ غدت تسمى مراكش الثانية، لكن بني مرين دمروها وخربو دورها، وتركوها مأوى للوحوش/ينظر: كربخال، مصدر سابق، ج2،60-61 /ينظر: البكري، مصدر سابق،ج1، ص338-339.

[3] –الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ط2، ج1، ص136.

[4] –مدينة قديمة أزلية، على بعد سبعة وأربعين فرسخا من فاس، وسبعة فراسخ من مضيق جبل طارق، من جهة الغرب، يقال عنها أنها من تأسيس الرومان، جملها العرب وأضحت من أجمل المدن سواء من حيث التجارة أو من حيث الثقافة، موقعها ممتاز وأسوارها متينة ومعززة ببروج، ومن نقاط قوتها صعوبة الدخول إلى مينائها بسبب وجود الرصيف الرملي وللمزيد من المعلومات/ ينظر: كربخال، مصدر سابق، ج2، صص197-198.

[5] – ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص101.

ومما يكشف أكثر خراب العمران وأثره على البنية الاجتماعية، ما عانته الدولة الحفصية أول هذه الدول إستقلالا ففي عهد السلطان الحفصي أبي يحي أبي بكر اتجه في حركته نحو المسيلة أين هدم حصن بني عبد الواحد سنة(732ه/1331م)[1]،كما رمى الحاجب ابن تافراجين تونس بالمنجنيق غداة انتصاره على أبي الحسن المريني سنة(749ه/1348م) بالقرب من القيروان[2]. ولما توجه أبو الحسن المريني نحو المغرب الأدنى ووصل تيكلات المدينة التي بناها الزيانيون خرب عمرانها وانتهب أقواتها فأصبحت معالمها مجرد أطلال[3]، وفي سنة(870ه/1465م)، اتجه السلطان أبو عمروا عثمان الحفصي إلى تلمسان فحاصرها بجنده وبدؤوا في هدم أسوارها[4]، ويشير صاحب الرحلة التيجانية مرارا إلى تلك القصور والقرى والدور التي أخلتها الأعراب وأجلت ناسها وعملت على نهبها وإفسادها "ولم تزل العرب حاقدة عليهم"[5]، كما تجلى ذلك أيضا في شهادة العبدري من خلال رحلته المغربية واصفا إفريقية با"شديدة الإهمال، طامسة المسالك ،غير سديدة الأحوال عمرانها خراب، حلت به الآفات والمحن...لايسلكها إلا مخاطر، ولايعدم من عربانها إيلام خاطر"[6].

ويزداد الأمر تأكيدا على سعة الخراب وأثره على مجتمع المغرب الإسلامي ما ذكرته المصادر عن وضع المدن والحواضر المغربية في ظل الحروب المرينية العبد الوادية، ويكفي أن نشير إلى النص الذي أورده أحد الجغرافيين عن حال مدينة توريرت التي كانت ميدانا للصراع بين الدولتين إذ يقول"...غير أنه لما إستولى بنو مرين على مملكة الغرب أصبحت هذه المدينة موضع نزاع وميدان حروب عديدة، فقد رغب المرينيون في أن تتبع توريرت مملكة فاس، بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضموها إلى مملكتهم، فأدى ذلك إلى أن احتلتها بنو مرين، ودمروا قسما كبيرا منها كان يسكنه أعداؤهم، ثم بعد

---

[1] – الزركشي، مصدر سابق، ص69/ ينظر: محمد بن حمو، العمران والعمارة من خلال كتاب النوازل بالمغرب الإسلامي، أطروحة دكتوراه في الأثار الاسلامية، جامعة الجزائر 2، غير منشورة، 2011، ص 74.

[2] – ابن خلدون،العبر، ج7، صص365-366 /ينظر: الزركشي، مصدر سابق، صص84-85.

[3] – ابن خلدون، العبر،ج7، ص235.

[4] – الزركشي، مصدر سابق، ص157-158.

[5]– التجاني أحمد، الرحلة التجانية، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص217،351./ نيللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع كلية الأداب والفنون والإنسانيات تونس، منوبة، دار المعرفة للنشر، تونس، ط2، 2006، ص64.

[6] – أبو عبد الله العبدري، رحلة العبدري، تح: علي ابراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 2005، ص196.

ذلك وثب عليها ملك تلمسان، فإستردها وخربها، ونهب الجانب الذي يسكنه أعداءه منها، وهكذا استبدلت توريرت رؤساءها عشر مرات في ظرف خمسين سنة تارة تخضع لملك فاس، وتارة لملك تلمسان، إلى أن دمرت أخيرا"[1]. وجاء في موضع آخر"سكانها القليلون، بعد أن هدتهم الحروب، وغلبهم اليأس، فعزموا على الهجرة وترك المدينة، وبقيت توريرت خالية موحشة"[2].

وكانت الفترة التي أعقبت وفاة السلطان أبي عنان المريني أفضت إلى حالة من الإنهيار العمراني لم تشهد البلاد مثله على حد تعبير ابن خلدون "انتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن ...وكأنما نادي لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض"[3].

وتكشف نصوص أخرى عن ذروة الخراب الذي مس المدن، وعلى درجة رسوخ أثاره في المجتمع من خلال وصف الوزان مدينة فاس خلال فترة السعيد المريني في قوله "فقد حاصرها بمساعدة بعض الجبليين من الأعراب، ودام الحصار سبعة أعوام خرب أثناءها قرى ومدنا وقصورا في جميع أنحاء المملكة"[4].

ولا شك أن الضرر والخراب الذي لحق بالمغرب الأوسط جراء هذه الحروب، التي جعلت مرافقه تتوقف، وطرقه تتعطل، كان له بالغ الأثر في وضعية أفراد مجتمعه. ومن الأمثلة التي تعكس ذلك التردي، فترة الحصار لتلمسان التي دامت من (698ه/1298م) إلى سنة(706ه/1306م)، خرب سكان مدينة تلمسان سقوف بيوتهم للوقود، وخلت المدينة من سكانها، وفقد نحو من مائة وعشرين ألف نسمة، هلك بعضهم جوعا وفر بعضهم خارج المدينة، وأكل التلمسانيون الميتة والجيف والحشرات والزواحف وغيرها، ويقال أنه بقي بتلمسان في عهد أبي زيان مائتي نسمة وألف جندي[5].

---

[1] -الحسن الوزان، ج1، صص349-350.

[2] - نفسه،ج1، صص349-350.

[3] -ابن خلدون، المقدمة، ص43.

[4] - الحسن الوزان، ج1، ص 210 .

[5] - ابن خلدون، العبر،ج7، ص128/ ينظر: عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق،ج1، ص 28.

كما عاود أبو الحسن المريني حصار واقتحام تلمسان سنة(737ه/1336م) وخلالها دخل المرينيون البلدة"فنهبوها وخربوا الكثير، وانطلقت الأيدي على المنازل نهبا واكتساحا"[1].

وكيفما كان الحال، فقد ظلت حملات وغارات الأمراء الزيانيين والمرنيين لا تنطفئ واحدة إلا وتقوم أخرى حاملة في طياتها بذور الدمار والخراب، ومما يثبت ذلك قول صاحب زهر البستان"... ولما خرج أبو حمو من هذه الأوطان، وخلط به الصحراء على العربان، أمر بالرحيل إلى البلاد الغربية لقتالها، ولخراب حصونها ولزلزالها، فأول حصن نزله تويررت فوجدوا أهله قد جفلوا منه خوف القتل والتعنيت، فأمر بهدمه وخرابه، ثم ارتحل إلى حصن أوطاط، فأخذه عنوة وهيط أهله أشد هياط، ثم ارتحل إلى أجرسيف فعنف على أهله أعظم تعنيف،...تمادى على الحصون ينهب ويخرب ويهدب وينكب... فذعر أهل تازة وفاس لهذه الفعلة المثيلة فبعث أهل تازة وفاس لمولاها أبي سالم يعرفانه بما فعلت بنو عبد الواد من العظائم، وبما خربت من الحصون، وبما أذاقت الناس من الهون"[2].

وأثناء عودته إلى تلمسان خرب قصر ونزمار المسمى مرادة في نواحي بطوية[3]، وفي سنة(786 ه/ 1384م) "اتجه أبو العباس المريني إلى تلمسان فدخلها وهدم أسوارها وخرب الكثير من القصور إنتقاما لما فعله أبو حمو، وآخذا بالثأر منه فيما اعتمده من تخريب قصر الملك بتازى"[4].

والظاهر أن المغرب الأوسط قد تضرر جراء هذا الخراب العمراني تضررا كبيرا وتجلى ذلك في شهادة ابن خلدون في قوله"... وأبي حمو بن تاشفين من قبله قياسا متورطا في الغلط بعيدا من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد من الضعف والزمامة وما أصاب قومهم من الهلاك والشتات بأيديهم وأيدي عدوهم"[5].

[1] – عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج1، ص46/ ينظر: ابن خلدون،ج7، ص340-341.

[2] – مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، السفر الثاني، تح: محمدحاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2011، ص 144.

[3] – ابن خلدون، العبر،ج7، ص191/ينظر: رشيد بوروبية وآخرون، مرجع سابق، ص 417.

[4] – ابن خلدون، العبر،ج7، ص191.

[5] –المصدر نفسه، ج6، ص 569.

وبالمثل فإن مصير الإنسان جراء تلك الحروب، كان أكثر مأساوية فكثيرا من الأسر أصبحت في وضع مادي مزري، يعانين الفقر والعوز والخصاصة؛ وخاصة بعد فقدان العائل لها، فأصبح مشكل الإنفاق، وضعف الحال أبرز ما عانت منه معظم الأسر.

2: الحصارات وأثرها:

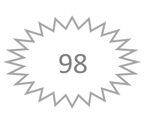
كثيرا ما كان يلجأ الأمراء والسلاطين إلى فرض الحصارات كمرحلة متقدمة في السياسة الحربية، كان الهدف الأساسي من إقامتها هو تجويع الناس وتفقريهم، فتنقطع عليهم جميع المرافق، مما يكون له الوقع السيئ على المستوى المعيشي للسكان، فالكثير من النصوص التاريخية خلال فترة مدار الدراسة أثبتت ذلك الأثر العميق للحصارات.

ولعل أهم الحصارات التي كان لها التحول البارز ما عرفته الدولة الزيانية مع جارتها بني مرين وبالضبط في عهد يوسف بن يعقوب المريني سنة(698ه/1298م)، والتي شكلت أخطر الحصارات وأشرسها على تلمسان، فقد قامت الجموع المرينية بمحاصرة تلمسان لمدة أكثر من ثمان سنوات، وأنجر عن هذا الحصار كثرة الموتان والجوع والفقر وغلاء الأسعار[1]، وما يدل على ذلك قول ابن الأحمر" وهو في ذلك يشدد الحصار عليهم ويقول: "لأواصلنه عليهم حتى أقتلهم جوعا"[2]. ولعل شهادة التنسي فيها ما يؤكد ذلك" وكان على أهل تلمسان بلاء عظيم من غلاء الأسعار، وموت الرجال وتثقيف من يخاف منه الفرار، بلغ فيها الرطل من الملح دينارين ...وتمادى بها الحصار ثماني سنين وثلاثة أشهر" وكانت النتيجة حدوث مجاعة عظيمة تحدثت عنها كتب التاريخ بإسهاب، وسجلت مآسيها.

ومن خلال البحث بين مضان المتون المصدرية، يتضح أنه لا يكاد يخلوا عقد من العقود خلال فترة مدار البحث سَلِمَ خلاله المغرب الإسلامي من الحصارات وآثارها، التي كانت فعلا من معالم العصر الوسيط السلبية وسببا من أسباب الفقر، وظلت الحروب والحصارات دوما شبحا مخيفا يهدد

[1]- التنسي، مصدر سابق، صص132-133.

[2] - ابن الأحمر، روضة النسرين، ص50.



بلاد المغرب الإسلامي باستمرار، على اعتبار الضرر الذي ألحقته بكافة النواحي الاجتماعية والاقتصادية و الديمغرافية لأفراد المجتمع الوسيطي.

ويبدو أن سنوات الحصار عمرت أحيانا أكثر من ثماني سنوات، الأمر الذي أثر على أفراد المجتمع المغربي وأنهكه بالمجاعات والفقر حتى الموت.

3: الأسباب الطـبيعيـة

إن بلاد المغرب الإسلامي كانت دائما تعيش في رهان دائم مع الطبيعة، بحيث تتقلب بين العطاء والشح والنعيم والبؤس[1]، فلا جدال في أن التقلبات المناخية عبر التاريخ، وما يترتب عنها من كوارث طبيعية وأوبئة وما تركته من بصمات واضحة في سيرورة التاريخ وانعطافاته الكبرى، يعد من أبرز الأسباب التي أفرزت ظاهرة الفقر في مجتمع المغرب الإسلامي الوسيطي، ولعل مايقوم حجة على حضور العوامل الطبيعية ومن ضمنها– عامل المناخ – في الطرح الخلدوني وتخصيصه أربع مقدمات من الباب الأول من كتاب المقدمة لدراسة أثر المناخ على الإنسان ومحيطه الطبيعي، لادليل واضح يبين بما لا يدع مجال للشك، على أن التقلبات المناخية التي يعرفها المحيط الجغرافي بما ينتج عنها من جوائح وأوبئة لها تأثير مباشر على حياة الفرد في المجتمع، والسؤال الذي يطرح نفسه هل كان للمناخ تأثير واضح المعالم على الإنسان خلال العصر الوسيط؟ وإلى أي مدى أثرت تلك الجوائح على الإنسان والمجتمع ؟ وماهي علاقتها بظهور الفقر ؟.

ا: العامل الجغرافي والمناخي

أشار ابن خلدون في مقدمته أن الأقاليم المعتدلة والمتمثلة في الإقليم الرابع والثالث والخامس، تكون في نظره صاحبة الحظ الأكبر من التحضر لما يتوفر فيها من العلوم والصنائع والمباني المنجزة من الحجارة المزخرفة بأجود تقنيات الصناعة، ومختلف الأقوات والفواكه والحيوانات، وأغلب معاملات سكانها بالنقدين (الذهب والفضة)، أما الأقاليم غير المعتدلة والتي تشمل الإقليم الأول والثاني

---

[1] – محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب (18/19م)، كلية الآداب، الرباط، 1992، ص34

والسادس والسابع، فسكانها أقل تحضرا ويعيشون في خصاصة ويقتصر غذائهم على الذرة والعشب، وبنائهم بسيط جدا من الطين والقصب، وملابسهم من أوراق الأشجار أو الجلود، ولا يتعاملون بالنقدين بل يقتصرون في معاملاتهم على النحاس أو الحديد أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس[1]، كما ذكر أن اختلاف المناطق في طبيعة العيش والغذاء وكل ما تجود به الطبيعة؛ إنما يكون بسبب اختلاف المناخ والتضاريس بين المناطق الصحراوية والسهلية وحتى بين البوادي والحواضر[2].

وأمدنا مرمول ببعض الإشارات حول مناخ بلاد البربر عموما، وإن كان قد ركز في طرحه هذا حول ميقات بدء فصول السنة وانتهائها داخل هذا المجال، مشيرا إلى بعض الاضطرابات المناخية والتي قد تؤدي إلى بعض المجاعات في قوله"يبدأ الربيع ببلاد البربر في الخامس عشر من فبراير وينتهي في الثامن عشر من ماي...وإن لم يسقط المطر في الخامس والعشرين أبريل إلى خامس وعشرين ماي تكون المجاعة، إذ تعتبر هذه الفترة كمفتاح للسنة"[3]، وزكاه قول الوزان" فإذا لم يسقط المطر في فصل الربيع مابين 23 أفريل و05 ماي فإن محصول السنة سيتضرر بأكمله ويكون جد رديء"[4].

وكيفما كان الحال فإن هذه النصوص تجعلنا نقول أن المناخ يؤثر في طبائع وأحوال الناس وسلوكهم، من خلال العديد من الظواهر أهمها: دور المناخ في سيادة حالتي الجوع والخصب والعطاء.

كما لعب الموقع الجغرافي دور كبير في طبيعة كل إقليم من حيث قربه وبعده عن الساحل ومدى خصوبة ووعورة آراضيه في توفير الانتاج الزراعي والكلأ للماشية. فما رصدته لنا بعض كتب الرحلات الجغرافيةلهو دليل يزكي طرحنا هذا، فتواجد بعض المدن في مواقع فلاحية جيدة ومحصنة طبيعيا ضد الغارات والثوار، أَهَلَّهَا أن تكون منطقة غنية بالمنتجات الزراعية وانتشار الصنائع، وسكانها يحيون حياة هنية ذا مستوى معيشي راقي، عكس بعض المدن التي وجدت بعيدة عن الساحل وفي الجبال، فأراضيها تكون وعرة وغير صالحة للزراعة مما يأثر ذلك على طبيعة عيش سكانها ويجلب لهم الفقر

[1] - ابن خلدون، المقدمة، صص91-92.
[2] - المصدر نفسه، صص93-95.
[3] -مرمول كربخال، ج1، ص30
[4] -الحسن الوزان، مصدر سابق، ج1، صص 88-89.

والعوز، وذلك ما نلمسه في قول كربخال عن مدينة سرمان في قوله"لكن لاينبت حولها قمح ولا شعير، لأنها تقع في أرض رملية"[1]، ولعل قول الوزان عن مدينة الحامة مايعزز ذلك" والسكان فقراء لصوص، أما أراضي المدينة فوعرة جافة، لاينبت فيها سوى نخيل"[2]،كما أشار مرمول عن مدينة بني يربوع في كونها مدينة لاينبت فيها إلا القليل من الشعير لأن تربتها ليست صالحة للزراعة[3]، وهذا مايبرر أن درجة الغنى والفقر لأي مجال جغرافي تتحدد بناءا على عدة اعتبارات منها: قوة النشاط الاقتصادي ووفرة العمران، وكثرة المبادلات التجارية، ومدى تطور الصنائع أو تأخرها، فضلا عن قيمة الضرائب التي تفرض على السكان، وهو ما عبر عنه صاحب المسالك في وصفه لبعض المدن المزدهرة "ومنه الى مدينة سفاقس وهي مدينة على البحر مسورة، ولها أسواق كثيرة، ولها حمامات وفنادق وبواد عظيمة وقصور وحصون ورباطات على البحر"[4] وهذه الأوصاف لم تأتي من العدم، فموقعها الجغرافي ومناخها الملائم مكنّاها من ازدهار تجارتها وأسواقها، وتطور عمرانها وصنائعها على حد تعبير صاحب المقدمة" ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها، فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة، ونفقت سوق الأعمال بها أكثر"[5]، وكان لإشادة الرحالة لبعض المدن وما تنتجه من خيرات كبيرة، قد أعطى لطرحنا مدلول كبير في قول مرمول عن مدينة باجة "تقع باجة في منطقة فلاحية جيدة، تمون تونس وما حولها بالمنتجات الزراعية، ويذهب أهل تونس إلى القول أنه لو كانت ببلادهم منطقة أخرى مثلها لكانت كميات الثروات الفلاحية أكثر وزنا من الرمال الموجودة في البلاد"[6].

ولعل ما يشير إلى ذلك أيضا قول ابن حوقل عن مدينة بونة "ولها أسواق حسنة، وتجارة مقصودة، والقمح بها والشعير في أكثر أوقاتها كما لاقدر له"[7]، كما يصف لنا في موضع آخر مدينة

---

[1] -كربخال، مصدر سابق، ج2، ص127

[2] – الحسن الوزان، مصدر سابق، ج1، ص92.

[3] – كربخال، مصدر سابق،ج2، ص127.

[4] – البكري، مصدر سابق، ص191.

[5] – ابن خلدون، المقدمة، ص342.

[6] –مرمول كربخال، مصدر سابق، ص96.

[7] – ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر، بيروت، 1992، ص77.

القيروان"وكانت القيروان أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجرا وأموالا وأحسنها منازل وأسواقا"[1]، والمعتبر في القول أن الموقع الجغرافي لأي مدينة كان قد لعب دور كبير في تحسين المستوى المعيشي للسكان أو تفقيرهم.

ب: الجوائح

1: المفهوم الفقهي

لقد كانت الجوائح من الآفات المألوفة خلال العصر الوسيط. ونظرا لما نتج عنها من مشاكل إقتصادية وإجتماعية. حاول اللغويون[2] الفقهاء أن يصوغوا لها تعريفا مدققا و مضبوطا.

إعتمد فقهاء المذهب المالكي في تصنيف الجائحة من غيرها، وتحديد الآفات المعتبرة من وجهة نظر الفقه على معياري: معرفة الأسباب الفاعلة فيها[3]، وحجم الضرر الذي يترتب عنها[4].فعرفت بأنها كل الآفات السماوية التي لا دخل للإنسان فيها، والتي لا يستطاع التحرز منها ولا دفعها إن علم بها، كالقحط وكثرة المطر والريح والبرد والدود والعفن والغبار المفسد وغيرها على حد قول ابن مالك

---

[1]- ابن حوقل النصيبي، مصدر سابق، ص94.

[2]- الجائحة في اللغة تعني"الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة "،وقد يدخل معناها كذلك الاستئصال لأنه من الاجْتياح: يقال "جاحتهم السنة جَوحا وجياحة وأجاحَتهم واجتاحَتهم: استأصلت أموالهم، وهي تجُوحهم جَوحا وجياحة، وهي سنة جائحة :جدبة"، وعند عياض معنى الجائحة المصيبة المستأصلة يقال أجاحهم العدو واستولى عليهم جاح يجوح: عدل عن المحجة إلى غيرها. الجوح: الهلاك. اجتاح العدو مال فلان :أتى عليه. الجائح : الجراد. كما تتقاطع مع لفظ الجائحة مفاهيم أخرى لها نفس المعنى، مثلا بمعنى:" المصيبة تحل بالرجل في ماله فتجتاحه كله"، كما قال ابن الأعرابي: جاح يجوح جوحا إذا هلك مال أقربائه. والملاحظ أن المستهدف من الآفات والجوائح: أموال الناس ومكتسبا تهم من موارد الرزق والمعاش وهو المعبر عنه بالمصيبة تنزل على الإنسان على حد قول" أعاذكم الله من جوح الدهر " وبالمثل ينصرف معنى الجائحة إلى الشدة من شدائد الدهر تنزل بالناس، ويعرفها المحدثون" الجائحة اسم فاعل مؤنث الجائح، جمع جوائح: وهي المصيبة، والجائحة من السنين الجذبة، وجاح الله المال وأجاحه: أهلكه، الآفة التي تهلك الثمار والأموال وتستأصلها./ينظر: ابن منظور، لسان العرب،ج 2، ص 431/ ينظر: أبي القاسم البرزلي، فتاوى البرزلي–جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ، تح: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي ،بيروت، ط1، 2002 ،ج3، ص388 /ينظر: المعجم الصافي في اللغة العربية، ص106/ينظر: ابن منظور، ج2، ص431. /ينظر: عبد الهادي البياض، =الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الانسان في المغرب والأندلس من القرن 6–8هـ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2008، ص18./ينظر: محمد رواس قلعة جي وحامد صادق قنيتي: معجم لغة الفقهاء، ط2، بيروت: دار النفائس، 1988م، ص157. /ينظر: ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تح: حسن حلاق، مكتبة بن تيمية، ج3، القاهرة، ط1، 1415، صص357-363.

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص360.

[4] – عبد الهادي البياض، مرجع سابق، ص 18.

"الريح والثلج والبرد والدود والعفن والغبار المفسد جائحة"[1]. في حين أضاف بن رشد الحفيد" البرد والقحط وضده والعفن"[2]، ويعرفها بن عرفة بأنها "ما أتلف من معجوز عن دفعه عادة قدرا؛ من ثمر أو نبات بعد بيعه"[3].فقوله رضي الله عنه:"ما أتلف" صير الجائحة عرفا شرعيا هي التلف وأصلها في اللغة المصيبة العامة المذهبة لمال، أو نفسا وغيرهما، ثم خصصت في الشرع بما ذكر. والمعجوز عن دفعه هو كل الآفات السماوية، من برد ونار وريح وجراد وقد أطلق عليها جائحة في المدونة[4].أما المراكشي فقد ميز في تحديد الجوائح بين صنفي الثمار والزروع مؤكدا أن جوائح الثمار تكون "من الطير الغالب أو الجراد أو الأمطار والبرد والجليد والجيوش"[5]. في حين ذهب ابن سلمون إلى أن الجائحة إذا كان مصدرها" من العطش فهي موضوعة في القليل والكثير باتفاق"[6]، واعتبر الغرناطي"التثرية والنار من موجبات الجوائح"[7].

يبدو من خلال التعاريف الفقهية السابقة الذكر، أن مصدر الجوائح يعود إلى الاضطرابات المناخية، التي لا دخل للإنسان فيها ولا قدرة له على ردها، بحيث لا تكون "إلا من أمر السماء لا من فعل الناس"[8]، وهو الأمر الذي أوضحه بن رشد أن الجائحة "كل ما أصاب الثمرة من السماء" [9] أي آفات سماوية لا دخل للإنسان فيها، وأضاف الأزهري في لسان العرب أن الجائحة تكون في"كل

[1]– ابن سلمون أبي محمد عبد الله الكناني: العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من الوثائق والأحكام، تح: محمد عبد الرحمن الشاغول ،دار اللأفاق العربية ط1، القاهرة ،2011، ص295.

[2] – ابن رشد، بداية المجتهد، ج3، ص360.

[3] – الرصاع التلمساني، شرح حدود ابن عرفة المعنون با: الهداية الكافية الشافية، تح: أبو الاجفان والطاهر المعموري، ط1، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1993، ص 392.

[4] – المصدر نفسه، ص 392.

[5] – عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تح: حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1997، ص 315.

[6] – ابن رشد، مصدر سابق، ج2، ص190.

[7] –أبي اسحاق الغرناطي، الوثائق المختصرة، أعدها مصطفى ناجي، مركز إحياء التراث المغربي، الدار البيضاء مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1988، ص33.

[8]– أبي اسحاق الغرناطي، مصدر سابق، ص566.

[9] – ابن رشد، مصدر سابق، ج3، ص360.

ما أذهب الثمر أو بعضها من أمر سماوي بغير جناية أدمي"[1]. وعلى هذا الأساس جاءت الفتاوى بإسقاط الثلث لتخفيف ضرري المتعاقدين[2].

2: القحوط والأوبئة وشبح المجاعات:

لطالما كانت القحوط[3]من المسببات للفقر، وذلك لما ألحقته بالإنسان من أثار الجوع والعطش عبر مختلف العقود.

ا-المجاعات:

تجدر بنا الإشارة إلى أن الجائحة لا تعني المجاعة[4] في حد ذاتها، وإنما هي أحد مسبباتها، فالمجاعة تكون نتيجة تلك الجوائح التي تعصف بالإنسان بين الحين والآخر، سواء كانت طبيعية من (قحط،

[1] – ابن منظور، ج2، ص431.

[2] – ابن رشد ، مصدر سابق، ج3، ص362.

[3] – القحوط: تعتبر القحوط من أهم أنواع الجوائح، ووردت لفظة القحط بعدة معاني في المعاجم اللغوية، فحسب ابن منظور: القحط : احتباس المطر كما عبر عنه ابن سيده: القحط: الجدب أنه من أثره وجاء أيضا عند ابن الفرج بلفظة الكحط في قوله: كان ذلك في اقحاط الزمان واكحاط الزمان أي في شدته يقال الكحط، وأمحل البلد: اذا قحط فهو ماحل، ويقال الناس في كلبة أي في قحط وشدة من الزمان. وقيل: القحط في كل شيء =قلة خيره، وفي الحديث: اذا أتى الرجل القوم فقالوا قحطا فقحطا له يوم يلقى ربه أي أنه اذا كان ممن يقال له عند قدومه على الناس هذا القول فإنه يقال له مثل ذلك يوم القيامة. كما ورد بلفظة الضاروراء: القحط والشدة، وجاء أيضا بمعنى الشياح والتي تعني أيضا القحط. / ينظر: الجوهري، الصحاح، ج7، صص374، 386/ ج15، ص 238.

[4]– المجاعة: عرفها ابن منظور على أنها اسم للمخمصة، وهي نقيض للشبع، والمجاعة في اللغة هي مفْعَلَةً من الجُوعْ، ومن الفعل جَاعَ يَجُوعُ جَوعًا وجُوعَة ومَجَاعَةً ، وجاءت في قاموس المصطلحات الاقتصادية " المجاعة– بفتح الميم والجيم ممدودة – والجمع المجاعات: هي القحط يعم بسببه الجوع وفي القرآن الكريم مصداقا لقوله :" فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" النحل (112) والمجاعة هي مصدر مثل المغضبة والمتعبة: وهي خلاء البطن من الطعام جوعا،كما تعني المسغبة أيضا المجاعة في قوله تعالى" أَوْإِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ " البلد (14) أي مجاعة، "والمسغبة": الجوع، وقيل: الجوع من التعب، وربما سمي العطش سغبا وليس بمستعمل،كما جاءت بمصطلحات أخرى كالألبة، والخَوْبَةُ،والشدة، =وشدة العيش: شظفه، والانْفَاضُ: يعني المجاعة والحاجة،إما الخصاصة فهي الخلة والفقر، وذو خَصَاصَة: ذو فقر وقد أطلق على السنة التي تحدث فيها المجاعة عدة تسميات منها: السنة الغبراء وسنة لُزْبَةُ: أي شديدة القحط، والسنة الشهباء: وقيل: هي بيضاء لكثرة الثلج وعدم وجود النبات، وقيل إن شُهْبَاءُ هي ريح شديدة البرد،كما سميت المجاعة بالقَحْمَةُ،كما وردت باسم الخداعة: القليلة المطر، والسنون الخوادع: هي القليلة الخير الفواسد، وكذلك السنة السنهاء: وهي السنة التي لا نبات بها ولا مطر، ويقال: أَسْنَتَ القوم بمعنى أصابتهم سنة شديدة من القحط. ينظر: محمد عمارة، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الاسلامية، دار الشروق،دت، ص51/ سورة النحل، الآية 112/ جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي: تفسير الإمامين الجليلين، بيروت: دار المعرفة، (د.ت) ، ص808./ ابن منظور،ج1، ص368، 738/ ج4، 210/ ج8، ص66/ج13، ص150، 502.

برد، ثلج، سيول،جراد، ريح، وغيرها)، أو غير طبيعية كجائحة الجيش التي كانت محل خلاف بين الفقهاء في جعلها من الجوائح التي تتسبب في إفقار الإنسان وإصابته بالمجاعات وكثرة عدد الموتى[1].

حصل هناك اختلاف بين الفقهاء حول ما إذا اعتبر الجيش والسارق والسلطان الجائر من الجوائح، فقد روى ابن القاسم عن مالك أن الجيش جائحة، وقال ابن القاسم والسارق مثله[2]، وخالفهم ابن فتوح"إذ اعتبر الجيش والسارق ليس من الجائحة، إلا إذا بلغ الضرر مقدار الثلث أو أزيد في الثمرة المجاحة[3]على قول الغرناطي "وضع في الثلث فأزيد"[4].

وقد لخص الفقيه ابن رشد الحفيد، اختلاف الفقهاء حول هذا الأمر في قوله" وأما ما أصاب من صنع الآدميين، فبعض أصحاب مالك رآه جائحة، وبعض لم يره جائحة، والذين رأوه جائحة انقسموا قسمين، فبعضهم رأى منه جائحة ما كان غالبا كالجيش، ولم ير ما كان بمغافصة جائحة مثل السرقة. وبعضهم جعل كل ما يصيب الثمرة من جهة الآدميين جائحة بأي وجه كان"[5]. ولايعنينا هنا تفاصيل هذا الاختلاف والاتفاق بين الفقهاء بقدر ما يهمنا تأثير تلك الجوائح على الإنسان وما ألحقته به من ضرر كالفقر والجوع لدرجة الموت خلال العصر الوسيط.

ب: الأوبئة

لم يكن شبح المجاعات هو العارض الوحيد الذي تسبب أحيانا في تفقير أفراد مجتمع المغرب الإسلامي، وتهديد بقائه، وإنما اعتبرت الأوبئة[6] أيضا من بين الجوائح التي عملت على انتشار الفقر، من خلال تأثيرها على البنية الديمغرافية وبالتالي على القاعدة الإنتاجية والمستوى المعيشي للسكان.

---

1 – عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص315.

2 – ابن عبد الرفيع، معين الحكام على القضايا والأحكام، تح: محمد بن قاسم عياد، بيروت،ج2، دار الغرب الاسلامي، 1989، ص551. /ابن رشد، مصدر سابق، ج3، ص360.

3 –حسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ص25.

4 – أبي اسحاق الغرناطي، الوثائق المختصرة، تح: ابراهيم بن محمد السهيلي، الجامعة الاسلامية، المدينة المنورة، 2011، ص 184.

5 – ابن رشد، مصدر سابق، ص360 /ينظر: الحسين بو لقطيب، مرجع سابق، صص 25-26.

6 –الوباء: يعرف في قواميس اللغة بأنه كل مرض عام وهو الطاعون بالقصر والمد والهمز، وهو رجز وجمع الممدود أوبية، وجمع المقصور أوباء، وقد وبئت الأرض توبأ وبأ، وأوبأت وباء، فهي موبوؤة، أي مريضة، وأطلق على الوباء مرادفات أخرى مثل: لفظ الموتان " وذلك على المجاز إذ أصله في اللغة

إقتصرت المصادر التاريخية على ذكر بعض الشذرات المتفرقة عن الأوبئة، دونما تحليل في الغالب، وقد فسر بعض الدارسين ذلك الصمت باستشراء ذهنية الصبر والإستسلام لدى مجتمع عدَ الوباء رحمة والموت شهادة[1].

ولئن جاءت المصنفات الفقهية والطبية أكثر دقة عن غيرها، فقد دأب مؤرخوها إلى توجيه نظرهم إلى مثل هذه الأمراض وتشخيصها، إذ يعرف ابن خاتمة الوباء على وجه العموم"بأنه مرض عام للناس قتال غالبا عن سبب مشترك"[2]، أما على وجه الخصوص" فيقال هو حمة خبيثة دائمة عن سوء مزاج"[3].

وبالمثل عرفه ابن الخطيب في قوله" هو مرض حاد حار السبب سمي المادة يتصل بالروح بدءً بواسطة الهواء، ويسري في العروق فيفسد الدم ويحيل، رطوبات إلى السمية وتتبعه الحمى ونفث الدم، أو يظهر عنه خراج من جنس الطواعين "[4].

وتأسيسا لهذه المصطلحات من قحوط ومجاعة وأوبئة، سنحاول التعرض لأصناف الكوارث الطبيعية والبيئية، التي اجتاحت المغرب الإسلامي خلال فترة مدار الدراسة، وكانت طرفا بارزا في إستفحال الجوع والفقر، محاولين تعقب النتائج التي تمخضت عنها ؟ وهل كان لها أثرا على أفراد المجتمع؟.

لكن وقبل التطرق إلى دورها وأثرها على مجتمع المغرب الاسلامي يجدر بنا القول أن تلك العلاقة السببية بين الجوائح وظاهرة الفقر، هي علاقة ليست حتمية بالضرورة، فمن خلال البحث بين مضان

=الموت يقع في الماشية (وتقييده بضم الميم)، كما يسمى أيضا القرف، فيقال: إحذر القرف في غنمك، وقيل القرف العدوى فاقرف الجرب الصحاح: والقرف مقارفة الوباء، وقد اقترف فلان من مرض آل فلان وهو أن يأتيهم وهم مرضى فيصيبه ذلك، وقد أقرفوه أقرافا/ ينظر: ابن منظور، ج1، ص 189/ج9، ص280.

[1]– محمد المواق ومحمد الرصاع، الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية، تح: محمد حسن، دار المدار الاسلامي، ط1، 2007، ص 106.

[2]–ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد في تفضيل المرض الوافد –ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف (749ه/1348م) –تح: محمد حسن، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، قرطاج، ط1، 2013، ص128.

[3] – محمد المواق ومحمد الرصاع، مصدر سابق، ص106.

[4] – لسان الدين ابن الخطيب، مقنعة السائل عن المرض الهائل–ضمن كتاب ثلاث رسائل في الطاعون الجارف (749ه/1348م)، تح: محمد حسن، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، قرطاج، ط1، 2013، صص107-108.

المصادر، إذ كثيرا ما أشارت بعضها إلى وجود جوائح متبوعة بانتشار الفقر، كما أشارت إلى وجود الفقر دون أن تسبقه جوائح، وهو ما يفسر لنا تفشي الفقر في مجتمع المغرب الاسلامي سواء بسبب الكوارث الطبيعية أو نتيجة عوامل أخرى.

3: المغرب الإسلامي وزمن الكوارث والآفات:

من المعلوم أن الفقر يأتي كنتيجة عن جملة من المسببات منها الكوارث الطبيعية التي تأتي هي الأخرى كنتيجة عن تقلبات المناخ، والتي عدت من أهم الأزمات التي أثرت في القطاع الزراعي والتجاري والصناعي، وعملت على تغيير في نظام حياة البشر، مما ترتب عنها ظواهر اجتماعية إنعكست على أفراد مجتمع المغرب الإسلامي.

ا: المجتمع الحفصي وزمن الشدة:

عرف المجتمع الحفصي ككل المجتمعات كوارث وآفات طبيعية وبيئية لاحصر لها، على أن القحط والجفاف كانا أكثر خطرا من بقية الآفات، إذ مثلت المطر حدثا هاما في حياة الناس، حتى أرخوا بها فقالوا مثلا سنة النوة[1]،كما قال عنها ابن خلدون" فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة، والمطر يقوي ويضعف ويقل ويكثر الزرع والثمار والضرع على نسبته"[2].فلا شك أن جائحة المطر تتضمن في الآن نفسه كثرتها وما ينجر عنها من سيول وفيضانات وقلتها وما يعني ذلك من جفاف.

كثيرا ما تسبب القحط والجفاف في كوارث حقيقية، عندما إنعدم المحصول الزراعي، وقد إلتجأ المزارعون إلى التسلف، على أمل إرجاعه في السنة الموالية بشروط مجحفة، مما يفسر مبادرتهم بالحصاد قبل بلوغ الزرع أو أنه مثلما وقع بإفريقية سنة(679هـ/1280م)، إذ أجبر الناس على أكل القمح فريكا[3]. وهو ما يبين أن المزارعين وقعوا تحت طائلة الفقر والعدم جراء الجفاف والقحط الذي حل بهم

---

[1] -محمد حسن، مرجع سابق، ج2، ص 604.

[2] -ابن خلدون، المقدمة، ص288.

[3] - الزركشي، مصدر سابق، ص45./محمد حسن، ج2، ص604.

على وصف العبدري" عمل البلاء فيهما وفي السكان وأدخل الجميع في خبر كان"[1]. ومما يعزز هذا التخريج أيضا ويقربه إلى مستوى الحقيقة هو ماميز ظروف الفئات العامة في المجتمع الحفصي التي اصطبغت بأوصاف العدم والخصاصة، فقد يصل الأمر بالفقراء إلى العجز حتى عن الحصول على ماء الشراب أيام الجفاف، لأن الماء يتحول إلى بضاعة تباع بثمن مرتفع فقد نقل الغبريني[2] وبعده أحمد المقري" أن الزق من الماء وصل إلى أربعة دراهم حين حدث جفاف في وقت الفقيه أبي الحسن الحرالي الذي أمر زوجته بإخراج الماء إلى الفقراء "[3].

وغالبا ما كان يؤدي الجفاف إلى الانتقال وشد الرحلة بحثا عن الخصب والكلأ والماء، فهذا البرزلي كشاهد عيان يصف لنا المخاطر التي تنجم عن الهجرة جراء الجفاف في قوله "أخذتنا ريح بالأكرع، فيمشي الرجل، ثم يسقط ميتا من ريح أصابهم، يقال له ريح السديدا، وشاع وذاع أنه فقد من المحمل والتجريدة أزيد من ألف نسمة، وكذا فقد من الركب المغراوي والمغربي بشر كثير أيضا "[4].

والظاهر أن تلك الجوائح كثيرا ما كانت تنجم عنها مجاعات شديدة الوقع على شرائح المجتمع الحفصي، سواء منها المترفة أو الفقيرة، إلا أنه لا يخامرنا شك أن شريحة الفقراء كانت أكثر تضررا لتحملها بشدة انعكاسات الكوارث الطبيعية السيئة كشبح المجاعات، هذا يعني أنها كانت مجاعة طبقة الفقراء، وكانت انعكاساتها عليها كبيرة إلى حد العجز المادي الكامل إذ وصل بهم الأمر إلى السؤال، وهو ما ورد عن أبو زكريا الزواوي" وأغناهم عن السؤال"[5].

ويبدو لنا مما سبق ذكره تحمل هذه الفئة الفقيرة آلام الجوع والصبر والفاقة أيام الشدائد، فليس نادرا أن يبقى الانسان أياما عديدة صابرا وخاضعا لآلام الجوع، أو أن يمشي مسافة بعيدة دون أن

---

[1] – العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تقديم :سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007، ص57.

[2]–أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979، ص151.

[3] –المقري أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، ج2، دار صادر، بيروت، 1988، ص189.

[4]–البرزلي، فتاوى البرزلي، ج2، ص481.

[5] –ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ط2، 1997، ص429.

يجد ما يسد رمقه، وممكن أن يبقى بعض المحتاجين والفقراء السنين العديدة دون أن يرون عملة الدرهم والدينار.

وليس أدل على صحة ما نقوله هو تلك المجاعات التي تخللت الفترة الحفصية، وكادت أن تعصف بالبنية القاعدية للمغرب الأدنى، وما يزكي هذا الطرح قول أبو الحسن الشاذلي" دخلت مدينة تونس وأنا شاب صغير، وجدت فيها مجاعة شديدة ووجدت الناس يموتون في الأسواق"[1]،كما أشار صاحب القرطاس إلى ذلك في قوله "كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر. هلك فيها خلق كثير وبلغ القمح 10 دراهم للمد، الدقيق 6 أواقي بدرهم"[2].

ومما عزز القول أكثر كلام التجاني في قوله"وسبب ذلك أنهم لم يجدوا هنالك ما يقتاتون به حاشا لحوم الحيات فعدا عليهم سمها فأهلكهم، وصح لدينا من هؤلاء الذين خلصوا أنهم كانوا يمرون في كثير من أرضها بالأحياء والخيام فيها مضروبة. وجميع من في تلك الخيام موتى من رجال ونساء وأطفال"[3]، ونسوق نصا آخر له دلالة بحيثيات المجاعة وأثرها على طبقة الضعفاء المحتاجين فحسب شهادة الغبريني في قول أحد الأولياء الصالحين"أصبحت يوما وليس لنا قوت ولا شيء من الأشياء"[4]، ولعل شهادة ابن بطوطة عن الغلاء والجوع الذي رآه أثناء رحلته مايبرر طرحنا هذا في قوله"فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعا من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه. وكانت الجلود تطبخ وتباع في الأسواق. وكان الناس إذا ذبحت البقر، أخذوا دماءها فأكلوها"[5] كما ذكر ابن الزيات أنه في سنة من سنوات المجاعة إشترى الفقيه أبو زكريا الزواوى للفقراء ثيابا ليقيهم من البرد بأموال جمعها من أعيان

1 - محمد حسن، مرجع سابق، 614.

2 -ابن أبي زرع الفاسي، الروض القرطاس، ص409.

3- أحمد التجاني، رحلة التجاني، صص191-192.

4- الغبريني، مصدر سابق، ص148.

5 -ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) تح: عبد المنعم عريان ومصطفى القصاص، دار إحياء العلوم ، بيروت، ط1، 1987، ص512.

بجاية[1]. وأشار أحد ساكني مدينة تونس عن مجاعة(748هـ/1347م) فقال" أصابني جوع عظيم وكان الغلاء ولا نقدر نخدم ولا نطلب وخشيت على نفسي من الجوع الذي أصابني" [2].

ومن القرائن التي تشهد على الجوع والفقر، حركة تطور سعري القمح والشعير اللذين يمكن اعتبارهما بمثابة المقياسين أو المؤشرين: ففي سنة(755هـ/1354م) على ما روى الزركشي "إرتفع سعر القفيز[3]من القمح أحد عشر دينارا ذهبا والشعير إلى النصف من ذلك"[4]، وهذه ربما إحدى أعتى الأزمات المعيشية في تلك الفترة مقارنة مثلا مع غلاء سنة(862هـ/1457م)، حيث في "أوائل العام المذكور أصاب الناس بتونس غلاء في الطعام بلغ قفيز القمح أربعة دنانير والشعير على الشطر من ذلك فشكى الناس قلة الطعام وغلاءه للسلطان"[5]، ومن أصداء مجاعة سنة(755هـ/1354م) أيضا ما جاء في ترجمة الشبيبي عند صاحب المعالم"كان زمن الشدة، القفيز من(القطانية) بأربعة دنانير ذهبا"[6]وفي زمانه أيضا "كان إذ ذاك بستة دنانير ذهبا القفيز شعيرا"[7].

وفضلا عن ألم الجوع والقحط والهجرة ثمة آفة أخرى وهي الأوبئة، والتي فتكت بالكثير من الأسر، خاصة الفقيرة منها، إذ شكلت هاجسا خطيرا لدى أفراد المجتمع الحفصي، لاسيما العامة الفقيرة المعدمة، لِما تمخض عنها من آثار حادة في البنية الإقتصادية والإجتماعية والديمغرافية، والتي كانت تواجهها بكثير من الإستسلام والعجز.

ابتلي أفراد مجتمع المغرب الإسلامي خلال فترة مدار البحث بوباء الطاعون الذي يعتبر أعظم وباء هدد البشرية آنذاك خاصة خلال القرن(8هـ/14م). فبظهور الطاعون الجارف أصبحت حركة

---

[1]- ابن الزيات التادلي، مصدر سابق، ص429/ ينظر: صالح بعيزيق، بجاية على العهد الحفصي، -دراسة اقتصادية واجتماعية-، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006، ص446.

[2] - محمد حسن، مرجع سابق، ص631.

[3] - القفيز يساوي 187ليترا / ينظر: نللي سلامة، مرجع سابق، ص71.

[4] - الزركشي، مصدر سابق، ص95.

[5] - المصدر نفسه، ص 150.

[6] - الدباغ أبو زيد، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، أكمله ابن ناجي، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس، دت، ج3، ص 212.

[7]-المصدر نفسه، ص210. /ينظر: نللي سلامة، مرجع سابق، ص72.

الوباء تجتاح بلاد المغرب الإسلامي بصفة دورية، بعد كل عشرة أو خمسة عشر سنة في المتوسط[1]، غير أن فترات حدوث الوباء إختلفت نسبيا، فأحيانا كان يأتي بحدة وأحيانا أخرى بنسبة أقل (فهناك وباء ذريع ووباء خفيف ذي الإنتشار المحدود). وما أن ظهر الطاعون الجارف، حتى بدا وقعه جليا في كافة نواحي الحياة على حد تعبير المقريزي عن طاعون(748ه/1347م) "وعم الموتان أرض إفريقية بأسرها، جبالها وصحاريها ومدنها، وجافت من الموتى وبقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها ... وماتت المواشي بأسرها "[2].

وبالمثل أنهك الوباء بعض الأسر فقد "تسرب الطاعون بقرجانة فأهلكها حتى أن المصادر أحجمت عن ذكرها من ذلك التاريخ، ولم يبق من الأسرة المكونة من أرملة وابن وثلاث بنات، سوى الأم وابنها علي القرجاني، اللذين نزحا إلى تونس، حيث استقرا بعد أن كابدت الأسرة طويلا من ألم الجوع والفقر والحرمان"[3]، كما أطلعنا التجاني هو الآخر بنص مفاده أن الوباء يؤدي الى الترحال والهروب تحاشيا لأعراضه في قوله"...وكان السبب الذي حثنا على تعجيل الارتحال عنها ما كان بها من الوباء...وكان قد أفرط فيها في هذا الفصل وخرج عن معتاده وقتل بشرا كثيرا من الغرباء"[4]، ولعل هذه النصوص رغم ضآلتها وما ميزها من انطباعية، تحمل الكثير من الدلالات الموحية بالغرض، وتكشف لنا ما ساقته الأوبئة من أضرار على الكائن والساكن.

إن أول ملاحظة تنتاب القارئ لهذه النصوص وفي ظل هذه المعطيات التاريخية، هو ذلك التساؤل والمعبر عنه: إذا كانت تلك الكوارث الطبيعية والآفات البيئية لم ترحم طبقات النخبة المترفة والغنية فكيف كان حال الطبقات الميؤوسة وقتئذ، وكيف بإستطاعة ذلك الإنسان المعتر الفقير والبائس المحتاج أن يواجه معضلة الجوع والوباء معا ؟.

[1] -الحسن الوزان، مصدر سابق،ج2، ص95.

[2] -المقريزي تقي الدين، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج2، القسم3، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ص777.

[3] - محمد حسن، مرجع سابق، ج 2، ص632.

[4] - التجاني، مصدر سابق، ص179.



إن المتوفر من النصوص التي تكشف عما خلفته الكوارث والمجاعات خلال العصر الوسيط من بؤس وفقر لدى الطبقات العامة، يبدو مقتضبا وضئيلا؛ ذلك أن مؤرخي الفترة المدروسة كثيرا ما يمرون عليه سريعا ويقتضبونه اقتضابا كما لو أن لا فائدة من الإطالة فيه، هذا الشح والافتقار للمادة الإخبارية المتخصصة، يجعلنا نأخذ النصوص بظاهرها وعمومها أحيانا، محاولينا رسم صورة معيارية لحجم تلك المعاناة التي ظلت لصيقة بالفئات الضعيفة والمعوزة.

لا يخامرنا شك في أن وضعية الفئات الضعيفة،لم تكن أقل مأساوية فقد أشارت بعض النصوص عن وضعهم المزري وما كانوا عليه من الجوع والعرى والحاجة، إبان تلك الأوضاع الكارثية، خاصة البدو، فقد كانوا أكثر تعرضا لانعكاسات المجاعة والقحط من أهل الحضر، تعرضوا للتشرد وشد الرحيل من مكان إلى آخر بحثا عن الخصب كما سبق وأن تطرق لذلك البرزلي "وليس نادرا أن يلتجئ البدو أحيانا إلى بيع محصولهم الزراعي والتفريط في ماشيتهم لصالح التجار الحضر، لإقتناء قوتهم زمن المجاعات والكوارث الطبيعية وبخاصة في فصل الشتاء، كمالم يتوانوا في ارتهان أملاكهم، مثل تلك المرأة البدوية التي رهنت بيتا لها زمن الشدة"[1]، وبالتالي فإن المتضرر الأول زمن المجاعة هو البدوي الفقير الذي لايجد ما يقتات به رغم عمله الدائم والمتواصل ليلا ونهارا بالزراعة، على غرار أهل المدينة الذين يقومون بتخزين الطعام الوافد عليهم من الريف تحسبا لأي مجاعة أو جائحة عارضة.

كما تضررت فئة الحرفيين وأصحاب المهن، فإن عددا كبيرا قد هلك بسبب الجوع والوباء، فتقلصت المهن والصنائع داخل المدن حسب شهادة المقريزي"...وغلقت دار الطراز لعدم وجود الصناع، وغلقت دار الوكالة لعدم الواصل إليها وغلقت الأسواق...وعم الوباء جميع تلك الأراضي، ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع"[2]، كما أهملت الجنان والبساتين وأصبحت بلاد إفريقية تشكو من نقص في عدد المزارعين وأصبحت جل آراضيها مهجورة وبورا[3].والحال نفسه ذكره صاحب السلوك عن فقدان الفلاحين لزراعة الأراضي في قوله" فما جاء أوان الحصاد حتى فنى

[1] -محمد حسن، مرجع سابق،ج2، ص627.

[2] -المقريزي، السلوك ،ج4، ص84.

[3] - الحسن الوزان، ج2، ص438.

الفلاحون، ولم يبق منهم إلا القليل"[1]، وأشار في عدة مواضع أخرى إلى هذه الظاهرة في قوله" وشمل الموت أهل الضياع، وكان أواخر زمان الحرث، فكان الرجل يوجد ميتا والمحراث في يده، ويوجد آخر قد مات وفي يده ما يبذره، وماتت أبقارهم، وخرج رجل بعشرين نفرا لإصلاح أرضه، فماتوا واحدا واحدا"[2].وهي كلها نصوص تثبت مدى خطورة هذا الوباء وأثره على مختلف شرائح المجتمع خلال العصر الوسيط.

عموما يظهر أن الإنسان الوسيطي سواء في المدينة أو في البادية ظل معرضا لتأثير هذه الكوارث الطبيعية والبيئية، فقد تحكمت نزوات الطبيعة وتقلباتها إلى حد كبير في النمط المعيشي لأفراد مجتمعه خاصة الفئات العامة الفقيرة.

ب: المجتمع الزياني وزمن الشدة:

على غرار الكوارث الطبيعية التي ألمت بالمجتمع الحفصي، كما سبق وأن أشرنا إليها من قبل، فكيفما كان الحال فقد تأثر المغرب الأوسط هو الآخر بكوارث طبيعية مشابهة لها أو أكثر وقع منها، عجلت بظهور جوائح من قحوط وجفاف وبرد وسيول، والتي تسببت في مجاعات وأوبئة،كادت أن تعصف بكيان البنية الإجتماعية والإقتصادية وكذا الديمغرافية لمجتمع المغرب الأوسط.

والظاهر أن المغرب الأوسط كغيره من المجالات الجغرافية الأخرى، تخللته سنوات مطيرة وأخرى جافة، نتج عنها القحط والتي هي من أخطر الجوائح المائية[3]، فقد أفضت بعض المصادر إلى أهمية عنصر الماء في حياة الإنسان وأشادت بمدى ضرورته في توفير الغذاء[4]، منوهين إلى أن حدوث جائحة الجفاف تؤدي حتما إلى تضرر المحاصيل الزراعية وبالتالي حدوث المجاعة. وما يزكي هذا الطرح أكثر

---

[1] – المقريزي، مصدر سابق، ج4، ص89.

[2] – نفسه، ج4، ص82.

[3] – الجوائح المائية: نقصد با الفياضانات والسيول العارمة والثلوج الكثيرة، ومن الأمثلة على ذلك نذكر ما حصل في الاندلس خلال فترة الدراسة فهناك نص يبين خطر الجوائح المائية على الإنسان "طرقهم من المطر المتدارك، والوحل المقيد للأخماص والسنابك، والسيول الخارقة،...أنهار ترمي غواربه الغدير بالزبد، حتى ذهبت بالجسور، وامتنع أكثرها من العبور"/ينظر: ابن عذارى، قسم الموحدين، مصدرسابق، ص261.

[4] – خيرة سياب، المياه ودورها الحضاري في بلاد المغرب والاندلس، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة وهران، غير منشورة، 2014، صص26-30.

أن تلمسان تعاقبت عليها سنوات عديدة من الجفاف وعدم سقوط الأمطار حتى تشققت الأرض، وجفت الآبار وعدمت الزراعة[1]، ويبدو أن حال أهل مرسى الخرز[2] كان أسوأ بكثير من باقي المدن أين كان الماء قليل عندهم حتى بلغ ثمن الشربة الواحدة في أحد الفترات إلى ربع دينار[3]؛ إذ وصفها الوزان "وهؤلاء في غاية الكرم، مع أن الناس لا يمرون بمضارب خيامهم لجفاف أرضهم"[4].

وأشار الونشريسي في موسوعته النوازلية مادة هامة عن معاناة إنسان المغرب الأوسط جراء نقص الماء، وذلك من خلال المنازعات التي كانت تحدث بسببه بين الفلاحين، كما هو مجسد في إحدى النوازل"سئل أحد عن قوم كان لهم وادي كبير فغرسوا عليه جنة كثيرة ويحرثون عليه فإن كان الشتاء كثر وإذا كان المصيف قل حتى يصل إلى الأسفلين يرده الأعلون عنهم وإن أرسلوه إليهم أضر ذلك بالأعلين أيضا" وكان جواب الونشريسي له"للذين غرسوا على الوادي كلهم السقي إلا أن يقل الماء ولا يكون فضل عن الأولين"[5]، وهذه النازلة تبين لنا أن اعتماد المزارعين على عملية السقي وذلك لقلة وندرة الأمطار.

ولم يقتصر الأمر على نقص المياه وقلتها، بل تخللت المغرب الأوسط جوائح أخرى، كجائحة السيل والثلج الذي تساقط بتلمسان خلال القرن(9هـ/15م)حسب ما ورد عند ابن مريم "نزلت ثلجة عظيمة فتعطلت منها الأسواق وانهدمت منها ديار"[6]، والذي أفضى إلى خسائر إقتصادية من إتلاف المزروعات والحيوانات مما يؤثر ذلك على الفلاح، وكذا تعطل الأسواق وحركة السير وتنقل القوافل التجارية وهو ما يؤكده المقريزي في وصف بلاد الشام أيام الكوارث في قوله" وفي رمضان جاء

---

[1] - نعيمة بوكرديمي، الرحلة العلمية لعلماء تلمسان إلى فاس –خلال القرن الثامن الهجري /14م –رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، غير منشورة، سيدي بلعباس، 2010، ص32.

[2] - هي قرية توجد على الساحل تحتوي على معدن المرجان ذو الجودة العالية، وكان سلطان المغرب يضع أمناء على حراسة هذا المرسى وما يخرجه من المرجان، وهي ناحية تقل فيها الزراعة، ويكثر فيها اصطياد الأسماك نظرا لوفرته / ينظر: ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، صص76-77.

[3] - يحي ابن خلدون، البغية،ج2، صص 240-241.

[4] - الحسن الوزان، ج1، ص 60.

[5] - الونشريسي، المعيار،ج8، ص402.

[6] - ابن مريم المليتي المديوني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تح: عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011، ص102.

بدمشق سيل عظيم وذهب كثير من مساطب السفرجل ولم أَرَ قَطَ ماء أعكر منه، لعل في الرطل منه ثلاث أواق تراب فخنق السمك بَرَدَى وَطَفَا..."[1].كما أثرت الرياح والعواصف البردية هي الأخرى على الزروع بإتلافها وحرقها وقتل البهائم والبشر أحيانا على نحو كلام الوزان " فإذا هبت في غير فصل الصيف فإنها تؤدي إلى إتلاف وحرق المحاصيل الزراعية، وأما الرياح الشرقية فهي أيضا تتسبب في إتلاف المحاصيل الزراعية خاصة وأنه يصاحبها قحط شديد"[2]، وهو ما عبر عنه صاحب الأنيس فيما حدث عام(679ه/1280م) حيث"كانت الريح الشرقية بالمغرب دامت ستة أشهر فأعقبها الوباء العظيم والأمراض الكثيرة"[3]، ولعل ما خلفته هذه الرياح والعواصف الثلجية الباردة في نفسية الفرد بالمغرب الأوسط، من متاعب ومعاناة ما جعلته يصفها بأن تلمسان كانت أشد بلاد المغرب الأوسط بردا وتجلدا[4].

وفي كل الأحوال فإن المتضرر الأكثر من هذه الجوائح هم الضعفاء والفقراء القاطنين بالبوادي، فقد أضرت لهم هذه الكوارث الزروع والغلال، وعطلت من نشاطهم الزراعي والرعوي معا، والفلاح إذا ما هلك محصوله بهذه الآفات أصبح عرضة للفقر، والحاجة، وهنا يجد نفسه عاجزا عن دفع ما عليه من ضرائب كبعض المكوس والمغارم التي كانت السلطة تفرضها عليه. وهذا لايستثني أن المدن كانت بمعزل عن هذا الضرر، ففي حالة تضرر المنتوج بجائحة فيقل الانتاج، وتعيش المدن أزمة غذائية خانقة، لأنه يصعب على الجلابين جلب منتجاتهم إلى المدن، أو أنهم يجلبون منها القل القليل وتكون بأثمان مرتفعة وباهضة يعجز الناس عن إقتنائها، فيقل وجود السلع بالأسواق فيحدث الغلاء في الأسعار فتقع الخصاصة والفقر[5].

[1] – المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح:كرم حلمى فرحات، عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الهرم، ط1، 2007، ص52.

[2] –الحسن الوزان، ج2، ص91.

[3] – ابن أبي زرع الفاسي، مصدر سابق، ص102.

[4] –ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، تح: ماريا خيسوس بيغيرا ، تقديم : محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص222.

[5] –ابن خلدون، المقدمة، صص344-345.

ولا شك أن معظم المجاعات الدورية التي عصفت بالمغرب الأوسط خلال فترة مدار البحث، كانت نتيجة لتلك الجوائح المختلفة، فقد شكلت خطرا حقيقيا على حياة سكان تلمسان خلال هذه الفترة، حيث ظلت تهددهم بالفناء لذلك لم يستطع هؤلاء الاخباريون تناسي مآسيها وإسقاطها من ذاكرة التاريخ[1]، وهذا ما عبر عنه قول عبد العزيز فيلالي عن وصف ابن الخطيب هذه الظاهرة "عظم الجفاف، وعصفت الريح الرجف، تنقل الهضب قبل ارتداء الطرف وتبدل أعيان الأرض، وتعاجل حلاق لمم النبت، فصيرت وجه الأرض كمطارح خبث الحديد، أمام مضارب البيد، يساو قحلا، وعقرا للأرجل عصيانا على السنابك، وأحرقت ما كان قد نجم من باكر البذر ونشط النبات ودامت فاستأصلت الأوراق من الشجر الدهين، الذي لا يسقط ونشفت البشرات وأثنيت الجلود"[2].وما يعضد هذه النصوص أكثر وصف العبدري لمجاعة(688ه/1289م) في قوله "ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلد حلت بها زمانة الزمان، وأخلت به حوادث الحدثان، فلم تبق به علالة ولا تبصر في أرجائه للضمأن بلالة"[3]، ولعل قول ابن خلدون عن مجاعة(698-707ه/1299-1307م) له ما يعزز هذا الطرح أكثر "واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم"[4]، وهي كلها نصوص تصف الأوضاع المزرية التي آلى إليها المغرب الأوسط جراء تلك المجاعات.

كما كان وقع وصدى كبير لمجاعات أخرى كمجاعة(676ه/1374م)، التي شملت كامل المغرب على حد قول ابن القنفد" وفي هذه السنة كانت المجاعة العظيمة بالمغرب، وعم الخراب"[5]، وما يزكي هذا النص ما تناثر في كتب النوازل والفتاوى من إشارات حول استهلاك الزرع قبل نضجه. وفي هذا المعنى سئل الونشريسي"عمن وصلته الحاجة وله زرع أخضر فأكل منه شيئا قبل يبسه"[6]، فالنص

---

[1] -خالد بلعربي، مرجع سابق، ص20.

[2]- عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق،ج1، ص254.

[3] - العبدري، الرحلة المغربية، ص09.

[4] - ابن خلدون، العبر، ج7، ص128.

[5] -ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تصحيح: محمد الفاسي وأودلف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط، ص 149.

[6] -الونشريسي، المعيار،ج1، ص390.

يؤكد بوضوح أن المنتوج عند الحاجة (والمقصود هنا إما مجاعة أو قحط) يستهلك في زمن متقدم على الزمن المألوف[1].

لا مراء أن المجاعات قد أحدثت خللا في نظام المجتمع الزياني، وأثرت على مستوى معيشة أفراده، والذي تدهور إلى الأسوأ على حد تعبير ابن خلدون لسكان تلمسان"نالهم فيها الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم"[2]. لكن هيهات أن نضع حالة السلاطين وعامة الناس أيام المجاعة في سلم واحد[3]، فالمتمعن بين متون هذه النصوص يجعلنا نؤكد أن الملوك وأبنائهم لم يتضوروا قط من الفقر، فقد ظلت الأغذية والأشربة والألبسة مخبئة في مخازينهم بالرغم من طول مدة الحصار،كما أن الملك الذي احتاج إلى الغذاء استطاع الحصول عليه دون عناء، عكس الفئات العامة المهمشة والعاجزة لفقرها، فتكون أول الفئات هلاكا بالجوع.

وكان لانتشار وشيوع الوباء بالمغرب الأوسط سببا آخر في تقهقر أوضاعه الاجتماعية والإقتصادية والديمغرافية، وربما كان سببا في ظهور المجاعات وغلاء الأسعار وانتشار الأمراض وبالتالي إنهيار ديمغرافي للمجتمع، مما يفرز واقعا حياتيا صعبا على كافة شرائح المجتمع، بخاصة الشريحة الدنيا التي لا تستطيع المقاومة والصبر كثيرا. ويعتبر وباء الطاعون الأسود[4] من أشد الطواعين فتكا، وأكثرها هلاكا بأرواح البشر، فلم يسلم منه فقير أو غني، إلا أن هذا الأخير كان باستطاعته مواجهته عكس الإنسان المعدم.

---

[1] -ابراهيم القادري بوتشيش، " **ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات**"-المغرب والأندلس من (ق6- 8ه) نموذجا- "**مجلة عصور الجديدة**"، العدد:7-8، 2013/2012، ص 33.

[2] - ابن خلدون، العبر، ج7، ص167.

[3] - سمية مزدور، مرجع سابق، ص207.

[4] -ظهر هذا الطاعون عام(750-751ه/1349-1350م)، عدّ هذا الوباء من أشد الطواعين فتكا وقتلا بالناس، إذ لم يسلم منه أي كائن حي،بشرا كان أو حيوان، فمات الكثير بالوباء الذي كان أشد الناس خوفا منه ،حيث اودى بحياة اسر باكملها، وهذا الوباء حسب المصادر الاندلسية والمغربية والمشرقية فقد كان منتشرا عبر العالم بجله ، ومن أعراضه حسب المقريزي فقد كان مرضى الطاعون يبصقون دما ثم يصيح فيموت،حتى أن أكثر من كان يعيش بعد نفث الدم حوالي خمسين ساعة فقط، وكان يخرج خلف أذنه بثرة او كبة فيقع المريض به طريحا فيموت/ ينظر: المقريزي، السلوك، ج4، صص81-82/ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج1، مصدر سابق، ص277.

كانت الطواعين تنزل على سكان بلاد المغرب الأوسط بصفة دورية، فبعد مرور أربع سنوات على حدوث الطاعون الجارف (750-751ه/1349-1350م) عاود ظهوره في فترة حكم أبو حمو موسى الزياني الثاني (760-791ه/1359-1389م) ، والذي فتك بالبلاد فتكا ذريعا مخلفا عددا كبيرا من الضحايا، على أن ارتباطه هذه المرة بموجته العالمية الثانية التي بدأت من أوربا الغربية عام(760ه/1359م)، وعاود كل من فرنسا وانجلترا ما بين عام(770ه-1369م)، وعام(777ه/1376م)[1]. وصنف بعض المؤرخين العرب هذا الطاعون بالوباء الثاني على أن الطاعون الأسود اعتبروه الوباء الأول العام في الأرض، وذكرت بعض المصادر وباء(845ه/1452م)[2] على أنه كان قد حدث بالمغرب الأوسط وشمل معظم نواحي بلاد المغرب الاسلامي.

في حين هناك من أرجع سبب الوباء إلى تفشي المجاعة والغلاء وذلك حسب قول الأستاذ خالد بلعربي عن وصف ابن هيدور لهذا الوباء" إن هذا الموت لا يكون إلا بأثر الغلاء فهو لازم من لوازمه وإذا كان الغلاء وطال اشتدت أسبابه لزم عنه الوباء، وهذا علم صحيح وقانون مطرد لا يحتاج فيه إلى تقليل ولا إلى نطف النجوم"[3]، لذا فقد كان للمجاعة دور في تفشي الوباء خلال عام (693ه/1293م)حسب تعبير ابن أبي زرع "وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر، هلك فيها خلق كثير"[4].

ويبقى دائما نقص المادة المصدرية المتخصصة وغياب معطيات دقيقة، يكتسي إيحاءات العبارات التي تستوفي وصف ملامح تلك الفئات العامة وما عانته من آلام ومآسي خلال فترة مدار الدراسة،

[1] -خالد بلعربي، مرجع سابق، ص23.

[2] -هذا الوباء يعتبر من أخطر الطواعين ضررا بالناس مثله مثل طاعون عام 750ه/1349م، ظهر في عهد الخليفة الزياني ابو العباس احمد العاقل، والذي شهدت الدولة الزيانية في عهده نوعا من الامن والاستقرار الداخلي والخارجي، مما أدى ذلك الى الإستقرار الإقتصادي والإجتماعي والثقافي، ورغم ذلك فقد تفشى مرض الطاعون في الكثير من قرى ومدن المغرب الأوسط، فقد فتك بالعديد من أرواح سكان تلمسان لم يسلم منه لاصغير ولا كبير ولا غني ولا فقير، ولم يعرف سببه ما عدا بعض الدراسات اولت ان العدوى كانت عن طريق السغفن الوادة من أروبا أو المشرق والتي كانت تحمل معها جرثومة يارسين عن طريق القوارض والفئران التي تنزل من السفن متجهة الى البر/ ينظر: ابن زرع، مصدر سابق، ص267/ عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، صص72، 253/ خالد بلعربي، مرجع سابق، ص24.

[3] – المرجع نفسه، ص23.

[4] – ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص409.

لكن مما لاشك فيه أن الأوبئة ظلت مع مرور الأحقاب من الأمور اللصيقة بالفقر والفقراء بسبب سوء التغذية وإنعدام شروط النظافة، وهو ما يفسر أن أعداد الموتى جراء الكوارث الطبيعية والآفات كان يتصدره أناس من العامة والفقراء وهو ما أكده ابن زرع "هذا الوباء أصاب العامة والشيوخ... "[1] وبخاصة الأطفال والصبيان فقد توفي في تلمسان الصبيان جراء وباء كان قد أصابهم في فترة استقرار الرصاع بها، وهو يزاول دراسته الابتدائية بها[2].

ج: المجتمع المريني وزمن الشدة:

شكلت الآفات الطبيعية والبيئية إحدى أبرز ظواهر سجل تاريخ المغرب الأقصى، لما كان ينشأ عنها من خراب ودمار، وبما كانت تتركه من آثار جسيمة في كافة الميادين الإقتصادية منها والإجتماعية، لتصيب الإنسان المريني بعجز كبير أمام سطوتها الطبيعية وتقلباتها المفاجئة.

الظاهر أن للتقلبات المناخية التي عرفها المغرب الأقصى هو الآخر خلال فترة مدار البحث، دورا هاما في إزدياد هذه الكوارث وبروز حدتها؛ فقد كانت معظم الأنهار والعيون تعتمد بشكل كبير على التساقطات المطرية، وكان صبيبها مرتبطا أشد الإرتباط بوفرة الأمطار أو ندرتها، فالصبيب يرتفع ويصبح على شكل سيل جارف، بينما تأتي فترات الجفاف فينخفض الصبيب ليصل أحيانا إلى مستويات قد ينعدم فيها الجريان، وقد صدق بعض المتخصصين عندما اعتبروا–للأسباب ذاتها–أن الماء شكل هاجسا لدى المغاربة خلال العصر الوسيط عموما[3].

عاش أفراد مجتمع المغرب المريني في رهان دائم مع الطبيعة من أجل توفير المعاش؛ فإذا جادت السماء تمكن من زراعة أرضه، وحصل لماشيته من الماء والكلأ ما يكفيها، وإن شحت ضعف المحصول أو توقف إنتاجه[4]، وتسبب ذلك في انتشار الفقر وما يليه من كوارث طبيعية وبيئية.

1 – ابن زرع الفاسي، مصدر سابق، ص267.

2 – محمد الأنصاري، فهرسة الرصاع، تح: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، دت، صص15-16.

3 – حميد تيتاو، مرجع سابق، صص 104-105.

4 – محمد الأمين البزاز، مرجع سابق، ص34.

وتكشف مصادر الفترة المرينية في نصوص متناثرة عن جملة من الكوارث والآفات التي كانت تتعاقب دوريا ففي سنة"(617هـ/1220م)، ابتدأ الغلاء الشديد بالمغرب والقحط وعم الجراد جميع بلاد المغرب والأندلس"[1]، كما ألم قحط شديد بمراكش عام(620هـ/1223م)، حيث ترك المستضعفون لمواجهة النقص الحاد من الأقوات[2]، ولم تستقر الأوضاع أكثر حتى عاود القحط والغلاء الشديد، تدميره لخيرات وموارد عيش الفاسيين عام(627هـ/1230م)، كما تخللت الربع الأخير من القرن السابع الهجري نوبات من القحوط والغلاء[3].

والظاهر أن انتشار الجراد ببلاد المغرب هو الآخر أسفر عن إتلاف المزروعات فكان لهجومه أثر على حسب ما دونته لنا النصوص"بحيث كان الذي سلم من المحاصيل إلتهمته أسراب الجراد العام ولم يترك خضراء على وجه الأرض وبلغ القمح عشرة دراهم للصاع"[4]، وكعادتهم لجأ العوام إلى إستهلاك أطعمة غير مألوفة زادت في تدهور أوضاعهم الصحية.

وبعد فترة إستقرار لم تعمر أكثر من أربع سنوات ألم بالمغرب عام(683هـ/1282م) "قحط شديد ولم يرا الناس ماء"[5]، وبالمثل تكشف نصوص عن تعرض المغرب الأقصى عام(1311/711م) لكارثة القحط"كان بهذه السنة قحط، فاستسقى الناس له فخرج أمير المسلمين عثمان إلى إقامة سنة الإستسقاء"[6]، وكان بمثابة تكرار دوري للقحوط بالمغرب الأقصى، فخلال الربع الأخير من القرن الثامن الهجري عصفت موجة جدب حاد بالبلاد عام (775هـ/1373م)[7].

كما كان لجائحة السيول والعواصف أثر كبير على المجتمع المريني، وتجلى ذلك في وصف صاحب القرطاس لفيضان وادي فاس في قوله "وفي سنة سبع وعشرين وسبعمئة أتا سيل بوادي مدينة

---

[1] -ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص54.

[2] – عبد الهادي البياض، مرجع سابق، ص27.

[3] – المرجع نفسه، ص28.

[4] – السلاوي، الاستقصا، ج3، ص 89.

[5] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 340.

[6] – المصدر نفسه، 398.

[7] –السلاوي، ج3، ص175.

فاس...فهدم السور وحمل الشباك وخرب الجنات وقلع الآشجار العظيمة وهدم القناطر والديار...وكان جملة من هلك فيه من الناس المعروفين بأسمائهم دون من لم يُعْرف سبعمئة وثلاثين نفسا ومن الديار ألف دار ومئة دار"[1]، ومرة أخرى يورد ابن زرع نص يكشف من خلاله كثرة السيول الجارفة التي تسببت فيها الأمطار خلال الربع الأول من القرن الثامن الهجري في قوله "وفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة هبت ريح شديدة بمدينة مكناس وفاس ورباط تازة وأحوازها، واستمر هبوبها يومين بليلتيهما هدمت الديار، وقلعت الأشجار، ومنعت الأسفار، وأقلعت من زيتون مكناسة شيئا كثيرا"[2]، وتوالت على مدينة فاس مرة أخرى سلسلة من الكوارث الإعصارية أهلكت الحرث والنسل على حسب ما تجلى في قول ابن زرع "وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة ... مدينة فاس من جهة جوفيها سحاب وظلمة شديدة، ورياح هائلة وإعصار عظيم، أعقب ذلك برد عظيم كبير الجرم، زنة الحجر منه أربع أواقي وأقل وأكثر، ونزل منه أمثال الجبال، وفي خلاله مطر وابل منه السيول الطاغية، فحملت الناس والدواب والمواشي والبقر والغنم والإبل والدواوير"[3]، ومن جهته ذكر الناصري أن أمطارا شديدة عصفت بالمغرب عام(755هـ/1353م)، كان تأثيرها واضحا حتى ظنوا أنه الطوفان بعينه إذ تشققت التربة وأصبحت مريضة لايصلح أن يزرع فيها شيء[4].

ويبدو أن موجات الجوائح المختلفة التي ضربت أرجاء المغرب الأقصى كان لها دخل مباشر في حدوث المجاعات وتعاقبها دوريا مثلها مثلما حصل بالمغربين الأدنى والأوسط. ولا نعدم من القرائن التي تثبت أثرها وحدتها، فالنصوص تذكر وقعها واستفحال أمرها وتهديدها للفرد المريني بين الحين والآخر، ومن الأمثلة الدالة على ذلك، مجاعة سنة (617هـ/1219م) "وفيها ابتدأت المجاعة والغلاء والقحط وكثرت الفتن وعمَّ الجراد جميع بلاد المغرب والأندلس"[5]، والملاحظ أن الكوارث الطبيعية كان بعضها يتناسل من بعض أحيانا، وبشكل متزامن أحيانا كثيرة. "ففي سنة(630هـ/1232م) ضربت

[1] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص414.
[2] – المصدر نفسه، ص412.
[3] – المصدر نفسه، ص413.
[4] – السلاوي،ج3، ص 194.
[5] – ابن أبي زرع، الذخيرة، ص54.

مجاعة شديدة مدينة سبتة وبلغ الشعير سبعة دراهم للمد"[1]، وتجلى ذلك أيضا في شهادة بن أبي زرع "وفي رمضان المعظم من سنة خمس وثلاثين...وكان بالعدوة والأندلس في هذه المدة غلاء شديد ووباء مفرط هرب فيها أكثر أهل البلاد ووصل قفيز القمح فيها ثلاثين دينارا"[2]، وهو أمر يستدعي الوقوف عنده وطرح التساؤل عن مدى قدرة الفئة الضعيفة المحتاجة لشراء مثل هذه الحبوب بهذا السعر المرتفع لسد رمق الجوع ؟ فعلا كانت المجاعات وبالا على الفئات العامة المعسرة الحال والمعدمة.

والحق أن تردد موجات الكوارث الطبيعية بالمغرب الإسلامي جعل حياة الإنسان محكومة برهان دائم مع المؤثرات المناخية، التي طالما أظهرت عجزه عن التكيف معها أو الحد من خطورتها، وفي هذا السياق أفادنا ابن عذارى بنص عن المجاعة التي عصفت بمراكش عام(632هـ/1234م)، وضروب المعاناة التي ألقت بفواجعها على سكانها كنفاذ الأسواق من المواد الضرورية للاستهلاك، والارتفاع الباهض للمتوفر منها حيث"لم يبق لأحد سبد ولا لبد ولا طارف ولا تالد ولا ذخيرة ولا مال ولا عقار، واستولت المجاعة على جمهور الناس ورأو محنا يستعاذ بالله منها، وانتهى المد الواحد من القمح الفحص إلى سبعة دراهم كبارا من طبع السكة،... وتنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة"[3]، وفي المنحى نفسه أضاف ابن عذارى نصا يكشف ما قاساه العوام من غلاء ونفاذ للمواد الاستهلاكية في الأسواق فقال" وفيها كان الغلاء المفرط الذي انتهى فيها الربع الواحد من الدقيق إلى سبعة وثلاثين درهما؛ ولكن الناس كانت أحوالهم تقاوم هذا الغلاء، فإن السلع كلها نفقت أسواقها ودرت أرزاقها وكان الدرهم الواحد أفضله عشرون درهما أو نحو ذلك"[4]، وتواصلت موجات المجاعات تحصد عددا كبيرا من أفراد المجتمع المريني، فحسب ذات المصدر في وصفه لمجاعة(637هـ/1239م) "كان الغلاء المفرط والمجاعة العظيمة بمدينة سبتة حتى عدم فيها الطعام بالكلية في هذا العام، وكانوا يسمونه بعام سبعة وهو مشهور عندهم"[5].

[1] – الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص605.

[2] –ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص255.

[3] –ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ص325.

[4] – المصدر نفسه، ص339.

[5] – المصدر نفسه، ص351.



والظاهر أنه كان يرافق شبح المجاعات والقحوط أوبئة على حسب تعبير الأستاذ البياض نقلا عن ابن هيدور في قوله "إذا كان الغلا وطال واشتدت أسبابه لزم عنه الوباء"[1] كوباء(610ه/1213م) الذي قيل فيه"تحيف الناس إلا قليلا"[2]، وهو الأمر الذي أسهم في حصول نزيف بشري أدى من دون شك إلى تغيير البنية الديمغرافية للمناطق المستهدفة.

هذا التلازم المتسلسل الذي يشد بعضه بعضا من غلاء ومجاعة ووباء، هو تلازم تصاعدي،كان يزيد من هواجس الخوف والفقر لدى الإنسان الذي سارع إلى الفرار والهجرة بحثا عن مكان يوفر له القوت[3] حسب قول ابن عذارى "فتحير الناس وكثر فيهم الرهج وعظمت عليهم المصيبة لعدم الأقوات والمرافق"[4]، وبموازة ذلك إشتد الضيق بالرعايا، ولم يبق أمام المستضعفين سوى الفرار بأنفسهم من الإبادة البطيئة مصداق ذلك ما أكده ذات المصدر "فكان الضعفاء يخرجون على الأبواب فإن البلد ضاق بهم فآثروا الفرار بأنفسهم ولم يبق بالبلد إلا الأقل ممن لا يستطيع خروجا"[5]، وهو نص يكشف عمق البؤس والمعاناة والمحن التي عصفت بالكثير من أهل المغرب الإسلامي.

وعموما وحسب النصوص الآنفة الذكر يمكن القول أن شريحة العامة التي تمثل قاعدة هرم المجتمع كانت المتضرر الأول من هذه الكوارث، مع العلم أن وضعهم الاجتماعي كان منحطا ودخلهم ضعيفا، لايسمح بتلبية حاجاتهم من الأقوات التي ارتفعت أسعارها. ذلك أنه من سلم من الهلاك عاش محنة الفقر والتضور جوعا، فضلا عن وجود قابلية استفحال خطر الأمراض والأوبئة بهم.

4: الأسباب الاقتصادية

وإدراكا بأهمية الجانب الاقتصادي في دراسة العلاقة الجدلية بين الفقر والاقتصاد فإن تخصيصنا كمبحث للأسباب الاقتصادية ودورها في استفحال الفقر داخل المجتمع، غرضه إلقاء الضوء على

---

[1] – عبد الهادي البياض، مرجع سابق، ص 36.

[2] – السلاوي، ،ج3، ص4.

[3] – عبد الهادي البياض، مرجع سابق، ص127.

[4] – ابن عذارى المراكشي، مصدر سابق، 325.

[5] – المصدر نفسه، ص 326.

القضايا الإقتصادية المسببة لظاهرة الفقر، كعامل جباية الضرائب من مكوس ومغارم وكذا غلاء الأسعار وإنعكاسها على أفراد مجتمع المغرب الإسلامي، خاصة أيام الكوارث الطبيعية والبيئية، ضف إلى ذلك ظاهرة الاحتكار وما تخللها من أزمات على المجتمع.

1:جباية الضرائب

تعتبر الضرائب بمختلف أنواعها من أهم الموارد المالية التي تساهم بدرجة أكبر في دخل الدولة، بل هي محرار للحياة الإقتصادية كلها، فهي القناة الأساسية التي تمر عبرها الأموال من الرعية إلى السلطان لكي ترجع من بعد للحلقة الإقتصادية في شكل نفقات. ولا غرو فقد ربط ابن خلدون هذه الضرائب بعمر الدولة والتي تقوم في بداية تأسيسها بفرض الضرائب الشرعية، من الصدقات والخراج والجزية وجميع المغارم الشرعية[1]،كالزكاة والمكوس والأعشار وخمس المغانم وخمس المعادن وضرائب أخرى[2]، في حين تستحدث الدولة في آواخر عمرها ضرائب ومغارم جديدة على المنتجات والمبيعات أو زيادتها إذا كانت قد وضعت من قبل، وبذلك تكثر المهام على الفلاحين والتجار والباعة في الأسواق وسائر أهل المغارم حسب قول صاحب المقدمة "ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل"[3]، وهذا السلوك الصادر من قبل سلاطين الدولة أفسد عيش الرعية، وجلب لهم الهم والغم والنكد والفقر، إلى جانب الأضرار الجسيمة التي تلحق بمرافق الدولة.

ا: جباية الضرائب وأثرها على أفراد المجتمع الحفصي:

مثلت المكوس والمغارم قسطا هاما من الجباية التي يتحصل عليها المخزن الحفصي وقد دأب أصحاب النفوذ من الولاة والأعراب على أخذ المغارم واستخلاصها من الفئات الشعبية في المدن والبوادي على حد سواء.

---

[1] -ابن خلدون، المقدمة، ص265.

[2] - محمد المنوني، مرجع سابق، ص 119.

[3] -ابن خلدون، المقدمة، ص267.



تنوعت وتعددت المكوس واختلفت أصنافها خلال هذه الفترة، فمنها المكوس التي يدفعها التجار والحرفيون في الأسواق، وتؤخذ عند الأبواب على البضائع الوافدة من البادية ومن جهات أخرى[1]، أي هي الضرائب التي تفرض على سلع التبادل التجاري الداخلي بين المسلمين[2]، مثل المكوس عند بيع المواشي، ومنها الوظائف المخزنية التي تسلط على أهل القرى، والخطايا والمغارم التي يدفعونها للسلطة، وصولا إلى الغرامة المالية التي يتعين على المسجون دفعها لإطلاق سراحه[3]، وكان الفقهاء ينظرون إليها دائما على أنها غير شرعية ويطلق عليها اسم "مغارم "[4].

ولم يكن السلطان المنتفع الوحيد من الضرائب بل كانت تشاركه في ذلك القبائل القوية، والتي تفرض الجباية على المناطق التي يحتلونها قسرا. وفي العديد من الحالات يتنازل ضعفاء السلاطين عن جزء من دائرتهم الجبائية لصالح هذه القبائل، حسب قول ابن خلدون "وانبسطت أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم الدولة حتى الأمصار وألقاب الجباية ومختص الملك، وانتفضت الأرض من أطرافها ووسطها، وما زالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية، وقاسموهم في جبايات الأمصار بالأقطاع ريفا وصحراء وتلولا وجريدا"[5]، ومثال ذلك أيضا" وأقطعتهم الدولة(الزواودة) لذلك جباية الجانب الشرقي من جبل أوراس وكثيرا من بلاد الزاب الشرقية حيث كانت محلاتهم الشتوية"[6].

إضافة إلى الضرائب الشرعية المشار إليها سابقا من زكاة وخراج وعشور، وأمام ضعف الدولة السلطانية الحفصية فقد قامت بفرض ضرائب جديدة على الرعية، فتعرضت الأرياف الإفريقية إلى النهب من طرف الجباة، بدفع المزارعون والحراثون شتى أنواع الجباية والمغارم والخطايا التي فرضها عليهم أصحاب النفوذ من شيوخ القبائل البدوية والمحلة. ففضلا عن زكاة الماشية، أغرمت الأزواج الحارثة،

---

[1] – محمد حسن، مرجع سابق، ص531.

[2] – إبراهيم جدلة، المجتمع الحضري بافريقية في العهد الحفصي، مطبعة قطيف، قفصة، دط،2010، ص107.

[3] – محمد حسن، مرجع سابق، ص531.

[4] – إبراهيم جدلة، مرجع سابق، ص107.

[5] – ابن خلدون، العبر، ج6، ص31.

[6] – المصدر نفسه، ج6، ص 31.

وأخذت على الأراضي الرعوية إتاوة أطلق عليها بالمغرب الأوسط"خراج الجبال"، وكثيرا ما أجبر المزارعون على دفع إتاوات للأعراب من ذلك القطيع[1].

إعتمدت طرق أخذ الجباية على حملات جنود السلطان في البوادي والقرى والمدن، كانت تقوم هذه المحلة بحملات تأديبية على البلاد ضد كل من يرفض دفع الجباية، ويعمد عامة الجند إلى افتكاك أموال الناس بالقوة. وكثيرا ما قامت هذه المحلة بحرق وإتلاف ما يعترضها من زروع ومغروسات ومواش[2]، الأمر الذي أدى بكثير من العلماء إلى إنكار سلوكات الجباة، ناعتين إياهم بالظلمة ومستغرقي الذمة[3]. وعبر البرزلي في نص آخر عن ظلم الجباة في قوله" أن أكثرهم معروفون بالجور والظلم والتسبب فيأخذ أموال الناس بغير حق، ولا يحكمون بحق ولا تجري أحكامهم على شرع، بل على فراسة وتأولات وأهويه"[4] ولأجل هذا الظلم من طرف الجباة أفتى البرزلي في الرعاة الذين يتعدون على أملاك الناس أنه يجب أن يسعى بهم إلى الحكام لشدة سطوتهم، وإجبارهم على دفع غرامة مالية[5].

مثلت مغارم السلطان حملا ثقيلا على أهل البادية والمدن، وخاصة في مسألة السخرة والمتمثل في خدمات عديدة من بناء وحراسة وحرث وغيرها من الخدمات التي يقدمها المزارعون لفائدة المشائخ الإقطاعيين، وما يزكي هذا الطرح ما ورد في إحدى النوازل عند المغيلي"رجل من أعيان القبائل يعطيه السلطان أرضا ينتفع بجبايتها، فيعتمد على من تحت شياخته في زمن الحرث، فيأخذ منهم زرعا اغتصابا ويأمرهم أن يحرثوه في أرض إغتصبها لآخر معهم ببقرها، ويكلف العمل فيه على الخماس، أو

[1] -محمد حسن، مرجع سابق، ص534.

[2] - البرزلي، مصدر سابق، ج2، ص251.

[3] -يطلق هذا المصطلح "مستغرقي الذمة" حسب فتاوى المعيار للونشريسي على الملوك والعمال والأعيان المخصصين في جمع الضرائب وعلى الولاة في الاقاليم من قرى ومدن، وأهل العداء والظلم وذوي الاستطالة في الحكم وأرباب الظهير وكل من له علاقة بحاشية السلطان ويتمادى في ظلم الرعية ويغتصب حقوقهم فحسب ما جاء في جواب سيدي عبد الله العبدوسي أنه لا تصح تبرعاتهم، وتحبيساتهم ، وهباتهم، وصدقاتهم، لا على أولادهم ولا على غيرهم من قرابتهم أو غيرهم من أصدقائهم، فان وقفوا على أحد ممن ذكرنا سابقا لم ينفذ وقفهم وحرم على من وقف في شأنه هذا الوقف / ينظر: الونشريسي، المعيار، ج7، ص308./ عمر بلبشير، نظام الأوقاف ودوره في الرعاية الاجتماعية من خلال نوازل المعيار، مجلة عصور، ع/14، جامعة وهران، 2010، ص197.

[4] -البرزلي، مصدر سابق، ج2، ص 214.

[5] - المصدر نفسه، ج5، ص158.



على أرباب البقر، ثم إذا حان وقت الحصاد كلفهم وربما حوس إليهم غيرهم لحصاده ودرسه وذروه وتصفيته وكيله ونقله على دوابهم لمخزنه في أوعيتهم، ويجعل عليهم في ذلك بعض خدامه يحركهم فيه"[1]، وهو الأمر الذي جعل بعض الأعيان الرافضين لهذه المغارم التدخل بين الحين والآخر لتخفيف وطأتها على الضعفاء.

وفرضت ضرائب أخرى مثل ضريبة مكس الباب والتي تولتها فئة تجلس عند أبواب المدن في العصر الحفصي لبجاية وتجمع المال، وعلاوة على هذا وجدت فئة أخرى مقرها أيضا أبواب المدن، ومهمتها ضبط المخازن ومنع دخول أي شيء من المحظورات[2].

كما خضع النشاط التجاري والحرفي إلى ضرائب كثيرة ومتفاوتة في قيمتها، فكان من يشتري شيئا من أنواع الأمتعة واللباس يغرم بنصف عشر دينار[3]، وكان التاجر عند تنقله داخل حدود السلطنة الحفصية من مدينة إلى أخرى يدفع كذلك ضريبة حسب شهادة الوزان "غير أن القوافل التي تقطع صحاريهم تؤدي حتما إلى أمرائهم إتاوة هي عبارة عن قطعة قماش تساوي دينارا عن كل حمل جمل"[4].

تحملنا هذه النصوص إلى القول أن معاناة أفراد المجتمع الحفصي لعبء الضرائب كان كبيرا، وما يعزز هذه الملاحظة هو كلام ليون الإفريقي فقد كان كلما مر بمكان إلا وتحدث عن هذه الضرائب الثقيلة التي يفرضها السلطان والأعراب على المدن[5]، وبالتالي فسح المجال أكثر لهيمنة السلطان الإقتصادية، وفرض سيطرته واستبداده على أفراد مجتمعه والتعجيل بظهور الطبقية.

---

[1] – أبو زكريا المازوني المغيلي، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج4، تح: مختار حساني، مراجعة: مالك كرشوش الزواوي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، صص 130–131/محمد حسن، مرجع سابق، ص535./البرزلي، ج3، ص427./ج5، ص150.

[2] – الونشريسي، المعيار، ج 12، ص 58.

[3]– الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 116.

[4] – الحسن الوزان، مصدر سابق، ج1، ص60.

[5] –المصدر نفسه، ج1، صص66–100.

وعموما فإن هذه السياسة المالية النهبية المتمثلة في الضرائب والمغارم المختلفة، قد أدت إلى زيادة تفقير السكان وبخاصة الفئات الفقيرة المعدمة الذين أثقلهم الحكام والولاة بضرائب ومغارم عديدة.

ب: جباية الضرائب وأثرها على أفراد المجتمع الزياني:

شكلت الضرائب العمود الفقري للواردات المالية للدولة العبد الوادية، ومن بينها الزكاة والعشور وكذا الجزية التي كانت تفرض على أهل الذمة[1].

فرضت الدولة الزيانية في بداية عهدها ضرائب قليلة، إذ قدرت قيمة المكوس المفروضة على التجار المسلمين 2.5 %من جميع البضائع أو المال الناتج عنها، و10%على بضائع التجار اليهود والنصارى، ولم تستمر الدولة العبد الوادية بنفس المسار بسبب ضعف الخزينة المالية، الأمر الذي دفع بالسلطان إلى البحث عن مصادر أخرى للحصول على المال لسد العجز والضائقة المالية. فأحدث مكوس ومغارم جمركية لاحصر لها، والتي بلغت ذروتها أواخر عهد الدولة الزيانية[2]، ففرضت على التجار والباعة في الأسواق جملة من المغارم "كالمغرم على الحطب والبيض والدجاج وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف وإجحاف الضعيف بها أشد"[3]. بالرغم من وصية بعض السلاطين في الرفق بالرعية في أخذ الجباية ومثال ذلك ماجاء في قول أبي حمو موسى الزياني لإبنه" لا يحملنك حب المال على المسامحة في جور العمال، فإنه إذا هلكت الرعايا عدمت الجباية، وإذا عوملت الرعية بالرفق كثر فيها النماء والرزق"[4].

يعتبر نظام الجباية من الأسباب التي أدت إلى وجود هوة بين الدولة الزيانية ورعاياها، وعدم إستقرار البلاد وإنقسام المجتمع إلى فئتين فالأولى كانت موالية للسلطة فأعفيت من الضرائب، وأما

---

[1] – المازوني، الدرر المكنونة ،ج4، ص40/ ينظر: سمية مزدور، مرجع سابق، ص77.

[2] –المرجع نفسه، ص77.

[3] – ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 285.

[4] – أبو حمو موسى الثاني الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، تح: محمود بوترعة، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2011، ص63.

المعارضين لها فكانوا ملزمين بدفعها[1]، مثل قبائل بني هلال الذين كانوا تحت السيطرة الزيانية، والتي تسمى بالقبائل الغارمة لأنهم كانوا يقدمون جزءا من أموالهم للدولة كدلالة على خضوعهم وتبعيتهم لها فيغمراسن مثلا قام بإثنتين وسبعين غزوة ضد العرب لجمع المغارم منهم[2].

تعرضت الخزينة المالية الزيانية إلى أزمات نتيجة الإضطرابات الداخلية والخارجية من حروب وفتن وكثرة المنازعين والثوار وكذا ضعف عصبية السلاطين الذين أصبحوا بحاجة إلى الأعوان والأنصار، فأصبحت أموالهم لأعوانهم وأصحاب سيوفهم وأهل عصبيتهم، فكثرت عطاءتهم لهم والإنفاق عليهم، مما جعلهم في حاجة ماسة إلى أموال ولم يجدوا وسيلة لتعويض ذلك النقص وتدعيم بيت المال وملأ الخزينة من جديد إلا بفرض ضرائب جديدة على الرعية[3]. ولإسكات القبائل المجاورة لهم قاموا بفتح المجال للقبائل بفرض ضرائب أخرى لصالحها، وهذا ما أرهق كاهل الرعية إذ أصبحوا يقدمون الضرائب للدولة والقبائل معا[4]، ذلك ما أشار إليه ابن خلدون في كلامه عن إستبداد أبي سالم المريني على الجزائر وإستئثاره بجبايتها لصالحه "وأقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الأعمال واستضافة جبايتها لنفسه، وأوعز السلطان إلى سائر عماله باستفاء جبايتها"[5]،كما ذكر ذات المصدر في موضع آخر عن طغيان الأعراب واستحواذهم في قبض الضرائب من الرعية في قوله "وانبسطت أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم الدولة حتى الأمصار وألقاب الجباية ومختص الملك...وما زالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية، وقاسموهم في جبايات الأمصار بالاقطاع ريفا وصحراء"[6]، وهو عمل لاشك يضر بالرعية كثيرا ويؤدي إلى إنتشار الفقر والخصاصة بينهم ومما يزكي الطرح أكثر شهادة الوزان عن

1 –سميرة مغراوي، تطور نظام الجباية في المغرب الأوسط –دراسة نماذج من دول المنطقة، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة معسكر غير منشورة، 2014/2013م، صص 100، 120-121

2 – يحي ابن خلدون، البغية، ج1، ص228.

3 –ابن خلدون، المقدمة، ص270.

4 – سميرة مغراوي، مرجع سابق، ص 128.

5 –ابن خلدون، العبر، ج7، ص184.

6 – المصدر نفسه، ج7، ص103.

سكان مازونة التي كان أغلب سكانها فقراء هم من نساجون أو فلاحون أثقل الأعراب كاهلها بالضرائب[1].

أدى تطور السياسة الجبائية المتبعة من طرف السلطة إلى تفاقم الأوضاع والهوة بين الدولة والرعية مما عمدوا إلى تهربهم من دفعها للدولة وذلك إتقاء لبطش القبائل، ما اضطر الدولة الزيانية إلى فرض مغارم جديدة ومتعددة وبألقاب مختلفة على حسب ما تجلى في كلام بن خلدون"إعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات... واحتاجت إلى مزيد من المال والجباية، فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم...، وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس إن كان قد أستحدث من قبل، وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك عظامهم"[2].

عان فلاحو الدولة الزيانية من كثرة الخراج الذي أثر على النشاط الفلاحي، الأمر الذي أدى ببعض الفلاحين إلى التخلي عن أراضيهم وحتى فلاحة أراضي غيرهم، ضمن ما يعرف بنظام الخماسة[3]، هذا النظام الذي جعل الفلاح يعيش تحت رحمة الملاك وهو رهينة للفقر والجوع والحاجة، ومستواه المعيشي لا يحسد عليه بالرغم من أنه الطرف الذي ينتج أكثر، إلا أن مردوده ضئيل لا يفي بمتطلباته الضرورية خاصة إذا كان يعمل كأجير.

والظاهر أن الخراج في هذه الفترةلم يتطابق ومبادئ الشرع الإسلامي حسب قول الونشريسي" توظيف الخراج في عصرنا هذا وكل عصر هذا خراجه ومنهاجه ظلم محض، لارخصة فيه، فإن آحاد الجند لو أسرفت جرايتهم ووزعت على الكافة لكفتهم برهة من الزمن، وقدرا صالحا من الوقت وقد شمخوا بتنعمهم وترفههم في العيش وتبذيرهم في إفاضة الأموال على وجوه العمارات...، وكافة أغنياء

---

[1] -الحسن الوزان، ج2، ص407.

[2] -ابن خلدون، المقدمة، ص 267.

[3] -سميرة مغراوي، مرجع سابق، ص 129.

الدهر فقراء، بالإضافة إليهم بقية الناس..."[1]، وهذا يبين أن الضرائب المستحدثة من طرف الدولة الزيانية كانت حاجزا أمام تطور المجال الزراعي.

ولم يفرض الخراج على الفلاح فقط بل حتى على التجار فسكان وجدة كانوا يقدمون الخراج للدولة الزيانية والقبائل معا مما أثر عليهم ذلك وأفقرهم، وأدى إلى تذمرهم نظرا لسوء أحوالهم الإجتماعية الناتجة عن إرهاقهم بالضرائب، وفي ذلك يقول الحسن الوزان "فقراء لأنهم يؤدون إتاوة إلى ملك تلمسان وإلى الأعراب المجاورة لهم بصحراء أنجاد"[2].

كما كانت لضريبة العشر التي فرضت على سلع التجار بدفع مغارم عند إدخالها إلى المدن لتسويقها، أين كان التاجر يتعرض لمعاملة سيئة من قبل من يكلف بتلك المهمة من أهل الذمة يهود أو نصارى، فيقومون بتفتيش التاجر المسلم إن كان في حوزته سلع يريد إدخالها خفية وتهربا من دفع المغارم عليها، وحتى النساء لم يسلمن من هذا الإجراء التعسفي عند أبواب المدن[3]، وهو أمر يدل على أن الدولة الزيانية في هذه الفترة لجأت إلى تولية أهل الذمة في أعمال الجباية الأمر الذي زاد الوضع تأزماً.

من جانب آخر أصبح الجباة يتلاعبون في جمع الزكاة قبل بلوغ نصابها، لقول البرزلي "وسئل–أي ابن عرفة– أيضا عمن يأخذ منه السلطان زكاة ماله، وهو أقل من النصاب"[4] فأدى هذا إلى الجور والظلم بين الرعية. هذه المظالم وأخرى كانت بتلمسان وقراها، حتى قام أبو الحسن المريني بإلغائها عند إستحواذه على تلمسان ونواحيها سنة(735هـ/1334م)، ولم يعد ذلك للذمي ولاية على مسلم في أعمال المجابي في تلك الفترة[5].

---

[1] – الونشريسي، المعيار، ج11، صص133-134.

[2] –الحسن الوزان، ج2، ص384.

[3] – ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 285،

[4] – ماحي قندوز، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، دراسة وتحقيق لمسائل الطهارة حتى مسائل الضحايا والعقيقة، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، تخصص فقه وأصول، وهران، 1010-2011م، ص502.

[5] –ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 282.

كما برزت سلوكات مشينة في نهاية القرن الثامن الهجري(14م)، لبعض عمال الجباية على الرعية، حيث كانوا يفرضون سيطرتهم على السكان من خلال تهديد بعض الفلاحين بالتنازل عن أراضيهم مقابل الإعفاء من الضريبة، هذا الأمر جعل الفلاح يعمل خلال فترة الحرث وجني المحصول، وحين يحين وقت جمع المنتوج يتخلى عن نصف الإنتاج لهؤلاء الناس، وإن رفض تسديد ما عليه يكون جزاؤه مصادرة أمواله وتعذيبه وهو ما يكشفه نص المازوني"سئل بركات الباروني عن رجل كلف عليه عامل وطنهم غرم مال ظلما وعدوانا وخوفه بالضرب والسجن"[1]، ومن النصوص التي تبين ظلم هؤلاء العمال قول أبو عمران المازوني"وقد ضعفت في زماننا أحكام القضاة وبطلت بذلك أموال الناس، وتحصلت في ذمم الظلمة والعمال والخدام وأتباعهم، وخبثت الأموال بكثرة المعاملات الفاسدة"[2]، وكذا قول المازوني نفسه في إحدى النوازل"يأخذ منهم الخطايا على جبايتهم ويحدث على من تحت حكمه من الرعية حوادث لا سند لها إلا محض الباطل"[3]. السبب الذي دفع بالبعض إلى الإستعانة برجال الزوايا، ومن هؤلاء أحمد بن الحسن الغماري الذي إحتمى به أحد الفلاحين من جبل بني ورنيد فالتجأ لزاويته، فبعث إليه قائد جبل بني ورنيد طالبا منه إخراجه من حمايته[4].

عموما الضرائب في تلمسان تعدت الحدود الشرعية وتجاوزتها بخلق ألقاب ومظالم جديدة كضريبة"الحبل والمطوى"، وهي مطالبة من يخرج مسافرا من وطنه بسبب الفقر والحاجة ولم يترك شيئا له، يطالب بدفع هذا المغرم من البلاد التي يهب إليها، وإن غاب لسنوات طويلة يطالبون ذريته بدفع هذا المغرم عنه[5].كما فرضت ضرائب أخرى على أهل البوادي مثل ضريبة نصف الأثمن، وغرامة الأزواج الحارثة، إضافة إلى وظيفة مغرم الماء التي كانت سائدة في تلمسان[6] .

[1] – المازوني، الدرر المكنونة، ج3، ص63.

[2] – سمية مزدور، مرجع سابق، صص83-85.

[3] – المازوني، المصدر السابق، ج2، ص34.

[4] –ابن صعد الأنصاري، مصدر سابق، ص220.

[5] – ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص 285.

[6] – المصدر نفسه، ص 285.

والجدير بالملاحظة أن جباية الضرائب خلال العهد الزياني لم تسهم في ظلم الرعية فقط، وإنما ساهمت في إفقار الكثير من السكان بدوا أو حضرا على حد قول ابن صعد "فكلما إرتفعت الضرائب غلت الأسعار، واشتدت وطأة الفقر، وقد بلغ الفقر إلى البؤس في المرحلة الأخيرة من عمر دولة بني عبد الواد حتى إضطر الفقراء والمساكين والضعفاء إلى أكل الكلاب"[1]، وهو نص كاف شاف للظلم والتعسف الذي مورس على الرعية وتسبب في فقرهم وخصاصتهم.

ج: جباية الضرائب وأثرها على المجتمع المريني

عاشت دولة بني مرين فترات كبيرة من حياتها في ظل الرخاء والإزدهار، ومرجع ذلك إلى التنظيم المحكم الذي سار عليه المرينيون في سياستهم المالية، فتعددت مصادر دخلها لبيت المال من زكاة وخراج وجزية وغنائم ومصادرات وأحباس، ولم تكن هذه المصادر ثابتة، في كافة عهود سلاطين بني مرين، حيث مال بعض السلاطين إلى إستحداث مصادر أخرى تنافي الشرع كالمكوس وبعض الضرائب الأخرى.

شكلت الضرائب الحجرة الزاوية لإقتصاد الدولة المرينية، لكثرة المداخيل التي كانت ترد منها إلى خزينة بيت المال، فبخصوص ضريبة الزكاة فقد أسندت مهام جمعها للفقهاء وذلك لعدلهم والدقة التي تميزوا بها[2].

فعلى سبيل المثال أبو العباس أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني التلمساني[3] النشأة الذي إستعمله السلطان أبو الحسن المريني في أخذ الزكاة وسماع الشكايات[4].

---

[1]- ابن صعد محمد، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، حققه وقدم له محمد أحمد الديباجي، ط1، دار صادر، بيروت، 2011م، ص9.

[2]- معمر الهادي محمد القرقوطي، الحياة الاقتصادية خلال العهد المريني، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط،غير منشورة، جامعة الجزائر، 2008، ص 326.

[3] -هو من عبد العزيز، من أحواز تلمسان، نشأ بها وتلقى تعليمه على يد ابني الامام،ولي القضاء في عهد أبي عنان واستمر على ولاية القضاء إلى أن توفي قبل إكماله لكتاب المسند الحسن بثلاثة أعوام./ ينظر: ابن القاضي المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحمدي أبو النور،ج1، مكتبة دار التراث القاهرة، ط1، 1981، ص62.

[4] - المصدر نفسه، ص62.

أما عن ضريبة الخراج فقد شرع المرينيون في فرض هذه الضريبة على السكان والقبائل التي تقطن البوادي والأرياف"فوضع على كل قبيلة مالا وزرعا معلوما يؤدونه له في كل سنة في حين خضعت المدن مثل فاس ومكناسة وتازة وقصر كتامة على أموال معلومة يؤدونها في كل سنة خفارة على بلادهم على أن يؤمن لهم الطرقات، ويكف عنهم الغارات"[1]، كما يشير الوزان إلى" أن سكان بني يازغة بتازا كانوا يؤدون خراجهم إلى عامل فاس، الذي يصل إلى ثمانية آلاف مثقال تقريبا"[2]، كما فرضت ضريبة الجزية على أهل الذمة عملا بقوله تعالى"**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ** "[3].

وكانت الجزية في العصر المريني من مصادر بيت المال فيذكر ابن أبي زرع أن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني أجرى مالا معلوما على الجذما والعميان والفقراء"يأخذونه كل شهر من جزية اليهود"[4]، وفي المقابل أوردت بعض المصادر العديد من الضرائب الغير شرعية على الرعية من أبرزها ضريبة القبالة، التي كانت تأخذ على كل شيء بنسبة 2% ماعدا الأبقار والأغنام التي كانت تعفى في بعض الأحيان[5]، وكانت المكوس من بين الضرائب المفروضة على البضائع في المدن والأرياف، وقد حققت موارد كبيرا للخزينة المالية المرينية، لكنها زادت عن الحد المطلوب في كثير من الأحيان[6].

وكانت المصادرات التي يقوم بها بعض السلاطين تجاه الرعية تعتبر مصدرا مهما لبيت المال، فيذكر ابن عذارى المراكشي أن أهل فاس نكثوا العهد عام(647هـ/ 1249م) وقتلوا عاملهم وعندما تمكن الأمير أبو يحي المريني من إستعادة فاس، فعفا عن العامة وجمع ثلاثة مئة من أهلها

---

[1] - ابن أبي زرع، الذخيرة، صص 36-37.

[2] -الحسن الوزان، ج2، صص364-365.

[3] -سورة التوبة، الآية 29.

[4] -ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص298.

[5] - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 282.

[6] -معمر الهادي محمد القرقوطي، مرجع سابق، ص 332.

وصادر أموالهم في قوله" فطلبوا العفو من الأمير أبي يحي فعفا عن عامتهم، وأغرم أموالا لخاصتهم ...وضرب أرقاب ستة أناس من أعيان شيوخهم"[1].

ومن الضرائب التي سادت المغرب الأقصى كغيره من المغربين الأدنى والأوسط، ضريبة الإنزال وضريبة الخرس التي فرضت على الجنات (الحدائق) وضريبة الزويجة[2].

عموما يظهر لنا من خلال تداولنا لمختلف النصوص،كثرة الضرائب المفروضة على أهالي بلاد المغرب الأقصى وحجم المعاناة التي عاشتها الرعية جراء تلك الضرائب الغير الشرعية والمجحفة في حقهم، فيمكن الإقرار أن الضرائب ساهمت بشكل كبير في إفقار الرعية وسخطهم وتذمرهم.

2: الإحتكار وغلاء الأسعار

لطالما شكل غلاء الأسعار هاجسا أمام أفراد مجتمع المغرب الإسلامي، لما انجر عنه من إنعكاسات وإنزلاقات خطيرة داخل المجتمع، فارتباط ظاهرة غلاء الأسعار بشيوع الفقر داخل المجتمع ظلت قائمة في ظل تعاقب الكوارث الطبيعية والبيئية، إذ شكلا أحيانا علاقة سببية أي كل ما وجدت مجاعات أو قحوط إرتفعت الأسعار وتضررت الرعية وافتقرت، ولكن هي علاقة ليست حتمية فأحيانا ترتفع دون وجود مجاعات أو قحوط وذلك لأمر آخر وهو التحكم في عرض السلعة، ليس لقلتها وإنما لاحتكار الناس لها تحسبا لوقوع أزمات أو عوارض على حسب الطرح الخلدوني"ولولا احتكار الناس لها، لما يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران"[3].

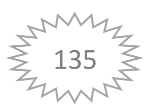
وفي ظل هذه المعطيات عان أفراد المجتمع من ويلات غلاء الأسعار بافتقاد الأقوات، وعجز أولو الخصاصة منهم في الحصول على مايسد رمق الجوع، وحاجيات الإستهلاك المعيشي، وبالتالي هلاكهم ففيما تجسدت تلك العلاقة بين غلاء الأسعار وتضرر الرعية وخاصة الفئات الدنيا من المجتمع؟.

---

[1] -ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص397.

[2] - ابن مرزوق، المسند، صص 284-285.

[3] -ابن خلدون، المقدمة، ص345.



قد يكون من الأجدر أن نشير إلى إشكال معرفي يعترض سبيل كل من يريد البحث في موضوع الأسعار خلال الفترة الوسطية عموما، ويتعلق الأمر بأزمة"الرقم" التي تتخبط فيها مصادر الفترة المدروسة فلابد من الملاحظة أن المصادر لا تتعرض لذكر الأسعار إلا أثناء بعض المناسبات وخاصة السيئة منها: كفترات القحط والمجاعات والأوبئة وغيرها من الأزمات، ومن هذا المنطلق فهي لا تعطينا فكرة واضحة عن المستوى الفعلي للأسعار خاصة أنها تهم فترات، ومناطق مختلفة مما يؤثر حتما على إختلاف وسيلة التعامل الفعلية التي تعبر عن هذه الأسعار. وهذه الوضعية تجعل من الصعب تتبع تطور الأسعار بصفة موضوعية[1].

عرف إنسان المغرب الإسلامي في ظل إندلاع الكوارث والأزمات الطبيعية والبشرية غلاء فاحش للأسعار، إنعكست أثاره على مستويات العيش، وفي هذا الصدد يقول البياض نقلا عن ابن هيدور "إن الغلا لحدوثه سببان: إما احتباس المطر، وإما لظهور الفتن والحروب... ، والوباء لازم من لوازم الغلا، كما أن الغلا لازم من لوازم الفتة الدائمة"[2]، وتكشف بعض النصوص أنه من بين" معظم الأسباب الجلية لتقلبات الأسعار الإقليمية هو نقص المؤن بسبب المجاعة والقحط"[3].

وما يعزز الطرح أكثر الرؤية الخلدونية فيما يخص تقييم الأسعار خلال العصر الوسيط، والذي ربط معالم نظريته في الأسعار القائمة على مرتكز العمران الإجتماعي في قوله" فإذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه، وغلت أسعار الكمالي من الأدم والفواكه وما يتبعها؛ وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه، كان الأمر بالعكس من ذلك... فترخص أسعارها في الغالب"[4]، والراجح أن ابن خلدون كان يعني أن المؤثرات الطبيعية تأتي كعنصر فجائي فتؤثر على

---

[1] -محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط-الدولة ،المدينة، الاقتصاد- تنسيق: محمد المغراوي، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1999،صص265-267./ ينظر: ابراهيم القادري بوتيشيش، مباحث في تاريخ المغرب والأندلس، ص210.

[2] -عبد الهادي البياض، مصدر سابق، ص 100.

[3] -أوليفيار يمي كونستيل، التجارة والتجار في الأندلس، تعريب: فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، 2002، ط1، ص209.

[4] -ابن خلدون، المقدمة، صص344-345.

المنتوج مما يؤدي إلى النتيجة المذكورة(غلاء الأسعار)[1]، بدليل ما كشف عنه في نهاية النص المذكور بقوله"إلا ما يصيبها من بعض السنين من الآفات السماوية"[2].

هذا الطرح ينطبق على وضعية الأسعار في بلاد المغرب الإسلامي إبان الفترات العصيبة من فترة مدار الدراسة، وأضحى حالة عادية بفعل التكرار الدوري للكوارث الطبيعية، وما يزكي هذا التخريج ما نتج عن بعض المجاعات الشديدة التي نزلت بالمغرب الحفصي والتي رافقها غلاء شديد خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري 15م "أصاب الناس بتونس غلاء في الطعام بلغ قفيز القمح 4دنانير ذهبا والشعير على الشطر من ذلك فشكى الناس قلة الطعام"[3]، ولعل ما يكشف من النصوص أكثر ماورد في قول بن أبي زرع بخصوص الغلاء المفرط الذي صاحب مجاعة (635هـ/1237م) في قوله"غلاء شديد...ووصل قفيز القمح 30دينار"[4]، وفي قول ابن القاضي الذي يصف لنا الغلاء أيضا"...كان غلاء عظيم بالمغرب تمادى ثلاث سنين"[5]، كما وصف ابن الشماع حال تونس وقت الغلاء في قوله"إرتفع سعر الطعام بتونس إلى أن بلغ سعر القفيز من القمح11ذهبا والشعير إلى النصف من ذلك"[6]، وهي كلها نصوص تثبت شدة وأثر ذلك الإرتفاع على الرعية.

وفي المغرب الأوسط عصفت بتلمسان رياح إرتفاع الأسعار، بوتيرة سريعة خاصة أثناء مجاعة(698هـ/1293م) ، كان من نتائجها قلة الأطعمة الضرورية، وغلاء المتوافر منها في الأسواق بسبب الإحتكار وأعمال المضاربة هذه الحقيقة عبر عنها التنسي بقوله"بلغ فيها الرطل من الملح دينارين، وكذلك من الزيت والسمن والعسل واللحم، ذكر بعضهم أن الدجاجة بلغت ثمانية دنانير ذهبا"[7]، ولتوضيح ذلك أكثر نتبع ما رصده لنا ابن خلدون عن إرتفاع الأسعار أثناء حصار تلمسان في قوله "

---

[1] -عبد الهادي البياض، مرجع سابق، ص103.

[2] – ابن خلدون، المقدمة، ص 345.

[3] – الزركشي، مصدرسابق، ص 150.

[4] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 255.

[5] – ابن القاضي، درة الحجال، ج3، ص 324.

[6] – الزركشي، مصدر سابق، ص 95.

[7] – التنسي، مصدر سابق، ص 132.

إن ثمن البقرة الواحدة ستون مثقالا، ومن الظأن سبعة مثاقيل ونصفا والرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم ...والهر الداجن بمثقال ونصف، والكلب بمثله والأرنب بعشرة دراهم. والحية بمثله، والدجاجة بثلاثين درهما... "[1]. هذا النص يكشف خبايا وضع إنساني متدهور، بسبب الأزمة الغذائية التي بلغت ذروتها بالارتفاع المفاجئ للأسعار، والإختفاء السريع للمؤن، وإنعدم الأطعمة، ومن ثم نتصور حجم المحن التي كابدها إنسان المغرب الأوسط في صراعه المرير ضد جبهة الغلاء الفاحش.

إن قيمة السلع وخاصة الغذائية منها، قد عرفت إرتفاعا في أسواق المغرب الإسلامي خلال فترة مدار الدراسة من دون شك، فحيثما إنتقصت الصابات بموجب الأحوال الجوية الرديئة أو بفعل الكوارث الطبيعية كزحف الجراد على المزروعات كان القحط، وكانت المجاعة، وكان إرتفاع للأسعار[2]، وهذا ما أقرته بعض المصادر فتكاد كل مجاعة تقترن بغلاء الأسعار.

شكلت الحبوب المادة الغذائية الرئيسية لدى سكان المغرب الأوسط من بوادي وحواضر على السواء، فهي من"ضرورات القوت"[3]، وربما كان غلاء أسعارها أوقات المجاعة راجع إلى كثرة الطلب عليها، "فقد بلغ ثمن صاع من القمح ديناران وربع أثناء الحصار بتلمسان سنة(698-707ه/1298-1307م)، وبلغ ثمن الصاع من الشعير نصف ثمن القمح أي دينار"[4]، في حين "بلغ ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به، مقداره إثنا عشر رطلا ونصف مثقالين ونصفا من الذهب العين"[5]، وبلغ سعر صاع ونصف من القمح دينارا سنة (842ه/1438م) حسب ابن صعد التلمساني[6]. وما يعبر عنه في المصادر أن أسعار الحبوب وخاصة القمح كانت بصفة عامة مرتفعة في النصف الأول من السنة حتى تجنى الصابة أو يتكهن أنها كافية فتأخذ حينئذ

---

[1] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص128.

[2] – نجاة باشا، التجارة في المغرب الإسلامي، من القرن (4/ 8ه) ، تونس، المنشورات الجامعية التونسية، 1976، ص 31.

[3] –ابن خلدون، المقدمة، ص344.

[4] – يحي ابن خلدون، البغية،ج1، صص124-125

[5] – ابن خلدون، ج7، ص128.

[6] – ابن صعد، روضة النسرين، ص222.

الأسعار في الهبوط[1]، والمثال التالي يبرر ذلك ففي بداية سنة 1264م ارتفع ثمن القمح بمصر ارتفاعا كبيرا وبلغ 105درهم لكل أردب بينما تراجع هذا الثمن في شهر جويلية من السنة نفسها إلى قيمة 45 درهما أي ما يساوي 43% من قيمته في الشتاء[2]، ومن خلال التأمل في أسعار المواد الغذائية الواردة في مجمل النصوص يظهر أن معايير الغنى والثروة تهاوت قيمها تباعا، أمام قيمة القمح في فترة ضغط كارثة الجوع فأصبحت قيمة خبزة وقدح من القمح أنفس وأغلى من حقل زيتون في أرض خصبة[3].

على غرار إرتفاع أسعار الحبوب بأنواعها، عرفت اللحوم بأنواعها، إرتفاعا مشهودا نتيجة الكوارث التي تسببت في فقدان الكثير من الحيوانات على حد قول يحي بن خلدون"واشتملت هذه السنة(776هـ-1374م) على مجاعة شديدة... لريح ذات إعصار أهلكت زرع صافتها وحيوانها"[4]،

وعلى خلاف ماحظيت به أسعار الحبوب أثناء الغلاء من إهتمام المصادر،لم تكن أسعار اللحوم والدواجن لتحضى بالاهتمام نفسه إلا في إشارات يسيرة لكن ما هو ملاحظ أثناء فترة الغلاء حتى الحيوانات المحرمة من قطط وكلاب وحيات أصبح لها ثمن معتبر في الأسواق بسبب إرتفاع أسعار اللحوم المحللة للأكل[5].

كما إرتفعت أسعار المواد الغذائية الأخرى إرتفاعا رهيبا بالرغم من أن المصادر لم تكن لتشير إلى أسعارها في زمن غير زمن المجاعات إلا نادرا، لأنها تصب اهتمامها على أسعار القمح والشعير باعتبارهما أساس غذاء الإنسان بالمغرب الإسلامي، وحسبنا في ذلك ما تطرق إليه كل من ابن خلدون والتنسي زمن المجاعات حسب الجدول الآتي :

جدول(1): يمثل أسعار بعض المواد الغذائية زمن المجاعات وغلاء الأسعار

---

[1] – نجاة باشا، مرجع سابق، ص31.

[2] – المرجع نفسه، ص32.

[3] – عبد الهادي البياض، مرجع سابق، ص 102.

[4] – يحي ابن خلدون، البغية، ج2، ص298.

[5] –التنسي، مصدر سابق، ص132./ ابن خلدون، العبر،ج7، صص127-128.

أنواع المواد الغذائية	ثمنها	مكان وزمان وقوعها	المصدر/ المرجع
واحدة من البيض	06 دراهم	698-707هـ/1298-1307م بتلمسان	ابن خلدون، العبر، ج7، ص128
أوقية واحدة من الزيت	12درهم	= =	= =
أوقية واحدة من السمن	12درهم	= =	= =
أوقية واحدة من السمن	20درهم	= =	= =
أوقية واحدة من الفول	20درهم	= =	= =
أوقية واحدة من الملح	10درهم	= =	= =
الأصل الواحد من الكرنب	بثلاثة أثمان المثقال	= =	= =
الأصل الواحد من الخس	20درهم	= =	= =
الأصل الواحد من اللفت	15درهم	= =	= =
الواحدة من القثاء	40درهم	= =	= =
الواحدة من الفقوس	40درهم	= =	= =
الواحدة من الخيار	بثلاثة أثمان دينار	= =	= =
الواحدةمن البطيخ	30درهم	= =	= =
الحبة من الاجاص	02درهم	= =	= =
الحبة من التين	02درهم	= =	= =
الرطل من الزيت	ديناران	= =	التنسي، نظم الدر والعقيان ، ص132.
الرطل من السمن	ديناران	= =	= =
الرطل من العسل	ديناران	= =	= =
أوقيتان واحدة من العسل	01 درهم	724هـ/1322م بالمغرب الأقصى	مصطفى نشاط ،التغذية والأزمة، ص09

أوقية واحدة من السمن	نصف درهم	=	=	=	=
أوقيتان واحدة من الزيت	01 درهم	=	=	=	=
القمح	صحفةالقمح 90دينارا	=	=	=	=
الدقيق	أربع أواق	=	=	=	=
اللحم	خمس أواق	=	=	=	=

كما شهد المغرب الأقصى هو الآخر في بعض الفترات، مجاعات وأوبئة حادة تمثلت مظاهرها في غلاء الأسعار للمواد الغذائية أو إنعدامها أحيانا، فالملاحظ أنه كلما حدث قحط أو مجاعة إلا ورافقها غلاء شديد في أسعار المواد الغذائية الموجهة لسد رمق العيش، وخاصة منها الحبوب الذي إرتكز عليها غذاء السواد الأعظم من السكان، ولم يعد بإمكانهم الحصول على أصنافه الجيدة بسبب إقبال الفئات والنخبة الخاصة على إقتنائه جملة، وانقراض مادته من الأسواق، فضلا عن تدني مستوى دخل العوام، فاقتصروا على الأصناف الضعيفة الجودة مثل الحنطة والشعير التي تدعى"يردن تيزواو"[1].

إن توسيع دائرة القراءة لتشمل المصادر الدفينة، كفيلة برسم صورة تقريبية عن وضعية الأسعار في الأيام العصيبة، وفي هذا الحقل عثرنا على بعض النصوص المؤكدة للعلاقة السببية الموجودة بين الكوارث وظاهرة غلاء الأسعار، بحيث قلما نجد كارثة من الكوارث الطبيعية لاتقترن بحدوث غلاء، فتارة يكون الغلاء سببا لحدوث الكوارث وتارة يكون نتيجة لها والعكس صحيح.

فمن بين تلك النصوص التي تبرز مظاهر الشدة والجوع ما يقدمه ابن عباد عن الغلاء الفاحش الذي حدث بالمغرب بفعل الوباء في بعض المواد الغذائية" فإذا كان المرء يشتري صاع الحنطة بعشرة

[1] - الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، صص 226-227.



دراهم أصبح يشتريه بخمسة عشر أو أكثر، وإن كان يشتري من الباكور أربعين بدرهم، أصبح بعشرين أو أكثر وقس على ذلك"[1].

وإشتد الحال في تناهي غلاء الأسعار بالمغرب المريني ففي سنة(617هـ/1219م)على حد قول إبن عذارى"إشتدت الحال في تناهي غلاء الأسعار بالبلاد الغربية والأندلسية"[2]، كما كشف نص آخر عن حجم المحن التي كابدها المرينيون في صراعهم المرير ضد جبهة الغلاء على حد تعبير بن أبي زرع "في سنة(635هـ/1233م) وكان بالعدوة والأندلس غلاء شديد ووباء مفرط هرب فيه أكثر أهل البلاد ووصل فيها قفيز القمح ثلاثين دينارا"[3]، واستمر تردد موجات الغلاء خلال فترة البحث وكأنه حالة عادية كتب على إنسان المغرب المريني التعامل مع تجلياتها كقدر محتوم.

وظلَ الغلاء شبحا مخيفا يهدد الرعية وخاصة فئة العوام. فالمصادر تذكر أن فترة حكم السلطان المريني أبي الربيع سليمان(708-710هـ/1308-1310م) "كانت في أيامه غلاء[4]. ونتج عن الغلاء الشديد الذي طال المجتمع المريني خاصة والمغرب عامة، نفاذ المواد الغذائية الأساسية من الأسواق وانعدامها، وأصبحت حياة العوام مهددة بالفقر والجوع والهلاك.

والفترة المرينية لم تسلم بدورها من سلوك الإحتكار، التي تحين أصحابها أزمنة الكوارث والإضطرابات وهذا ما جرى في مراكش إذ إمتنع المحتكرون، عن إخراج الحنطة إلى الأسواق في وقت إشتدت فيه المجاعة سنة(632هـ/1235م) وقلت الأقوات وارتفعت الأسعار، حينئذ بلغت الغاية من الإحتكار وأخرج التجار ما بحوزتهم من حنطة وشعير فبذل الناس من الأموال ما كان يطمح إليه المضاربون[5].

---

[1] -مصطفى نشاط، "**التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني**"، "**مجلة أمل**"، وجدة، ع/17، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999، ص 09.

[2] -ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص267.

[3]- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص255.

[4]- السلاوي، ج3، ص99،

[5] -عبد الهادي البياض، مرجع سابق، 110.

مثل هذا السلوك فتح آفاقا ملائمة للمضاربين بالتلاعب في المواد المعيشية، وفي طليعتها القمح الذي قل أن يظهروه للناس ليجدوا بذلك السبيل إلى الزيادة في السعر.مثل هذه السلوكات فطن لها ابن خلدون وصنفها ضمن"التسلط على أموال الناس بشراء ما بأيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع، فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا لأن عامته من البيع والشراء"[1].

والظاهر أن ظروف الغلاء وانعدام المواد الإستهلاكية الضرورية التي يكثر الطلب عليها وقت المجاعات، ساهمت في شيوع ظاهرة الإحتكار، التي إعتمدها الكثير من التجار قصد تحقيق الربح السريع بعد مضاعفة السعر، هذا الأمر جعل إنسان المغرب الإسلامي يعيش في رهان غير عادي. مما إضطر الكثير من الرعية أمام هذا الغلاء الفاحش وتفشي ظاهرة الإحتكار باللجوء إلى أساليب أخرى كالغصب والنهب وأعمال اللصوصية لسد ذريعة الفقر التي أصابتهم جراء هذه الأزمات والتي تزايدت في نهاية العصر المريني بكثرة.

وإجمالا يمكن الإقرار أن غلاء الأسعار للمواد الغذائية من حبوب وثمار ولحوم وغيرها من مواد أخرى، كان له الأثر البارز في تدهور المستوى المعيشي والصحي للفرد، فأضحت عملة الفقر شعار لصيق بالفرد زمن الغلاء.

4: الأسباب الروحية

1: الزهد والتقشف

إن الزهد في الدنيا من الأمور التي حث الله عز وجل عليها في كتابه الكريم، وذلك ببيان حقارة الدنيا في عدة آيات منها قوله تعالى:" **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا**

[1]- ابن خلدون، المقدمة، صص274-275.

ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"[1].

ومن الجدير بالذكر أن الدين الإسلامي ممثلا في الكتاب والسنة يحث على الإعراض عن الدنيا والزهد فيها، والإسلام يحث على الزهد الذي تكون فيه الدنيا في يد الإنسان لا في قلبه، أي أن يمتلكها بين يديه وينفقها في أوجه الخير، لا أن تملكه الدنيا وتستحوذ على قلبه وتفكيره فيشقى بها.

ومجتمع المغرب الإسلامي كغيره من المجتمعات، ظهر فيه تيار التصوف الذي أثر تأثيرا كبيرا على الجماعات والأفراد، الأمر الذي جعل الكثيرين من سكان البوادي أو الحواضر يندمجون في تياره، ويحيون حياة الزهد والتقشف، حتى أضحى التصوف السمة المميزة لبلاد المغرب الإسلامي خلال زمن الدراسة.

عُرف المغرب الإسلامي بكثرة متصوفته وزهاده خلال زمن البحث، وما يؤكد ذلك كثرة التآليف في هذا الباب ومن بين تلك التآليف، تأليف ابن قنفد كتابه الذي خصصه للترجمة لأبي مدين وأشياخه وأصحابه وتلامذته في كتابه المسمى"أنس الفقير وعز الحقير"ومصطلح الفقير[2] الوراد في العنوان يعني المتصوف والذي كان أكثر شيوعا خلال هذه الفترة[3].

إنصب اهتمام هؤلاء المتصوفة على غرس التربية الروحية والأخلاقية في مجتمعهم، وذلك بزرع فيهم القيم الروحية التي تعينهم عن الحياة المادية، بالعكوف على العبادة، والإنقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة وجاه[4].

---

[1] – سورة الحديد، الآية 20.

[2] –إن المعنى الذي ارتبط به مصطلح "الفقير" قريب جدا من معنى "المريد" والتلميذ كما يظهر من هذا الكلام المنسوب إلى القديدي" الفقير في ابتدائه يقطع عن نفسه العلائق ولا يقف مع شيئ من هذه الأحوال، ولا يطلب الا الله"/ينظر: نللي سلامة العامري، التصوف بافريقية في العصر الوسيط،–من القرن 3- 9ه/9 -15م–شركة السنباكت، 2009، ص212.

[3] – المرجع نفسه، ص30

[4] – محمد كمال كامل، التصوف والمتصوفة– في المغرب الأقصى في عصر بني مرين– دار الافاق العربية، ط1، 2014، ص201.

ولأن المسلك الصوفي ينبني أساسا على تمجيد حياة البساطة وشظف العيش والزهد وتفضيلهما على ملذات الدنيا، فالفقر ونبذ شهوة البطن، وكبح جماح النفس، وتعذيبها في الدنيا، هما من سمات المجتمع الولائي، وإلا لماذا يوصف أفراده بالفقراء، ففي نظرهم الفقر والبلاء والجوع إمتحان من الله لهم، ليختبرهم في مدى صبرهم وثباتهم عليه، وإيثار الفئات الضعيفة والمدقعة الفقر على أنفسهم.

ولا يستقيم الكلام عن هذا الجانب الروحي المميز دون ذكر أمثلة عمن كان لهم تجربة الزهادة داخل مجتمع المغرب الإسلامي خلال زمن الدراسة، وحسب ما حملته إلينا كل من كتب المناقب والتراجم من وصف دقيق عن تلك التجارب التي توخت حياة الزهد والتقشف في المأكل والملبس والمسكن، وزهدهم في الحياة الدنيا برمتها، والتي أجمعت في كل الحالات عن بساطتهم وتواضعهم، بحيث كان صوفية المغرب الأوسط خلال زمن البحث مقتصدين في معيشتهم زاهدين في الدنيا مقتصرين على القوت البسيط والزاد القليل من نخالة وشعير وغيرها، فقد كان أبو البيان واضح قاهرا لأحواله لايفطر إلا على رأس أربعين يوما بقليل من الخبز وحب الجودر[1]، وكذلك كان أبو عبد الله بن الملك يقتات من الشعير والشحم[2]، أما أبو اسحاق ابراهيم التنسي (ت680-1281م) فقد كان يقتصر على بعض الطعام الذي يأتيه من قبل بعض الصالحين المقيمين بالونشريس، كما كان أبو عبد الله بن أبو بكر بن مرزوق(ت681ه/1282م) يكثر من الصوم ويتقشف في معيشته، ويقتصر على قوت لايكاد يحفظ بنيته من المرض، إذ كان يفطر على قشرة من الخبز وبيضة واحدة رغم ما يملكه من الخيرات[3].

إعتادوا الصوفية الزهاد على لبس الصوف وفضلوه على غيره من أنواع اللباس، باعتباره رمزا للتقشف وهجرة الحياة الدنيا والزهد فيها، ومثال ذلك أن الشيخ عبد السلام التونسي كان يرتدي في تلمسان كساء خشنا من الصوف[4]، وكذلك تلميذته آمنة بنت يغروسن التي كانت تلبس خمارا وجبة

[1] – الحفناوي محمد أبي القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بيير فونتاتة الشرقية، الجزائر،1906، ص576.
[2] – الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين(6-7ه/12 -13م)، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004، ص162.
[3] – المرجع نفسه، ص162.
[4] – ابن الزيات، التشوف، ص88.

من الصوف[1]، وكان أبو إسحاق إبراهيم التنسي يلبس الكساء المرقع بين ثيابه[2]،كما ارتدى البعض من هؤلاء الزهاد ألبسة بالية مرقعة تشبه لباس المتسولة كأبي علي عمر الحباك(ت613ه/1218م)[3] في حين وجد هناك من كان يلبس جبة من تليس وبرنوسا مرقعا ويرتدي شاشية من سعف[4].

أما بخصوص استقرارهم بالمساكن، فالمعتبر أن أغلب الصوفية الزهاد كانوا يقيمون في الجبال مثل الولي الصالح أبو البيان الذي كان يمكث في جبل آفرشان[5]، والأماكن البعيدة والخالية من ضوضاء المدينة وصخبها، وأماكن عادية داخل المدن مثل إقامة أبي مدين شعيب، فضلا عن إقامة البعض في الزوايا والربط مثل رابطة ابن الزيات[6].

ومن المتصوفة الزهاد بالمغرب الحفصي نذكر المتصوف الزاهد أبا رحمة غيث الحكيمي الذي قيل عنه أنه من" المحزونين الخائفين... غزير الدمعة...صام حتى نحل وعلاه اصفرار وشحوب"[7]، والصوفي الزاهد الورع أبي يوسف يعقوب الدهماني (ت621-1224م) الذي قيل عنه أن الزهد والتقشف مَثل سمة من سمات حياته البارزة، فكان يعيش من فتوح الآخرين وأقصى ما يفعله هو تقسيم الفتوح على عياله وإخراج نصيب الفقراء وألا يحتفظ لنفسه بشيئ يبيت عنده، فقد كانت طريقه حسب تعبيره" كثرة العيال والجلوس على بساط التوكل"[8]، كما عرف عن الصوفي أبو زكريا يحي الزواوي أنه كان يعيش على البقول المباحة، وإذا اشتهى اللحم يصطاد السمك من البحر[9]، والأمثلة كثيرة في هذا الباب يصعب ذكرها كلها.

---

[1] – ابن الزيات، مصدر سابق، ص90.
[2] – الطاهر بونابي، مرجع سابق، ص163.
[3] – ابن الزيات، التشوف، ص385.
[4] – المصدر نفسه، صص195-318.
[5] – التنسي، مصدر سابق، ص 126. / الإدرسيي، مصدر سابق، ص 56.
[6] – الغبريني، عنوان الدراية، صص 55،66، 188.
[7] – نيللي سلامة العامري، التصوف بافريقية، ص 159.
[8] – هشام عبيد، تونس وأولياؤها الصالحون في مدونة المناقب الصوفية، مركز النشر الجامعي، تونس 2006، ص 293.
[9] –الغبريني، مصدر سابق، ص136.

وبالمثل جادت كتب التراجم والمناقب، الإشادة بالجانب الروحي للعديد من متصوفة المغرب المريني، لكننا سنقتصر على ذكر بعضهم لكثرتهم فمنهم: المتصوف أحمد بن عاشر الذي عرف بعبادته المخلصة،كان يصوم يوما ويفطر يوما، ويأمر مريديه بذلك فيذكر على لسانه"بقيت أواصل الصيام ما شاء الله وأقتات بورق الخبازي وحيوان من البحر يسمى السرنبق، نحوا من سنتين "[1] .

كما كان الشيخ أبو عبد الله محمد الزاهد من أهل الخير، "مشتهر الذكر،كان قد بلغ الوصال في الصوم حتى جفت الرطوبات من بدنه، مما أحدث ذلك عنده يبسا في بطنه، وكان الغالب عليه ردع هوى نفسه بالجوع "[2].

وبلغ الصوفي أبو الحسن أبركان مبلغا عظيما في قلوب الناس بزهده، فروي"أنه بقي سنتين في تلمسان لايقتات إلا بما يلتقطه من الطعام الذي يتساقط في الطرقات وفي أثقاب الحيطان، كما كان مداوما على الصوم[3]، ومن زهده"أنه إتفق في مرض موته أن أصحابه وولده رأو ضيق مسكنه، بحيث لايسع غيره ممن يحتاج أن يمرضه، ورأو خشونة ما يضع على رأسه، فاجتمعوا على أن يخلوا له دارا، وفرشوا له فراشا نفيسا، ولينوا له فيه، فانتقل إليه وبات عليه، وفي الصباح قال لهم ردوني إلى بيتي وفراشي، فقد جعلتموني على شبكة الدنيا في آخر عمري بعد طول فراري منها، فردوه فبقي به إلى أن مات"[4].

كما بلغ الصوفي إبراهيم بن عيسى بن داود مبلغا عظيما بزهده في الدنيا، إذ روي أنه بقي سبعين ليلة على سبعين حبة من التين...فكان يفطر كل ليلة على حبة واحدة، فزاره بعض أصحابه فقال أحدهم للآخر"هلا كلم أحدا هذا الرجل ليشفق على نفسه، فإني أخاف عليه من الجوع" فكلمه ذلك الرجل فقال له "إن الدنيا جيفة فمن اضطر إليها حلت له، وأنا غير مضطر إليها"[5]، وهؤلاء

---

[1] -الحضرمي أبي عبد الله، السلسل العذب والمنهل الأحلى، تح: محمد الفاسي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج: 10،ج1، 1964، ص44.
[2] -المصدر نفسه، صص91-92.
[3] – ابن مريم، مصدر سابق، ص59.
[4] – المصدر نفسه، ص59.
[5] – الباديسي، مصدر سابق، ص61.

المتصوفة الزهاد الذين سبق ذكرهم ما هم إلا عينة قليلة عن المتصوفة الزهاد بالمغرب المريني الذين نبذوا الدنيا وانصرفوا عنها وعن التعلق بنعيمها الزائل.

وصفوة القول أن المتصوفة الزهاد الذين لقبوا بالفقراء، آثروا الفقر واختاروه طوعا واتخذوا منه سلوكا روحيا وعبادة، فنبذوا حياة الدنيا وشهواتها، ولازموا شظف العيش وجاهدوا أثر الجوع والعطش والفقر، قاهرين تلك النفس ومطوعين تلك الروح المتعطشة لملذات الدنيا وغرورها. هذه الدنيا التي قال عن غرورها الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام"مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَا يَرْجِعُ"[1].

وإجمالا لماسبق ذكره في هذا الفصل يظهر لنا جليا من خلال تتبع سيرورة الأسباب السياسية والاقتصادية والبشرية والطبيعية والروحية وعلاقتها بالفقر، يمكن أن نجزم أنها كانت سببا فعالا في انتشاره وتفشيه داخل مجتمع المغرب الإسلامي ونستشف ذلك من خلال بعض المعطيات:

هشاشة نظام الحكم وفساد حكامه، الأمر الذي أدى إلى كثرة الدسائس والفتن الداخلية داخل البلاطات الثلاثة في أغلب الفترات، مما تسبب في قيام حركات وتمردات انعكست سلبا على كافة مناحي الحياة في كثير من المرات. فبالرجوع إلى كثرة الحروب والحصارات الطويلة الأمد نجدها قد أودت بحياة الكثيرين من أفراد المجتمع وعملت على تجويعهم وتفقيرهم. وتسببت في تراجع النشاط الصناعي والزراعي والرعوي، لأن الفلاحين مهددون بالجوع والإفلاس والفقر في ظل هذه الأوضاع. والتي أفضت إلى تغيرات جذرية في ملامح المشهد الفلاحي بالمغرب الإسلامي حين حولت كثيرا من السهول الصالحة للزراعة إلى مجالات للرعي والانتجاع وحصرت المساحة المزروعة في قمم الجبال والمرتفعات.

[1]-ابن ماجة أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، ج2،كتاب الزهد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، رقم الحديث: 4109، ص1376.

ويبدو أن تلك الحروب بين الكيانات الثلاثة من جهة وبعض القبائل والأعراب من جهة أخرى، كان هدفها بارز وهو البحث عن الحظوة والأراضي الخصبة التي تكفيها ضنك العيش، وحفظ إستمرارها وبقائها وعليه يمكن أن نسميها بحروب العوز(الفقر).

الفصل الثاني: مسألة التراتبية الاجتماعية ومظاهر الفقر بالمغرب الإسلامي

أولا: عناصر مجتمع المغرب الإسلامي .

1: البربر
2: العرب
3: الأندلسيون
4: اليهود
5: النصارى
6: الأتراك والغز

ثانيا: البناء الطبقي لمجتمع المغرب الإسلامي.

1: استقراء بعض المصادر التي قسمت المجتمع إلى طبقتي" الخاصة والعامة".

2: التراتبية الاجتماعية في مجتمع المغرب الإسلامي

ثالثا: مظاهر الفقر في مجتمع المغرب الإسلامي

1: الغذاء

2: اللباس

3: السكن

شهد مجتمع المغرب الإسلامي مابين القرنين (7-9هـ/13-15م) تنوعا في عناصره وطبقاته وطوائفه نتيجة الظروف السياسية التي مر بها، فكان مجتمع المغرب الإسلامي وخاصة في حواضره الرئيسية مثل تلمسان وفاس[1] وتونس[2] يتألف من السكان الأصليين الأمازيغ، بالإضافة إلى العرب سواء المستقرين في الحواضر أو البوادي. وبعد اشتداد حملات الاسترداد المسيحية التي طالت ثغور ومدن المسلمين في الأندلس، عرفت مدن المغرب الإسلامي موجة نزوح كبيرة لمجموعات بشرية هائلة من الأندلس واستوطنت الكثير من المدن واندمجت مع عناصر مجتمعه وتفاعلت معه في علاقة تأثير و تأثر[3].

أولا:عناصر مجتمع المغرب الإسلامي:

من خلال تتبع النصوص –على اختلاف أنواعها ومشاربها- يتضح أن أهم العناصر التي شكلت خريطة سكان المغرب الإسلامي خلال فترة مدار البحث تجلت في العنصر البربري الذي مثل السواد الأعظم من سكان حواضره وبواديه على الخصوص، ثم العنصر العربي على غرار العنصر الأندلسي و اليهود والنصارى والأتراك الغز[4].

1- فاس: مدينة عظيمة، وهي قاعدة بلاد المغرب، وفاس: مدينتان مسورتان بينهما نهر كبير يسمى وادي فاس، تبدأ هذه المدينة من غرب نهر أبو الرقراق، وتمتد شرقا حتى نهر ايناون، وتنتهي شمالا بين هذين النهرين عند نهر سبو، وتنتهي من الجنوب عند أقدم جبال الأطلس، وهي مدينة تزخر بالحبوب والثمار والماشية، كما قيل أن سبب تسميتها هو أنه من اليوم الأول عند الحفر لإقامتها عثر على كمية كبيرة من الذهب الذي يحمل بالعربية اسم فاس / الحسن الوزان، ج2،ص212، 224. كما قيل عنها أن بنو مرين أحدثتها من ذرية حمير من ولد أبي سعيد الحقي، فبعد أن انحلت دولة الموحدين بمراكش قامت في فاس دولة بني مرين الحميري في النسب وقد شبهها صاحب رحلة المدجن بمدينة بغداد، كانت من قبل تسمى بأس ثم تحول مع مرور الزمن بلسان العامة إلى فاس وهو مكان عامر بالأشجار والمياه /ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح، أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار –رحلة المدجن – تعليق محمد بن شريفة، دار أبي الرقراق، المغرب، ط1، 2008، ص83-84.

2- تونس: كانت تسمى المعلقة في ابتداء الزمان لأنها معلقة في جبل على وادي أبو جردة، وقيل سميت بذلك لأن الذين بنوها من العمالقة، بها يسمى إقليم افريقية، وهو الإقليم السادس من الأقاليم السبعة المذكورة وحدودها من افريقية إلى طنجة إلى جزولة إلى قبة المرابطين إلى البحر الجنوبي إلى بلاد السودان إلى جبل القمر وبلاد النيل والحبش./ينظر: المصدر نفسه، ص100-101.

3- هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى–حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر ميلادي – ج2، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1995، ص07.

4-إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في تاريخ المغرب الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ص8.

1: البربر[1]:

شكل البربر أهم عنصر سكاني داخل مجتمع المغرب الإسلامي وأوفرها عددا، مقارنة بالعناصر الأخرى التي سكنت المنطقة، يتفق النسابة على أن البربر ينقسمون إلى قسمين هما البتر والبرانس فيذكر ابن خلدون" أن شعوب هذا الجيل وبطونهم، فإن علماء النسب متفقون أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس الذي يلقب بالأبتر، ولهذا عرفت شعوبه باسم البتر. ويقال لشعوب برنس البرانس وهما معا ابنا برَّ"[2]، سكن البرانس المناطق الساحلية وبعضهم أستقر في الريف، والكثير منهم سكن الحواضر فعرفوا بالحضر، أما البتر فقد عرفوا ببداوتهم، ويتفرع عن هذين الجذمين شعوبا وقبائل كثيرة[3].

مَثَلَ البربر السواد الأعظم في البناء الاجتماعي لمجتمع المغرب الإسلامي بدوله الثلاث مابين القرنين (7-9هـ/13-15م)، فمن هؤلاء البربر كانت الطبقة الحاكمة التي انتمت إلى إحدى هذه القبائل البربرية، في كل من قبيلة بني حفص التي تنتمي إلى قبيلة مصمودة[4] وهنتاتة[5] وقبائل بني عبد الواد وبني مرين الذين ينتمون إلى قبيلة زناتة[6].

2: العرب

[1]-البربر: يقال أن كلمة البربر مشتقة من الفعل العربي بربر بمعنى همس، أو أنها مشتقة من أصل الموطن الذي سكنه البربر وهي الصحراء (بر)/ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ،ج1،ص 30./ والبربرة في اللغة كما قال عنها ابن خلدون هي تخليط الكلام من غضب ونفور. يقال بربر فلان أي أكثر الكلام في جلبة وصياح وبربر التيس أو الأسد علا صوته عند الهياج، وسمي الأسد بربارا بسبب ذلك/ ينظر: ابن خلدون، العبر، ج6، =ص117. كما يقال بأن الرومان هم من أطلقوا هذه التسمية على كل الشعوب الفوضوية الخارجة عن الحضارة ومن بينهم سكان شمال إفريقيا/ ينظر: يحي هريدي، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965، ص13. بينما حاول ابن خلدون تفنيد الرأي القائل بأن افريقش بن قيس هو الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع عجمة ورطانة لسانهم/ينظر: ابن خلدون، ج6، صص116-117.

[2]- المصدر نفسه، العبر، ج6، ص117.

[3]- إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في تاريخ المغرب والأندلس، ص11.

[4] -مصمودة: هم من ولد مصمود بن برنس بن بر،وهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم، ومن بطونهم برغواطة وغمارة وأهل جبل درن، ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة ، ابن السماك العاملي، مصدر سابق، ص 59.

[5] -هنتاتة: هي قبيلة سكانها من فروع قبيلة مصمودة ، وهم أقوياء أثرياء محبون للحرب ، يدعون أنهم أشرف سكان إفريقيا / كربخال، ج2، ص67.

[6] -زناتة: هي من ولد أجانا أو زانا بن يحي بن ضريس بن مادغيس الأبتر، أضيفت إليه الألف والتاء للتعميم عند الجمع على طريقة البربر، فصارت جانات أو زانات، فلما عربه العرب عاملوه معاملة المفرد، وأضافوا إليه هاء الجمع فصار زناتة، وهذا الشعب من أكبر شعوب البربر على الإطلاق، وكانت مواطنهم بصحراء المغرب مابين غدامس إلى وادي الساورة، واستوطنت جماعات المغرب الأوسط وشرق المغرب الأقصى إلى جبل تازة/ ابن السماك العاملي، مصدر سابق، ص68.

كما ضمَّ مجتمع المغرب الإسلامي عددا قليلا من العنصر العربي على خلاف الأندلس التي ضمت نسبة هامة منهم، وهي ظاهرة تفسر بخصوبة وثراء الأراضي الأندلسية التي شدت إليها أنظارهم فضلا عن تشابه بيئتها مع البيئة العربية في المشرق[1]. فإذ ما تحدثنا عن العنصر العربي الذي جاء مع الفتح الإسلامي واستقر بالمدن لا غيرها. لا وجدناه أندثر عرقيا، وإن كان من المؤكد أن هؤلاء لم يمثلوا قط أغلبية للسكان الحضر فبحكم تعريب العنصر البربري وتقلص التمايز بينهم، فأصبح من الصعب وجود مجموعة عربية قائمة بذاتها أو مهيمنة على المجتمع[2].

وتزامنا مع الهجرة الهلالية نحو المغرب الإسلامي أستوطن الكثير من القبائل العربية بمدن المغرب الأوسط حسب قول صاحب نفح الطيب"تعمرها أمشاج البربر والعرب"[3]، واستقروا في جميع نواحي المغربين الأدنى والأقصى، واختلطوا بسكان البربر عن طريق المصاهرة مما مكنهم من بسط نفوذهم حتى صاروا من أهل الحل والعقد فسكنوا القصور والدور بعد أن كانوا يسكنون الخيام[4].

وارتبطت بعض الأسر الحاكمة ببعض القبائل العربية برباط النسب والأمثلة على ذلك كثيرة مثل ما رواه ابن مرزوق أن الحاج أبا ريان سلطان بني مهلهل،كان خالا للسلطان أبي سعيد عثمان المريني وقد كان هذا الشيخ من قبيلة سويد العربية، ضمن رجالات العرب الذين يشاورهم السلطان أبو الحسن المريني في مجلسه[5].

3: الأندلسيون:

يضاف إلى العنصر العربي المهاجرون الأندلسيون الذين طردوا من ديارهم. فإذا ما استثنينا التنقل العادي قصد الرحلة العلمية وأداء فريضة الحج فإن بلاد المغرب الإسلامي لم تشهد قبل القرن السادس

[1] – إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في تاريخ المغرب والأندلس، ص36.

[2] –إبراهيم جدلة، المجتمع الحضري في العهد الحفصي، صص 192-193.

[3] – المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح:إحسان عباس، ج7، ص135.

[4]– شاوش الحاج محمد بن رمضان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2011، ص37.

[5]– موسى عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 318.

هجري (12م) هجرة للعنصر الأندلسي بكثافة كبيرة، حتى نهاية القرن السادس هجري (12م) وبداية القرن السابع هجري(13م) ، وبلغت هذه الهجرة أوجها مع سقوط أهم المدن الأندلسية في يد المسحيين مع منتصف القرن السابع هجري(13م)، ثم تواصلت الهجرة بنسبة بطيئة حتى سقوط غرناطة[1] سنة (897هـ/1492م)[2]،حيث عرفت الهجرة دفعا قويا تجاه سواحل بلاد المغرب الإسلامي.

وكان لهذه الأقلية الأندلسية دورا وأثر كبيرا على مجتمع المغرب الإسلامي حيث يقول بن الأزرق عن تأثيرهم في المجتمع الإفريقي"بأن الأندلسيين أبقوا بافريقية وأمصارها من الحضارة أثارا معظمها بتونس"[3] والجدير بالذكر أن المهاجرين الذين نزلوا بسواحل المغرب الإسلامي في كل من تونس وفاس وتلمسان كانوا من الأعلام وأهل البيوتات وأعيان الأندلس، الأمر الذي ساهم في الانتعاش الحضاري والاقتصادي والفكري الثقافي[4].

4: اليهود[5]:

من الصعب تحديد البداية الأولى لهجرة اليهود نحو منطقة شمال إفريقيا، خاصة وأن الآراء حول هذه الهجرة اختلطت بالأسطورة، وقد حاول بعض المؤرخين تحديد بداية وجودهم ببلاد المغرب

1-مريم بوعامر، الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأدنى ودورها في الازدهار الحضاري، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، 2010، ص46.

2- مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تعريب: الفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2002، ص42.

3- ابن الأزرق أبي عبد الله، بدائع السلك في طبائع الملك، ج2، ص710.

4- مريم بوعامر، مرجع سابق، صص121،99./ ينظر: محمد رزوق، الأندلسيون كفئة اجتماعية داخل المجتمع المغربي، ضمن كتاب جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، سلسلة ندوات، 1991، صص73-74.

5-اليهود: وهم من أهل الذمة وهو مصطلح يعني أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين و السامرة، والعجم وفي كتب اللغة هم المواطنون من غير المسلمين الذين يقيمون في دار الإسلام من اليهود والنصارى، وغيرهم من اللذين صاروا في ذمة المسلمين، و أعطوا الأمان لهذا سمي المعاهد ذميا/ ينظر: عطا علي محمد شحاته ريه، اليهود في بلاد المغرب الأقصى،-في عهد المرينيين والوطاسين-دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1999، صص19-20.

الإسلامي منذ أن أرست السفن التجارية للفينيقيين بسواحل المنطقة فأرجعه إلى حوالي الألف الأول قبل الميلاد[1].

كما يشير بعض المؤرخين أن وجود اليهود في بلاد المغرب كان قديما، منذ حملة نبوخد نصر الثاني[2] البابلي على بيت المقدس سنة(586ق م)، وحملة تيتيوس (Titus) الروماني سنة 70م الذي قام بتهجير حوالي 30.000 من اليهود إلى شرق ليبيا(Cyrénaique) ومنها إلى شمال غرب إفريقيا[3].

واستطاع اليهود التوغل في مجتمع المغرب الإسلامي في الفترة الاستدمارية الرومانية ويؤكد ذلك المؤرخ سترابون(Starabon) إذ يقول"لا تخلوا منطقة على الأرض إلا واليهود عليها..."[4]، فدخلوا قبيلة جراوة و قبيلة نفوسة، وفنداولة، ومديونة، وبهلولة، وغياتة، وبني فزاز من بربر المغرب الأقصى[5]، وحسب بعض الدراسات، فاليهودية دين وليست جنسا، ثم كانت هجرتهم من الأندلس وأرويا إلى بلاد المغرب الإسلامي هروبا من الاضطهاد المسيحي، في القرن السادس والسابع الهجري/(12-13م)، وخاصة بعد مجازر اشبيلية(795هـ/1391م) على يد ملوك اسبانيا المسحيين، ثم هجرة أخرى سنة(795هـ/1392م) بعد صدور الأمر الملكي بالنفي العام لليهود من الأندلس[6]، وكان لليهود دور كبير في الحياة السياسية لدول المغرب الإسلامي، إذ وصل بعضهم إلى أرفع المناصب فعلى

---

[1]- فاطمة بوعمامة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال (7-9هـ)، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، منشورة، الجزائر، 2008، ص14.

[2]-نبوخذ نصر الثاني: دام حكمه 34سنة (605-562ق م) وهو أشهر ملوك الدولة الكلدانية وقد خلف أباه، وكلمة نبوخذ نصر أصلها أشوري مكونة من ثلاثة مقاطع معناها "الإله نبوه يحرص الحدود "/ ينظر: مصطفى كمال عبد العالي وفرج راشد، اليهود في العالم القديم، دمشق، دار القلم، ط1، 1995، هامش1، ص151.

[3] - فاطمة بوعمامة، مرجع سابق، ص 16.

[4] - المرجع نفسه، ص17.

[5] - ابن خلدون، العبر، ج6، ص140.

[6]- إبراهيم حركات، المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، إفريقيا للشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص138/ينظر:أحمد شحلان: **"مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه"**، **"مجلة التاريخ العربي"**،ع1، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 1996، صص289،297.

سبيل المثال كان خليفة بن حيون بن زمامة حاجبا للسلطان يعقوب بن عبد الحق،كما تولت أسرة بني وقاصة اليهودية قهرمة القصر السلطاني في عهد السلطان يوسف بن يعقوب[1].

5: النصارى:

ويطلق عليهم اسم الروم والفرنج والمماليك الإفرنج والمعاهدين وغيرها من الأسامي[2]، ووجد البربر في المسيحية ملاذا للتعبير عن رفضهم للإستدمار الروماني، فاختاروا أكثر المذاهب المسيحية الراديكالية وهي عكس الأريوسية في عهد الوندال التي تنكر ألوهية المسيح والدوناتية المناهضة للكنيسة الظالمة الفاسدة التي تسير عكس تعاليم المسيح، وأستمر ذلك حتى العصر الوسيط[3]، وكان أكثر ما يجلبهم لبلاد المغرب الإسلامي نشاطهم التجاري الكثيف الذي عرفوا به فكانت سفنهم تنطلق من المدن الايطالية كجنوة وبيزا، والبندقية ومن فرنسا واسبانيا وكانوا يقيمون في الفنادق[4] لأجل قضاء مصالحهم التجارية وفق المعاهدات التي كانت تبرم مع مختلف التجار الزيانيين أو الحفصيين أو المرينيين[5].

6: الأتراك الغز:

وهم من المماليك الغز المصريين، وهؤلاء ينتمون إلى القبائل التركية التي كانت تسكن إقليم ما وراء النهر، وهؤلاء ظهروا في المجتمع المغربي منذ عهد المرابطين[6]، حسب قول ابن زرع والناصري أن

---

[1]- موسى عيسى الحريري، مرجع سابق، ص318.

[2]-إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في تاريخ المغرب والأندلس، ص67.

[3]-مسعود كواتي، اليهود في المغرب الإسلامي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص56/ينظر: رشيد باقة، **"الأقليات الدينية في بلاد المغرب ومدى مساهمتها في ازدهار الحياة الاقتصادية من الفتح إلى العهد الموحدي"**، **"مجلة الآداب والعلوم الإنسانية"**، ع4، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2004، صص84-85.

[4]- وهي أبنية تتكون من عدة طوابق، خصصت طوابقها العليا للتجار، في حين ضمت الطوابق السفلية المخازن والحوانيت التي تفتح على أفنية واسعة، ويحيط بالفندق سور خارجي له بوابات عليها حراس من سكان المدينة المشهود لهم بالأمانة ينظر:

-ATallah Dhina ,les états de l'occident musulman aux XIIIe, XIVe et XVe siècles, Alger: ENAL OPU ,pp257,380.

[5]- محمد قويسم، مدينة قسنطينة مابين القرنين(7-10هـ/13-16م)-دراسة سياسية، وعمرانية، واجتماعية، وثقافية، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، 2014-2015، ص182.

[6] – موسى عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 318.

يوسف بن تاشفين استعان بهم في جيشه[1]، في حين يقول ابن خلدون أن دخولهم لم يبدأ سوى في عهد الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف سنة(574هـ/1172م)[2]، وأصبحوا عنصرا قويا في الجيش الموحدي، أما عن مكانتهم خلال مرحلة البحث فنقول أن الغز لم يكن لهم ظل كبير في عهد الدويلات الثلاث.

وعموما يمكن القول أن مجتمع المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، اتسم بالتنوع، وتعدد العناصر الإجتماعية من قبائل بربرية وقبائل عربية، وأندلسيين هاجروا من شدة الاضطهاد المسيحي لهم وحتى اليهود فروا من ذلك واعتصموا بسواحل المغرب الإسلامي، وهذا التجانس والتنوع عاد بالفائدة في أغلب الأحيان على المجتمع المغربي في شتى الميادين.

ثانيا: البناء الطبقي لمجتمع المغرب الإسلامي:

شمل مجتمع المغرب الإسلامي طبقات متعددة وفئات متباينة اجتماعيا، على أساس أن المعايير المادية في أغلب الأحيان هي المحددة والمميزة لتلك التصنيفات الاجتماعية، فكان تصنيفها حسب المصادر التاريخية إلى طبقتين: الخاصة والعامة. على حد تعبير ابن خلدون"كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها القدرة على من دونها من الطباق. وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بذي الجاه من أهل الطبقة التي فوقه، ويزداد كسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه"[3].

هذه المسلمة الاجتماعية من شأنها أن توحي بوجود "ظاهرة التنوع والتجانس" في تركيب طبقات مجتمع المغرب الإسلامي، والفترة مابين القرنين (7-9هـ/13-15م) بالنسبة للتاريخ الاجتماعي للمغرب الإسلامي كلها تعتبر مرحلة مخاض جديدة انعكست آثارها على جميع بنياته الاجتماعية.

---

[1]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص139./ السلاوي، ج2، ص27.

[2]- ابن خلدون، العبر، ج6، ص371.

[3]- ابن خلدون، المقدمة، ص372 /ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي- قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة – دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1994، ص08.

وعليه سنحاول استقراء بعض المصادر التي قسمت المجتمع إلى طبقتين: "الخاصة "و"العامة"في تاريخ المغرب الإسلامي خلال فترة مدار البحث، والتي عالجت واقع مجتمعه، وبينت ذلك الفارق الطبقي بين مختلف فئات المجتمع لاسيما الدنيا منها، والتي برزت مظاهر الفقر فيها بحدة.

1: استقراء بعض المصادر التي قسمت مجتمع المغرب الإسلامي إلى طبقتين"الخاصة" و"العامة":

أملت الضرورة المنهجية أن تشمل هذه الدراسة بعض الألفاظ التي أخذت صبغة اصطلاحية والتي من الواجب تعريفها حسب متطلبات البحوث الأكاديمية المعمول بها في مختلف الجامعات، لأجل هذا ارتأينا أن نعرف بمصطلح الخاصة والعامة من خلال مصادر العصر الوسيط وما يمدنا به الواقع العياني للمغرب الإسلامي آنذاك. فعمدنا إلى تجسيد تلك الكتابات النثرية الموجودة في مختلف متون المصادر التاريخية من سير وتراجم وطبقات وكتب مناقب وتصوف ومصادر نوازلية ورحلات جغرافية ومختلف كتب التاريخ العام، الدالة والمعبرة لمفهوم مصطلحي"الخاصة""والعامة" في جداول توضيحية لأنها تعد اللغة المختصرة والقادرة على الفهم والرصد والدلالة أكثر.

***كتب المناقب والتصوف:**

المصطلحات في سياق النصوص	المصدر	الصفحة
"قد شاهدها الخاص والعام"	**الباديسي عبد الحق، المقصد الشريف والمنزع اللطيف.**	**ص58**
" ومنهم المستتر بحلية العوام"	= =	**ص59**
" كان رحمه الله يلبس على العامة بالتبذل في اللباس	= =	**ص59**
" كان محمد بن دوناس من الأولياء وكان يستتر بلباس العامة"	= =	**ص59**
"وعليه ثياب فاخرة من ثياب العامة فقصدته..."	= =	**ص67**
"حسبما طالبهم في ذلك منصب الفتية	**عبد الرحمن بن خلدون، شفاء السائل**	

وهداية الجمهور"	وتهذيب المسائل،تح: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر دمشق، 1996.	ص43
"الإطلاع على أسرار السوقة والملاحين ليس كالاطلاع على أسرار الملوك"	= =	ص65
"ثم اقتضى التعليم والمفاوضة في المجاهدة الخاصة المنفردة عن الجمهور..."	= =	ص87–88

" وهي أسهل الأشياء عليه وعرفها منه العامة والخاصة"	ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير.	ص44
"وكان معظما عند السلطان وعند عامة الناس"	= =	ص49
"فذكرت الحكاية لرجل من تجار العامة..."	= =	ص87–88

-كتب الطبقات والتراجم:

"فإذا فرغ من يخص أذن العامة"	ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ط1، 1996.	ص68
"إلا أنه قام له جاه في البلد"	= =	ص85
"تضرب عليه عامتهم بالسيف"	= =	ص72
"رفيع البيت في العلم والجاه"	= =	ص89
"معظما عند الخاصة والعامة"	= =	ص106
"مكبرا عند الخاصة والعامة"	= =	ص121
"فرضيته الخاصة والعامة وسرت به"	= =	ص179
"كان فرحون بن محمد بن فرحون أوسعهم جاها"	= =	ص236
"عن أبي المعالي أنه سأله في مجلسه رجل من العوام"	= =	ص247

"وأرضاهم عند الخاصة والعامة"	= =	ص274
"وتزاحم الناس على نعشه وكسروه على عادة العامة "	= = = =	ص344
"لإتباع الناس أهل الرياسة والظهور"	= =	ص355
"ثم استعفي منها سنة خمس عشرة إثر الهيج الكائن بها من العامة"	= =	ص 374
"شديدا على أهل الجاه وذوي السلطة"	= =	ص384
"و خدمته الأشراف"	= =	ص399
"معظما عند الملوك والخاصة"	= =	ص400
"فعقد مجالس للخاص والعام يقرئ فيها فنون من العلم"	= =	ص401
"أجمع على اعتقاده ومحبته الخاصة والعامة"	= =	ص420
"كان يحي بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني ذو منزلة شريفة عند الخاصة والعامة والسلطان"	= =	ص432
"مكبرا عند الخاصة والعامة"	= =	ج1،ص326
"ويسر الله له في ذلك فأعانه الخاصة والعامة "	**التنبكتي بابا أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989.**	ص 304
"مع التقشف وترك الدنيا والتواضع للخاصة والعامة"	= =	ص101
"غير أنهم سمعوا بسخيك عالما شريفا كبير القدر فلامك فيه الخاصة والعامة"	= =	ص439
"كان حسن الخلق والخلق غالي الهمة متواضعا معظما عند الخاصة والعامة"	= =	ص473
"كان حسن الأخلاق والهيئة عذب الفكاهة معظما عند الخاصة والعامة"	= =	ص582

"فخرج حينئذ الشرفاء"	**ابن الأحمر إسماعيل، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.**	**ص17**
فنزل من سادات الناس وجراثيمهم الجم الغفير"	= =	**ص23**
ويدعوهم العوام بنو هاشم على غير قياس"	= =	**ص43**
"ويخشى أن يبطش به العامة عند ذلك"	= =	**ص51**
"ثم إن الفقيه المذكور نادى بالعوام وقرأ عليهم كلام ابن العربي"	= =	**ص60**
"فثارت العامة"	= =	**ص60**
"وأما ما زعمه عوام مدينة فاس"	= =	**ص63**
"تولى الإمامة والخطبة بجامع القرويين بطلب العوام منه ذلك"	= =	**ص64**
"ولكن العامة مايرون الفضل إلا لمن يكثر الركوع والسجود والصيام"	**أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية.**	**ص191**
"وسبب هذا أن العامة لا يدركون إلا الأحوال الظاهرة ولا علم لهم بالأسرار الباطنية	= =	**ص192**
" وله أتباع كثيرة من الفقراء ومن عامة الناس"	= =	**ص237**
"وفي سنة تسع وستين وثمانمائة قامت عامة فاس وخاصتها على سلطانها"	**الونشريسي، وفيات الونشريسي، تح: محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر.**	**ص103**
"وذلك أن عامة فاس مدوا أيديهم إلى اليهود "	**أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ،1973.**	**ج1، ص51**

"وكان صديقا لمحمد القوري معظما عند العامة"	= =	ص 155
"لما قامت عامة مدينة فاس على السلطان عبد الحق المريني"	= =	ص211
"وهو المعروف عند العامة بفاس ..."	= =	ص357
"فتقدم زعماء العامة فضمنوه"	= =	ص350
"الحمد لله الذي تعرف لخاصتهم فنعمهم بما أشهدهم،... وتعرف لعامتهم بنعوته ففهمهم بالصفات والأسماء"	**عبد الواحد ابن الطواح، سبك المقال لفك العقال،تح: محمد مسعود جبران، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط2، 2007.**	ص67
"فاحتجب عن العامة بظلمة الأبدان	= =	ص103
"وإنما العوافي عند الخواص"	= =	ص112
"نحن نأدب العوام وأنتم تأدبون الخواص"	= =	ص143
"حيث المجالس غاصة بالعامة والخاصة"	**أحمد بن محمد المقري التلمساني ، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح :محمد النيقا و إبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ،1939.**	ص04
"حيث كان قعوده مع خواص الناس وعامتهم"	= =	ص40
"غير أن الرعاع في كل وقت واوان ،للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان"	= =	ص85
"وقد لهجت به الخاصة والعامة عجما وعربا"	= =	ج4،ص271
"وخفض الجناح، فأحبته العامة والخاصة"	**ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال.**	ج2، ص43
"وهو الذي ولى بعد عبد الحق لما قامت	= =	ص128

عليه العامة من أهل فاس"		
"شيخ من العامة له سند صحيح"	= =	ص237
"وهو الذي ثارت عليه عامة فاس"	= =	ج3،ص156
"فلما أن بلغ خبرها للعامة "	= =	ص158
"على حسب ما يذكر على السنة العوام"	**الشريف الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2004.**	ج1،ص07
"ولا يبعد من الحسدة والرعاع اللئام التفوه بمثل هذه الأكاذيب العظام"	= =	ص91
"وكان معظما عند الخاصة والعامة يعيدون إليه ويستشرونه في أمورهم"	= =	ص95
"أحد الأعلام المعلومين بالخير والصلاح عند الخاص والعام"	= =	ج2، ص19
"ولازال الناس يستشفون به من جميع الأمراض والعاهات وسائر العلل والآفات"	= =	ص19
"وكان ماهرا في ذلك بشهادة العامة والخاصة له"	= = = =	ص31
" ولهج به عامة أهل فاس كثيرا"	= =	ص32
"وهذا سيد عبد العزيز الورياغلي هو الذي ثارت العامة بفاس على يده "	= =	ص90
"يكرر المسألة الواحدة ثلاثة أيام أو أربعة حتى يفهمها الخاص والعام"	**ابن مريم المليتي المديوني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان.**	ص102
"والمشاركة المباركة للخاصة والعامة من هذه الأمة"	= =	ص105
" وحضر جنازة أحمد بن زاغوا العام	= =	ص107

والخاص"		
"كان له من القبول في قلوب الخاصة والعامة"	= =	ص129
"وكان المجلس فيه معنا جماعة من العوام"	= =	ص162
"دخل علينا إنسان من غنادر البادية وهياجعهم قاصدا الخيانة"	= =	ص170
"وذلك أن بعض الشياخ الكبار من العامة كان يخدم الشيخ"	= =	ص175
"وقال أبو مدين شعيب بفساد العامة تظهر ولاة الجوع، وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتانون"	= =	ص211
"وكان الشريف التلمساني يقرئ أولاد الأشراف والعظماء لعلو قدره"	= =	ص215
"والنصيحة في السياسة العامة والخاصة"	= =	ص251
" وكان مزوار الشرفاء بفاس"	= =	ص279
"بحضرة أكابر فقهاء فاس وخاصتهم"	= =	ص295
"ولا يخطئ المفسر، ولا ينفر العامة"	= =	ص297
"وغشي أشراف الدولة بابه وصرفوا له الوجوه "	= =	ص309
"وجعل الله حبه في قلوب العامة والخاصة"	= =	ص336
"فقد بلغت كرامته التواتر المعنوي واشتهرت بين العام والخاص اشتهارا عظيما"	= =	ص369
"ومنها فتح العلام لشرح النصح التام للخاص والعام لسيدي إبراهيم التازي"	= =	ص476

*المصادر النوازلية والفقه:

" ما جرى عليه العامة من الناس من ستر الموتى بالحرير"	**أبي العباس يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب.**	**ج1،ص341**
" وما عليه عامة الناس "	= =	**ج1، ص342**
"ذوي الجاه والسلطان تلبيسا منه على العامة أيضا"	= =	**ج4، ص506**
"ولقد أخبرني غير واحد عن رجل من العامة "	= =	**ج2، ص305**
"واطلاع العلماء عليه في السنة العامة "	= =	**ج2، ص551**
"وسأضع تأليفا مختصرا فيها لابد للعامة من اعتقاده بعبارة بسيطة "	= =	**ج3، ص88**
" فما ظنكم بالعامة الأغبياء"	= =	**ج3، ص86**
"وأما العامة أهل السوق فلا"	= =	**ج5، ص310**
"لأن الآخرين البانيين معلوم أنهما من عوام الناس ممن يجهل.."	= = = =	**ج6، ص212**
"حتى صار ذلك قطعيا عند العامة والخاصة"	= =	**ج7، ص306**
"متقرر عند الجماهير من العامة والخاصة"	= =	**ج7، ص309**
"ويعزل عن مجالس العامة والجمهور"	= =	**ج12، ص298**
"وحفظه الناس من العوام والخاصة"	**أبو الفضل راشد الوليدي، الحلال والحرام، تح: عبد الرحمن العمراني الإدريسي، وزارة الأوقاف المغربية، 1990.**	**ص26**

" لأن ذلك هو لخواص الأمة "	**أبي القاسم البرزلي، فتاوى البرزلي– جامع مسائل الأحكام– ط1، 2002**	**ج1، ص435.**
" إلا لضرورة لأنه عند العامة مما يتطرق لعرضه "	=	**ج1،ص 469.**
" وبعض العامة يأخذ خيطا ويديره و يثنيه ويجعله برقبته"	=	**ج1، ص533**
"يخاف مفسدته العامة"	=	**ج2، ص15.**
" ولم يتعلمه أن تنفر العامة منه "	=	**ج2، ص36**
"وهذا الذي فعله ابن حمدين هو الصواب الأسد في حق العامة والخاصة	=	**ج3، ص53.**
"فأدى الأمر إلى قيام العامة على ابن رشد ومن وافقه "	=	**ج3، ص 52**
"وأن العامة إذا اصطلحت على سكة أو كانت مغشوشة فلا تقطع"	=	**ج3، ص155.**
" فأما أن يبيع العامة وإلا رفع من السوق "	=	**ج3، ص203.**
" يعني المسائل التي يقضى فيها على الخاصة لمنفعة العامة "	=	**ج3، ص630**
" ما يقع فيه الخواص فضلا عن ذوي الجهالات من الأمراء وأتباعهم ،يزيدون في الأكرية لتقل مظلمته"	=	**ج3/ ص 632.**
"لبعض الأمصار في شيء من أمر العامة"	=	**ج4، ص 28.**
"وجميع الناس من الخاصة والعامة غيرهم يصفونه بالاعتدال من قرب الجانب على الضعفاء والتعطف عليهم"	=	**ج4،ص 40.**

"لأن عقول العوام لا تسع لقبول المعقولات "	**نور الدين غرداوي، دراسة وتحقيق؛ ج4، كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة،رسالة دكتوراه،جامعة الجزائر،2011.**	**ج4، ص283**
"فأكثر ما يحرثون عند غيره من العامة لان العامة يوظفون على الحارثين في بلادهم وظائف كثيرة "	= =	**ج4، ص 24.**
"وليس هناك شهود غير العامة ولكنهم جمع غفير، والعلم فاشي عند العامة والخاصة"	**أبو زكريا المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة،تح: مختار حساني.**	**ج2، ص 114**
"فقال مشيت بالليل كما يفعل العوام"	= =	**ج4، ص353**
"أنا اليوم عديم ويعرف عني الخاص والعام ولاملك إلا مالي"	= =	**ج3، ص353**
"أنه المكان الذي نصبه الإمام للعامة ويكفيه هذا القدر"	= =	**ج3، ص91**
"استعنت ببعض عوام الأعراب الحاكمين علينا"	= =	**ج2، ص150**

*__المصادر الجغرافية والرحلات__ :

"وعامتهم جاهلية الطباع"	**أبي عبد الله العبدري، رحلة العبدري.**	**ص44**
"وصحب جلة من أهل زمانه "	**ابن غازي العثماني المكناسي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون.**	**ص66**
" أما نساء العامة والفقراء فيتخذن تلك الحلي من الحديد أو النحاس"	**الحسن الوزان، وصف إفريقيا.**	**ص110**
"ويوجد من بين السكان أشراف كثيرون تخضع لهم العامة جميعا"	= =	**ص111**
" وتحكي العامة أنه ما مرت سمكة "	= =	**ص114**

"يسكنها جمهور غفير من الناس"	=	=	**ص148**
"فلم يرد العامة أن ينحازوا إلى أي فريق"	=	=	**ص169**
"أما الآن فأصبح الملوك يكلونها إلى أناس عاميين و جهال"	=	=	**ص251**
"وأما عامة الناس فيلبسون السترة والبرنس"	=	=	**ص252**
"وليس للعامة سرير سوى حصير من أسل"	=	=	**ص07**
" ولباس العامة كذلك"	=	=	**ص57**

*مصادر التاريخ العام:

"لو يردوهم عن شرفهم ذلك سوقة و وضعاء"	**عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة**	**ص37**
"في معارف الخاصة والعامة"	=	=	**ص51**
" ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب"	=	=	**ص421**
"إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك ،وان العلماء يحبونك ويكرمونك"	**ابن الأزرق/ بدائع السلك وطبائع الملك**	**ص362**
"أطلب العلم تعظمك الخاصة، وأطلب الكمال تعظمك العامة"	=	=	**ص362**

*بعض الملاحظات:

إعتمادا على المعطيات التي تم استقرائها لمصطلحي"الخاصة والعامة"من مختلف متون المصادر التاريخية التي عنت بواقع مجتمع المغرب الإسلامي خلال مرحلة البحث، وأشارت أحيانا إلى ذلك الفارق الطبقي بين فئات المجتمع، سنصطفي بعض الملاحظات الهامة:

فيما يخص كتب المناقب والتصوف التي عنت بالكتابة عن فئات المجتمع من خاصة وعامة، نقول أن مؤلفي هذه الكتب كان مبتغى كتابتهم تدقيق و إبراز الاختلافات بين شريحة الخاصة والعامة داخل عالم الصوفية في إطار ما يمكن تسميته بالمفهوم الصوفي. أي أن هؤلاء الصوفية أحدثوا تمايز بينهم وبين غير المنتمين لعالمهم. فهم من "خاصة الخاصة" لما تميزوا به من خوارق وكرامات، ونفس الشأن بالنسبة للمريدين الذين وصفوا أحيانا بلفظ"الفقراء" فقد صنفوا بدورهم ضمن طبقة الخاصة وأعلى درجة من العامة الذين لم يتجاوزوا مراتب معينة من العلم والزهد.

والظاهر أن مؤلفي كتب الطبقات والتراجم من علماء وفقهاء كانوا يعدون من مثقفي عصرهم إذن فهم مبدئيا ينتمون إلى الطبقة الخاصة، وتفسير ذلك المكانة المرموقة التي حظوا بها داخل البلاطات والقصور السلطانية. إذن فما وجد من مصطلح"عامة"في كتبهم لا هو دليل على نظرتهم لغير العلماء مثلهم. فكثيرا ما كانوا يستعملون مصطلح"عامة " أو أحد مرادفاتها كالجهالة أو الرعاع أو الدهماء للأشخاص الغير متعلمين.

ويبدو أن مؤلفي المصادر النوازلية كان هدفهم من تخصيص مصطلح"العامة" في الكثير من القضايا النوازلية لأجل إظهار حكم الشرع في المسائل المختلفة التي حلت بأفراد المجتمع الغير الملمين به، لذا كان مصطلح العامة هو السمة البارزة في مسائلهم، وذلك لجهل العامة من المجتمع بأمور الشرع على خلاف الطبقة الخاصة من علماء وفقهاء العارفين بخبايا الشرع الإسلامي من معاملات وعبادات.

أما مؤلفي المصادر الجغرافية وكتب الرحلات فأظن أن استعمالهم لمصطلح العامة والخاصة في كتاباتهم كان من منطلق ما شاهدوه، وعاينوه من أوضاع اقتصادية واجتماعية أثناء رحلاتهم، فجاء ذكرهم لمصطلح العامة والخاصة مبني على مفهوم أظنه مادي، لسبب وهو الكشف عن فوارق

المستوى المعيشي بين الأشخاص من منطقة لأخرى أو داخل المنطقة الواحدة. فمثلا نجد الحسن الوزان أثناء رحلته إلى إفريقيا يصف لنا شعوب بعض المناطق التي زارها ويذكر لنا بعض الفوارق في المستوى المعيشي بين الخاصة من الأغنياء الميسورين مقابل العامة التي تكونت من الفقراء والمساكين.

في حين اتسمت مؤلفات التاريخ العام برصدها لطبقة العامة والخاصة في متونها على أساس المفهوم السياسي أي التفضيل بين خاصة السلطان وحاشيته وبين غوغاء وسوقة العامة التي تعتبر في نظرهم مصدرا للفساد والفتن وقيام بعض حركات التمرد في المجتمع ضد السلطة.

وعموما يمكن القول بأن مجمل المؤلفات التي دونت في مؤلفاتها مصطلح"الخاصة والعامة" بمختلف مفاهيمها السياسية، والعلمية، والصوفية، والمادية خلال مرحلة البحث، أشادت بالطبقة الخاصة في حين تغاضت وتناست شريحة العامة بل نعتتها بأحقر النعوت كالجهالة والأوباش والدهماء وغيرها من الأوصاف الذليلة التي عادة ما تلصق بالفقراء الضعاف.

2: التراتبية الاجتماعية في مجتمع المغرب الإسلامي:

بحكم أن المجتمعات الثلاث (الزيانيين والحفصيين والمرنيين)، عرفوا تشابها كبيرا في مختلف أوجه حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذا الفكرية والثقافية، بالإضافة إلى تماثل البيئة الجغرافية من تضاريس ومناخ، ووحدة الدين واللغة اللذين ساهما في التمازج العرقي والديني بينهم، إذن هي معطيات ومعايير توحي بأن التراتبية الاجتماعية داخل مجتمع المغرب الإسلامي كانت متشابهة.

ونظرا لبساطة التقسيم التقليدي الذي سبق وأشرنا إليه "خاصة"و"عامة" فقد اعتمد بعض المؤرخين على معايير لتقسيم المجتمع: كالتقسيم الخلدوني الذي قسم فئات المجتمع إلى قسمين: فئات تنتمي إلى المجتمع الحضري تتضمن الطبقة الخاصة والعامة، وفئات تنتمي إلى المجتمع البدوي بدورها هي الأخرى تحتوي على طبقة الخاصة والعامة. إلا أن تقسيمه هذا اعتمد فيه على معيار الجاه الذي يعرفه با" القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم"[1]، كما يرى فيه"بأنه المركز في تحليل البناء الاجتماعي والعلاقات بين فئاته. "فالخاصة"هم أصحاب الجاه و"العامة" هم فاقدوه[2]، ويظهر أن قرب وبعد أي فرد من المجتمع من الجاه الذي يمثل السلطة السياسية الحاكمة، والوظائف الرسمية التابعة لها هو الذي يحدد أساس التفاوت الطبقي داخل المجتمع، وما يعزز الطرح أكثر قول ابن خلدون" ثم إن الجاه متوزع في الناس ومرتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية، وفي الأسفل إلى من لا يملك ضرا ولا نفعا بين أبناء جنسه، وبين ذلك طبقات متعددة"[3]، وإلى جانب الجاه يرون مؤرخين آخرين أن تقسيم المجتمع يخضع كذلك إلى معايير أخرى كمعيار الدين والعرق، ثم معيار العلم والمعرفة أو حسب امتلاك الحرية أو فقدانها[4].

1-المجتمع الحضري:

1- ابن خلدون، المقدمة، ص372.

2- صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، ص 380.

3- ابن خلدون، المقدمة، ص371.

4- إبراهيم جدلة، المجتمع الحضري بافريقية في العهد الحفصي، ص117.

من الطبيعي أن يكون المجتمع الحضري مابين القرنين (7-9هـ/13-15م) غير متجانس نظرا لطغيان التمايز الاجتماعي، واختلاف أشكاله ومظاهره وعليه سنذكر أهم فئاته:

ا: الطبقة الخاصة

1-مفهومها:

ويدخل ضمنها كل من يمكن اعتباره من وجوه المجتمع انطلاقا من الطبقة الحاكمة مثل: السلطان مرورا برجال دولته كالوزراء والولاة وطبقة العلماء والفقهاء، وانتهاء بمن له حق أو منفعة مثل طبقة الأشراف أو كبار التجار. وهم عادة ما يكونون من عصبية واحدة[1]، إذ أن ابن خلدون لا يرى رياسة بدون عصبية[2].

ذكرت بعض المصادر في عدة مواضع من متونها صورة عن خصوصيات الطبقة الخاصة مبرزين العناصر الاجتماعية التي تتكون منها تلك الطبقة وواصفين إياها تارة "بالحاشية" وتارة "بالبطانة " فما هي إذن بنية الطبقة الخاصة بالمغرب الإسلامي؟.

2: أصناف الخاصة:

1-السلطان:

يحتل السلطان قمة الهرم الاجتماعي، ويتمتع في نفس الوقت بنفوذ مطلق على المستوى السياسي، فهو الذي يعين أعوانه، وهو الذي يعزلهم حسب هواه، واختلفت تسميات رئيس الدولة من دولة إلى أخرى، فنجد خلال العهد الحفصي لما استبد أبو زكريا بالأمر" تلقب بالأمير ورسم علامته في صدور مكتوباته"[3].

---

[1] -عطا الله دهينة، الحياة الاقتصادية لدولة بني زيان، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 489.

[2] - ابن خلدون، المقدمة، ص136.

[3] - ابن خلدون، العبر، ج6، ص381.

أما ابنه المستنصر فحمل لقب الأمير ثم بأمير المؤمنين في آخر خمسين وستمائة[1]، وهو أول من نعت باسم السلطان[2]، الذي أصبح مستعملا بكثرة بداية من عهد أبي عمرو عثمان والذي نعت هو الآخر بتسمية "ملك" و"مولاي" أي منذ نهاية القرن الثامن الهجري[3]، كما جاء في قول الشاعر أبو العباس أحمد خلوف:

مَولَايْ عُثْمَانْ اَلمَلِيْك اَلمَالِكْ *** اَلعَدْلُ الحَلِيمُ الكَاملُ الإنْسَانُ

مَلكُ إِذَا هزَّ الحُسَامُ بكَـــفه *** خَرَتْ لَبَـــارقُ رَعْده الخَرَصَـــانُ[4]

وجاء ذكر يحي بن خلدون في شأن السلطان الزياني "وعلا بها صيت الدولة العبد الوادية بمصيرها إلى أخيه أمير المسلمين أبي يحي يغمراسن بن زيان"[5]، إذ هو الآخر تقلد منصب أمير المسلمين، فكان يغمراسن بن زيان يظهر تأثيره على كامل فئات المجتمع حسب قول صاحب العبر" وكان مرموقا بعين التجلة مؤملا للأمر عند المشيخة، وتعظمه من أمره عند الخاصة، ويفزع إليه في نوائبه العامة"[6]وجاء ذكره في موضع آخر" ورأى يغمراسن أن أحيط بالبلد... ملتفا على ذويه وخاصته"[7].

أما المرينيين، فاكتفوا في بداية دولتهم بلقب الأمير مثل الحفصيين ثم استعاضوا عنه بلقب أمير المسلمين الذي أتخذه عثمان بن عبد الحق، ثم أطلق المرينيين اسم السلطان على أميرهم يعقوب بن عبد الحق والد يعقوب المنصور عند فتح مراكش، وكان ذلك أول من أشتهر بهذا اللقب بالمغرب، حيث كان اللقب الرسمي لدى الموحدين هو لقب الخليفة[8].

---

[1] -ابن قنفد القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص117.

[2] - روبار برونشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي –من القرن 13الى القرن15م–، ج2، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988، ص 13.

[3] - المرجع نفسه، ص14.

[4] - شهاب الدين ابن خلوف، ديوان شهاب الدين ابن خلوف، تح: هشام بوقمرة، الدار العربية للكتاب، تونس، 1988، ص 124.

[5] - يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص220.

[6] -ابن خلدون، العبر، ج7، ص106.

[7] - المصدر نفسه، ج7، ص108.

[8] -ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، صص133-134.

أما عن الترتيبات السلطانية التي كان يجريها السلاطين لتنظيم وتقويم شؤون دولهم، فكانت تقريبا متشابهة ماعدا بعض الاختلافات الصغيرة.

2- الحجاب والوزراء:

يقول ابن خلدون أن منصب الحاجب كان مجرد قهرمان[1] خاص بدار السلطان أي كانت بمثابة وظيفة من وظائف القصر يسمى صاحبها بالقهرمان مهمته التصرف في أمور النفقة الخاصة ببيت الأمير، ثم تطور حتى أصبح يعني الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وأهل دولته لا يشاركه في ذلك أحد[2] فأصبح الحاجب همزة وصل بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم"جمع السلطان له... السيف والحرب ثم الرأي والمشورة؛ فصارت الخطة أرفع الرتب و أوعبها للخطط..."[3]، وورد في الأثر حول أهمية خطة الوزير والحاجب"ومثل السلطان كالدار والوزير بابها، فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها انزعج"[4]، وكان مسمى الحجابة خلال هذه الفترة بقهرمة الدار والنظر في الدخل والخرج"[5].

وعرف ابن خلدون الوزارة في قوله"هي أم الخطط والرتب الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة "[6]، وكانت مهام الوزير والحاجب تختلف من دولة إلى أخرى، فالوزير في الدولة الحفصية كان واضح المهام متعدد الاختصاصات، لأن الدولة الحفصية كانت أركانها متوطدة في الملك، مقارنة بالدولة الزيانية والمرينية الفتية النشأة، ففي بداية العهد الحفصي كانت رتبة الوزير مخصصة لوزير الجند دون غيره حسب تعبير ابن خلدون على أنه المكلف بأمور "حماية الكافة وأسبابها مع النظر في الجند

[1] - قهرمان: شخص يعتبر كمساعد أيمن للسلطان وعتاده وأمين سره ومناجيه وهو من القادرين على جلب المنفعة ودفع الضرر عن السلطان.ينظر/ ابن خلدون، المقدمة، ص233.

[2] - المصدر نفسه، صص233-234.

[3] - ابن خلدون، المقدمة، ص233.

[4]- الأبشيهي شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح: المستظرف في كل فن مستظرف، مراجعة وتعليق: محمد سيد، ج1، دار بيروت ،ط1، 2001، ص 163.

[5] - ابن خلدون، العبر، ج7، ص107

[6] - ابن خلدون، المقدمة، ص 229.

والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة"[1]، وكأمثلة عن بعض الوزراء الذين اتخذهم أبو زكريا يحي نذكر: ميمون بن موسى الهنتاتي وأبو يحي أبو العلا بن جامع و أبو العلا إدريس ابن جامع و أبو زيد بن محمد بن جامع[2].

وأكدت المصادر التاريخية أن منصب الحجابة ظهر في عهد أبي إسحاق، وكان أول من تولاها الأندلسي أبو القاسم بن الشيخ[3]، وأن الفصل بين منصب قهرمان القصر والحجابة لم تقع إلا في أواخر عهد أبي حفص وبوصول أبي بكر للحكم أصبح الحاجب عبارة عن وزير أول[4].

أما العهد الزياني فقد عمل السلطان يغمراسن على"إتخاذ الوزراء والكتاب"[5]، وبالمثل عمل السلطان أبو تاشفين" فقلد حجابته مولاه هلالا"[6]، إلا أن ما يعاب على سلاطين بني عبد الواد أنهم كانوا يدمجون صلاحيات الوزير والحاجب معا حسب هواهم على حد قول ابن خلدون" وأما دولة بني عبد الواد فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها، وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره"[7]. ومن وزرائه الذين تقلدوا المناصب نذكر منهم: يحي بن مجن ثم أخوه عموش ويعقوب بن جابر الخرساني، ومن حجابه الفقيه عبدون بن الحباك من فقهاء الحضرة حاجبا للسلطان يغمراسن[8].

لعب الحجاب والوزراء دورا هاما في عهد بني مرين وخصوصا في أيام المتأخرين منهم، ولم يكن لفظ الحاجب شائعا بينهم بل كانوا يلقبونه بالمزوار[9]، وكان إلى جانب قيامه بتنظيم الاستقبالات يرأس

---

[1] – ابن خلدون، المقدمة، ص229.

[2]– ابن قنفد، الفارسية، ص 115/ الزركشي، مصدر سابق، ص26.

[3] – روبار برانشفيك،ج2، مرجع سابق، ص54.

[4] -المرجع نفسه، ج2، صص 54-56.

[5] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص106.

[6] – المصدر نفسه، ج7، ص142.

[7] – ابن خلدون، المقدمة، ص 234.

[8] – ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص226.

[9] – كانت وظيفة المزوار من أهم الوظائف داخل الجهاز الإداري للدولة، فقد كان كنائب ملك أو قائد عام يجند الجنود ويؤدي لهم الأجور، ويعفيهم عند الاقتضاء، ويمنح وظائف البلاط الملك، وكان يعتبر كأنه الأمير نفسه / ينظر: كربخال، مصدر سابق، ص301.

الجنادرة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وإنزال سطواته وحفظ المعتقلين في سجونه[1].

وكان الحاجب يقوم بمهام استثنائية كتوليه الأمور الحربية مثل ما فعل الحاجب عامل بن فتح الله السدراتي الذي قادا حامية سبتة سنة(728هـ/1431م)[2]، ومحمد بن عمرو حاجب أبي عنان الذي افتتح بجاية، وكان قد جمع بين عدة اختصاصات كحاجب وسفير وصاحب العلامة ورئيس ديوان الجند[3].

كان وضيف الوزير أرقى رتبة من الحاجب، وكان للوزراء اجتماعات مع السلطان داخل القصر وتحت إشرافه، وزودتنا متون المصادر بأسماء بعض العائلات تولى أفرادها منصب الوزارة على التوالي كعائلة الفودودي، ومن بين وزرائها عيسى بن ماسي وزير يعقوب بن عبد الحق، والحسن بن عمر وزير أبي عنان، ومن عائلة الياباني التي برز منها الوزير عبد الله بن علي وغيرهم من الوزراء[4]. كان للوزراء سلطة واسعة، فكانوا يجمعون بين الشؤون المدنية والعسكرية في غيبة السلطان خاصة، وكان لبعض السلاطين ثقة مطلقة في وزرائهم، حتى كانوا يدخلون قصورهم ويخالطون حريمهم من غير استئذان. ولم تكن للوزراء مهام ثابتة، فكانت تتغير حسب رغبة السلطان المريني، أو حسب قوة نفوذ الوزير، فقد كان هناك وزراء يقومون بدراسة الشكايات، ووزراء يشرفون على ديوان الجند، أو يكلفون بالشؤون المادية[5].

3- الكتاب:

---

[1]- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص234/ ينظر: إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000، ص104.

[2] -السلاوي، ج3، ص115.

[3] - ابن خلدون، العبر، ج7، ص 606.

[4] - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص 104.

[5] - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص105.

عرفها بعض الباحثين "بأنها قوام الخلافة وقرينة السياسة وعمود المملكة"[1]، ويحدد بن خلدون مهام صاحب خطة الكتابة بقوله"...وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه...وأعلم أن صاحب هذه الخطة لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة؛ فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض من مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم... مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام والبلاغة وأسرارها"[2]. من خلال النص الخلدوني نلاحظ أن صاحب هذه الخطة يجب أن تتوفر فيه شروطا منها البلاغة والائتمان على الأسرار، والمروؤة والبراعة في الكتابة.

ونظرا لأن الحفصيين من البربر فإنهم لم يشترطوا فيها النسب، لذلك تعاقب على هذه الخطة كثير من الأندلسيون وذلك لبراعتهم في الكتابة[3]، واعتبروا الكُتَاب النخبة من بين المثقفين[4]، وعموما شملت هذه الخطة أساسا بعض الأدباء والفقهاء والقضاة مثل: ابن الآبار والقاضي ابن الغماز وأبو عبد الله التيجاني، وأبو عبد الله بن علي بن عمر العبدري و أبو زكريا يحي الكومي وغيرهم يصعب تعدادهم[5].

ويبدو أن أصحاب هذه الخطة نالوا الحظوة الكبيرة كذلك لدى سلاطين بني زيان، فهذا الأمير الزياني يغمراسن بن زيان اتخذ من أبي بكر بن الخطاب كاتبا له على حد قول بن خلدون" فاستكتبه"[6] رغم أنه أندلسي الأصل، وسار بقية سلاطين بني عبد الواد في اتخاذ الكتاب فنجد على سبيل المثال السلطان أبي سعيد كان كاتب إنشائه الفقيه العارف أبو عبد الله محمد بن عمر بن

---

[1] – إبراهيم جدلة، مرجع سابق، ص 137.

[2] – ابن خلدون، المقدمة، ص238.

[3] –روبار برانشفيك، مرجع سابق، ج2، ص 65.

[4] – غازي مهدي جاسم الشمري، دراسات في النظم الإسلامية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2002، ص 123.

[5] – روبار برانشفيك، مرجع سابق،ج2، ص65.

[6] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص106.

خميس، السلطان أبي حمو كان كاتبه محمد بن عبد الزواق السلطان أبي تاشفي ولى كاتبه الفقيه أبا عبد الله بن مدورة[1].

وبالمثل أخذت الكتابة مكانة كبيرة لدى المرينيين وسارت على نفس النهج الذي كانت عليه في عهد الموحدين، إلا أنها ارتقت وعظمت وكثرت لاتساع فروع الإدارة وحاجات الدولة، كما أصبح لها رئيس ينظمهم و يوجههم أسلوبا وإدارة[2].

ومن الدواوين الرئيسية التي كانت موجودة نجد: ديوان الجند والعساكر، وديوان الرسائل، وديوان الخراج، وامتازت الكتابة خلال هذه الفترة بطولها وتهويلها، وكان كثيرا ما يكون هذا المنصب الحساس طريقا إلى تقلد منصب الوزارة، وهي الأخرى تمركزت في عائلات منها: عائلة ابن أبي مدين التي تولى منها أبي عبد الله بن مدين كاتبا ليعقوب المنصور، كما تولاها الحاج محمد بن أبي مدين وأخواه القائم و القصري في عهد سليمان بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق[3] ، وكانت أرفع الرتب لدى السلطان رتبة كاتب العلامة، وممن تولاها محمد بن أبي عمرو في عهد أبي عنان، وأبي الفضل عبد الله ابن مدين أيام أبي الحسن، وأبرزهم عبد المهيمن الحضرمي الذي تولى العلامة لأبي الحسن المريني[4].

4- القضاة:

كان للقضاة منزلة اجتماعية مرموقة داخل مجتمع المغرب الإسلامي، نظرا للمهام التي أصبحوا يزاولونها من الفصل في الخصومات وتكليفيهم أحيانا بالصلاة والخطابة في المساجد، والإشراف على الأماكن الدينية وعلى أموال الغائبين والمفقودين، وولاية الحج وأخذ البيعة للخليفة، ومصاحبة الجيش في الحروب على حسب قول بن خلدون "استبقاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجوز عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج

1- يحي بن خلدون، البغية،ج1، صص 235،230، 239.

2 - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص125.

3 - ابن الأحمر، روضة النسرين، صص23-24.

4 - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص126.

الأيامى عند فقد الأولياء...، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم..."[1]، كلها أمور عملت على توطيد مكانتهم إلى جانب السلطة الرسمية الخاصة، على حسب قول صاحب المعيار "العيون إليه مصروفة ونفوس الخاصة والعامة على الاقتداء بهديه موقوفة"[2].

ويعود تنظيم خطة القضاء بافريقية إلى بداية العهد الحفصي إذ عين قاضي الجماعة بتونس، قاضي القضاة بالقيروان ثم المهدية، ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن بعض القضاة كانت لهم شخصية قوية جلبت لهم احترام وتقدير بعض السلاطين الذين خضعوا لأحكامهم، مثلما فعل أبو العباس أحمد ثم أبو فارس على الخضوع لأحكام القاضي أبي عيسى الغبريني[3].

ويبدو أن سلطة القاضي في الدولة الزيانية كان لها وزن كبير، فبسبب انشغال الأمراء الزيانيين بالسياسة فإنهم فوضوا وعينوا قضاة على الأقاليم الزيانية للفصل في الأمور القضائية والدينية، بسبب معرفة القاضي بأمور الشرع، وعرف المكان الذي يجتمع فيه القاضي بالخصوم باسم" مجلس الحكم". ومن القضاة الذين ذاع صيتهم في عهد يغمراسن الفقيه أبي الحسن علي بن اللجام، ثم أبي عبد الله محمد الدكالي، ثم الفقيه أبو عبد الله بن مروان وغيرهم من القضاة الذين خلد اسمهم في دولة بني زيان[4].

والظاهر أن أصحاب خطة القضاء بالمغرب المريني نالوا حظوة كبيرة لدى سلاطينهم، فمثلا هذا السلطان أبو الحسن أسس بسبتة مجلسا للمظالم يترأسه بنفسه سمي بقبة العدل[5]، وكان للقضاة رئيس أكبر يدعى قاضي القضاة، ومن القضاة نذكر: أبو الحسن المغيلي وإبراهيم اليزناسي، والرحالة المشهور ابن بطوطة الذي تولى خطة القضاء بتامسنا بعد عودته من رحلته[6].

[1] – ابن خلدون، المقدمة، ص 216.

[2] –الونشريسي، المعيار، ج10، ص76.

[3] – إبراهيم جدلة، مرجع سابق، صص151-153.

[4] – رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في التاريخ، ص 469.

[5] –قبة العدل: أسسها أبو الحسن المريني في كل من مدينة سبتة وتلمسان لسماع الشكايات حينما يكون متواجدا بإحدى المدينتين / ينظر: محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص82.

[6] – إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص 110.

ومن مناصب القضاء عند المرينيين، قاضي الجماعة وقاضي العساكر، وكان لا يتدخل الحاكم الإداري في شؤون القضاء[1].

5-صاحب الشرطة:

هذه الخطة تعتبر من الخطط السلطانية المهمة في الدولة، وكان متولوها من حاشية السلطان فابن خلدون يعرفها بأنها "وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول، توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا فيجعل للتهمة في الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، ويقيم الحدود الثابتة في محالها، ويحكم في القَوَدِ والقصاص، ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة"[2].

الظاهر أن صاحب هذه الخطة كان يسمى خلال هذه الفترة بافريقية بالحاكم لأن حكمه كان ساري التنفيذ في معظم الأحيان، ولكن فقط على الفئات العامة الفقيرة حسب تعبير بن خلدون" ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس، إنما كان حكمهم على الدهماء، وأهل الريب، والضرب على أيدي الرعاع..."[3]، وكان صاحب هذا الوظيف يتولى مسؤولية كبيرة داخل مجتمع المغرب الإسلامي، إلا أن المعلومات الموجودة عن هذه الفئة نادرة جدا، فنجد خلال العهد الحفصي أشار الزركشي إلى وجود دار صاحب الشرطة[4].

أما في العهد الزياني، فقد أمدتنا بعض المتون المصدرية إشارات قليلة عن هذه الفئة من الحاشية السلطانية في مجتمع المغرب الأوسط، فمن خلال ترجمة ابن خلدون للعالم أبي محمد المجاصي، ذكر أن الحرس اعتوروا شخصا أتهم بتلطيخ ثوب هذا العالم، فأوصلوه إلى صاحب الشرطة[5]، وهو أمر يدل على المهام التي كلف بها لحفظ الأمن ونبذ الفوضى وتقويم الإعوجاج الأخلاقي والإجتماعي.

---

[1] – إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص109.

[2] – ابن خلدون، المقدمة، ص216.

[3] – المصدر نفسه، صص 241-242.

[4] – الزركشي، تاريخ الدولتين، ص41.

[5] – يحي ابن خلدون، مصدر سابق، ص142.

كما أشار أبو حمو موسى الزياني في كتابه الموسوم با"واسطة السلوك "إلى هذه الخطة وصاحبها الذي كان يسمى "بالحاكم"، ويمكن التعرف على مهامه من خلال الوصايا التي أدلى بها أبو حمو موسى الزياني لابنه في قوله "ثم يدخل صاحب شرطتك وحاكم بلد حضرتك ليخبرك بما يزيد في ليلتك حتى لا يخفي عليك شيء من أحوال رعيتك وبلدك، مع ضبط مملكتك فتسأله عن القليل والكثير والجليل من الأمور والحقير لئلا يتوصل أهل العناية للرعية بالمضرة و الإذاية، ولا يقع مع الحاكم جور في البلد ولا ظلم لأحد"[1]، كما أوصاه أن يتخير صاحب شرطته بأن يكون"صاحب دين وعفة وصيانة وهمة ومكانة وسياسة ورياسة ورأي وفراسة..."[2].

ويبدو أن المعلومات الواردة في حق أصحاب هذه الخطة بالمغرب المريني قليلة جدا مثلها مثل المغربين الأوسط والأدنى، وقد أفادنا بعض المؤرخين بوجود شرطة خاصة بالضواحي يستقر صاحبها بالمدينة[3].

6-الأشراف والوجهاء:

إن الدارس لموضوع الشرف في بلاد المغرب الإسلامي، يلاحظ تشابه المعطيات، ففيما لاشك فيه أن الشرفاء لم يقتصر وجودهم على قطر دون الآخر[4]، وتعتبر صفة الشرف الشكل الوحيد للنبالة الوراثية في الإسلام باعتبار أصحابها من آل بيت رسول الله ورثوا هذا الامتياز أبًا عن جد[5]. لذا حرص أفراد مجتمع المغرب الإسلامي على ضبط أنسابهم والتفاخر بها، حيث كان النسب المشهور

[1] - أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص147.

[2] - المصدر نفسه، ص 148.

[3] -السلاوي، ج3، ص164.

[4] -عمر بلبشير، جوانب من الحياة الاجتماعية الاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط الأقصى من القرن(6- 9هـ/12-15م) من خلال كتاب المعيار للونشريسي، أطروحة دكتوراه في التاريخ الاسلامي، جامعة وهران، 2009-2010، ص123.

[5] - روبار برانشفيك، مرجع سابق، صص155، 169.

معيارا للتصنيف الاجتماعي فقد قيل أن معرفة النسب "فيه شرف...وبه تحفظ مراتب الكرام... فلولا معرفة النسب لما عرف شريف ولا مشروف"[1].

تجلى الاهتمام بهذه الشريحة بظهور الكيانات السياسية الثلاثة، وذلك اعتبارا لما لهذه الشريحة من دور فعال في دعم هذه الدول وتحصينها من الداخل لمواجهة بعض الانزلاقات السياسية وكذا الاجتماعية داخل المجتمع، وهو ما نلحمه في تزكية وصول المرينيين إلى الحكم مكانة الشرفاء وتعظيمهم، كسند يسندهم في صراعهم ضد بني عبد الواد والاستقلال عن الحفصيين، وصراعهم الداخلي بتحصين الدولة ضد أشكال الخوارج المعارضين ذوو المنطلقات الدينية، إضافة إلى توطيد صلاتهم بالشرفاء وجعلهم همزة وصل بينهم وبين المجتمع الحضري في فاس خاصة، الذي كان يكن احتراما للشرفاء بلغ درجة التقديس[2].

وما يعرف أن المرينيين عملوا على توطيد حكمهم من خلال مبايعة الأشراف لهم[3]، حتى أنهم أشركوهم في حملاتهم العسكرية بالأندلس خلال فترة حكم السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق(656-685هـ/1269-1286م)، الذي أخذ معه كبير الأشراف الجوطيين[4] بمكناسة تبركا وتيمنا به، ولتأكيد الحظوة التي نالها الأشراف لدى السلطة وباقي أفراد مكونات المجتمع المرييني، أصبح السلاطين المرينيين يحتفلون بعيد المولد النبوي الشريف لاستقطاب الشعور الشعبي نحوهم[5]، ومن المظاهر المختلفة التي بينت مرتبتهم ومكانتهم الاجتماعية مع أصحاب الطبقة الخاصة، يذكر أنهم كانوا في مقدمة المخاطبين في الرسائل الرسمية حيث نعتوا في بعضها بعبارات التبجيل والتقدير

---

[1] – محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/14-15م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة محمد الخامس، الرباط، غير منشورة، 2000، ص 169.

[2] – محمد ياسر الهلالي، مرجع سابق، ص 172.

[3] – المرجع نفسه، ص173

[4] –يعد الأشراف الجوطيين من أهل البيت الشريف من ذرية أبناء الإمام إدريس بن عبد الله الكامل./ ينظر: ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص151/عمر بلبشير، مرجع سابق، ص 124.

[5] – إبراهيم حركات، " **الحياة الدينية في العهد المريني** " **مجلة البحث العلمي**"، السنة 16، ع/29-30، 1979م، ص221.

والاحترام"كالشرفاء المعظمين الأجلاء والفقهاء المكرمين"[1] إلى جانب توليهم العديد من المناصب السلطانية الهامة كوزراء وكتاب وقضاة وسفراء"[2].

تلقى الأشراف والوجهاء حفاوة واحترام من قبل السلطة، حتى أن السلطان أبا سعيد عثمان بن أبي يوسف المريني خرج حافيا لاستقبال أحد شرفاء الحجاز وهو سيدي محمد الهادي بمكان يعرف بعقبة الحفاء من ظاهر خولان[3]، وكان السلطان أبو عنان وأعضاء مجلسه يقفون وقفة تبجيل و احترام عند استقبالهم لمزوار الشرفاء[4].

وكان للأشراف في العهد الحفصي جاه ومكانة مرموقة بين سائر الطبقات الأخرى لدى السلطة، خاصة منذ القرن السابع هجري (13م) نظرا للتعظيم والتبجيل الذي يلاقونه من طرف أفراد المجتمع، ففي عهد السلطان الحفصي المستنصر كان أبو سعيد بن أبي زيد شيخ الموحدين"معتقدا في بيت الشرف معظما للشرفاء"[5]وكان السلطان أبو إسحاق قد رتبهم في زمام الموحدين وأثبتهم معهم في العطايا[6].

وقد كانت تلك الرعاية مرتبطة ارتباطا واضحا بتزايد تعظيم شخص الرسول عليه الصلاة والسلام وانتشار عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في إفريقية، وأثناء تلك الاحتفالات بالضبط أشارت المصادر إلى الهبات التي كان يمنحها أبو فارس إلى مزوار أو نقيب الأشراف[7]، فهذا أبو يحي أبو بكر"حوزهم الرباع وملكهم إياها فاقتسموها بينهم"[8].

---

[1] – ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، الرباط، ط1، 1990، صص 315، 481.

[2] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، صص 298، 342.

[3] – الكتاني، سلوة الأنفاس، ج3، ص23.

[4] – أحمد المقري التلمساني، تح: إحسان عباس، ج5، ص281.

[5] – ابن قنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص133.

[6] –ابن الشماع، مصدر سابق، ص89.

[7] – روبار برانشفيك، ج2، مصدر سابق، ص170.

[8] –ابن الشماع، مصدر سابق، ص89.

وعلى غرار المرينيين والحفصيين حظي الأشراف باحترام كبير لدى سلاطين الدولة الزيانية، لكن ليس بنفس القدر المماثل، ففي أخبار الشرفاء بالمغرب الأوسط تذكر المصادر التاريخية أن مدينة تلمسان عرفت فئة الأشراف الحسنية من أبناء سليمان بن عبد الله بن الحسن[1]، هذه العائلة التي صاهرها السلطان أبا حمو موسى الزياني بتزويج ابنته للعالم أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني حسب قول صاحب العبر "وزوجه ابنته وذلك لنسبه الشريف"[2].

وبالمثل حرص السلاطين الزيانيين على رفع النسب إليهم وتقريبهم منهم، وذلك ما نستشفه من الوصايا التي أوصى بها أبو حمو موسى الزياني الثاني لابنه أن "يكون الشرفاء عندك أرفع الناس في الرتب لأنهم أشرفهم في الحسب وأعلاهم في النسب"[3].

7-كبار التجار وذوي الجاه:

فُردت مكانة خاصة لكبار التجار وذلك للقوة الاقتصادية التي تمتعوا بها، وقد كان الحكام أنفسهم جزءا من هذه الفئة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان اليانشتي وابن خلاص من بين أكابر تجار سبتة قبل أن يتوليا مقاليد السلطة بالمدينة[4].

كما كان معظم التجار الحفصيين من أرباب الدولة مثل أحمد اللياني الذي كانت له في العهد الحفصي علاقات مع تجار مرسليا وجنوة، ويبدو أن هذه الفئة كانت تملك أموالا كثيرة مما أهلها أن تحتل مكانة محترمة بين مصاف الطبقات الخاصة لدى السلاطين إلى درجة أن الأمير أبا زكريا لما

[1] -للمزيد من المعلومات عن الأشراف الحسينيين ينظر: لقبال موسى، **زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان**، **مجلة الأصالة**، السنة 4، ع/26 /جويلية-أوت، 1975م، صص91-98.

[2] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص537.

[3] – أبو حمو موسى الثاني الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص152.

[4] – محمد الشريف، سبتة الإسلامية، عصر الموحدين والمرينيين، تقديم أمحمد بن عبود، منشورات جمعية تطوان، أسمير، ط1، الرباط، 2006، ص 146.

استقل ببجاية سنة (628هـ/1283م) استقرض من تجار بجاية مالا أنفقه في أبهة الملك وجمع الرجال[1].

وعمل بمهنة التجارة عدد كبير من سكان مدينة تلمسان، حتى أنهم كونوا طبقة خاصة من التجار، تميزت بلباسها الخاص عن باقي الأفراد حتى قال عنهم الوزان" يرتدي التجار الحضريون لباسا جميلا أحسن من لباس أهل فاس لأنهم أكثر أناقة وسخاء"[2].

8- فئة العلماء والفقهاء:

كان لهذه الفئة حضور بارز ومكانة مرموقة لدى أفراد المجتمع، باعتبارهم حفظة الدين وحماة الشريعة، فليس من باب الصدف أن يحتل العلماء والفقهاء في بلاد المغرب الإسلامي مكانة اجتماعية خاصة، في وقت تضافرت فيه مجموعة من العوامل لضمان استمراريتها وتوطيدها، فلا غرو أن ذهنية أفراد مجتمع المغرب الإسلامي حملت تقديرا كبيرا للعلم والعلماء استنادا إلى مرجعية القرآن والسنة الذين أكدا على سمو منزلتهما[3].

إن الشهرة والمكانة التي تحصلت لشيوخ العلم بواسطة امتلاك المعرفة والتدريس وتمسكهم بالشرعية وبتطبيق النظم الدينية بصرامة وأحقية فاقت مكانة أصحاب الأنساب العريقة[4]. لذلك تنبه بعض السلاطين إلى مكانة العلماء والفقهاء داخل المجتمع فأوصوا بالرفق بهم وتقديم لهم كافة الرعاية، فهذا أبو حمو موسى الثاني يوصي ابنه أن يجعل للفقهاء رتبة خاصة في مجلسه على حد قوله"...ثم الفقهاء لأنهم مصابيح الدين، وبهم اقتداء المسلمين، بهم تقام الشرائع وتسد الذرائع، وتعتصم بهم من الأهوال والبدع، ويعتز بهم الإسلام ويرتفع، لأنهم ورثة الأنبياء وهم أعلام الاقتداء "[5].

---

[1] - ابن خلدون، العبر، ج6، ص 699.

[2] - الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص392.

[3] - محمد ياسر الهلالي، مرجع سابق، ص 194.

[4] - المرجع نفسه، ص 198.

[5] - أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص 152.

والواقع أن الإحترام والتقدير الذي طبع الفترة الوسيطة من قبل السلطة وحتى العامة والخاصة للعلم والعلماء، ما هو إلا انعكاس للأدوار الإجتماعية التي ما فتئوا يتمتعون بها، والتي منحتهم مرتبة اجتماعية مرموقة. يأتي في مقدمتها الإحسان إلى المحتاجين والفقراء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع والأهواء ومحاولة الحد من الفساد المتفشي داخل المجتمع بالوعظ والإرشاد، وبالتالي علو مكانتهم وسلطتهم في المجتمع.

ب: الطبقة العامة:

1-مفهومها:

إذا كان الخاصة هم أصحاب الجاه والمكانة المرموقة وأصحاب الحظوة، فالعامة هم فاقدوه[1]، وهم يمثلون السواد الأعظم من سكان المدن الذين لا يملكون الوظائف ولا العلم ولا الثروة ولا السلاح، ومن المؤسف أن المصادر لا تذكرهم إلا نادرا، أي عندما يعبرون عن سخطهم بين الحين والآخر[2]، لذا نعتوا في المصادر بنعوت مختلفة تدل على مكانتهم السفلى في المجتمع، وابن خلدون أورد لهم صفات في مقدمته"ولقد يقع في الدول أَضْرابٌ في المراتب من أهل الخلق، ويرتفع فيها كثير من السفلة، وينزل كثير من العلية بسبب ذلك"[3] .

كما يذكر السلطان أبي حمو موسى الثاني في سياق وصاياه كلام بشأن العامة ونعوتها في قوله"وأما العامة والدهماء فتسلك بهم طريقة واحدة يقفون عندها ولا يتعدون حدها، وتجريهم على ما تعودوا من السير الحميدة والموالاة المجيدة ثم لا تتركهم لأغراضهم الفاسدة وعقولهم التي هي عن الصواب شاردة، فإن العامة مجبولة على الفساد وعلى إتباع الأهواء وقلة السداد، لأن العامة الغالب

[1] – صالح بعيزيق، مرجع سابق، ص441.
[2] – إبراهيم جدلة، مرجع سابق، ص184.
[3] – ابن خلدون، المقدمة، ص 373.

عليها الشرار والهرج والاضطرار، فإن العامة إذ أقدرت أن تقول قدرت أن تصول"[1] وقال أيضا "اتقوا العامة فإنها إن قامت لم ترقد وإن طلبت لم تجد"[2].

لقد تضافر الخلط المنهجي مع هزالة التراكم المعرفي، ليستمر مفهوم العامة كطبقة إجتماعية مبهما أمرها، فهي تشمل حسب البعض"كل من لا يملكون وسائل ثابتة من وسائل الرزق"[3]، ويعمم آخرون هذا المفهوم على كل الذين"عاشوا حياة شاقة"[4]. ولعل ما يعزز هذا المفهوم أكثر النص الذي بين أيدينا والمعبر عن شرائح العامة فيما يخص التقسيم الاجتماعي بحسب طبقاتهم في أمور الدنيا ومراتبهم"...-البناء والزارعون والأكرة والرعاة للشاة والدواب،-الصناع وأصحاب الحرف والمصلحون للأمتعة—التجار والباعة المسافرون والجلابون— المتعيشون الذين يعيشون في خدمة غيرهم — الضعفاء ومن شاكلهم من الفقراء والمساكين، الزمنى وأهل البطالة والفراغ "[5].

وقال عنها أحد المؤرخين "فنيت أبدانهم في خدمة أهلها (الدنيا) وكثرت همومهم من أجلها ولم يحضوا بشيء من نعيمها"[6]، وإلى جانب ما ورد عند بن خلدون بخصوص هذه الشريحة، فقد ورد عند المقريزي نص تتشابه فيه شرائح العامة وهو بصدد تقسيمه لأقسام المجتمع المصري وسنركز على ما يهمنا من النص"...الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب البز ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة، وأهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، والفقراء ... وأرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن، ذو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون الناس يعيشون منهم"[7] كما وصفوا بنعوت أخرى مثل: السوقة، الزعانف، الملأ، الغوغاء،

---

1 – أبو حمو موسى الثاني الزياني، المصدر السابق، ص152.

2 – المصدر نفسه، ص 152./ عمر بلبشير، جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية والثقافية، ص118.

3 – أحمد الطاهري، جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، سلسلة ندوات، طبقة العامة في المجتمع الإسلامي الوسيط(إمكانية البحث من خلال النموذج الأندلسي) ، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس،1991، ص 70.

4 – محمود إسماعيل، سسيولوجية الفكر الإسلامي، دار الثقافة، البيضاء 1980، ج2، ص 193.

5 – دلال لواتي، عامة القيروان في العصر الأغلبي، (184-296هـ/800-908م)، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري قسنطينة، 2002/2001، ص91.

6 – أحمد الطاهري، مرجع سابق، ص 71.

7 – المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص72.

الدهماء، الأوباش، الأوغاد، الرعاع، أخلاط الناس وغيرها من النعوت[1]. وهي كلها نعوت أطلقها أصحاب الطبقة الخاصة على العامة.

لم تسلم فئات الطبقة العامة من نظرة الذم والاستهانة والاحتقار، خاصة الشرائح المنتجة كالفلاحين وأهل الصنائع والحرف والتجار والزراع والرعاة وكل الفلاحين الذين اتصفوا بالمذلة التي نجمت عن المغرم المؤدي إلى التحكم، فيكون بذلك الغرم ذليلا بائسا بما تمارسه أيدي القهر والإستطالة على تلك الفئات الدنيا من المجتمع حسب قول ابن خلدون"هذا إلى ما يصاحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر"[2]،كما قال أيضا" أن المغرم موجب للمذلة...فإذا رأيت القبيل بالمغارم في ربقة من الذل فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر"[3] ناهيك عن السذاجة والحمق الذي اتصف به الرعاة حتى أضحوا محل سخرية وتنكيت[4].

من خلال استقراء ما وجد في مصادر الفترة المؤرخة للعامة، والتي جاء معظمها في صورة الذم والتحقير، ونفي قيامها بأي دور حضاري في المجتمع، يمكن أن نعرف عامة المغرب الإسلامي التي لا تختلف عن عوام الحواضر الإسلامية الكبرى في تشابه الظاهرة – بأنهم الجمهور الأكثر عددا والذين احتلوا المرتبة الدنيا في مجتمع المغرب الإسلامي، وعلى الرغم من إفتقارهم للسلطة السياسية، والثراء المادي والمكانة الاجتماعية والبروز العلمي، إلا أنهم فرضوا وجودهم في مجتمع المغرب الإسلامي في الكثير من المرات، فقاموا بدور بالغ في مسار تطوره، وساهموا في نشاطه.

ولأن موضوع الأطروحة يعالج ظاهرة الفقر داخل مجتمع المغرب الإسلامي فكان من الضرورة لنا أن ندرس الأوضاع الاجتماعية لهذه الفئات الضعيفة والمهمشة داخل مجتمعها.

2: طبقات العامة وأوضاعهم:

---

[1] – صالح بعيزيق، مرجع سابق، ص441.

[2] – ابن خلدون، المقدمة، ص145.

[3] – المصدر نفسه، ص145.

[4] – ابن الجوزي أبو الفرج البغدادي، نوادر وأخبار الحمقى والمغفلين، تح: خاقاني، ط2، مطبعة البصري، بغداد، 1966، صص 113-114.

إن مجتمع المغرب الإسلامي كباقي مجتمعات الحواضر الإسلامية الأخرى، امتاز بوفرة العمران والاتساع المديني، فليس ذلك إلا دليلا على أنه عج بالناس من مختلف الطبقات والأصناف والأجناس، مما كثرت به العلاقات الاجتماعية والأنشطة المختلفة، ومن ثمة فبديهي أن تختلف الأحوال المعاشية داخل مجتمعه[1]، وإن كانت المصادر التاريخية لم تمدنا بمعلومات كافية حول حياة الفئات العامة، التي كانت تعيش بعيدا عن حياة القصور وأسوار المدينة من تجار صغار، وفلاحين، وحرفيين، ومهنيين، وباعة في الأسواق، وهي الشرائح التي تنتج وتساهم بقسط كبير في النشاط الاقتصادي للدولة، وكذا الشرائح غير المنتجة كالعاطلين والمتسولة والمعدمين واللصوص، فلا يكاد الباحث يجد لهم ذكرا ما عدا بعض الإشارات في كتب التراجم والطبقات التي أمدتنا بأخبار عن حياة العامة، وعن الفقر الذي كان منتشرا بينها، وعن الأزمات التي كانت تعانيها فكانت مظاهر الفقر شاهدة على ذلك، واعتمادا على هذه المعطيات أو المؤشرات التي وجدت بين طيات المصادر، والدالة على أهم اعتبارات التقسيم لمجتمع"العامة"، فيمكن أن نقسمها حسب النشاط اليومي لكل فئة إلى:

- ✓ فئات دنيا وضعها المادي مريح ومهنها خسيسة.
- ✓ فئات فقيرة غير متجانسة: وهي إما تمارس حرفا لا تفي بالحاجة المادية أو أنها متكونة من أجراء بائسين أو أنها تضم عاطلين عن العمل.
- ✓ فئات تضم العبيد (الرقيق) وهم فاقدو الحرية[2].

وعليه يمكن أن نطرح التساؤل الآتي: ما هي أوضاع هذه الفئات المهمشة بالمغارب الثلاث (الحفصي والزياني والمريني) في ظل واقع اعترته الطبقية الاجتماعية وهزته نوبات من الأزمات الطبيعية والسياسية والاقتصادية؟.

---

[1] –فوزية كررزا، عامة المغرب الأوسط في ظل السلطة الموحدية، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، جامعة وهران، غير منشورة، 2014 /2015، ص197.

[2] – صالح بعيزيق، مرجع سابق، ص443.

1-الحرفيون:

عند تناول الحديث عن هذه الشريحة في تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط، يصطدم الباحث بندرة المعلومات عنها، رغم أنها شكلت قطاعا أساسيا في الخارطة الاقتصادية والتنموية للمغرب الإسلامي، فبعض المؤرخين أحجموا عن ذكر الحرفيون واعتبروهم من"حثالة" المجتمع التي تصنف في خانة الجهل والتفكير الساذج والقدرات العقلية المحدودة[1]، والبعض الآخر أسسوا لهم مراتب ضمن طبقات الهرم الاجتماعي فهذا القاضي النعمان يجعل من أهل الصنائع والحرف في المرتبة الرابعة فالناس في نظره"خمس طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، فمنهم الجنود ومنهم أعوان الوالي من القضاة، والعمال، والكتاب، ومنهم أهل الخراج من أهل الأرض ومنهم التجار، وذوو الصناعات منهم الطبقة السفلى ومنهم أهل الحاجة والمسكنة...ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما ينتفعون به من صناعاتهم ويقومون بها من أسواقهم، ويكفونهم به من مباشرة الأعمال بأيديهم، والصناعات التي لا يبلغها رفقهم"[2].

وبلغ من تبجيل المجتمع للحرف ما جعل النخبة المثقفة نفسها تعتبر"الصنعة أول ما ينبغي للإنسان أن يتعلمه بعد معرفته بدينه"[3]، ويتضح من خلال هذه التعريفات أن"الصنعة أو الحرفة "إحتلت مكانة محترمة في تفكير مجتمع المغرب الإسلامي وأن الدولة نفسها اعتبرت الصنائع جزءا من مشاريعها الخاصة"بالسوق الأعظم"حسب التعبير الخلدوني"فإن قدمنا أن الصنائع وكمالها إنما هو بكمال الحضارة، وكثرتها بكثرة الطالب لها"[4]. وهذا ما عبر عنه عند تقسيمه للصنائع إلى ضروري للعمران وشريف بالموضع: وحسب اعتقاده، الصنائع الضرورية للعمران هي: "الفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة". أما الصنائع الشريفة بالموضوع "فهي التوليد والكتابة والوراقة والطب"[5].

---

[1] – ابن بلكين، كتاب التبيان، تح: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1955، ص15.

[2] –أبو حنيفة النعمان، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل البيت رسول الله عليه وعليهم فضل الإسلام ،ج1، تح: آصف بن علي، أضغر فيضي، ط1، دار المعارف، 1963، ص357.

[3] – إبراهيم القادري بوتيشش، **"المجال الحرفي بالمغرب خلال العصر المرابطي"**، **مجلة دراسات تاريخية**، ع/03، 2014، ص12.

[4]– ابن خلدون، المقدمة، ص389.

[5] –المصدر نفسه، ص 386.

ويبدو أنه كان هناك تمايز في الحرف والمهن الصناعية فمنها المنحط ومنها النفيس، وأن من الصنائع ما هي مبروكة، ومنها ما هي حسنة ومنها ما هي قبيحة، كالحمالين والملاحين، والبوابين والطوافين والنفالين والسجانين، والسمادين والحجامين، والحطابين، والسقائين، والطباخين وقومة الحمامات، وقومة الفنادق والحراس[1]، وشكلت هذه المهن شرائح اجتماعية من أصحاب الخدمات والامتهانات في المجتمع الإسلامي عموما؛ ونظر إليها بعين الاحتقار، واعتبروها على جانب من الدناءة والوضاعة والرذالة[2]، وإن كان إخوان الصفا قد بينوا قيمة الصنائع، فالصناع في منظورهم هم الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم في مصنوعاتهم كل من الصور والنقوش، والأصباغ والأشكال وغرضهم طلب العوض عن مصنوعاتهم لصلاح معيشة الحياة الدنيا"[3].

وقد فاضلوا في شرف الصنائع وأنها تتفاضل بعضها عن بعض سواء من جهة المادة المصنوعة أو من جهة المصنوعات في حد ذاتها، أو من كونها ذات منفعة خاصة وضرورية أو لها منفعة تشمل العموم، إلا أنهم يؤكدون على أن أهل الصنائع متفاوتون في منافعها، ورفع قيمة السمادين والزبالين وهم الأجراء المتعيشون عن صناع آخرين من خلال منافع الناس لصناعتهم فلو أغلق العطارون والصاغة دكاكينهم – وهي صناعات شريفة من جهة المادة المستعملة –لم تلحق ذلك من الضرر لأهل المدينة كالضرر الذي يلحق ترك الزبالين والسمادين صناعتهم أسبوعا واحدا[4]. أما أغلب الحرف الأخرى، فهي تبدو حسب ما جاء في بعض نوازل الفترة والتي ورد ذكرها ووصفها بالتحقير كذكر البرزلي بعض المهن المنحطة"..المحرك (ربما كان يقوم بألعاب سحرية) والجزار والحجام والبياع"، وحسب رأيه "لا يمكن أن يكونوا أئمة ... لأن الجزار والبياع لهم روائح قبيحة...والمحرك مروع للناس، و الحجام يتكشف على الحريم بغير إذن"[5].

---

[1] – دلال لواتي، مرجع سابق، ص 170.

[2] – المرجع نفسه، ص170.

[3] – إخوان الصفا وخلان الوفاء، الرسائل، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ج1، ص 287.

[4] – دلال لواتي، مرجع سابق، ص149.

[5] – البرزلي، ج1، مصدر سابق، ص113.

ومن بين المهن الخسيسة أيضا التي وردت بين مضان المصادر خلال العهد الحفصي: "الزبال" الذي ينظف تحت الخيل[1]، والسقاء الذي يبيع الماء بأزقة المدينة[2]. ومن البديهي أن تكون وضعيتهم المعيشية ضنكه ومنحطة والفقر مخيم عليهم ولصيق بهم. وحسبنا في ذلك شهادة الوزان حيث لاحظ "أن سكان مدينة تونس هم من الحرفيين المعوزين الذين يتعاطون صناعة الجلد، وليس لأي واحد منهم ما يكفي من الوسائل لكسب قوته بشرف، فهم يمتهنون حرفهم على نحو يرثى له ويعيشون في خصاصة لا حد لها "[3].

وكانت نظرة بعض الأفراد من المجتمع لهذه المهن على أنها وضيعة. والدليل على ذلك أن بعض الفقهاء كانوا يحبذون الابتعاد عن الجزار والدباغ والمحرك والحجام والبياع أثناء الصلاة لأنه يغلب على الظن نجاسة ثيابهم[4].

لا تتوفر لدينا معلومات كثيرة حول أجور الصناع وكذا طعامهم ولباسهم، ما عدا بعض نوازل الفترة التي وردت في صور بسيطة ترصد لنا حالة الأجراء مثل ما كان يفعله أهل المغرب في استئجار الرعاة لرعي ماشيتهم وأغنامهم لفترة معينة نظير أجرة زهيدة[5]. وبالمثل كانت تفعل المرأة لأجل الحصول على أجر معين من خلال غزلها للصوف وبيع الرجل الأبدان في السوق، فيشتري برأس المال كتانا ويقتات بالباقي ويكون عيشهما بهذه الطريقة، فيكونان قد شكلا نوعا من الشراكة الحرفية بينهما، وحققا معاشا[6]، لهذا فأصحاب الصنائع والحرف يكونون عادة أدنى طبقة بين الأحرار من خلال واردهم المالي، والذي كان لا يلبي إلا الضروري من المعاش[7].

[1] – معالم الإيمان، مصدر سابق، ج4، ص138.

[2] –الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 76.

[3] –الوزان، ج2، ص 169/ ينظر: روبار برانشفيك، ج1، ص 409.

[4] – البرزلي، مصدر سابق، ج1، ص468.

[5] – كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، 1996، الإسكندرية، ص66.

[6] –الدباغ أبو زيد عبد الرحمان، معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان، ج2، ص266.

[7] –دلال لواتي، مرجع سابق، ص175.

تميزت وضعية الحرفيين بالأحسن حالا خلال بعض الفترات من العصر الحفصي، مما ساهم في تعددها وتنوعها "والصناع أناس بسطاء لطفاء ... ويصنعون أشياء متقنة، يعيشون عيشة هنية[1]. فكانت مدينة تونس في النصف الأول من القرن الثامن هجري (14م) تحتوي حوالي سبعمائة حانوت للعطارة[2]، وما يزيد عن مائة وعشرين طاحونة[3]، وكان يصعب عادة التفريق بين التاجر والحرفي إذ غالبا ما يكون المنتج هو نفسه البائع أو الموزع نظرا لصغر حجم المؤسسات الاقتصادية، ومثال ذلك هلال عياد الزيات (ت650هـ/1252م) ، الذي وفد على مدينة تونس من الجنوب، واشتغل في البداية دباغا، يخرج إلى الصحراء ويجمع الدباغ ويقطعها بالحجارة، ثم يحملها إلى السوق على ظهره، ولم يكن قادرا على شراء فأسا ودابة لحملها[4].

كانت أسواق مدينة تونس تضم"عددا كبيرا من تجار القماش... كما تضم غيرهم من الصناع كالعطارين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلاة بالسكر وتجار العطور والحرير والخياطين والسراجين والفرانين والفاكهانيين واللبانين والخبازين والقصابين... إلى غير ذلك من الحرف التي تمارس في هذه السوق"[5]. وربما كانت لا تختلف الوضعية في بقية المدن عن مدينة تونس باستثناء قلة العدد طبعا نظرا لصغر حجم المدن الأخرى.

وكانت بعض الحرف تلقى تحسنا وعناية خلال بعض الفترات فقط، ربما يرجع ذلك إلى عامل الاستقرار، وإلى حاجة الدولة لمثل تلك الحرف والصناعات المهمة كالصناعة الحربية، لكن ذلك لا يعني أنهم لاقوا التشجيع والحماية والمساعدة اللازمة من قبل الأمراء الحفصيين، فالضرائب التي كانت تفرض على هذا النشاط الحرفي كثيرة و مجحفة، إذ بلغت في عهد أبي فارس (796هـ/1394م-

[1] – صالح بعيزيق، مرجع سابق، ص 137-147/ ينظر: كربخال، مصدر سابق، ج2، ص 300.

[2] – ابن الشماع، مصدر سابق، ص 91.

[3] – المصدر نفسه، ص 91.

[4]– محمد حسن، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج2، ص631.

[5] – الحسن الوزان، ج2، ص447.

837هـ/1433م) بالنسبة لمدينة تونس سنويا أكثر من 33650 دينارا (أي ما يزيد عن 158كغ من الذهب)[1].

كان أرباب العمل المشرفين على الحرف بالمغرب الأوسط يحيون حياة هنية، فكان مستواهم المعيشي جيد نتيجة الأرباح التي يحققونها من وراء بيع منتجاتهم الحرفية مثل: أبو زيد عبد الرحمن بن النجار يزاول نشاطه في حياكة الصوف الرفيع في مكان يعرف بدرب شاكر، فكانت تلك الثياب الصوفية لباس الأثرياء والأعيان[2].

لكن في مقابل ذلك كان حال بعض الحرفيين الصغار سيئ الحال خصوصا الذين يعملون كأجراء وخير مثال على ذلك ما ذكره الغبريني بخصوص الفقيه أبو زهر الربيع كان يمتهن حرفة الكتابة لبعض ولاة بجاية، ونظرا لقلة الأجر تركها وامتهن حرفة الخياطة للمعيشة "فلم يكفه ما ينتحله من ذلك فضاقت حاله وساءت"[3]، والحال نفسه بالنسبة إلى أبي العباس القطان الذي كان يمتهن حرفة الخياطة أيضا، إلا أنه شكا لابن مرزوق سوء وضيق حاله لقلة مردود الخياطة، فأشار عليه بالزواج فأجابه ابن القطان" أنا أشكو عن إقامة حالي فكيف بالزوجة و لي والدة ولا استطيع القيام بمؤونتها فكيف بغيرها"[4]، وهي كلها أمثلة توضح ذلك الفارق في المستوى المعيشي بين الحرفيين الكبار الذين يشرفون على قطاعات تجارية كبيرة، تجلب لهم أموال طائلة عكس الحرفيين الصغار قللي الدخل.

ويشير الوزان في موضع آخر إلى حالة الصناع بمدينة المسيلة في قوله" والسكان كلهم صناع أو فلاحون يرتدون لباسا رديئا لفقرهم، بسبب الأعراب الذين يسلبون مداخليهم وينتهكون أموالهم، وقد اندهشت للفقر السائد بالمسيلة عند مروري بها"[5]، والمثال نفسه ينطبق على سكان مازونة الذين كانوا

[1] – الزركشي، مصدر سابق، ص 116.

[2] – ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، تح:سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1، 2008، صص188-189.

[3] – الغبريني، عنوان الدراية، صص26-27.

[4]– ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، صص 161-162.

[5]– الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص424.

في أغلبهم يحترفون صناعة النسيج أو فلاحة الأرض إلا أنهم كانوا يعيشون في فقر مدقع بسبب سيطرة الأعراب وكثرة الضرائب عليهم [1].

أما في المغرب الأقصى، فقد ازدهرت المهن والحرف به بفضل عامل الهجرة الأندلسية خاصة بعد سقوط غرناطة[2]، فقد ذكر الرحالة الجغرافيون أن الأندلسيين"صينيون في إتقان الصنائع وإحكام المهن"[3]، وقد نقلوا معهم العديد من الفنون وتقنيات النسيج[4]، الأمر الذي ساهم في تنشيط الحركة الاقتصادية والصناعية والفنية والمعمارية[5].

2-صغار التجار والباعة بالأسواق:

تعتبر الأسواق من المرافق الحيوية والضرورية لأي دولة، ولا تقتصر أهميتها في كونها مجالا لتبادل السلع والمنافع فقط، بل أنها تعكس ذلك التفاعل الاجتماعي بين عناصر المجتمع المختلفة، لأنها ترتاد من طرف الصغار والكبار والنساء والرجال والأغنياء والفقراء يوميا[6].

لقد أفضى اتساع النشاط المديني للمغرب الإسلامي إلى استقطاب جموع غفيرة من أهل الأسواق (تجار وباعة) التي جسدت عصب الحياة الاقتصادية، حيث يتركز فيها النشاط الصناعي والتجاري والذي يؤدي دورا مهما في حياة المدينة بصفتها عنصرا مهما لازدهارها.

---

[1]- الحسن الوزان، مصدر سابق،ج2، ص407.

[2]- معمر الهادي محمد القرقوطي، الحياة الاقتصادية في العهد المريني، ص 185.

[3]- ابن غالب الغرناطي، محمد بن أيوب ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تح: ونشر لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات، القاهرة، مج 22، 1955، ص 282.

[4]- معمر الهادي محمد القرقوطي، مرجع سابق، ص 187.

[5]-محمد صقر، اللباس المغربي من بداية الدولة المرينية إلى العصر السعدي، أطروحة دكتوراه في الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2002، ص 65.

[6] - العربي سعدي، **تنظيم الأسواق والحرف في بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني من القرن (13-16م)**،**المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية**، منشورات مخبر الجزائر تاريخ ومجتمع في الحديث والمعاصر، مكتبة الرشاد، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، ع/03، جوان 2011، ص 225.

والحقيقة أننا وجدنا فيما تعكسه الأدبيات التراثية المختلفة من حوليات تاريخية، وجغرافية، ونوازل فقهية، مايبرز أهمية الأسواق، وتجارها، وبائعيها الصغار في الحياة الاقتصادية في مجتمع المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط.

ففي العهد الحفصي لا تكاد تخلو أية مدينة بافريقية من هذا الصنف الاجتماعي المتمثل في صغار التجار والباعة في الأسواق وخاصة في المدن الكبرى، حيث تكثر الأسواق ويصبح عدد هؤلاء هاما، هذه الفئة التي تمثل النسبة الهامة من سكان المدن وإن لم نقل الأغلبية[1]، ولاشك أن المستوى المعيشي لهم كان في بعض الأحيان لا بأس به، إلا أن جملة المكوس و المغارم المفروضة عليهم سبب لهم ضيقا كبيرا، فقد عملت الدولة الحفصية على فرض ضرائب ومكوس على مختلف أنواع المعاملات من البيع والشراء، بالإضافة إلى الصادر والوارد، "فكانت ضرائب تفرض على أبناء الأمة كلما احتاجت الدولة لها"[2]، مما سايروا أوضاعا صعبة أدت إلى تدني مستواهم المعيشي مقارنة بغيرهم من التجار الكبار الذين كانت لهم مكانة خاصة لدى جهاز الدولة.

يشير الونشريسي في إحدى نوازله أن هناك ضريبة تسمى"مغرم الأسواق" وكانت تجبى من التجار والباعة والصناع بالأسواق، وكان أصل وضعها كما يقول"عن اتفاق من أهل الحل والعقد قديما لكون بيت المال عاجزا أو قاصرا عنه"[3]، كما كان هناك نوع آخر من الضرائب المسلطة على هذه الفئة وهي ضريبة تعرف باسم "المكس"، وهو رسم يحصل على الأماكن التي تشغلها بضائع التجار حين تطرح للبيع في الأسواق، أو على دكاكينهم في الأسواق...وبذلك تكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا[4]. ويقول أيضا "فإن معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار، لاسيما بعد وضع المكوس"[5]

---

[1] – إبراهيم جدلة، مرجع سابق، ص185.

[2] –صالح فياض أبو دياك،"**النظام المالي عند الحفصيين**"، "**مجلة الدراسات التاريخية** "، ع/21-22، السنة 07، إشبيلية للنشر والتوزيع، دمشق، 1986، ص92.

[3] –الونشريسي، المعيار، ج5، ص32.

[4] – ابن خلدون، المقدمة، ص275.

[5] – المصدر نفسه، ص268.

وأشار في موضع آخر"فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم"[1]، وما يعزز الطرح أكثر شهادة البرزلي في قوله "أنه زمن استحكام الحفصيين لبجاية وأعمالها شكلت المجابي ثقلا على مختلف الفئات العاملة، أين فرضت جملة من المكوس على التجار والحرفيين، وذلك ما كشفت عنه مسألة الفقيه أبي العباس أحمد البجائي عن موضع كثر فيه الظلم والجور ...وكثرت فيه أعمال المكس على الباعة في الأسواق"[2].

كما أشار صاحب العبر إلى ذلك في قوله" ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية، ويضعون المكوس على المبايعات وفي الأبواب"[3]، بالإضافة إلى المكوس والمغارم التي يدفعها التجار عند أبواب المدن برا وبحرا وفي الأسواق، كانت هناك أيضا مبالغ مالية يفرضونها على المبيعات لأنفسهم[4].

وبسبب هذه السياسة الضريبية القاسية في حق التجار والباعة الصغار، لاسيما في أواخر عهد الدولة الحفصية نجد "أن كثيرا من هذه الأسواق قد خربت وأغلق كثير من دكاكينها"[5]، الأمر الذي ساهم في تقهقر الوضع المادي لهذه الشريحة وعانت ويلات البؤس.

وكيفما كان الحال فإن المصير نفسه عانته هذه الفئة داخل المجتمع الزياني بالمغرب الأوسط، فلم يكن حالهم كحال التجار الكبار التي عبرت المصادر التاريخية عن وضعهم المادي المريح، إذ يصف لنا الونشريسي طائفة منهم وجدت ببجاية "أكابر التجار ذوي الأموال الطائلة"[6].

---

[1] – ابن خلدون، المقدمة المصدر السابق، ص267.

[2] –البرزلي، مصدر سابق، ج 5، صص205-206

[3] – ابن خلدون، المقدمة، ص266.

[4] –مريم محمد عبد الله جبودة، التجارة في بلاد افريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحدي والحفصي، (555-980هـ) ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الزقازيق، 2008، ص 197.

[5] – المرجع نفسه، ص199.

[6] – الونشريسي، مصدر سابق، ج6، صص5-6.

كان التجار الصغار يزاولون نشاطهم التجاري في دكاكين صغيرة داخل الأسواق، فضلا عن تجارتهم في بعض المدن المجاورة كبجاية، وكذا بين المدن والبوادي نفسها، ويجوبون الصحاري القريبة لبيع منتجاتهم[1].

لم يكن النظام الضريبي الزياني بأحسن حال، لاسيما خلال فترات الضعف، أين لجأو بعض السلاطين والولاة والعمال إلى استحداث أنواع من الضرائب على الرعية لتدارك العجز وتغطية النقص الحاصل في الخراج، فقد أحدثوا مكوس ومغارم لا حصر لها والتي بلغت أشدها أواخر العهد الزياني، كالمغرم الذي فرضته في حالة سرقة المخزن أو اختفاء سلعة منه، حيث يحمل الولاة التجار مسؤولية غرمها سواء بتغريم مقدار خمسة من المخازن أو بأخذ السلع منهم[2]، مما نتج عنها سخط كبير من طرف التجار داخل المجتمع الزياني.

وبالمثل فإن ما لحق بصغار التجار والباعة في الأسواق من معاناة بخصوص السياسة الجبائية المفروضة عليهم من طرف الدولة الزيانية، لا تختلف عن نظيرتها بالمغربين المريني والحفصي.

أثرت الضرائب والرسوم المفروضة على السلع والمنتجات بالبائع والتاجر على حد سواء، فمن الضرائب التي فرضت زمن المرينيين على التجار نذكر: ضريبة الإنزال التي أحدثت ضررا عظيما عليهم، وجعلتهم يحيون حياة بائسة أحيانا، نتيجة تلك التعسفات الجبائية التي هلك بسببها الخلائق[3].

3- أهل السؤال (المتسولين):

لا توجد في تاريخ المجتمع بالمغرب الإسلامي، طبقة تعرضت للنسيان والإهمال والطمس من قبل المؤرخين، أكثر من شريحة المتسولين، مما يجعل مهمة الباحث في استقصائها من المهام الصعبة[4]، وربما

---

[1] -سمية مزدور، **"مقاربات حول مستوى معيشة التجار والحرفيين في المغرب الأوسط"**، **الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية**، مخبر البحوث الاجتماعية و التاريخية، منشورات جامعة معسكر، العدد 4، جوان 2013، ص220.

[2] - ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص 285.

[3]- عمر بنميرة، النوازل والمجتمع – مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (8-9هـ/14/15م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة الأمنية، الرباط، 2012، صص94-95.

[4] - إبراهيم القادري بوتيشش، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، ص212.

يرجع ذلك الإهمال إلى كون موقع شريحة المتسولين في الخارطة الاجتماعية التي ظلت تمثل فئة ليس لها أي دور في عملية الإنتاج، بل أنها شكلت عبئا ثقيلا على كاهل دول المغرب الإسلامي الثلاث الذين عجزوا عن إدماجهم في كيان المجتمع[1]. لذلك أضحت هذه الفئة منسية لا في نسيج الأسطغرافيا الوسيطية فحسب بل حتى في مؤلفات الفترة، على أن يكون لنا حديث عنهم لاحقا.

4-السلابة وأهل البطالة وما شاكلهم:

أشار الباحث أستيتو نقلا عن بروديل أن التاريخ وإن لم يسلط إلا إشارات مقتضبة على شريحة الفقراء إنما بالرغم من ذلك كانت لهؤلاء دائما وسائل غير مباشرة لإثارة إنتباه الآخرين إليهم، ومنها التمردات والعصيان إلى جانب اللجوء إلى وسيلة التلصص وقطع الطرق وسلب الناس أموالهم وزادهم[2].

تزايد عدد اللصوص وقطاع الطرق داخل مجتمع المغرب الإسلامي بسبب ما أشرنا إليه سلفا من اضطراب سياسي واقتصادي، وكثرة الفتن والحروب، ساهمت هذه الأخيرة في ظهورهم بشكل ظاهر من دون خوف "وإن كانت أكثر سرقاتهم في الليل في أوقات الغفلة"[3].

5-الأرامل والأيتام والمطلقات:

إن فقدان العائل أو غيابه أو عسره، في كثير من الأحيان يعتبر من بين أهم الأسباب الاجتماعية لتفشي الفقر والعوز بين الأسر، وربما يرجع ذلك على الخصوص، لكثرة عوامل الفناء والكوارث بمختلف أنواعها كالأمراض، والأوبئة، والمجاعات، والحروب التي ما فتئت أن خلفت خلال الفترة المدروسة، عدد كبير من الأرامل والأيتام والمفقودين والمفلسين والمتخلين عن أسرهم[4]. وعلى الرغم من

[1] - المرجع نفسه، ص213.

[2] - محمد استيتو، الفقراء في المغرب،-نماذج من القرنين (16-17م)- منشورات الزمن ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2006، ، صص 84-85.

[3] - دلال لواتي، مرجع سابق، ص 234.

[4] - محمد استيتوا، مرجع سابق، ص 09.

أن المادة التاريخية التي تخص هذه الشريحة تظل ضئيلة ونادرة، فلا مجال للشك في أن عددها كان كبيرا، وأن ظروفها الاجتماعية كانت صعبة للغاية.

ومن خلال ما عرضناه سلفا عن خطورة الحروب وتسببها في إفقار أفراد المجتمع الإسلامي، يتضح أن نتائجها برزت جليا على الأسر بسبب تعرض أوليائها إلى القتل الجماعي أو السجن أو الإختطاف طوال سنوات مديدة، لاسيما بين أهالي المناطق القريبة من الأماكن المحتلة، حتى أصبح "فيهم من الضعفاء والأرامل... من لا يستطيعون دفعا عن أنفسهم"[1] فأصبحن في وضع مادي حرج، وأضحين في فقر وحاجة؛ فقد تحدث الوليدي بالمغرب الأقصى عن"مسألة نزلت مرارا، وهي المرأة الطارئة تذكر أن لها زوجا غائبا منقطع الغيبة لا يعرف له مستقر، أو غيبة بعيدة جدا، أو أنه وقع في الأسر ولا مال له ولا عنده شيء، وتشكو الضيعة"[2]، وهو مثال يوضح لنا حالة النساء اللواتي غاب عنهن أزواجهن وأصبحن يشتكين العوز والفاقة، كما وردت نوازل أخرى حملت بين طياتها عبارات تعبر عن ضيق حال هؤلاء الفئات من مثيل"في ضيق من الحال والمال "، و"لا عندها ما تكتري به"، و"خافت على نفسها وحالها من الفقر" و"هي محتاجة"[3]، إلى غير ذلك من العبارات التي تثبت ما كان لغياب الزوج بقصد الحرب أو بسبب ظروفها من أثر في الوضعية المادية لزوجته.

ولا سبيل إلى الشك في أن أحوال الأرامل كانت أكثر بؤسا وعوزا وخصاصة، وبخاصة الفقيرات منهن اللواتي لم يخلف لهن بعولتهن ما يعلن به أنفسهن وأولادهن، مما أصبحت حالتهن أكثر تعقيدا بتفاقم عليهن مشكل الإنفاق، فأضحين يشتكين الفقر والضنك؛ ومن الأمثلة على ذلك"امرأة من أهل سبتة أسر زوجها ولها منه عدة أولاد، فضاق عليها الحال"والتجأت إلى الولي ريحان الأسود فشكت إليه أمر زوجها، وضعف حالها"[4]، وهي أمثلة تبين حجم المعاناة ودرجة الفقر الذي رزخت تحت طائلته هذه الفئة المحرومة والمعدمة.

---

[1] – المرجع نفسه، ص 10.

[2] – أبو الفضل الوليدي، مصدر سابق، ص 135

[3]– الونشريسي، المعيار، ج3/ ص 18-97-114-115-125-126-185-187-353، ج4/ ص19-114، 58.

[4] – ابن الزيات التادلي، التشوف، ص 159.

أما فئة النساء المطلقات فقد شكلت ظاهرة اجتماعية خطيرة في مجتمع المغرب الإسلامي، مما اضطرت هذه الفئة للخروج إلى الأسواق للتكسب لسد رمقهن على حسب شهادة مارمول بأن معظم النساء اللواتي كن يترددن بكثرة على الأسواق لبيع القماش، هن مطلقات وأرامل ويقول بأن أزقة السوق كانت تضيق بهن فلم يكن باستطاعة المرء أن يدور فيها أو أن يخرج منها إلا بمشقة من كثرة الإزدحام الذي يتسببن فيه[1].

6-ذوو الاحتياجات(المعاقون):

وهم أصحاب الإعاقة الجسدية المختلفة سواء الحركية والعقلية أو النفسية، وكذلك المنبوذون لأمراض معدية تعيقهم عن خدمة أنفسهم، مثل المجذومين، وكذلك كبار السن كشرائح اجتماعية تواجدت داخل المجتمعات الإسلامية بالعصر الوسيط سواء بالمشرق أو بالمغرب.

كان المعاق في الحضارات القديمة منبوذا بصفة عامة، فقد دعا أفلاطون إلى إبعاد المعاقين ونبذهم بعيدا خارج البلاد، لأن في نظره أن تناسلهم يؤدي إلى إضعاف الدولة بمرور الوقت، وفي العصور الوسطى لم تتغير النظرة إلى المعاق كثيرا، فقد تركوهم يعيشون وتستمر حياتهم بين أفراد المجتمع ولكنهم نبذوا بعض أصحاب الإعاقات وخاصة المرضى العقليين، فقد لاقوا معاملة قاسية من حبس وتقييد بسلاسل أو تعذيب بدني[2].

كانت الحروب في كثير من الأحيان تعد سببا مباشرا في وقوع إصابات وإعاقات بالغة الخطورة لنسبة كبيرة من الأشخاص، وذلك بفقدان أحد أعضاء الجسم، كبتر الأرجل أو الأيدي فيصبحون مقعدون، وعالة على المجتمع، وكان كذلك الإصابة بفقدان البصر يؤدي صاحبه إلى الاقتصار على مهن محدودة لا تتجاوز التدريس أو قراءة القرآن فقد عرف أنه"ليس للعميان إلا القرآن"[3].

---

[1] – كربخال مارمول، مصدر سابق، ج2، ص 152.

[2] –روى بوتر، موجز تاريخ الجنون، ترجمة: ناصر مصطفى أبو الهيجاء، مراجعة أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2012، صص 109- 110.

[3] – نجلاء سامي النبراوي، ذوو الاحتياجات الخاصة بالمغرب والأندلس، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية، صص4-8.

وكان أغلب قارؤوا القرآن على المقابر من مكفوفي البصر، وتجلى ذلك في شهادة العقباني عن مدينة تلمسان إذ رأى أن النساء تجتمع صبيحة اليوم التالي لوفاة أحدهم على "القراء العميان" ليقرءوا ما تيسر من السور صدقة على متوفاهم"[1]، وكانت الإصابة بالعمى تغير من مسلك صاحبها الإجتماعي والمهني فتمنعه من توارث مهنة أبائه وأجداده إن كانت حرفة يدوية، وكان الكثير منهم من يستسلم لتلك الإعاقة فلا يقوم بأي عمل أو يتوقف بعد الإصابة بها عن ممارسة عمله الحرفي الذي كان يقوم به[2].

8-الرقيق:

تواجد الرقيق داخل مجتمع بلاد المغرب الإسلامي، عبر العمل في البيت والقيام بشؤون الأسرة وتربية أبنائها، وذلك منذ إقدام الفاتحين العرب على اتخاذ الجواري والسبي الذي توفر لهم، وجاء الإسلام بنصوص وتشريعات كثيرة تحدد وضعية هذه الفئة في المجتمع، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام " لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي"[3].

ودائما وبسبب ندرة المعلومات في مصادر الفترة عن وضعية هذه الفئات داخل مجتمع المغرب الإسلامي، يجد الباحث صعوبة في تحديد أوضاعهم ماعدا بعض الإشارات الوميضة عن خدمتهم داخل البلاطات السلطانية واتخاذهم كخدم داخل القصور، ومثال ذلك ما توقف عنده بن خلدون في كتابه العبر"إن السلطان المريني يوسف بن يعقوب (685-706هـ/1286-1306م) هلك على يد خصي من العبيد[4]، كما يؤكد ذلك الرحالة بن حوقل في قوله "الخدم المجلوبون من بلاد

[1] – أحمد العقباني التلمساني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تح: علي الشنوفي، نشر معهد الدراسات الشرقية، دمشق،1967، ص266.

[2] – نجلاء سامي النبراوي، ص8.

[3] – الأبشيهي، المستظرف، ج2، ص 143.

[4] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص199.

السودان، والخدم المجلوبون من أرض الصقالبة على الأندلس"[1]، فكان لكل ثري عدد من هؤلاء العبيد يعملون كخدم تحت سلطته، وكانت أسواق النخاسة وتجارة الرقيق رائجة في بلاد المغرب بصفة عامة"[2] .

وردت بعض الإشارات عن تواجد الرقيق الأسود والأبيض في بلاد المغرب الإسلامي[3]، فعن ابن خلدون" امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال"[4]، فهم لم يكونوا يدا عاملة ضرورية للإنتاج، بل استعملوا في أغلب الأحيان استعمالا منزليا[5]. ويذكر الونشريسي أن بعض الجواري كن يتمتعن بموهبة الغناء، فيشير إلى أن رجلا من أهل المغرب كان يقتني جارية تغني في الأعراس مقابل أجر معلوم، كما تفيد بعض النوازل بهروب بعض الرقيق من أسيادهم نتيجة الضغط المسلط عليهم، ولذا كان السيد يضع في قدم مملوكه خلخالا من حديد، ليعرف بذلك من رآه أنه آبق[6].

لم تلعب العبودية سوى دور ثانوي في اقتصاد المغرب الأقصى حسب ما جاء في قول أحد الباحثين أثناء حديثه عن الاقتصاد المغربي السبتي "فاليد العاملة المستعبدة لم تكن ضرورية في مجالات الإنتاج التي يقوم عليها الاقتصاد المحلي، صحيح أننا نجد العبيد في بعض مجالات الحرف التقليدية وخدام في مزارع قصب السكر أو مجدفين على السفن، لكن يبدو أن العبيد كانوا يستخدمون أساسا في الأعمال المنزلية كخدم وجوارٍ وامتلاكهم كان من رموز التفاوت الطبقي"[7]. وارتبط الإقبال على اقتناء الرقيق في المغرب الإسلامي بعدة دوافع، من بينها:

---

1 – ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، ص 95.

2 –الزهري، كتاب الجغرافيا، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت، ص199. /كمال السيد أبو مصطفى، مرجع سابق، ص 36.

3 – صالح بعيزيق، مرجع سابق، ص 449.

4 – ابن خلدون، العبر، ج6، ص578.

5 – روبار برانشفيك، تاريخ افريقية، ج2، ص169.

6 – الونشريسي، المعيار، ج5، صص146-147.

7 – محمد الشريف، مرجع سابق، ص 151.

1-الحاجة إلى العبد أو الآمة: سواء كانت الحاجة إلى قوته العضلية لتدبير شؤون البيت وتربية الأبناء أو للتسري بالنسبة للآمة، أو لمساعدة السيد في أرضه أو حرفته أو تجارته بالنسبة للعبد، أو لدوافع سياسية – عسكرية ترتبط بوجود الرقيق في البلاط.

2-القدرة الشرائية: التي ترتبط بآليات السوق والعرض والطلب، والتي لاشك أنها ساهمت على شراء الرقيق أو العزوف عنه[1].

عدت الأزمات الاقتصادية من الأسباب الحقيقية وراء ظهور فئات جديدة من الرقيق داخل المجتمع، على أساس أن الانتقال من الحرية إلى حالة الاسترقاق كفيل –لمن قبل بهذا التحول له أو لأولاده – أن يقيهم من الهلاك جوعا في مثل هذه الأوقات.

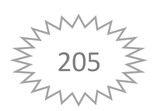
فقد دونت لنا مصادر الفترة بعض الأمثلة على ذلك، منها ما ذكره الوزان في شأن جماعة من العرب الساكنين في نواحي مراكش و دكالة، إذ هاجروا إلى البرتغال في سنة مجاعة وعرضنا أنفسهم كعبيد لمن يعولهم ويتولى شؤونهم المادية[2]، كما كان الأعراب الساكنين بضواحي برقة مجبرون على تقديم أولادهم للتجار المسحيين في أوقات الشدة مقابل ما يجلبه إليهم هؤلاء من القمح من صقلية، ويشترطون عليهم في ذلك أن يدفعوا ديونهم في وقت معلوم وإن لم يفعلوا يسترقون أبنائهم ويستعبدونهم، فكان الكثير من المرات لا يقدرون أعراب برقة على إرجاع ديونهم، فيقوم التجار بأخذ أولادهم منهم، واستعبادهم حسب قول مرمول"ويشترطون عليهم إن لم يفكوهم بأداء الدين في وقت معين أن يبقى هؤلاء الأطفال عبيدا، وقد رأينا الكثير منهم في هذه الجزيرة متّنصرين"[3].

وهناك أمثلة أخرى ترصدها لنا كتب النوازل مثل ما ذكره المازوني في فتوى سئل عنها الفقيه منصور الزواوي مفادها أن رجلا باع مملوكة له في زمن المسغبة، ثم تبين أنه باع ابنته حسب ما جاء في النازلة "رجل باع مملوكة في سنة مسغبة وبقي بعدها تسع سنين ومات ولم تسمع له دعوى وقام

[1] – عبد الإله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس، دار الكتاب الوطني، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1 ،2004، ص181.

[2] –الحسن الوزان، ج1، ص 63.

[3] –كربخال مارمول، ج1، ص 112.



ورثته بعده بأربع سنين وأثبتوا أن البائع المذكور أقر قبل البيع أنها ابنته، هل تنفعهم هذه البينة مع طول المدة المذكورة ومع سكوت البينة؟ وهل تعذر البينة بالجهل في ذلك من كون سكوتها مع استرقاق الحر مبطلة لها أم لا، وكلهم أهل وطن واحد ؟ فأجاب: الحمد لله؛ إذا كان الأمر كما ذكر وكان أولئك الشهود عالمين ببيع تلك الآمة ولم يمنعهم من القيام بشهادتهم بأنها حرة، مانع من غيبتهم أو عدم وجود الحكام هناك أو خوف أو غير ذلك من الأعذار المقبولة ؛ فشهادتهم ناقصة لعدم مبادرتهم لما تجب فيه المبادرة وهذا مما يستدام فيه التحريم"[1]. وعموما فإن فئة الرقيق كانت فئة معدومة الحقوق في مجتمع زاد فيه تدني الأوضاع(السياسية والاقتصادية والاجتماعية) من الهوة الفاصلة بين طبقاته، بازدياد أعداد كثيرة من العبيد والتي تبقى دائما في رهان مع الفقر وضنك العيش.

2: المجتمع البدوي:

ا–خاصة البادية:

لم يكن مجتمع المغرب الإسلامي يتكون–فقط–من سكان الحواضر، بل شكلت البوادي والأرياف مركز ثقل سكاني هام، فدائما كانت البداوة تسبق الحضارة لأنها هي الأصل. ولأجل هذا فقد اهتم ابن خلدون بالبدو أولا ثم الحضر ثانيا، لأنه علل المسار التطوري لأهل البادية؛ من خلال ربط البداوة مع الحضارة بمسار يتطور باستمرار إلى الأمام[2].

وعلاوة على كون البداوة نمط عيش في الأساس، فإنها تستند كذلك إلى البنية القبلية[3] القائمة بدورها على العصبية[4]، فلطالما اعتبرت الجماعة القبلية المحددة بالروابط العصبية قاعدة التنظيم في بادية المغرب الإسلامي خلال الفترة المدروسة من البحث، وشكلت محور التنظيم الاجتماعي والاقتصادي

---

[1] – المازوني، الدرر المكنونة، ج4، ص209.

[2] – بوزياني الدراجي، العصبية القبلية – ظاهرة اجتماعية وتاريخية)، دار الكتاب العربي، الجزائر،ط1، 2003، صص146-147.

[3] – للمزيد من المعلومات عن القبيلة وبنيتها ينظر/ محمد نجيب بوطالب، سوسيو لوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2002، ص108.

[4] –محمد حسن، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ص91.

للبادية. ولأجل ذلك اهتم المؤرخون وعلماء الاجتماع بالظاهرة القبلية لتحديد الملامح العامة للمجتمع المغربي خلال العصر الوسيط .

والملاحظ أن فئة المشايخ كان لهم تأثير وسلطة قوية على الرعية داخل القبيلة، ذلك لأنهم يمثلون قمة البناء الاجتماعي في البادية على حد قول ابن خلدون"وأما إحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم لما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة"[1]، كما عزز الطرح أكثر قول بن حوقل حول المكانة التي احتلتها هذه الفئة عند سكان أرياف بلاد المغرب الأوسط خلال القرن الرابع الهجري في قوله"وفيهم ملوك ورؤساء ومقدمون في القبائل يطيعونهم فلا يعصونهم ويأمرونهم فلا يخالفونهم"[2]، وحال ذلك ما ذكره القاضي النعمان بشأن قبيلة كتامة حسب قوله" ولنا أكابر في كل قبيلة"[3]، وهي كلها نصوص تثبت لنا مدى المكانة التي تبوأتها فئة المشايخ لدى أهل البادية إذ كانوا أنفسهم أهل الحل والعقد داخل القبيلة، يسنون القوانين، ويحكمون بين الخصوم، ويتخذون مختلف المبادرات التي يرونها في صالح القبيلة بما في ذلك المبادرات الكفيلة بالدفاع عنها وعن مقومات وجودها، مع صد أي تهديد خارجي يستهدف مصالحها دون أن يؤدي بهم دورهم إلى التسلط وفرض سلطتهم على الجماعة، ذلك أن رئاسة القبيلة إنما هي"سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه"[4]، وكان من الواجب أن يلتزم الكل بما يشرعونه من أحكام ومرد التزام الفرد بالحكم الصادر عن مجلس القبيلة راجع لاقتناعه بعدله، وإلا لكان بإمكانه وبكل سهولة أن يعتزل مجتمع قبيلته دون أن يناله أدنى عقاب بدني، ويرجع هذا إلى صفات البدوي نفسه ممثلة في بساطته وصراحته، وصدقه وعدم انصياعه للإهانة والمذلة[5].

[1] – ابن خلدون، المقدمة، صص 127–128.

[2] – ابن حوقل النصيبي، مصدر سابق، ص 97.

[3] – القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تح: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط2، 1986،ص37.

[4] – ابن خلدون، المقدمة، ص 164.

[5]– جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9–10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، ص 252.

كان لهؤلاء المشايخ مكانة خاصة في المحيط المباشر للسلطان داخل البلاط الحفصي، لأن قبائلهم كانت تمثل في الكثير من الأحيان جزءا من عساكر الدولة، فنجدهم أحيانا ضمن حاشية السلطان عند تنقلاتهم أو حروبهم، وهو أمر يوحي بمدى تأثير هذه الفئة على المجتمع الحضري رغم أنه تأثير محدود إلا أنه ملموس، فمثلا نجد في سنة(711 هـ/ 1311م) أشياخ الأعراب إلى جانب الحاجب أبي عبد الله المزدوري، يأخذون البيعة لأبي يحي زكريا اللحياني[1]، وهو ما يبين الدور الفعال لهاته الفئة.

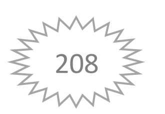
ومما سلف ذكره نلاحظ أن صلاحيات التشريع والتسيير أسندت لأعيان ورؤساء العائلات، الذين ينتمون في الغالب للعصبية الأقوى داخل القبيلة، وهذا يعني أنه كان هناك تفاوت طبقي داخل المجتمع البدوي.

يتضح إذن من خلال النظام الذي ساد مجتمع القبيلة، وما نتج عنه من علاقات اجتماعية واقتصادية أنه كرس مجتمعا غير متساو، أي ظهور تراتبية اجتماعية داخله، وللتأكد من ذلك يكفي النظر إلى طبيعة تكوين القبيلة، فكما سبقت الإشارة فإن أعضاءها كان يتم اختيارهم من بين الأعيان، ومن بين ذوي الخبرة والمكانة الاجتماعية المرموقة الناتجة عن فوارق إجتماعية وإقتصادية، يقدمون الاقتراحات ويقررون الحلول، أما البقية من العامة فحضورهم شكلي فقط. وما يوضح ذلك أن معظم العاملين بالفلاحة الذين لم يكونوا يتمتعون بالجاه السلطوي أو فقدوه لسبب ما تأثر مستواهم المعيشي سلبا "ففاقد الجاه وإن كان له مال فلا يكون يساره إلا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعيه ذاهبا و آيبا في تنميته كأكثر التجار. وأهل الفلاحة في الغالب وأهل الصنائع كذلك، إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر ولا تسرع إليهم الثروة وإنما يرمقون العيش ترميقا ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة"[2].

---

[1] – إبراهيم جدلة، مرجع سابق، ص 182.

[2] – ابن خلدون، المقدمة، ص372.



كل هذه المعطيات أدت إلى بروز فئة مالكة اعتلت الهرم الطبقي للمجتمع البدوي، إذ أصبح شيوخ القبائل يستحوذون على ثروة كبيرة ظهرت عبر مستواهم المعيشي[1]، ميزتهم عن سائر أفراد القبيلة، ويفهم من ذلك، أنه بقدر ما ازداد عدم التكافؤ في الثروة تلاشت المساواة واختلفت موازينها إن لم تكن زالت أو ظلت نظرية فحسب.

ويتضح مما سبق ذكره أن وجود التراتبية الاجتماعية داخل المجتمع القبلي لم يرق إلى التشكيل الطبقي، وأن لكل فرد موقع خاص به يصعب تجاوزه بفعل الموروث القبلي والأعراف السائدة. أما العامة داخل المجتمع البدوي القبلي فسنتعرض إلى ذكرها في ظل هذه المعطيات.

2: عامة البادية:

1- المزارعين:

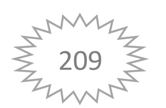
تميزت العلاقات بين العامة من المزارعين وأصحاب الأراضي الذين عرفوا "بأرباب الأراضي" بالفتور وذلك من خلال استغلال هؤلاء الفلاحين في خدمة الأرض إما عن طريق شريك أو أجير أو خماس أو عبد.

فإذا كان في المغرب الإسلامي ظاهرة الشراكة في العملية الزراعية وفي الإنتاج، فقد اختلف في طبيعة هذه الشراكة بين مالك الأرض والعامل الذي سمي بالخماس في المدونات الفقهية التي حرصت على إيجاد معيار موحد لتقويم العناصر الأساسية المكونة للشراكة من أرض، وبذور، وآلة ودواب، وعمل، وقد حرص الفقهاء المالكية على مزج للشراكة في كل مقومات الإنتاج لتكون المسؤولية مشتركة بين الشريكين، إلا أنه على مستوى الواقع تم الاختلاف في دلالة الشريك والخماس[2].

---

[1] – كربخال مارمول، مصدر سابق، ج2، ص07.

[2] –البرزلي، مصدر سابق، ج3، ص406-408



ظل الزراع يشكلون قطاعا هاما من الوافدين على المدن لبيع منتجاتهم الزراعية أو بحثا عن العمل في المدينة بعد أن ضاقت بهم الآفاق وظروف العيش في البادية[1]. واستغل هؤلاء الشيوخ أفراد القبيلة استغلال نسبيا مثل المزارعين الذين فقدوا مورد عيشهم، وهو ما عبرت عنه إحدى النوازل الواردة عند الونشريسي فقد سئل "مفتي فاس أبو الحسن الصغير الزرويلي عن بيع المضغوط" فكانت الإجابة بعدم جواز بيع المضغوط إن علم المشتري[2]" أي أن البيع باطل.

ونظرا لما كان يعانيه هؤلاء الفلاحين من فقر وبؤس فلم يعد أمامهم سوى العمل لدى هؤلاء الأعيان كعمال موسمين أثناء فترات الحرث والبذر والتنظيف والتزييل والحصاد والقطف والجني والحراسة والسقي وغيرها من الأعمال[3]، مقابل أجرة زهيدة[4]، لم تتعدى في أحسن الأحوال تحصيل بها القوت، بل وأمسى الإلتقاط الذي كان يخرج إليه فقراء البوادي في كل موسم حصاد غير مسموح به لأنه دخل في الأجور[5].

فازدادت بذلك حياة الفلاحين بدون أرض بؤسا وفقرا[6]، وقد تدهورت حالتهم إلى درجة أنهم أصبحوا تحت رحمة صاحب الأرض، يقوم بأعمال شاقة لا علاقة لها بالعمل الفلاحي، فهو إلى جانب كونه كان "يحرث وينقي ويرفع الأغمار ويدرس وينقل السنبل إلى مكان درسه وتصفيته" فإنه كان يشترط عليه "القيام بالبقر والإحتشاش له وحمل الحطب و استقاء الماء إن احتاج إليه"[7]، وهو

[1] – إبراهيم القادري بوتيشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ص 176.

[2] – الونشريسي، المعيار، ج10، صص173-270.

[3] – أبو العباس الونشريسي، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، تح: أحمد بوطاهير الخطيبي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1980، ص260.

[4] – القباب أبو العباس، أسئلة وأجوبة، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم : 1447 ضمن مجموع، ص 214. نقلا عن محمد ياسر الهلالي، ص 114.

[5] – المرجع نفسه، ص 114.

[6] – محمد الطويل، الفلاحة المغربية في العصر الوسيط، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1988، ص 92.

[7] – الونشريسي، المعيار، ج 8، ص 151.

الأمر الذي عبر عنه مرمول في وصف هذه الفئة بمدينة المرسى في قوله"وكان سكانها في تلك الجهات أناس مساكين من الفلاحين"[1].

هكذا يتضح أن طرق الاستغلال الزراعي ومن خلالها ملكية وسائل الإنتاج كرست واضطلعت بدور أساسي في تحديد التراتبية الاجتماعية في مجتمع البادية بين فئة تحكمت في جزء من الأرض بطريقة أو بأخرى، وبين فئة عملت بطرق مختلفة لاستغلال هذه الأرض.

2-الرعاة:

يعد الرعي من أقدم ما عرف الإنسان من مهن، وعليه قامت حياة الشعوب كاملة طيلة حقبة من الزمن، وانتشرت الأنماط الرعوية ببلاد المغرب الإسلامي إما عن طريق الرعي في المناطق العشبية أو المزارع التي تنتج الأعلاف، وإما عن طريق الرعي المتنقل في الأقاليم الصحراوية[2].

يحتل الراعي مكانة هامة في ظل المجتمعات الرعوية، إذ يمثل عنصرا أساسيا في الإنتاج، لكن ما يشد الانتباه هو تغيب دور الراعي من المصادر التاريخية المتنوعة، ما عدا بعض الأمور المتعلقة بقضايا تضمينه إن فرط أو تعدى، وربما يرجع السبب حسب قول الباحثة بلهواري فاطمة إلى طبيعة إهمال الكتابة التاريخية لهذا الصنف من الفئات الاجتماعية[3]، مثلها مثل باقي الفئات الدونية الأخرى التي غيبت وطمست من المصادر التاريخية.

وينقسم الرعاة حسب طريقة رعيهم وتحركاتهم بقطعانهم إلى قسمين: الرعاة المستقرون والرعاة الرحل[4]، وكان الكثير من أصحاب المواشي يتخذون العبيد كرعاة لماشيتهم،كما كانوا يستأجرون رعاة لرعي غنمهم فهذا الونشريسي يدلي في إحدى النوازل "أن الجزارين كانوا يجمعون شياههم في قطيع

---

[1] - مرمول كربخال، مصدر سابق، ص61.

[2] - نوال بلمداني، نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (4-5هـ/10-11م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، غير منشورة، جامعة وهران، 2013، ص201.

[3] - فاطمة بلهواري، النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري- العاشر ميلادي ،دورية كان التاريخية، ع/8، 2010، ص29.

[4] - موسى هواري، تربية الحيوانات في بلاد المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين (1-7هـ)/(7-13م) ، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، غير منشورة، جامعة الجزائر، 2009، ص105.

ويؤجرون عليها راعيا[1]، وفي نازلة أخرى أن رجلا استؤجر على رعاية بقر لكنها أفسدت بالليل زرعا[2]. أما المستوى المعيشي لمن مارس حرفة الرعي فلم يكن جيدا، والغالب على أصحابها الفقر[3]، وهو ما زكاه صاحب "وصف إفريقيا" " ويعيش الرعاة في ضنك سواء أهل الجبال أو أهل السهول، وذلك لقلة مواردهم فهم في بؤس مقيم وفاقة مزرية، وهم جفاة، ولصوص وجهال، لا يسددون ما اقترضوه"[4].

والظاهر من خلال ما تم عرضه يتبادر للذهن أن هناك علاقة وطيدة بين ذلك التراتب الاجتماعي الذي ترامت جذوره داخل مجتمع المغرب الإسلامي، وبين انتشار مظاهر الفقر واستئصالها داخله، فالمعتبر في القول أن الأوضاع المزرية التي كانت تعيشها الفئات العامة الضعيفة في المجتمع،لم تكن وليدة العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية فقط بل كانت أيضا نتاج التمايز الطبقي في مجتمع اتسم بالتنوع والتجانس في عناصر تكوين مجتمعه. ولإظهار ذلك كان لزاما علينا دراسة مظاهر الفقر داخل مجتمع المغرب الإسلامي، ففيما تمثلت تلك المظاهر؟.

ثالثا:مظاهر الفقر بمجتمع المغرب الإسلامي

الفقر ليس ظاهرة اجتماعية غريبة عن المجتمعات إذ الواقع أن كل مجتمع يفرز فقراءه، بل أصنافا عديدة من الفقراء، ويمثل هؤلاء الفقراء الخارجين إلى الدنيا بغير علم، هم الضحايا البارزون لكل ضروب العنف والاختلال في المجتمع[5]. وذلك بحسب الظروف الطبيعية الخاصة بكل مجتمع، وبحسب أحواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية والذهنية. فلا طالما اعتبرت مظاهر الفقر بمثابة الوجه الآخر و"السلبي"لتاريخ الدول والملوك.

---

1 – الونشريسي، المعيار، ج8، ص341.

2– المصدر نفسه، ج8، صص239، 226.

3 – نوال بلمداني، مرجع سابق، ص211.

4 –الحسن الوزان، ج2، ص98.

5 – سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1997، ص9.

إن في الكشف عن أسعار المواد الاستهلاكية في الحياة اليومية لبلاد المغرب الإسلامي، ومقابلتها مع الدخل الزهيد للعمال والصناع، وصغار التجار، والباعة في الأسواق، علاوة على المعدمين من أهل البطالة. هذه المظاهر توحي بانتشار الفقر داخل مجتمع المغرب الإسلامي، بما فيها طبقة العامة، وحتى بعض الأوساط من الوجوه العلمية. وعليه يمكن أن نتساءل: فيما تجسدت مظاهر الفقر داخل مجتمع المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ؟.

تشمل مظاهر وخصائص ظاهرة الفقر مجموعة من الأساسيات الإنسانية مثل الحاجة إلى الغذاء من مأكل ومشرب والحاجة إلى اللباس والمسكن، كما تتعلق بالأشياء التي تقوم عليها حياة الإنسان.

ولعل طرق عنصر كهذا ليست مادته جاهزة أو متيسرة، يجعلنا نصطدم بصعوبات جمة من جهة وفور مادته المصدرية في مختلف المصادر التي تتناول العوز الكمي للفقراء[1]، على أنه ينبغي بالخصوص أن يتوفر بالنسبة إلى كل عنصر محدد بهذه الصورة (المأكل والملبس والمسكن) ما يكفي من المعلومات ، إلا أن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلينا. فلا نكاد نجد عند المؤرخين الإخباريين ما من شأنه أن يبلور هذا العنصر وينفع حقا في طرحه وتمثله، لأن جل المصادر لم تولي اهتمام كبير للحديث عن مظاهر الفقر، إلا بعض الإشارات هنا وهناك، خاصة عن الحياة البدوية وحياة كثير من الجماعات المقيمة في الجبال أو الواحات الجنوبية، وذلك ما لاحظه الباحث أركون وعبر عنه في قوله"كل الجانب غير المكتوب وغير الحضري، وغير النخبوي للحياة الاجتماعية والثقافية"[2]، ونتيجة لذلك إتخذنا الطريقة المقدوح فيها والمتمثلة في تطبيق نتائج بعض الملاحظات الأقرب عهدا، على الماضي، من باب الافتراض، على أن نرضى ببعض الثغرات ونكتفي بقدر المستطاع بتجميع المعطيات القليلة التي أثبتت المصادر وجودها، محاولينا رفع بعض المعوقات بالاعتماد على بعض المقاربات المحددة في المكان والزمان.

1– الغذاء:

[1] - المرجع نفسه، ص9

[2] –محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، بيروت، 1986، ص28.

الكل يعلم أن فئة الفقراء والمساكين وأهل الاحتياج ومن لا يقدر على الكسب يحتلون مرتبة الأولوية فيما جرى من الأرزاق والنفقات والصدقات[1]. وهو ما عبر عنه أحد المؤرخين عن إطعام الفقراء في قوله "وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا في سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه"[2].

يعتبر الغذاء مظهر من مظاهر الفقر، لأنه المحدد الأساسي في معيشة المرء، والظاهر أنه كان هناك تباين في التغذية بين مختلف مناطق المغرب الإسلامي وبيئاته، وبين شرائح المجتمع وفئاته، وحسب مستوياتهم المالية، لذلك تمايزت أنواع الأطعمة في كل من كتب التراجم والطبقات بين الأكلات الرخيصة والمترفة، فالفئات الراقية كانت تستهلك الخبز الأبيض المصنوع من القمح[3] الذي يكون دقيقه أبيض خالص[4]. في حين كان طعام الفئات الضعيفة هو الخبز وكل ما يصنع من الحبوب كالحنطة والشعير لتوفر زراعتها ببلاد المغرب الإسلامي[5]. فأكلات العامة على العموم كانت بسيطة جدا، فقد كان الغذاء العادي لسكان إفريقية مقتصرا على عدد قليل من المواد الأساسية كالحليب والزبدة والتمر والتين والزيتون والحبوب، من الحنطة أو الشعير إضافة إلى زيت الزيتون اللذان يمثلان حسب ابن خلدون الغذاء الأساسي بالنسبة إلى عامة المستهلكين في قوله" ولا مثل أهل إفريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت"[6]، يظهر من النص أن خبز عامة الناس وباقي فئات الطبقة الدنيا في المجتمع، كان خبز الشعير، وما عزز الطرح أكثر شهادة الوزان في قوله"علمت أن أحد

[1] -محمد ذياب، الفكر الاقتصادي عند أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي-دراسة تحليلية لكتاب الأموال- رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة باتنة، 2006-2007، ص152.

[2] - صالح صالحي، الآليات المؤسسية لعلاج ظاهرة الفقر في الاقتصاد الإسلامي والنتائج المتوقعة لتطبيقها في الاقتصاد الجزائري، رسالة ماجستير في الاقتصاد الإسلامي، غير منشورة، 2011، ص67.

[3] -قيل عنها: القمح يا باهي اللون *** من شبعتك لا زيادة / أنت قوت كل مسكين***بك الصلاة والعبادة /ينظر: صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص43.

[4] -الحسين فقادي، من مظاهر التغذية في تاريخ المغرب الوسيط، مجلة أمل - التاريخ ،الثقافة، المجتمع- مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ع/16، السنة السادسة، 1999، ص36.

[5] - دلال لواتي، مرجع سابق، ص 239.

[6] - ابن خلدون، المقدمة، ص98.

كبار الموظفين كان يتلقى كل سنة كمية كبيرة من الشعير فظننت في أول الأمر أنها مخصصة للخيول، وعندما أنكر المعني بالأمر ذلك، سألته لماذا تصلح فتغير لونه (علامة على ما شعر به من خجل) وأفصح عما كان يريد إخفاءه. فاستفدت أن تلك الحبوب مخصصة لاستهلاكه الشخصي"[1].

إن المتوفر من النصوص تكشف أن أغلب سكان البوادي كانوا يطحنون حبوبهم في أرحاء يدوية وبأيدي نسائية، كانت المرأة تطبخ الخبز في التنور بحيث تلصق أقراص العجين في جوانبه، أو في حفرة بها رماد شديد الحرارة، أما في المناطق الصحراوية ذات المناخ الجاف والحار فإن الرحل منهم من كان يقضي عمره وما رأى خبزا ولا أكله، إلا أن يمر التجار فيزودونهم بالخبز والدقيق[2].

وكان أكل "الكسكسي"[3] علامة على حد أدنى من الرفاهة، هذا الطعام الذي شاع انتشاره في بوادي وحواضر مغرب العصر الوسيط، واختلفت أنواعه حسب المناطق وإنتاجها الفلاحي، وكذلك تبعا لمستوى عيش الأفراد والجماعات، فالمستضعفين كانوا يأكلون الكسكسو الذي يحضر بدون لحم، ويسمى بالبركوكس أو البركوكش ويندرج ضمن الأغذية الشعبية، وهو المعروف عند المشارقة بالمفتلة،

يخلط بيسير من السمن أو الزبد[4]، إضافة إلى طعام الفداوش... والمحمصة[5]، أما الطبقات الراقية كان يقدم لهم الكسكسو المصحوب باللحم والخضار وهو كثير الاستعمال[6]، لم تكن تتمتع به أغلبية التونسيين، ذلك أن السواد الأعظم من سكان المناطق الساحلية في تونس، يكتفي عادة بطعامين مصنوعين من دقيق الشعير والزيت والماء، لا غير، وهما"البسيسة"وبصورة أعم "البازين"[7] وذلك ما أشار إليه كربخال عن غذاء فقراء تونس في قوله "أما فقراء الناس فأكلهم دقيق الشعير دون طبخ

[1] – الحسن الوزان، ج2، ص 457.

[2] – الحسين فقادي، مرجع سابق، ص36.

[3] – هذا الطعام الذي قال عنه المقري" مما يعتاده المغاربة ويشتهونه على كثرة استعمالاته"ينظر/ أبو العباس المقري، نفح الطيب، ج5، ص258.

[4] –ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص159.

[5] – المصدر نفسه، ص197.

[6] –الحسين فقادي، مرجع سابق، ص38.

[7] –ابن عذارى، مصدر سابق، ج1، ص27/ الدباغ، معالم الإيمان، ج1، ص63./ الوزان، ج2، ص 457.

يغمسونه في الماء أو الزيت، ويمرسونه، ثم يتناولونه[1]، بالإضافة إلى أكلهم روينة الشعير التي تصلح لتغذية البشر والدواب[2].

كما كان الخبز يصنع أحيانا من دقيق الذرة، لدى الفقراء، أو مخلوطا بدقيق حبوب أخرى حتى يجد إقبالا على التهامه، ومن هذا الدقيق كانت النساء تصنعن عصيدة تسمى محليا "تشيشة"وهي مشهورة يتم تناولها باللبن والحليب وأحيانا أخرى بالسمن، كما تصنع أيضا من دقيق الشعير خاصة المتقادم منه، ويسمى حائل أو بوحمرة، ولمرارته يستعان على استهلاكه باللبن والحليب[3].

أما لحم الفقراء المعدمين فكان لحما رديئا جدا، مصنوعا من بازين الشعير[4]، أو كان يتمثل أيضا في قديد العيد و"كرداسه"، وفي لحم الحلزون التي تلتقط منذ الربيع وسط الحقول وكذا صغيرها الذي يسمى محليا ب"غلالة"من فروع الأشجار، إضافة إلى سمك الأودية والغذران يصطاده أساسا الأطفال ، فضلا عن كميات الجراد الذي يجمعه الفلاحون ليلا من المزارع،كما كان الدجاج غالبا ما يربى للحمه وبيضه كوسيلة تغذية رهن الإشارة عند أي طارئ[5]. والملاحظ أن أكل اللحوم عند العامة إن وجدت تكون مصحوبة بالطحين أو بالخضر أو بالخبز، لأن غالبا ما تكون كمية اللحم هزيلة وقليلة، ويكون عزيزا على مدار السنة إلا في المناسبات الكريمة حول موائد عيد الأضحى وعاشوراء[6].

إلا أن الأطعمة العادية لأغلبية السكان، لئن كانت قليلة الوفرة والتنوع نسبيا، وبعيدة المنال أحيانا عن الفقراء والمحتاجين، فإنها تكاد تكون كافية في الظروف العادية، ولكن الأمر يعتبر بدون شك أخطر وأعظم على الفئات الدونية أوقات المحن والشدائد، حيث ألجأت الكوارث الغذائية الفقراء وغيرهم من الشرائح الاجتماعية الدنيا إلى تناول أغذية أسوأ بكثير مما اعتادوا تناوله، تفتقر فيها أدنى

[1] – مرمول كربخال، مصدر سابق، ص21.

[2] –روبار برونشفيك، مرجع سابق، ج2، ص284.

[3] – الحسن شوقي، **مجمل عن الطعام والشراب في القبائل المغربية –نموذج : قبيلة السراغنة– مجلة أمل**، مطبعة النجاح الجديدة، السنة السادسة، ع/16، 1999، ص103.

[4] – الحسن الوزان، ج2، ص 471.

[5] – الحسن شوقي، مرجع سابق، ص105.

[6] – الحسين فقادي، مرجع سابق، ص43.

الشروط الصحية (حشائش، جذور نباتية، مواد عفنة، جيف، لحوم محرمة...)[1]، وحتى التي ليست لها قيمة غذائية"كاستعمال نشارة النخل لإعداد الخبز" أيام مجاعة جربة سنة(709هـ/1311م)[2].

كما لجأ البعض إلى أكل الأغذية حتى وإن كان بها نجاسة على حد ما ورد عند الونشرسيي في إحدى نوازله" أن شخصا سئل عمن عجن دقيقا كثيرا للخبز فظهر أن الماء الذي عجن به وقعت فيه فأرة، وكان الزمان زمان مسغبة"[3]، وهو نص يعطي دلالة على أهمية الدقيق لصاحبه بسؤاله في جواز أكله أم لا؟ خاصة إذا ما تعلق الأمر بزمن مسغبة، بعيدا وبغض النظر عن استفسار صاحب الفتوى للمضار التي تنجم عن النجاسة الحاصلة في الطعام وخطرها على صحة الإنسان.

وأمدتنا المصادر النوازلية بصور ذات دلالة عن طبيعة الطعام ومستواه، مثلما ورد في إحدى النوازل"سئل أحد عن من يأتيه أضياف متباينون ويطعمهم على حسب هممهم، ومراتبهم يطعم الجيد لمن يخشى أن يمزق عرضه ودون ذلك لمن يأمن من جانبه كالفقير والمسكين"[4]. وهو نص يبين ويوضح مستوى طعام كل فئة من المجتمع فالطعام ذو الجودة العالية يقدم للطبقة الراقية ومادون ذلك يقدم للطبقة الدنيا كالفقراء والمحتاجين.

وكانت شدة الفقر على العامة من الناس، سواء في الأوقات العادية أو الأزمات ضرر كبير عليهم وحال ذلك ما عبر عنه مرمول في قوله عن سكان الحمامات"وسكانها أناس فقراء من صيادين وغسالين وفحامين يرمقون العيش"[5]، هذه الظروف وتلك ألجأت الكثير من المعوزين إلى طلب الزكاة، فهذا الونشريسي يورد لنا في إحدى نوازله، عمن وعد سائلا بالزكاة ثم دفعها لآخر حسب نص الفتوى"سئل بعض الإفريقيين عمن طلبه سائل فوعده لوقف كيل الناس، فلم يأت في ذلك الوقت فأعطاه لآخر ثم جاء يطلبه"؟ وهو نص يبين لنا طلب الفقراء للزكاة قبل حلول أجلها، وكثرة الفقراء

[1] – ويقال في هذا الباب هذا المثل: "بالجوع كيرضى السبع بالجيفة"/ الحسين فقادي، مرجع سابق، ص49.

[2] – روبار برونشفيك، ج2، ص285.

[3] –الونشريسي، ج1، ص164.

[4] – المازوني، مصدر سابق، ج5، ص 100.

[5] – مرمول كربخال، مصدر سابق، ص63.

والمحتاجين السائلين لها[1]. وهناك نص نوازلي آخر عند الونشريسي يفتي فيه القابسي عن جواز شراء الطعام للفقراء من الزكاة أيام المسغبة حسب نص النازلة"سئل الشيخ أبو الحسن القابسي عمن وجب عليه الزكاة، فربما جاز به الرجل المريض والمرأة المريضة والصبي من هؤلاء الضعفاء وهو يصيح من الجوع، فهل يجوز له أن يشتري لهم الخبز ويعطيهم؟ فأفتى بإجازة ذلك[2]. والحال نفسه بالنسبة للفقيه أبو عبد الله الزواوي الذي سئل عن شخص فقير محتاج يملك أرضا لا تقوم به منافعها، فإن باعها ضاع حاله أبدا، هل يعطى من الزكاة أم لا، فكان جوابه بالوجوب تقنينا لحالته الميسورة[3].

كما اختلفت مظاهر الفقر في الغذاء بين عامة المجتمع المريني، فالملاحظ أيضا أن طعام العامة قد أختلف عن طعام الخاصة،كما أختلف بين العامة أنفسهم، فأختلف كما ونوعا حسب الجهات ودرجة تقدمها حضاريا[4]، ومثال ذلك نجده في مدينة فاس فمن عادة سواد الشعب، فيما يتعلق بغذائهم، تناول اللحم الطازج مرتين في الأسبوع، ولكن الطبقة الراقية يتناولون اللحم مرتين في اليوم حسب شهيتهم[5].

وإذا ما اعتبرنا أن التغذية تختلف عن الأحداث العسكرية والسياسية، من حيث تطورها الذي يتميز بالبطء، على حد قول بعض الدارسيين فألف عام لا يأتي بكثير من التغيير، حين يتعلق الأمر بتاريخ التغذية، وأن المطبخ يقاوم الغزو. والتغذية ظاهرة ثقافية-اجتماعية[6]، "فطعام الإنسان كما قال بروديل يحمل شهادة على مكانته الاجتماعية وعلى الحضارة والثقافة المحيطة به"[7].

[1] -الونشريسي، ج1، ص371.

[2] -المصدر نفسه، ج1، ص385.

[3] -المصدر نفسه، ج1، ص390./ المازوني، الدرر، ج1، ص344.

[4] -جمال طه، الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي، -عصري المرابطين والموحدين-دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ،الإسكندرية، ط1، 2004، ص194.

[5]-الحسن الوزان، ج2، ص 256.

[6] -الحسين فقادي، مرجع سابق، ص34-35.

2- fernandes.Braudel :Civilisation materielle et capitalisme xvéxvIII .S les structures du-quotidien paris, 1979 ,p,81.

لأجل ذلك أحدثنا إسقاطات على بعض الأغذية التي تناولتها عامة الموحدين معتمدين على كتاب ابن زهر الذي يؤرخ للعهد الموحدي، وذلك على أساس اعتبار الفترة الزمنية بين العهدين غير بعيدة كثيرا، كون أن طعام العامة من المساكين والفقراء المرنيين كان لا يختلف كثيرا عن نظيره لعامة الموحدين، فنجد أن غذاء العامة المساكين كان من أخبازا كثيرة أصولها من حبوب رديئة مثل حب شجرة الأرز التي قال عنها ابن زهر أنها رديئة غير موافقة بوجه ولا حال[1]،كما كانوا يستخدمون البر غير منخول في أكلهم[2]، ويأكلون نوعا من الطبيخ اسمه البيسار الذي مزال إلى اليوم مأثورا لكل الناس، مستهلكا لاسيما في فصل الشتاء[3].وانفرد أهل عشيرة بني يوسف بالمغرب الأقصى في طعامهم حسب قول الوزان "حيث كانوا يمزجون الذرة البيضاء مع بذور العنب ويعملون منها دقيقا ويصنعون من هذا الدقيق خبزا أسودا كريه المذاق مزعج النظر، وكانوا يأكلون الكثير من البصل وينابيعهم عكرة المياه"[4].

وبالمثل أكل أهالي مجتمع المغرب الأقصى زمن الشدائد الجراد، فقد عرض صاحب فضالة الإخوان وصفة بسيطة لتجهيز أكلة الجراد الذي كان يجتاح بلاد المغرب، في طبق زهيد[5]، وأشتهر أهل السوس بأكلهم الجراد أكلا كثيرا، بالإضافة إلى أكل الناس قشور الفول[6]. ويذكر الوزان أن نمط غذاء سكان مراكش هو أكل خبز الشعير[7]، ويرد ضمن قائمة الأطعمة المستخرجة من عروق الأرض إبان المجاعات مصطلح"أربي"وهي عروق الأرض التي يأكلها الناس في الغلاء، وقد كانت شائعة الاستعمال في الأندلس كما في المغرب. فبعد استخراجها من باطن الأرض وتجفيفها تطحن فيصنع

---

[1]- جمال طه، مرجع سابق، ص195

[2] – المرجع نفسه، ص 194.

[3] – المرجع نفسه، ص 201.

[4] –الحسن الوزان، ج2، ص334.

[5] – جمال طه، مرجع سابق، ص203.

[6] – ابن الطواح، سبك المقال لفك العقال، ص 119.

[7] –الحسن الوزان، ج2، ص 108–109.

منها رغيف لسد الرمق[1]. كما كان الحساء طعام الفقراء، وهو طعام بسيط يصنع من الشعير كحساء سكان درعة[2].

ويشير الوزان إلى أنه رغم البحبوحة التي يعيشها الكثير من شرفاء وكبار الشخصيات من الدولة بالمغرب الإسلامي فهي في نظره طريقة عيش بائسة حقا، بالموازنة مع أسلوب الحياة الدارجة بين نبلاء أروبا بل يراها رديئة بالمقارنة بهم، وهذا ليس لقلة كمية الأغذية ونوعها ولكن للعادات الخشنة والخالية من النظام في تناول طعامهم، فيذكر "أنهم يأكلون على الأرض، أو فوق موائد واطئة، بدون فوطة، ولا أي سماط من أي نوع كان، ولا يستخدمون أية أدوات إلا أيديهم، وعندما يأكلون الكسكسي، يتناول كل الضيوف طعامهم من نفس القصعة دون ملعقة،...ويأخذ كل واحد منهم قطعة اللحم التي تروق له ويضعها أمامه دون تقسيم، ولا تستخدم السكين، بل يقطع اللحم بالأسنان قدر الاستطاعة مع احتفاظ الباقي باليد، وهم يأكلون على عجل، ولا يشرب أحد قبل أن يشبع، وعندها يرتوي من طاسة ماء سعتها بوكال أي حوالي 1.823 لترا "[3].

وبالمثل ذكر ابن الزيات شظف وعيش الفقراء والمساكين، وحاجتهم إلى الطعام في قوله " أن أبي يعقوب الحكيم أصابته فاقة من توالي الأمطار، وكان لا يمسك شيئا، فأقام يومين وليلتين لم يأكل شيئا، فرهن سراويله في قيراط، واشترى رغيفين وسمنا"[4]. وبالمثل تحدث عن بعض الفقراء الذين أنهكهم الفقر ومنهم أبو العباس أحمد كان عبدا صابرا على شدة الفقر، حتى قيل عنه أنه مات ولم يكن عنده شيء يكفن فيه، فأرادوا أقوامه أن يجمعوا له ثمن كفن[5]. والحال نفسه عن العالم الزاهد الصوفي أبو علي ناعم، أنه كان يقوم بجمع أوراق الشجر فيجففها ويطحنها ثم يقتات بها[6]، وإلى جانب فقر الأشخاص كانت هناك مدن بأكملها تعيش في فقر مزمن حسب شهادة مرمول فإن سكان مدينة

[1] -إبراهيم القادري بوتشيش، ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات :المغرب والأندلس من(ق 6-8هـ)، ص37.

[2] -الحسين فقادي، مرجع سابق، ص38.

[3]- الحسن الوزان، ج2، ص 256.

[4] -ابن الزيات، التشوف، ص 403.

[5] -المصدر نفسه، ص 383.

[6]- ابن الزيات، التشوف، ص 419

بنزرت كانوا يعيشون في فقر مدقع[1]، وربما كان مرد ذلك راجع إلى تعنت السلطة ضدهم بفرض ضرائب كبيرة عليهم، أو نهب منهم أراضيهم بدون أي تعويض لأجل استخدامها في أغراضهم الشخصية والتي كثيرا ما تكون تحت رعاية أصحاب الجاه والسلطة.

وإذا كانت الطبقات المترفة تجعل من حرفة الصيد للمتعة، لاغير. فإن عامة الرعية وفقراؤها كانوا يمارسون الصيد البري من أجل سد رمقهم، أو لأجل بيع منتوجهم، واستفاء ثمنه لشراء ما هو ضروري لهم، ومثال ذلك ما كان يقوم به سكان مدينة بادس "...ولهذا كان من عادة الفقراء الذهاب صباحا تقريبا لساحل البحر لتقديم العون للصيادين الذين يكافئونهم بأن يتركوا لهم قسما طيبا من السمك الذي يصيدونه... "[2].

والظاهر أن طعام الفئات العامة بالمغرب الأوسط من فقراء ومحتاجين، كان ليس بأحسن حال من طعام الفئات الضعيفة بالمجتمع المرييني والحفصي، لاسيما أيام المجاعات الدورية التي عصفت بالمغرب الأوسط خلال فترة مدار البحث، والتي أحدثت تحولا في حياة الفرد الزياني، بانعدام الأقوات ونفوض الغلات وقلة مردودية الأرض، فأهلك الإنسان والحيوان معا[3]، وما يعزز هذا الطرح ما تناثر في كتب النوازل والفتاوى من إشارات حول استهلاك بعض الأغذية قبل نضجها، صحيح أنها لم تشر بصراحة إلى ارتباط الفعل بمسبباته المتمثلة في الظروف المناخية الصعبة والكوارث الطبيعية والبيئية القاسية من مجاعات وقحوط وأوبئة، لكنها أشارت إليه بإيماءات ضمنية حين استعملت مصطلح "الحاجة" التي هي تعبير عن الضرورات الغذائية للفئات المحتاجة[4]. وفي هذا المعنى سئل الونشريسي حول "أكل الفول قبل يبسه، وإعطائه على وجه السلف لسد رمق الجوع"[5]، مما ينهض دليلا على أن

[1] – مرمول كربخال، مصدر سابق، ج3، ص10.

[2] –الحسن الوزان، ج2، ص 328.

[3] – عبد العزيز فيلالي، ج1، ص 253،.

[4] – إبراهيم القادري بوتشيش، ثقافة الطعام وتنوع خطابتها في زمن المجاعات، ص 33.

[5] –الونشريسي، المعيار، ج6، ص 44.

الحاجة المتولدة عن أزمة الغذاء كانت تختزل الزمن المألوف، وتستبق حدوث المجاعة والفقر، فيصبح إكتمال نضج الطعام اكتمالا "طبيعيا" لحاجة بيولوجية رغم ما فيه من اختزال زمني[1].

وكان الغذاء الرئيسي للفئات الضعيفة بالمجتمع الزياني هو خبز الشعير، ومثال ذلك ما أورده لنا صاحب البستان في قوله" أن الشيخ العالم أحمد بن الحاج البيدري، الذي كان يأكل خبز الشعير بلا إدام، وورد عنه أنه قال بشأن عيشة الضيق "يا ولدي نحن ممن ضيقت عليه الدنيا"[2].كما جعل بعض العشائر الذين يقطنون بجبال مملكة تلمسان كبني سناسن، من عشبة الخروب غذاء رئيسي لهم في بعض الأحيان[3]، ويذكر صاحب المعالم أن طعام الفقراء كان مقتصرا على خبز الشعير المصنوع من الدشيش (الجشيش)[4] أو أكل الخبز واللبن[5]، ونظرا لخصاصة الطبقة الفقيرة ربما احتاجوا لطبخ مأكولاتهم على بعض الأزبال اليابسة أو عظام الميتة، إن لم يتوفر لهم الحطب، خاصة أيام الشتاء القارص أو زمن السيول والفياضات الجارفة، وقد أجاز ابن رشد أكله تحت غطاء مبدأ الضرورة يبيح المحضورة، على خلاف أبو عمران الذي حرمه[6].

وعلى العموم فقد لخص الحسن الوزان طعام الأفارقة في نص كاف شاف مفاده "أن أفقر نبيل في ايطاليا يوفر ما لذّ وطاب من المآكل، أحسن من أكبر سيد في إفريقيا"[7].

2- اللباس:

من المؤكد أن اللباس كان يعكس الفروق الاجتماعية بين طبقات المجتمع من خاصة وعامة، أكثر مما كان يعكسها الغذاء، فالزي يحمل من الدلالات والعلامات ما يفصح عن الاختلافات

---

[1] -إبراهيم القادري بوتشيش، المصدر السابق، ص33.
[2] – ابن مريم المليتي، البستان، ص 72.
[3] – الحسن الوزان، ج2، ص414.
[4] – الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص322.
[5] – ابن الزيات، مصدر سابق، ص302.
[6] – البرزلي، مصدر سابق، ج1،ص162.
[7] – الوزان، ج2، ص 256.

العميقة بين مكونات مجتمع المغرب الإسلامي[1]. وإذا كانت المعلومات حول لباس العامة قليلة جدا، فما وجدناه من صور عن تلك الألبسة التي تشير إليها مصادرنا في بعض الأحيان ،جاء دون تحديد لشكلها ونوعها، فالنصوص تقتصر على وصف اللباس إن كان "حسن" أو "رث".

ويصعب البحث في ملابس فقراء ومساكين المغرب الإسلامي، والتي بالطبع تختلف عن اللباس الذي يرتديه الأغنياء وذلك راجع إلى المستوى المعيشي لكل فئة، وهو ما حظي بالاهتمام في المصنفات التاريخية لما يتعلق الأمر بإضفاء الوجاهة والهيبة والوقار لمن يؤرخون لهم. وحسبنا أن نوازل الفترة وكتب الرحلات الجغرافية لم تبخل عن ذكر بعض الصور الحية التي رصدت ألبسة الفقراء المحتاجين ومدى الحرج الذي تعرضوا له بسبب رداءتها ونجاستها. ودائما ولنقص المادة المصدرية في هذا العنصر اعتمدنا على ما جاد به بعض الرحالة الجغرافيين، على اعتبار أن مظاهر اللباس بين العامة لم تتغير كثيرا.

ويبدو أن لباس الطبقات السفلى من المجتمع الحفصي، اتسم بالرداءة أكثر فأكثر، وهذا ما لاحظه الرحالة أدورن في مدينة تونس خلال القرن التاسع هجري (15م) عن الفقراء والعملة اليدويين حيث يصفهم في قوله "كانوا يمشون حفاة بدون سراويل، مكتفين عادة بارتداء ثياب قصير، بدون أي زخرف، يغطيهم إلى حد الركبتين"[2]. والظاهر أن مجمل الفئات العامة بمدينة تونس كانوا يرتدون ملابس على حالة يرثى لها، وذلك ما لمح إليه الوزان عند وصفه لسكان مدينة المنستير في قوله"... سكانها فقراء مدقعون إلى درجة التسول، فهم يلبسون ثيابا رثة وخشنة ويضعون في أرجلهم نعالا من القصب البحري"[3]،كما أبدى أحد المسافرين الأجنبيين نفس الملاحظة حول اللباس بمدينة تونس،

[1] – محمد بلحسان، قضايا مجتمع المغرب الأوسط من خلال كتب النوازل مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين (13-15م) ، ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة معسكر، 2014/2013،ص134.

[2] – روبار برونشفيك، مرجع سابق، ص 289.

[3] – الحسن الوزان، ج2، ص 457./ ابن ناجي، مصدر سابق،ج3، ص154.

حتى وإن كان بعد القرن التاسع بقليل إلا أن المظاهر بقيت نفسها فقال"إن معظم الرجال يمشون حفاة، ولا يرتدون سوى رداء مصنوع من القماش الخشن... ولا ينتعلون أي حذاء"[1].

والحال نفسه ميز لباس الطبقات العامة من مجتمع المغرب الأقصى، فهذا الوزان يصف لنا لباس أهل مراكش في قوله "يرتدي أكثر الناس لباسا مؤلفا من قطعة قماش صوفية تدعى "الكسا"...ويضعون فوق رؤوسهم قطعة من قماش من نفس الصوف، طولها حوالي عشرة أشبار...وعوضا عن المقاعد فإنهم يستعملون حصيرا"[2]، وهو ما أكده بن خلدون بأن أكثر لباس العامة من الصوف، ويفرغون عليها البرانس الكحل[3]، والمرجح أن هذا كان في فصل الشتاء لأنه من المستحيل ارتداء ثياب الصوف في الصيف، كما يستعملون الرماد لغسل ملابسهم بدل الصابون الذين لا يعرفون كيفية صنعه واستعماله[4]، ويذكر في موضع آخر أن لباس عامة الشعب من الفقراء بمدينة فاس كانوا يكتسون بسترة وبرنس من قماش أبيض، منسوج من صوف بلدي خشن[5]. ولعل شهادة مرمول عن لبس سكان بني بوشييت تكفي للتعبير عن درجة الفقر والبؤس الذي طالهم "كانوا يلبسون مباشرة على جلدهم منسوجات صوفية على شكل معطف صغير، مع أحذية نصفية في أرجلهم، وأشرطة من الصوف على رؤوسهم يقاومون بها ثلوج الجبال"[6]، و الحال ذاته كان سكان سكسيوه يعيشونه بمراكش فلا ينتعلون أحذية حقيقية في أرجلهم، ولكي يحمو أرجلهم من الحصى يضعون تحت أقدامهم أصنافا من النعول، ويلفون حول أفخاذهم خرقا مشدودة بخيوط لحمايتها من الثلج[7].

ويبدو أن الأمر لا يختلف عن سكان إقليم حاحا فقد نعتوا أفراده بالجهال لأنهم لا يعرفون من هو محمد عليه الصلاة والسلام وما هي شريعته رغم كونهم جميعا مسلمين وسبب ذلك أنهم لا يعتزون

---

1 - روبار برانشفيك، مرجع سابق، ص289.

2 -الحسن الوزان، ج2، ص 108.

3 - ابن خلدون، العبر، ج6، ص116.

4 - الحسن الوزان، ج2، ص 109.

5 - المصدر نفسه، ج2، ص255.

6 - كربخال مرمول، مصدر سابق، ص251.

7 -الحسن الوزان، ج2، ص 153.

بالتعلم، فكان لباسهم ثياب الصوف الغير الملبد يلتوون بها، وهي لا تقل خشونة عن غطاء الفراش إلا بقليل[1]. وغير بعيد عن مدينة حاحة بالمغرب الأقصى وفي أحد أقسام جباله يوجد جبل عشيرة ايداوكال أول قسم من جبال الأطلس، هذا الجبل يعيش فيه سكان لا يلبسون أية ثياب مخيطة بالإبرة، إذ لا يوجد بينهم من يعرف الخياطة بل يلفون أجسادهم كلها قدر استطاعتهم بقماشة واحدة[2]، وهي الصناعة التي تحدث عنها بن خلدون ولاحظ" أن أهل البدو يستغنون عنها، وإنما يشتملون الأثواب اشتمالا وإنما تفصيل الثياب وتقديرها و الحامها بالخياطة للباس، من مذاهب الحضارة وفنونها"[3]، وهو أمر ينعكس على هؤلاء العشيرة لجهلهم بأمور التحضر. أما عن زينة المرأة الفقيرة، فهي خواتم من حديد ونحاس، عكس ما كانت تتزين به نساء الوجهاء والأغنياء الذين كانوا يضعون حلقات وخواتم كبيرة من الفضة والذهب في أذانهن وأصابعهن وأطواقا بكاحلهن[4].

كما احتوت مدينة مكناس على عدة دكاكين، من بينهم حوانيت يشغلها إسكافيين وحذائين لصناعة الأحذية لفقراء أهل مكناس حسب قول الوزان"وبعد ذلك نشاهد الإسكافيين وبعض الحذاءين الذين يصنعون أحذية غليظة للفلاحين ولفقراء العامة"[5]، ويقال أن الفقراء والمعدمون كانوا يسيرون حفاة[6]. وكان عمل الفقراء يتمثل أحيانا في غسل الثياب للطبقات الميسورة لتحصيل لقمة العيش حسب قول الوزان"ومن ثم يأتي الذين يغسلون الثياب وهم من فقراء الناس"[7]، وطبعا ذلك مقابل أجرة زهيدة أو ثوب بالي.

ومن المؤكد أن لباس ضعفاء وفقراء تلمسان كان يختلف عن لباس الطبقات الوجيهة، فكان "يلبس ابن الجبل لباس أمثاله من أهل الجبال ويلبس العربي لباسا عربيا. ولكن أفضل الناس كساءً هم

[1] - كربخال مرمول، مصدر سابق، ص6.

[2] - الحسن الوزان، ج2، ص 121.

[3]- ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 380.

[4] - الحسن الوزان، ج2، صص121-255،122.

[5] - المصدر نفسه، ج2، ص 244.

6-Ferhat H," Un nouveau documont sur la grande mosquée de sabta" ,Hespéri Tamuda,XXIV ,1986,P.14

[7]- الحسن الوزان، ج2، ص244.

الأساتذة والقضاة والأئمة والموظفون"[1]، وهو نص يكشف مظهر اللباس المقترن بالبيئة التي يتنمي إليها الشخص،كما أشار أيضا إلى أفضل الناس لباسا وهم أصحاب الطبقات الخاصة بتلمسان، وهو ما يجعلنا نفهم أن العامة كانت تلبس ألبسة رثة ورديئة عكس الخاصة.

ومن القرائن التي تبرر درجة استفحال الفقر بين الناس وصف الوزان لسكان مدينة تبحريت القريبة من ندرومة في قوله "أن لباس سكانها رث"[2]، مما يوحي بخصاصتهم وفقرهم المدقع.

ودفعت الحاجة بالناس إلى اللباس في طلب الزكاة، لشراء ما يستر عوراتهم ويقيهم من شدة البرد في فصل الشتاء، ومثال ذلك ما نستشفه عند صاحب الدرر في إحدى النوازل"أن رجلا كان يشتغل بطلب العلم، لا يعلم له غير كساء فيما إذا استحق الزكاة فكانت الإجابة نعم لاتصافه بالفقر المذكور"[3]. وفي نفس الصدد أي حاجة الناس إلى اللباس، جعلتهم يمتهنون مهن أخرى، كمهنة الخياطة التي يعتبرها الإنسان سبيلا لتوفير ما يستحقه من ألبسة في حياته اليومية، فنجد في إحدى النوازل التي طرحت على الشيخ المازوني عن معلم في الجامع يمتهن مهنة الخياطة إلى جانب التعليم وهذا نص النازلة "أنه سئل عن المعلم الذي يعلم الصبيان في المسجد ويخيط فيه الشواشي وغيرها من الأثواب وهو عالم بمكروه ذلك[4]. فكان الجواب بالإكراه لذلك العمل رغم الحاجة إليه.

3-السكن:

قال ابن خلدون بخصوص عمران إفريقية والمغرب "أنه كله أو أكثره بدويا، أهل خيام و ظواعن وقياطن وكنن في الجبال، وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصارا و رساتيق، من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها"[5]، و كان للتراتب في المستوى المعيشي بين الأفراد أثر عميق في اختلاف أنماط المساكن وهذا التراتب جعل البعض يتخذ منازل تمثلت في الخيمة والكوخ

---

[1] -الحسن الوزان، ج2، ص 392.

[2] -المصدر نفسه، ج2، صص 385-386.

[3] -المازوني، الدرر، ج1، صص 339-340.

[4] -المصدر نفسه، ج 4، ص219.

[5] - ابن خلدون، المقدمة، ص 340.

والدار، اعتمد في بنائها على"الحجارة ومن الخوض ومن الشعر والوبر"[1]، بعيدا عن دور وقصور السلاطين والأغنياء والوجهاء. ولكن للأسف لا تتوفر لدينا معلومات كافية عن كل صنف من الأصناف الثلاثة المذكورة، مثل حجم المسكن وعدد الغرف وحول توزيعها الجغرافي والاجتماعي.

اتخذ سكان بلاد المغرب الإسلامي من الخيمة كسكن للإقامة فيها، والتي كانت تصنع من أشرطة مستطيلة من الصوف الممزوج بالوبر، أما بالنسبة للكوخ الذي كان يصنع من الطوب[2] فلاحظ التجاني بخصوص الأكواخ بمدينة جربة فقال "أن أكثر مساكن أهلها أخصاص من النخيل يجعل كل واحد منهم في أرضه واحدا أو اثنين أو أكثر من ذلك ثم يسكنه بعياله"[3]، أما عن الإقامة داخل المساكن الريفية فقد قال مرمول "وفيما يتعلق بسكان الجبال الريفية، فإن ما يمكن استنتاجه من المصادر فإنهم تميزوا بشظف العيش، وصعوبة الحياة داخل الجبال وبرودة منازلهم المغطاة بأوراق الشجر"[4].

وفيما يخص المساكن بالمدن التونسية فقد أمدنا الوزان ببعض أوصافها خلال القرن التاسع هجري/15م، فيذكر "أن بيوت وشوارع مدينة الحامة قبيحة، والسكان فقراء ولصوص، وأراضي المدينة وعرة وجافة"[5]، وذكرها مرمول في قوله" وفي جنباتها مساكن أناس فقراء من الصيادين والزراع"[6].

أما مساكن الفئات المحتاجة بالمغرب المريني فقد كانت مساكنهم حقيرة جدا، وحسبنا في ذلك شهادة الوزان أيضا "فهي إلى حظائر الحمير أدنى منها إلى منازل الآدميين .وهي مليئة بالبراغيث والبق وهوام أخرى كثيرة"[7]، كما وجدت بمدينة فاس بعض الأرباض التي ضمت بعض الأسر المحتاجة إلا

[1] – ابن خلدون، العبر، ج6، ص116.
[2] – ابن خلدون، المقدمة، ص 342.
[3] – التجاني، رحلة التجاني، ج2، ص110.
[4] – مرمول كربخال، ج2، ص229.
[5] – الوزان، مصدر سابق، ج2، ص92.
[6] – مرمول كربخال، ج3، ص10.
[7] – الحسن الوزان، ج2، ص 137.

أن ما يعاب على هذه الأرباض أن بيوتها كانت قبيحة، ومع ذلك كانت مأوى لكثير من الفقراء كالسقاءون والحطابون، وبعض المشعوذون و الموسيقيون من الطبقة الدنيا، إضافة إلى بعض البنات القبيحات والخسيسات، والمرضى المجذومون[1]. كما احتوت فاس أيضا على بعض القرى التي بدورها ضمت بيوت بائسة لا تحوي أكثر من مسكن أرضي مغطاة سقوفها من قش أو من لحاء الشجر فقد شبهها الوزان بأنها مبنية كالزرائب التي توجد في أرياف أروبا[2].

وأقيمت بعض الملاجئ الخيرية من قبل حكام الدولة المرينية لأجل مبيت الفئات المعوزة فيها" وإذا مر فقير غريب بمدينة تدنست من حاجة، فإنه ينزل في ملجأ معد خصيصا لإيواء الفقراء "[3].

وإذا ما تحدثنا عن سكن الفئات العامة والفقيرة بالمغرب الأوسط الزياني، فالحال نفسه ولا يختلف بكثير وذلك من خلال ما ورد في المصادر التاريخية عن طبيعة السكن ببعض المدن منها مدينة مازونة التي إتصفت بيوتها بالقبح والبؤس بسبب ما كانت تتعرض له من هجمات التونسيين تارة والمرينيين تارة أخرى حتى لم يبق فيها سوى النذر القليل من السكان ومعظمهم من الحياك والفلاحين، وجميعهم فقراء[4].

وإجمالا يمكن القول أن الممارسات التي مورست على العامة من المجتمع من طرف أصحاب القوة والنفوذ السلطوي والتي أفرزت العديد من الصور المأساوية لمظاهر الفقر، تجسدت ملامحها من خلال طرق عيشهم ولباسهم وسكناهم. أما الشيء الذي نأسف له هو أننا لا نمتلك معلومات تحيلنا إلى الإجابة على تساؤلاتنا حول عدد الأشخاص الذين كانوا بدون مأوى، وخاصة الفئات العامة التي يضطرها الفقر إلى الإقامة والمبيت في الشوارع والطرقات وغياهب الجبال، وماذا كان يمثل المسكن العائلي بالنسبة لتلك الفئات، من حيث النظر إلى قواعد حفظ الصحة، والوقاية من مختلف الأضرار الخارجية؟. في ظل التقسيم الطبقي للمجتمع بين خاصة وعامة، فأصحاب الطبقة الخاصة هم من

[1] – الحسن الوزان، ج2، ص 278.
[2] – المصدر نفسه، ج2، ص 326.
[3] –المصدر نفسه ، ج2، ص 110.
[4] – المصدر نفسه، ج2، ص407.

يحضون بالجاه والحكم والملك، في حين نجد أصحاب الطبقة العامة مهمشون في أسفل الهرم من المجتمع بالرغم من فاعليتهم داخل المجتمع.

الفصل الثالث: آثار الفقر في سلوك وذهنيات الإنسان بالمغرب الإسلامي

أولا: الآثار الاجتماعية

ثانيا: الانعكاسات الديمغرافية

ثالثا: الانعكاسات النفسية والذهنية

رابعا: الآثار العلمية و العقيدية

لا يخامرنا شك في أن الفقر كظاهرة سوسيو- اقتصادية تفرز آفات اجتماعية وآلاما معنوية، وآثارا نفسية على ذهنية الإنسان، وهو ما عرفه إنسان المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط وهذا له ما يبرر من خلال الكشف عن ردود فعله المتباينة، عبر عنها في شكل إفرازات ذهنية وسلوكية، سعيا منه لتجاوز ظاهرة الفقر والحد من خطورتها، فتارة كانت مواجهته لها في صور سلوكات عدوانية كالسرقة وقطع الطريق بالسلب والنهب والقتل، وممارسة السحر والشعوذة، وتارة أخرى تظهر في شكل إفرازات ذهنية واستسلامية مبتغاها التسول أو الانسحاب والهروب من واقع مر أحيانا، أو الصبر والدعاء معا.

وغير خفي فانه قد سبق وأن بينا في دراسة أسباب الفقر أن الكثير من العوامل المختلفة تقف وراء ظهوره وتفاقمه واستمراره، وبالمثل عند تحليل نتائجه نجده سببا للكثير من المشاكل والأزمات التي هي آثار له، وأن هذه الآثار الخطيرة لا تقتصر على الجانب الاجتماعي فحسب، بل تتعدى إلى الكثير من الجوانب الأخرى كالجانب الاقتصادي والعقيدي والأخلاقي والديمغرافي والنفسي والعلمي والثقافي.

أولا: الآثار الاجتماعية للفقر:

ترك الفقر في بلاد المغرب الإسلامي أثارا بالغة في الحياة الاجتماعية بشكل واضح سيما تصاعد منحى الاضطراب الأخلاقي بانتشار الآفات الاجتماعية كالسرقة، والجريمة، والحرابة، والتسول وشيوع الرذيلة كشرب المحرمات، وتفشي الفواحش بين أفراد مجتمع العصر الوسيط، بالإضافة إلى استفحال خطر الأمراض. ففي كثير من الأحيان اقترن المرض بالفقر لاسيما في العصر الوسيط الذي تميز بانتشار الأوبئة والكوارث الطبيعية وارتفاع الأسعار، فأصبح الناس عاجزين عن تلبية متطلباتهم الضرورية من ناحية، وتوفير الأموال اللازمة من ناحية أخرى، وهذا أمر غير مستغرب لكثرة ما مرت به المنطقة من فتن وحروب لم تبق على شيئا إلا ودمرته، مما انعكس ذلك على سكان المغرب

الإسلامي وبخاصة الطبقة العامة الفقيرة، التي أصبحت غير قادرة على إعالة أسرها بتوفير الطعام واللباس والعلاج من تلك الأمراض والأوبئة الفتاكة، التي كانت تشكل هاجسا في المخيال الجماعي لأفراد مجتمع المغرب الإسلامي، والتي ساهمت بدرجة أكبر في تدهور الوضع الصحي لفئة الفقراء والمستضعفين، وكان سببها في الغالب سوء التغذية وقلة الوعي الصحي وانعدام شروط النظافة وصعوبة الحصول على الأدوية لفقرهم المدقع.

ومن ثمة سنحاول الكشف عن مدى أثر الفقر في انتشار الآفات الاجتماعية، كما يجدر بنا أن نشير إلى العلاقة بينه وبين استفحال خطر الأمراض والأوبئة داخل مجتمع المغرب الإسلامي، فضلا عن التطرق إلى ما نتج عنه من آثار نفسية وذهنية.

1: انتشار الآفات الاجتماعية:

إن الفقر يعد من بين الأسباب المباشرة للانحلال الخلقي، فكثيرا ما يكون السبب في نشوء الجرائم والرذائل وشيوعها[1]، وأثبتت الكثير من الدراسات أنه كلما ارتفعت نسبة الفقر ارتفعت نسبة الجريمة والسرقة والتسول، إذ أن الفقر له دور كبير في انخفاض نسبة الوعي الإنساني، مما يؤدي إلى تزايد أعمال العنف والنهب والسلب، وزيادة الفروق بين أفراد المجتمع الواحد، الأمر الذي ساهم في نمو الحقد الطبقي[2].

إن الفقير المحروم كثيرا ما يدفعه –بؤسه وحرمانه – وخاصة إذا كان إلى جواره المترفون الناعمون – إلى سلوك ما لا ترضاه الفضيلة والخلق الكريم، ولهذا قيل: "صوت المعدة أقوى من صوت الضمير"[3]. وقد بين الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام، شدة وطأة الفقر على صاحبه وأثره في سلوكه في قوله:

[1] – محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، مكتبة أمزيان، الجزائر، ط7، دت، صص 92-93.

[2] – عبد العزيز الغريب، مرجع سابق، ص 47.

[3] –يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ص 15.

"**خذوا العطاء مادام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه، تمنعكم الحاجة والفقر**"[1]وعليه فمن بين تلك الآفات التي تفشى خطرها داخل مجتمع المغرب الإسلامي نذكر:

ا: السرقة والقتل:

جاءت حركة اللصوصية والسرقة نتيجة التمايز الاجتماعي الذي عرفته بلاد الغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطة كما سبق وأشرنا إلى ذلك، ولعل ما يشير إلى ذلك شهادة بن الخطيب في قوله: "كثر التعدي في الطرق والدوابر في السبل، والفتك بالرفاق"[2].

تزايد عدد اللصوص وقطاع الطرق داخل مجتمع المغرب الإسلامي بسبب ما أشرنا إليه سلفا من اضطراب اجتماعي (الفقر والجوع) وسياسي (كثرة الفتن والحروب) ساهمت هذه الأخيرة في بروزهم بشكل ظاهر من دون خوف، وإن كانت أكثر سرقاتهم في الليل في أوقات الغفلة[3].

ولا سبيل إلى الشك أن شريحة اللصوص وقطاع الطرق زمن المجاعات كانت من أكثر الفئات تضررا بهذا الوضع الكارثي، الذي يملي عليها نمطا حياتيا جديدا، تقل فيه حظوظ الفئة المذكورة في الحصول على الرزق، نظرا لقلة الواردين من التجار والقوافل التجارية بين المدن والبوادي أو بين المدن نفسها[4]، تماشيا لقول الحسن الوزان" أما الذين لا يدفع لهم الملك إتاوة فهم يمكثون كي يعتاشوا من قطع الطريق على السابلة"[5]، ولا نعدم من القرائن التي تثبت هذا الرأي؛ فابن عذارى في وصفه الدقيق

[1] -الألباني محمد ناصر الدين، تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ط1، دمشق، المكتب الإسلامي، 1984، ص11، وهو حديث ضعيف.

[2] -لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تح وتعليق: ليفي بروفنسال، دار الكشوف، بيروت، ط2، 1956، ص249.

[3] - دلال لواتي، مرجع سابق، ص 234.

[4] - سمية مزدور، مرجع سابق، ص 218.

[5] -الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 372.

أشار إلى أعمال السرقة التي قام بها عوام الفقراء في الحريق الذي شب في أحد القيصاريات[1] الموحدية بمراكش عام (607هـ-1210م) فكانت البضائع تسرق في وقت كان الناس مهتمين بالإطفاء حسب قوله "واقتحمت النار سفلة الغوغاء وضروب الغرباء فسلبوا بعض ما ألفوه مما سلم من الحريق وتسللوا به كل طريق...، فما طلع الصباح وبقي من أمتعة مراكش ذبالة مصباح"[2]، وهي صورة واضحة تشخص لنا أن الفقر يؤدي إلى السرقة بشتى الطرق. ولعل قول الوزان يزكي هذا الطرح "قطاع الطرق الذين يغتالون الناس بلا رحمة "[3].

في حين أشار المازوني في إحدى نوازله التي أستفتي فيها عن رجل التقى بلصوص حاملين ثورا ففكه لهم واستأمنه عند رجل مشهور بالدين والأخلاق حتى يأتي صاحبه ويأخذه[4]. ومما عزز الطرح أكثر شهادة صاحب التشوف في إحدى النصوص مشيرا إلى السرقة في قوله"أخبرني مخبر بأن أبي سليمان داود بن الايلاني (ت607هـ) بات ليلة عند أحد أصحابه، فجاءه سارق فنقب الجدار وسرق له بعض متاعه، فحكى مصيبته للتادلي في قوله: "سرقت الليلة ونقب السارق جدار داري"[5] فدعا التادلي على السارق.

ومن الشواهد الدالة على السرقة أيضا إشارة ابن مريم عند ذكره لكرامات الشريف المليتي بحيث يروي لنا معرفته إلى السارق الذي سرق ثوب ابنته الذي نشرته في وسط الدار، ودخل لص وأخذه وهرب به، فالشيخ الشريف المليتي عرف موضع الثوب"فقال لها ردائكي غدا إن شاء الله يأتيك على كل حال، وفعلا وجده ابنه إبراهيم بإقرار الصبي الصغير كان يسرق الحوانيت فحبسه ودله على

[1] –القيصرية: هو اسم مشتق من قيصر، وقد كان هذا اكبر ملك في عصره، وفسر هذا الاسم المؤرخون الأفارقة انه في زمن حكم الرومان ثم من بعدهم القوط وكانت كل مدنية من مدن الساحل الروماني بها سوق يحمل اسم قيصر وكانت الأسواق مبعثرة هنا وهناك حيث كانوا يخزنون فيها ما يجبونه من المدينة من ضرائب وعوائد، فكانت تتعرض إلى نهب من طرف السكان المحليين، وهكذا خطر ببال الإمبراطور أن يقيم في داخل كل مدينة نوعا من مدينة صغيرة تتمثل في سوق مغطاة يدعى قيصرية يجتمع فيها التجار / ينظر: الحسن الوزان، ج2، ص248.

[2] – ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، ص 256.

[3] – الحسن الوزان، ج2، مصدر سابق، ص 384.

[4] – المازوني، الدرر المكنونة، ج4، ص 125.

[5] –ابن الزيات التادلي، التشوف، ص 415.

موضع الثوب الموجود في درب اليهود عند اليهودية الفولانية، فذهب فأعطته له"[1]، وربما في اعتقادنا باعه إياها وحصل على المقابل من ذلك لحاجته إلى المال.

كما أدلى الوزان من خلال إحدى نصوصه خطر استفحال ظاهرة السرقة في قوله" ذهبت إلى السوق لشراء بعض ضروريات السفر الذي كنت أقوم به... وصلت ممتطيا فرسي وأول ما اشتريته حبال خيام... ، وبعد أن فرغت من شرائي وضعت رجلي اليسرى على عنق الفرس حتى أستطيع تعداد مالي على ركبتي وأطلقت العنان التفت لأعطي ثمن ما اشتريت، ثم استقمت ووضعت رجلي في الركاب لكنني لم أجد العنان عندما أردت إمساكه...وإذا بخادمان من خدام الملك أتيا وقال لي"يا سيدي لقد سرق عنان جوادك"[2]، وهو ما يبين أن اللصوصية كانت منتشرة كثيرا وكانت تمثل دخلا كبيرا للكثير خصوصا في أواخر أيام الدول الثلاث، وذلك للضعف الذي اعترى أمن ونظام الدول.

وبالمثل تطرق صاحب الدرر في نص آخر إلى السرقة في قوله" سئل ابن مرزوق عمن دفع لرجل دراهم يشتري بها برنسا من غير بلادهما فدفع له الدراهم واشترى البرنوس بمحضر عدول وجاء به فوصله لربه فسلبه في أثناء الطريق مع بعض متاع له" [3].

والظاهر أن المرأة هي الأخرى كانت تحترف السرقة، فحسب ما ورد عند البرزلي" أن امرأة خدعت طفلة صغيرة عليها حلي حتى رمتها في بئر بعد أن أخذت ما معها فماتت فيها، فأخذت فاعترفت بفعلها غير مسترهبة وتمادت في إقرارها، فخرج تنفيذ الحكم بقتلها"[4]، ونظرا لأن السرقة كانت منتشرة بكثرة كانت ترد إلى الفقهاء بعض النوازل بشأن الحكم فيها فعلى سبيل المثال نجد في

[1]- ابن مريم المليتي، مصدر سابق، ص 417.

[2] – الحسن الوزان، ج2، ص 398.

[3] – المازوني، الدرر المكنونة، ج4، ص 213.

[4] – البرزلي، مصدر سابق، ج6، ص 182.

إحدى النوازل عند صاحب الدرر أنه سئل عن السراق وأشباههم إذا وجدوا في أرض لا تقطع فيها يد فما الحكم فيها؟ فكان جواب الفقيه بأن سارق اليوم إنما الحكم عليه هو مثل حكم المحارب[1].

وقد لا نجانب الصواب إن تلمسنا بين ثنايا هذه النصوص وما تحمله من صور للسرقة والقتل والسلب والنهب وفعل المنكر وما انجر عنها من مساوئ بسبب شدة الفقر، الذي أدى بإنسان المغرب الإسلامي إلى التخلي عن قيمه الأخلاقية والإنسانية لأجل اغتنام بعض المكتسبات المادية من أموال وأغذية وألبسة. ويجدر بنا التنويه من خلال هذه النصوص إلى إصدار ملاحظة وهي أنه ليس كل فقير لص وليس كل لص فقير، فمثل هذه الظواهر تعزى عادة للفقر ويتهم بها الفقراء بسبب الحاجة والخصاصة، إلا أن هذا الرأي ليس نظرية دائما، إذ هناك دلائل أيضا تشير إلى أن سرقات أتهم بها أبناء أسر ميسورة، كما اتخذ الكثير من الأشخاص الفاسدين من هذه الصور مهنا لهم بالرغم من أنهم ليسوا فقراء.

يبدو أن نص العبدري يعزز الطرح أكثر من خلال شهادته عند اجتيازه مدينة تلمسان واصفا إياها "لا يسلم منهم صالح ولا طالح، ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا مستعد يتفادون من شره، وطلائعهم أبدا على مرقب، لا يخلوا منها البتة"[2] أما عن مدينة باجة[3] فيقول:"قد هتكتها الأيدي العادية، وفتكت فيها الخطوب المتمادية، حتى صارت وهي حاضرة بادية، وقد حدثت أن أهلها لا يفارقون السور خوفا من العربان وأنهم مستعدون لدفن الجنائز كما يستعد ليوم الضراب والطعان"[4].

كما يصف لنا في موضع آخر من خلال رحلته التي مر فيها بالمغرب الأوسط، ظاهرة السطو وقطع الطريق، إذ لم يستطع الخروج من تلمسان- وهي في حال الشدة – حتى يجد صحبة يستند

[1] - المازوني، مصدر سابق، ج4، ص 371.

[2] - العبدري، رحلة العبدري، ص 45.

[3] -هي مدينة عتيقة، أسسها الرومان على منحدر جبل في الطريق الرئيسية المؤدية إلى قسنطينة، وعلى مسافة ثمانية فراسخ من البحر وثلاثة وأربعين فرسخا غرب تونس. تحيط بها أسوار عالية، وهي تقع في منطقة فلاحية جيدة، تمون تونس وما حولها بالمنتجات الزراعية، إلا أن ما يعاب عليها أن سكانها يتخبطون في الفقر لأن حكام تونس أثقلوهم بالضرائب والأعراب يشنون عليهم الغارات المتوالية لنهب محصولهم الزراعي/ ينظر: مرمول كربخال، مصدر سابق، ج2، ص96.

[4] - العبد ري، مصدر سابق، ص 105.

عليها، نظرا لهول وصعوبة المسلك الرابط بين تلمسان وبين رباط تازة المليء بقطاع الطرق، ما وصفهم بأقبح الوصف قائلا: "ثم وصلنا إلى تلمسان نيتي أن أقيم بها مدة حتى أجد صحبة قوية أقطع معها المفازة التي في طريقها إلى رباط تازة، وهي منقطعة موحشة لا تخلو من قطاع الطرق البتة، وهم بها أشد خلق الله ضررا وأكثرهم جرأة وأقلهم حياء ومروءة، لا يستقلون القليل ولا يعفون عن ابن السبيل، ليس في أصناف القطاع أحسن منهم هما، ولا أوضع منهم نفوسا، ولا أكثر منهم إقداما على كل صالح وطالح، ولا ينبغي لمسلم أن يغرر بلقائهم"[1].

والظاهر أن الكثير من الأماكن بالمغرب الإسلامي كانت تفتقر للأمن بسبب عصابات من المفسدين كانت تثير الرعب والخوف، وتحدث اضطرابا داخل المجتمع، كالمناطق الجبلية والبوادي والقرى النائية البعيدة عن الحواضر، ومنها موضع يسمى جبل وسلات، وهو جبل منيع بافريقية – على مقربة من القيروان – يصعب الوصول إليه و كان مستقرا لأهل الشر واللصوص وقطاع الطرق[2].

ووردت في شأن قطاع الطرق واللصوص عدة فتاوى تدين عملهم وتلح على سجن أصحابها، وضرورة معاقبتهم أشد العقاب، حسب ما جاء في قول مالك"وحد الحرابة أربعة: القتل أو الصلب أو القطع من خلاف أو النفي" وكان يقول في أعراب قطعوا الطريق: "جهادهم أحب إلي من جهاد الروم"[3]. فهذا المازوني يدلي بنازلة مفادها "أن ابن مرزوق سئل عن أشخاص اتهموا بالهجوم على دار فقتلوا فيها رجلا، وثبت من حالهم أنهم لصوص وأصحاب حرابة وفساد في ناحيتهم فقاتلهم القاضي لثبوت جميع ما ذكر عنده"[4].

وقد أشار بن الشماع إلى أحكام الحرابة في نهاية كتابه في قوله" وإذا أخاف المحاربون السبيل، وقطعوا الطريق وجب على المسلمين التعاون على قتالهم من غير أن يدعوهم الإمام – إن كان– ويجب

[1] – العبدري، المصدر السابق، ص563.
[2] – المازوني، مصدر سابق، ج4، ص51.
[3] – محمد حسن، المدينة والبادية، ج2، ص 646.
[4] – المازوني، مصدر سابق، ج4، ص 353.

على جميع المسلمين التعاون عليهم وكفهم عن إذاية المسلمين..."[1]، كما ندد ابن عرفة من خلال فتاويه إلى ضرورة استئصال شأفتهم وتكفيرهم وإعلان الجهاد ضدهم، وتأتي القضية التي سأل عنها فقيه المغرب الأوسط، أبو العباس أحمد المريض، سنة(796هـ/1393م) ابن عرفة حجة على ذلك، وهي تتناول الصراع الحاصل بين السلطة الزيانية وقبائل الديلم وسعيد ورياح وسويد[2]، وقد أشار الونشريسي إلى ذلك "أن عرب الديلم ورياح وسويد وبني عامر بالمغرب الأوسط أقدموا في عام(796هـ-1393م) على قطع الطريق واعتدوا على القوافل وسلبوا محتوياتها وسفكوا دماء أصحابها وسبوا النساء، ولم يتمكن ولاة الأمر من وضع حد لاعتداءاتهم"[3].

ب: التسول:

هو ظاهرة اجتماعية يمارسها أفراد أو أسر، إما للحاجة الشديدة، أو هربا من مسؤوليات الحياة، خاصة بالنسبة للأشخاص الذين ليس لهم رغبة في مزاولة الأعمال، ويؤثر التسول على الاقتصاد، كون المتسولين طاقة بشرية معطلة وغير منتجة، كما أنه سلوك منحرف، مكروه في الشرع[4].

وانتشار هذه الظاهرة هو أثر من آثار الفقر، فالفرد يمارسها لأجل الحصول على الكسب من أي طريق حتى وإن كان التسول[5].

فبالعودة إلى زمن فترة البحث، نلاحظ أنه لا يوجد في تاريخ مجتمع المغرب الإسلامي، شريحة تعرضت للنسيان والإهمال من قبل المؤرخين، أكثر من شريحة المتسولين، مما يجعل مهمة الباحث في استقصائها من المهام الصعبة[6].

---

[1] – ابن الشماع، الأدلة البينة، ص135.

[2] – محمد حسن، مرجع سابق، ص648.

[3] – الونشريسي، المعيار، ج6، صص 153، 156.

[4] – علي ماهر، الخدمة الاجتماعية في مجال الدفاع الاجتماعي، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ط4، 2003، ص 303.

[5] – حسين رشوان، مشكلات المدينة ودراسة في علم الاجتماع الحضري، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، 2002، ص157.

[6] – إبراهيم القادري بوتيشش، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، ص212.

وهناك من جعل من المتسولة مقياس ونموذج ليفاضل به بين حالي فاس وتلمسان، وحسبنا في ذلك ما ذكره بن خلدون مبينا من خلال ذلك إلى الحال السيئ الذي آل إليه وضعهم في هذه الأخيرة كما هو في وهران على حد قوله"...مثلا بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى، مثل بجاية وتلمسان وسبتة، تجد بينهما بونا كثيرا على الجملة،...وكذا أيضا حال تلمسان مع وهران والجزائر، وحال وهران والجزائر مع ما دونهما..."[1]. فالمتسولة في طرحه هذا يختلفون في مطالبهم باختلاف الأمصار في العمران، وما يبرر تفسيره في شأن المتسولة قوله" فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران. ولقد شاهدت بفاس السؤَال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرا من أحوال الترف واقتراح المآكل، مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون، كالغربال والآنية "[2]، في حين يختلف السؤَال في تلمسان ونوعية مطالبهم على حد تعبيره "ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لا ستنكر وعنف وزجر"[3].

ينتمي معظم المتسولة إلى أصول اجتماعية فقيرة، نشأت عن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفها المغرب الإسلامي منذ حوالي القرن(8هـ/14م) على الأقل. ثم عن الأزمات الكثيرة والمتعددة التي عرفتها البلاد بعد ذلك، من ارتفاع للأسعار وقحط وجفاف ومجاعات إذ ما قوبل بمظاهر الترف والدعة والملذات التي أفرغت بيت المال واستدعى جباية شديدة أثقلت كاهل العامة بكل شرائحها، والتي لم تسمح لأي جهة بتطويقها والحد منها بشكل فعال[4].

بناء على ذلك نعتقد أن شريحة المتسولين، لم تكن سوى إفراز لهذه المعطيات، وانعكاس للتمايز الاجتماعي الذي تمخض عنه بروز تناقضات اجتماعية، وقطاعات غير قادرة على تحصيل عيشها عاجزة عن الاندماج في عملية الإنتاج[5]. لذلك يرجح أن عدد المتسولين كان كبيرا، فهذا البرزلي يبرز

[1] – ابن خلدون، المقدمة، ص343.
[2] – المصدر نفسه، ص 343.
[3] – المصدر نفسه، ص 343.
[4] – محمد استيتو، مرجع سابق، ص 37.
[5] – إبراهيم القادري بوتشيش، المهمشون في تاريخ المغرب، ص 216.

لنا في إحدى نوازله أن التسول كان منتشرا في عصره على حد قوله "سئل عن من له قريبة فقيرة لا تقدر على التسول ولا على التصرف هل يخصها بماله"[1] وهي نازلة توحي من خلال مضمونها أن هناك الكثير من المحتاجين أمثال هذه الفقيرة كانوا يلجئون للتسول لتحصيل قوتهم في الكثير من الأحيان. غير أن المصادر لا تمدنا بمعلومات كافية عن ظاهرة التسول كوسيلة للكسب غير المشروع[2]، وكحرفة لها فنونها وتقنياتها في المكر والخداع والتحيل، إلا شذرات قليلة هنا وهناك بين ثنايا كتب النوازل والمناقب والتراجم.

من خلال النصوص الواردة في بعض المصادر النوازلية وغيرها يمكن الوقوف على الأماكن التي يتجمع فيها المتسولون، وفي مقدمتها المساجد والجوامع والأسواق[3]، فهم يختارون الأماكن التي تثير الرهبة والخشوع من الله وتذكر بالآخرة، أو بجوارها كأماكن العبادة والأضرحة والمقابر.

ويبدو أن عادة دخول المتسولين إلى المساجد والجوامع، كانت شائعة في البلاد الإسلامية عامة، حتى أن المصلين كانوا يتضايقون من ذلك وهو ما أدى بهم إلى طرح إنشغالهم على الفقهاء حسب ما ورد ذلك عند صاحب الدرر" سئل بعض فقهاء بلادنا عن هؤلاء السؤال الذين يتعرضون للتسول في المساجد، فكانت الإجابة بأن كثير السُّؤَال في المساجد مكروه وتخف في قليله"[4]. كما جاء في رسالة ابن عبدون بخصوص هذا الشأن بمساجد الأندلس على" ألا يترك ساع في رحاب الجامع"[5]، ويظهر أن هذه العادة كانت تكثر زمن المجاعات بسبب اتخاذ بعض المحسنين المساجد والجوامع أماكن للإغاثة والإطعام"[6].

---

[1] – البرزلي، مصدر سابق، ج1، ص 576.

[2] – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 228.

[3] – إبراهيم القادري بوتشيش، مصدر سابق، ص 217.

[4] – المازوني، مصدر سابق، ج5، ص 379.

[5] – ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، نشر: ليفي بروفنسال، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، القاهرة، 1955، ص24.

[6] – ورد عند ابن الزيات أن متصوفا جمع فقراء ومتسولين أيام مجاعة بجامع علي بن يوسف بمراكش وفرق عليهم ما كان عنده من قمح وسمن حتى لم يبق له منه شيء /ينظر: ابن الزيات التادلي، مصدر سابق، ص24.

إن النشاط المعتاد لهؤلاء المتسولة ينبني أساسا على سؤال قوتهم اليومي، وكان معروفا استغلال المتسولين في المدن مناسبات الأعياد الدينية للاستجداء عبر الطرق المؤدية إلى المساجد[1]، وفي السياق ذاته بينت نوازل الفترة أن فئة المتسولة، يكثرون ويبرزون أكثر في مناسبات معلومة، كميقات كيل الناس وقت الحصاد وجني الثمار، وفي هذا الصدد يذكر المازوني أن"رجل طلبه سائل فدعاه لوقت كيل الناس، فلما جاء وقت كيل الناس أعطى تلك الصدقة لمسكين آخر فجاء السائل وطلبه، هل يلزمه ذلك أم لا ؟ فأجاب: لا شيء عليه"[2].

وتعوزنا المعلومات الكافية للوقوف على مدى إستجابة الرعايا لمطالبهم وتخميناتهم باستثناء بعض الأمثلة الشعبية التي عبرت عن شعور العامة تجاههم مثل" فإذا ابتليت بالسعي، أقصد الديار الكبار"[3]. كما أورد بن الزيات في إحدى التراجم"أن متسولا وقف على باب أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي[4]، واشتكى له مرضه وفقره وكثرة عياله، فطلب من أحد مريديه أن يحسن إليه"، ولعل هذا النص يكشف أسلوب الاستجداء الذي عول على الجانب الإنساني والعاطفي من خلال الشكوى التي كانت تعتمد على عدة عناصر مثل الفقر والمرض وكثرة العيال[5].

كما اعتاد سؤَال آخرون على المسألة بالأسواق والطرقات، ويتصدرون أبواب القصور لعلهم يكسبون عطف وود السلطات، وخير مثال على ذلك ما رواه شيخنا موسى بن عيسى المازوني عن الشيخ واضح من أهل القرن(7هـ/13م) الذي امتنع عن مقابلة السلطان الزياني يغمراسن قاصدا بذلك أن يعامله بمثل ما يعامل هذا السلطان، الفقراءَ والمحتاجين الواقفين عند بابه وينظر في شأن هؤلاء، بدلا من الإعراض عنهم فقال له"يا يغمراسن: أما تعلم وقوف الضعفاء والمساكين وذوي الحاجات ببابك، وما يجدونه في قلوبهم من الانكسار ومدافعة حراس الأبواب بطول احتجابك

---

[1] – محمد استيتو، مرجع سابق، ص 39.

[2] – المازوني، مصدر سابق، ج4، ص161.

[3] – القادري بوتيشيش، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، ص 220.

[4] –هو من أهل بلد أزمور ومن أشياخ أبي يعزى، قدم مراكش بعد عام واحد وأربعين وخمسمائة، ومات بأزمور عام أحد وستين وخمسمائة، كان معلما للقرآن في بداية أمره بدكالة، وهو من الأولياء الصالحين ذوو الكرامات والخراقات. / ينظر: ابن الزيات، التشوف، صص187-188.

[5]– المصدر نفسه، صص 190-191.

عنهم،...وإنما فعلت ذلك بك لتتيقظ من سنة غفلتك، وتتذكر أحوال القاصدين إليك... فأخذ يغمراسن يتملق بين يديه ويعتذر لديه، وقد علته خجلة الوقوف، والشيخ في كل ذلك منقبض عنه"[1].

لم تكن أبواب القصور هي المقصد الوحيد لهؤلاء المتسولة، بل كانوا يقفون يطلبون المسألة أمام أبواب الأضرحة أو بداخلها كأولئك الذين كانوا يلازمون باستمرار باب ضريح أبي شعيب الغوث بتلمسان حتى غدوا جزءا من المشهد العام لمحيط الضريح وطقسا من المراسيم المتبعة من قبل زواره، والتي تبدأ عادة بزيارة قبر صاحب الضريح، ثم قراءة ما تيسر من القرآن. ثم الدعاء ثم دفع صدقة لأولئك الضعفاء والمساكين الملازمين لباب الضريح وغيرهم من الفقراء الذين منهم من يبيت هناك[2].

لا مراء أن المتسولة في أوقات المجاعة كانوا يمرون بظروف صعبة، لأن فرص الحصول على القوت ستقل حتما في مثل هذه الأوقات والأزمات، وذلك ما استقصيناه في بعض الإشارات المحتشمة كالدور البارز الذي قام به أبو زكريا يحي بن علي الزواوي (ت611هـ-1214م) إزاء الفقراء والمحتاجين في المجاعة الواقعة ببجاية سنة(611هـ-1214م)في قول التادلي" وأغناهم بذلك عن السؤال"[3]، كما أشار إلى نفس الظاهرة ابن قنفد أثناء رحلته إلى فاس والتي صادفت مجاعة عظيمة سنة(776هـ-1374م) بالمغرب كله، إذ وجد مجموعة من المتسولة ملازمين لقبر الولي الصالح القطب أبي مدين شعيب، فأوصى إبن قنفد الزائرين للضريح بما يجب فعله من الصلاة والدعاء ثم قدم النصح قائلا" وإن تيسرت لك صدقة للضعفاء والمساكين الملازمين على الباب فادفعها"[4].

---

[1]- موسى بن عيسى المازوني، صلحاء وادي شلف،م خطوط، نسخة مصورة عن مكروفيلم، مكتبة الخزانة العامة للرباط، رقم 52343، ورقة 43ب/ينظر: نور الدين غرداوي،"**مناقب وكرامات أبو البيان سيدي واضح وتأثيرها في منطقة الونشريس– مقتطفة من مخطوط صلحاء وادي شلف" – مجلة أبحاث** ، منشورات دار الثقافة، تيسمسلت، ع/3، 2014، صص132-133.

[2] –ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، ص106 .

[3] –ابن الزيات التادلي، مصدر سابق، ص 429.

[4] – ابن قنفد، أنس الفقير وعز الحقير، صص 149-151.

كما ورد عن بن مرزوق أن الولي أبا زيد بن يعقوب الصنهاجي جاءه سائل يطلب قوت عياله في سنة مجاعة كانت بتلمسان، فآثره هذا الشيخ بخبز أخرجه من الفرن، بالرغم من حاجة أهله إليه[1].

ولا يراودنا شك في أن ظاهرة التسول عرفت انتشارا كذلك بين النساء، فقد ورد في إحدى نوازل المازوني أنه في فترة المجاعة جاءت امرأة إلى زوجة الولي أبي عمران موسى بن إسحاق تطلب منه الصدقة التي كان قد وزعها للفقراء من ماله الذي ورثه[2].

وصفوة القول أن التسول جسد ظاهرة اجتماعية في العصر الوسيط خاصة خلال فترة مدار الدراسة، وازداد تجذرا بسبب الأزمات والمجاعات والسياسة الجبائية المجحفة. ويبقى نقص وإنعدام النصوص والوثائق الخاصة بهذه الشريحة في كل من المجتمع الحفصي والزياني والمريني، عائقا كبيرا في معرفة أحوال هذه الفئة الضعيفة.

ج: التفكك الأسري وزيادة ظاهرة الطلاق والبغي داخل المجتمع:

بالرغم من انتشار ظاهرة التصوف وكثرة المتصوفة خلال فترة مدار الدراسة ببلاد المغرب الإسلامي إلا أن حياة السكان لم تكن كلها حياة زهد وتقشف وصبر على متاعب الحياة، فقد شهدت بلاد المغرب الإسلامي بعض الانحلال الأخلاقي بارتكاب الزنا التي تعتبر من الكبائر، وقد وردت أحكام الزنا في التنزيل بصريح اللفظ في ثلاث آيات في قوله تعالى" **لَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** "[3]. وقوله أيضا" **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** "[4]. وفي قوله

[1] – ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص 299.
[2] – المازوني، صلحاء وادي شلف، ورقة 139ب .
[3] – سورة الإسراء، الآية: 32 .
[4] – سورة النور، الآية: 02.



تعالى: "الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ"[1] وورد معناه أيضا بلفظ الفاحشة[2].

ويبدو أنه إذا تعذرت سبل العيش الكريم، وتفاقمت حالة العوز والفقر، فان بعض النساء لم يترددن في بيع أعراضهن وأجسادهن، في أحضان الدعارة والبغاء، لتصريف أزمتهن[3] داخل المجتمع نتيجة العوز، وذلك ما عبر عنه الوزان في قوله"وأخيرا فإن البؤس الذي يفتك بفقراء الشعب في تونس يؤدي إلى إضطرار الكثير من النساء إلى أن يأكلن بأثدائهن بثمن بخس، والكثير من الغلمان إلى التخنث، وهؤلاء الغلمان هم أكثر دناءة وأفحش وقاحة، وأشد فجورا من النساء المومسات"[4]. وبالمثل كان بعض النساء المعوزات يلجأن إلى التحايل والتسكع لكسب المال[5].

وهو ما أقره التيفاشي من خلال أحد النصوص مبينا لنا ممارسة الفاحشة في بعض البيوت أو الفنادق مثل فندق الرصاص بتونس الحفصية كان وكرا "للخناء وأنواع الفسوق"[6]، وفي نص آخر كذلك مبرزا صورة من صور الفسق الذي كان يجري داخل بعض المساكن المخصصة لمبيت القوافل التجارية وما كانت تحقق لأصحابها من أموال طائلة مقابل الفواحش في قوله "ويتعرض الغلمان لقوافل التجار،... فان كان الزمان صيفا وكان وقت القائلة، أغلق عليهم الأبواب وأرخى الستور وأدخل عليهم غلمانا... فان كان وقت النوم تقدمت لكل رجل جارية تفرش وتتولى خدمته. فلا يزال هذا على دأبهم ما شاءوا أن يقيموا، وإذا أرادوا الانصراف جمعوا له الحُمُل الكبار من المال فدفعوها له، ومنهم من لا يرجع إلى بلده بدرهم من ماله بل ينفقها في داره...وربما عشق غلاما من أولئك

[1] – سورة النور، الآية: 03.

[2] – محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، دار الحديث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1364هـ، ص513.

[3] – محمد استيتو، مرجع سابق، ص232.

[4] – الحسن الوزان، ج2، ص 450.

[5] – محمد حسن، مرجع سابق، ج2، ص 635.

[6] – التيفاشي شهاب الدين أحمد، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تح: جمال جمعة، رياض الزين للكتب والنشر، قبرص، ط1، 1992، ص 68.

الغلمان أو جارية من تلك الجوار، فكان ذلك أسرع لتلاف ماله ودماره[1]. وهو نص يوضح المسلك أو الطريق الذي اعتمده بعض الأشخاص للحصول على المال.

وفي مقام آخر يشير صاحب الدرر إلى هروب النسوة مع أزواج آخرين غير أزواجهم مقابل مبلغا من المال حسب ما ورد في إحدى النوازل إذ سئل المشدالي" عن امرأة هربت من زوجها مع آخر إلى موضع ما، ويمتنع فيه بها فإذا كرهها زوجها أو أيأس منها طلب الهارب به بمال يعطيه فيطلقها زوجها إياه"[2].

كما جاء في إحدى النوازل التي تصب في نفس السياق" أن رجلا هرب بزوجة آخر وتمتع بها زمانا بحيث لا تناله الأحكام الشرعية، فطلبها زوجها إلى أن عجز عن استرجاعها فطلقها على مال أخذه من الهارب بها"[3]، ولعل ما يؤكد الطرح أكثر مثال آخر أورده الونشريسي وهو هروب بعض النسوة الفاسقات من أسرهن بالحواضر إلى الجبال المجاورة صحبة شباب من العزاب. كما وجد من النساء الفاسدات من ادعت كذبا بأن رجلا أكرهها على نفسها واغتصبها، مستهدفة من ذلك إرغامه على دفع مبلغ من المال لها لشراء سكوتها عن الإبلاغ عنه وتفاديا لعقوبة السجن له والجلد بالسياط[4]. كما أدى الفقر ببعض النسوة إلى إمتهان بعض المهن المنحطة بغية الحصول على المال ،تمثلت في عمل النساء المفسدات في بيوت الدعارة والمنكرات[5]

وكان الاجتماع خلال أيام التويزة يعود على المجتمع بنتائج سلبية بعض الأحيان حسب ما أورده العقباني من" خروج النساء لمجالس تجمعهن كما يفعل عندنا في مجتمع يسمونه التويزة عند امرأة واحدة في منزلها ما تدعوهن لغزله من كتان أو صوف إعانة ورفقا... وكذا خروجهن اليوم لمجالس

1 – التيفاشي شهاب الدين أحمد، المصدر السابق، ص 46.

2 – المازوني، الدرر المكنونة، ج2، ص 247.

3 –المصدر نفسه، ج2، ص 249.

4 – الونشريسي، المعيار، ج10، ص 235.

5 –فوزية، كررزا، مرجع سابق، ص198.



النساء واجتماعهن ببعض لما ينتج عن ذلك من التعرض لأخذ المال أو فتنة الصغار منهن بهروبهن عن أزواجهن في الأزقة"[1].

وفي استمرار ضغط الفقر على الحياة الأسرية نراه ربما غلب الدوافع الأخلاقية ففرق بين المرء وزوجه على كره منها أو كره منه، وكانت طلبات الزوجات التي لا تنتهي بعدم قدرة الأزواج مجاراة زوجاتهم في طلباتهن سببا آخر لبث جو من التوتر وعدم الانسجام بين الزوجين[2]، كما وضحته هذه النازلة " بخلاف الزوجين بسبب النفقة على الأولاد فقد أكثرت الشكية إحدى النساء إلى القاضي أبو الفضل العقباني بأن زوجها يتركها بلا نفقة فلما رفعت أمرها للقاضي هجرها زوجها وقطع نفسه عليها"[3]. وهو ما جعل الكثير من الفقهاء إجازة التطليق بسبب الإعسار وعدم القدرة على الإنفاق.

كما كان الفقر من أكبر الموانع التي تحول بين الشباب وبين الزواج، وإتمام نصف دينهم وذلك لكبر أعباء المهر والنفقة، وما يشترطونه أهل العروس من صداق وهدايا وغيرها من اللوازم الثمينة، هذا في وقت أوصى القرآن لأمثال هؤلاء أن يعتصموا بالعفاف والصبر حتى تواتيهم القدرة المالية في قوله تعالى "**وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**"[4]، كما وردت آيات نصح للآباء الذين يرفضون الفقراء الضعفاء أزواجا لبناتهم وأمرهم بأن يعدلوا موازينهم في اختيار الرجال ويقوموهم بالصلاح لا بالمال وحده في قوله تعالى" **وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ... مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**"[5].كما أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام بالتيسير في أمور الزواج فقال"يسروا ولا تعسروا"[1] ولأن الكثيرين لم يمتلكوا القدرة على تأمين تكاليف الزواج وكان هذا سببا في منعهم عنه أو تأجيله[2].

---

[1] -العقباني، تحفة الناظر، صص 265-266.

[2] – أحمد الزجالي القرطبي، أمثال العوام في الأندلس، القسم2، تح: محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، دت، ص 34. يقول المثل: "بيع كساك أو عمل كذاك" .

[3] – المازوني، الدرر، ج2، ص 385.

[4] – سورة النور، الآية 33.

[5] – سورة النور، الآية 32.



وفي كتب المدونات ما يوضح ذلك فقد سئل عن رجل عقد على ابنته لرجل بحضرة والد الزوج، فأدعى والد الزوجة أن الزوج هو المتحمل للصداق وأنكر الزوج ذلك وقال: بل والدي هو الذي تحمل عني الصداق وطلب والد الزوجة الزوج في صداق ابنته.."[3] وهي نازلة تبين أن الزوج ممكن أن يكون عاطل عن العمل وليس بحوزته مقدار الصداق، أي فقير مما أضطر الأب إلى تحمل مصاريف المهر نيابة عنه ومساعدة له لأجل إكمال نصف دينه.

والشأن ذاته ورد في نازلة أخرى، مفادها أن رجلا غصب امرأة فهرب بها، فبقيت عنده مدة معينة يستمتع بها ثم رجع يسأل هل يلزمه الصداق أم لا؟ وأظن في تفسيري للنازلة أن مقصود الرجل من الهروب بالمرأة ربما كان بدافع الفقر، أي لم يكن لديه قيمة الصداق المطلوب في حق الزوجة، فظن أن الهروب بها يسقط عنه حق المهر عند إرجاعها لأهلها[4]. وكثيرة هي النوازل التي تثبت فقر الشباب الغير قادرين على الزواج مما جعل الآباء يتحملون دفع الصداق بدلا منهم، فهذا الإمام بن مرزوق استفتي في مسألة مفادها أن رجل له ابنا بالغا وتحمل عنه والده دفع النقد للبنت المخطوبة[5]. وعلى نفس الشاكلة كان الصداق عائقا وكثيرا ما يتسبب في الإحراج للفقير وذلك لعدمه وخصاصته، فهناك نازلة استفتي فيها سيدي علي بن عثمان عن المازوني، بخصوص الفقير الذي عقد على امرأة بصداق قدره مائة دينار ذهب ووالد البنت يعلم ما عند هذا الفقير من دراهم والتي قدرت قيمتها بعشرين دينار، مما تسبب في إحراجه وأدى ذلك إلى وقوع خصام ونزاع بينهما، فكان رد الفقير "إما أن أطلقها أو أتركني أدخل بها وخذ ما بحوزتي، أين كان رفض الأب بعدم تزويجه البنت إلا عند إتمام

---

[1]- جاء في صحيح البخاري. قال: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، عن أبي التياح، قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا" رواه البخاري برقم :6124، وهو حديث صحيح.

[2] – الزجالي، مصدر سابق، ج2، ص 242.

[3] – المازوني، مصدر سابق، ج2، ص 106.

[4] – المصدر نفسه، ج2، ص106.

[5] – المصدر نفسه، ج2، ص130.

المبلغ المتفق عليه[1]، ونستشف من فحوى هذه النازلة أنه لا طالما أعتبر المهر حاجزا كبيرا أمام الفقراء لأجل الزواج وبناء أسرة.

ويبدو أن هناك عوامل أخرى إلى جانب الفقر ساعدت على انتشار الفساد في مجتمع المغرب الإسلامي: فالقهر الذي كانت تتعرض له المرأة بين الحين والآخر، وتعدد الزوجات والزواج المبكر للفتيات، كلها عوامل تداخلت فيما بينها لتزيد الهوة في ظهور العديد من الفواحش والرذائل.

د: شيوع ظاهرة الغش والرشوة وتعاطي الخمور:

لاشك أن ظاهرة تعاطي الخمور[2] وشرب المحرمات ليس بأقل حدة عن تأثير الظواهر الأخرى، فقد كانت أحيانا ذريعة أو ملجأ لبعض الأشخاص الغير قادرين على تحمل مسؤولية العائلة بالنفقة عليهم وتوفير ما يحتاجونه من أكل وشرب ولباس، فيتخذون من ظاهرة شرب الخمر كعامل لنسيان الهم والحزن والبؤس، ولعل ما زاد الطين بلة انتشار مجالس اللهو والطرب والغناء والمجون خلال هذه الفترة، حتى أضحت الخمريات هي أكثر فنون الشعر ذيوعا، بين الشعراء، على إنشاد أحد الشعراء في قوله:

يا شَقِيقِي أَتَى الصَّباحُ بِوَجْهٍ **** سَتَرَ اللّيلُ نُورَه وبـهَــاءَه

فَاصْطَبِغْ وَاغْتَنِمْ مَسَرَّةَ يَوْمٍ **** لَيْسَ تَدْرِي بِمَا يَجِيء مَسَاءَه[3]

كما كان لوجود جاليات نصرانية داخل مجتمع المغرب الإسلامي سببا في ترويج بيع الخمور بين أوساط المسلمين بقصد إفساد أخلاقهم، وارتكاب الفواحش فالمدمن على الخمر لا يهم ما يفعله على حد تعبير ابن سعيد المغربي" والشريبة مفتاح لكل فسوق"[4]، فلأجل الحصول على قيمة زجاجة واحدة

---

[1] – المازوني، مصدر سابق، ج2، ص180.

[2] – سميت الخمر خمرا لأنها تركت فاختمرت ، واختمارها تغيير ريحها، وقيل سميت بذلك لمخامرتها العقل ،وهي ما أسكر من عصير العنب وغيرها باتفاق المدرستين (أهل العراق وأهل الحجاز)، واختلفوا في المستخرج من غير العنب، فشرب القليل منه الذي لا يسكر حلال عند مدرسة العراق، وحرام عند مدرسة الحجاز./ينظر: أحمد فتحي بهنسي، الموسوعة الجنائية في الفقه الإسلامي، ج2، دار النهضة العربية، بيروت،1991، صص309-310.

[3] – ابن سعيد أبو الحسن المغربي الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، ج1، دار المعرف، القاهرة، ط3، 1995، ص367.

[4] – المازوني، مصدر سابق،ج1، ص170.



من الخمر باستطاعته أن ينتهك الحرمات ويفعل المنكرات (السرقة، القتل، الزنا)، ويصل به الأمر في بعض الأحيان إلى حد الاستهتار بالدين وسب النبي عليه الصلاة والسلام[1] وذلك لذهاب العقل ودخول السكران في حالة ألا وعي، غير مبالي بما سيقدم عليه من أفعال شنيعة، متجاهلا عائلته وذويه.

وقد لاحظ الوزان "تعاطي شرب الخمر في المناطق الشديدة البرودة موضحا أن غذاء أهالي المناطق الباردة الجبلية الوعرة يتكون أساسا من العنب ومستخلصاته خصوصا في المناطق التي لا تنبت زرعا بسبب البرودة والجفاف، وكل العنب الذي يجنى يصنع منه زبيب... وتعصر منه كمية عظيمة من الخمر"[2]. ومن ثم يجب أن لا يسوغ المناخ الجبلي كحجة لتعاطي الخمر ما لم يكن تأثيره في حالات الضرورة المعروفة كما حددها القرطبي"لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم أو بجوع في مخمصة أو بفقر لا يجد فيه غيره"[3].

---

[1] - الونشريسي، مصدر سابق، ج2، ص366/ ينظر: ابن رشد أبي الوليد، فتاوى ابن رشد، تح: المختار بن الطاهر التليلي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1987، ص342.

[2]- الحسن الوزان، ج1، ص259.

[3]- القرطبي أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج2، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2006، ص225.

كما تأصلت عدة ظواهر أخرى في المجتمع، كشيوع الغش[1] والرشوة[2] والتدليس[3] وطغيان الظلم إذ الكثير من الفقراء المحتاجين تعرضوا للظلم بهتك حقوقهم بسبب غياب العدالة وكذا لجوء الكثير من أصحاب النفوذ وذوي السلطة إلى تقديم المال كرشوة لقضاء حوائجهم وإقصاء الفقراء من طريقهم.

وما زاد الأمر تعقيدا للفقير هو هضم حقوقه من طرف بعض القضاة، فأصبح القاضي يأخذ الرشوة من أصحاب القضايا أو أمراء الدولة أو شيوخ القبائل أو ولاة الدولة حسب ما جاء عند البرزلي في قوله"ومن هذا انقطاع الرعية إلى العلماء والمتعلقين بالسلطان لرفع الظلم عنهم فيهادونهم لذلك ويخدمونهم فصار بابا من أبواب الرشوة"[4]، الأمر الذي جعل بعض الفقراء اللجوء إلى تقديم أقل ما يملكونه كرشوة لبعض العلماء الذين كان لهم اتصال بالسلطة لأجل رفع الظلم عنهم فصار خير باب من أبواب الرشوة[5].

على أن أبرز نص ما أورده المازوني في وصفه للضعف الذي حل بالبلاد والعلماء نتيجة الفساد في قوله" سيدي إن حال بلادنا كما علمت من كثرة فسادها وعدم جريان الأحكام الشرعية فيها يقع بالرجل من نازلة يقض الحكم فيها كالحديث في المشهور من المذهب، كالحنث بالأيمان اللازمة"[6].

---

[1] –الغش: لغويا يقصد به الخديعة ضد النصح، وحقيقته إظهار المرء ما أضمره لغيره مع تزيين المفسد له، والشيء المغشوش هو غير الخالص/ عبد الرحمن عبد المنعم محمود، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ج3، دار النصر للطباعة الإسلامية، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، دت، دط، صص15-16.

[2] – الرشوة في اللغة مثلثة الراء بالضم والكسر والفتح: هي اسم من الرشوة ورشا الرشو، والرشوة الجعل، وقال ابن الأثير الرَشوة والرُشوة: الوصلة إلى الحاجة بالمصانعة، فالراشي من يعطي من يعينه على الباطل، والمرتشي الآخذ، و الرائش الذي يسعى بينهما، يستزيد لهذا وينقص لهذا، ويقال أرشيت الدلو إذ جعلت له حبلا، قال الأصمعي إذا امتدت أغصان الحنظل قيل قد أرشت أي صارت كالأرشية. وهي الحبال ويقال استرشى ما في الضرع، واسترشى ما فيه إذا أخرجه ، والرشو من فعل الرشوة، والمراشاة المحاباة والرشوة عند المنذري ابن العباس قال: الرشوة مأخوذة من رشا الفرخ إذا مدّ رأسه إلى أمه لتزقه وفي الحديث " لعن رسول الله الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما"/ رواه الإمام أحمد، المسند، رقم 22762 / ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزاوي ومحمود أحمد الطناحي،بيروت، المكتبة الإسلامية، ج2، ص226. / عبد الله بن عبد المحسن الطريقي، جريمة الرشوة في الشريعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية ، الرياض، ط3، 1982، ص 49.

[3] –هي لفظة مأخوذة من الدلسة: وهي الظلمة، وهو كتمان العي، والتدليس في اللغة: كتمان عيب السلعة عن المشتري وإخفاءه./ عبد الرحمن عبد المنعم محمود، مرجع سابق، ج1، ص452.

[4] – البرزلي، مصدر سابق، ج1، ص130.

[5] – مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، الأحوال الاجتماعية، ج3، دار الحضارة، الجزائر، 2009، ص185.

[6] – المازوني، الدرر المكنونة، ج1، ص 41.

أما الغش فكان منتشرا بصفة كبيرة في الأسواق، وخاصة فئة التجار لأجل الربح الوفير واكتناز الأموال، فقد أشار العقباني إلى أنواع عديدة من الغش كقوله"ومن الغش بنفخ اللحم المهزول"[1]، هذه ظاهرة شاعت بين الجزارين، إذ ينفخون اللحم المهزول حتى يتبين للمشتري أنه ممتلئ، وهذا ما أنكره الفقهاء لأنه يغير طعم اللحم وهو من الغش المنهي عنه في البيوع.

كما جرت العادة عند بعض الخبازين أن صنعوا الخبز قبل غربلة القمح حتى صار يشترى خبزا بداخله حصى، وكان من أخطر عمليات الغش الذي أثر على اقتصاد الدولة هو الغش في النقود والدنانير[2]، وهي كلها ظواهر أخلت بأفراد المجتمع اجتماعيا واقتصاديا، لأجل الحصول على المراتب العليا في جهاز الدولة وجمع ثروة مالية كبيرة هروبا من شبح اسمه الفقر.

وكان لتكسد الأسواق وفقر تجارها فساد في حال المدن حسب قول ابن خلدون" وأما فساد أهلها في ذاتهم، واحدا واحدا على الخصوص؛ فمن الكد والتعب في حاجات العوائد، والتلون بألوان الشر في تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها، بحصول لون آخر من ألوانها، فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحَيُل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه"[3]

2: استفحال خطر الأمراض والأوبئة على الفئات الفقيرة:

ا: معنى المرض:

تحيل كلمة مرض من خلال لسان العرب على معاني سلبية فالمرض هو السقم وهو نقيض الصحة. وقال ابن عرفة: "المرض في القلب فتور عن الحق وفي الأبدان فتور الأعضاء وفي العين فتور النظر"[4]، كما أن المرْضَ والمرَضَ: شك ونفاق وضعف يقين. كما يقال أرض مريضة إذا ضاقت

[1] - العقباني، مصدر سابق، 226

[2] - المصدر نفسه، ص236.

[3] - ابن خلدون، المقدمة، ص 353.

[4] - ابن منظور، ج14، صص 56-57.

بأهلها، أو إذا كثر بها الهرج والفتن والقتل[1]. وعرف ابن أعرابي المرض على أنه: النقصان. بدن مريض: ناقص القوة. وقلب مريض ناقص الدين. وقال: المرض: الظلمة. وروي عنه أيضا انه قال: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها وإعتدالها[2].

ويشير ابن خلدون أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية، ويذكر قول رسول الله في الحديث الجامع للطب وهو قوله: "المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة"، فأما قوله" المعدة بيت الداء" فهو ظاهر؛ وأما قوله" الحمية رأس الدواء فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام"[3].

ب: أنواع الأمراض:

إن دراستنا لأسباب الفقر ببلاد المغرب الإسلامي التي أوردناها سلفا، والشواهد والقرائن التي اعتمدناها، أثبتت تلك العلاقة السببية بين الفقر والجوائح والكوارث البيئية التي لم ترحم لا غني ولا فقير، فالكثير من الأغنياء أضحوا فقراء بفقدهم ما يملكون من ثروات وأملاك، ناهيك عن الفقراء الذين ازدادوا فقرا وعوزا، وأصبحوا كلاهما عرضة لمختلف الأمراض المستعصية والمزمنة الناجمة عن هذه المتغيرات الطبيعية وغير الطبيعية.

تنوعت وتعددت الأمراض التي انتشرت خلال فترة مدار البحث ببلاد المغرب الإسلامي وصعب تصنيفها، وذلك لعدم وجود حدود دقيقة وواضحة بين الأمراض، ولكن ورغم ذلك رفعنا على الأقل صنفين ظاهرين: الأمراض العضوية (organiques) والأمراض العضوية الروحية أو الجسدية النفسية (organiques-spirituelles) وهذا النوع الأخير تعود أسبابه إلى ظاهرة خارقة

---

[1] - صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع-دراسة أنتروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد -دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2008، ص48.

[2] -ابن منظور، ج14، صص56-57.

[3] - ابن خلدون، المقدمة، ص395.



فوطبيعية (شيطان، سحر، عين خبيثة...) ليس للإنسان عليها سيطرة ولا قدرة حسب الاعتقاد السائد[1].

وهذا التقسيم الذي ذكرناه غير خاضع لشروط مضبوطة بدقة بل يمكن أن تتداخل بعض الأمراض فيما بينها، ولكن ما يجمع بينهما هي الرؤية الدينية للأمراض، إذ كل شيء يعود إلى الله السبب الأصل والفاعل الأوحد. فما هي إذن الأمراض الناجمة عن الفقر، و ماهو حجم انتشارها في ظل تفاقم الكوارث والآفات البيئية خلال فترة مدار الدراسة؟.

حسبما جاء في الكثير من المصادر الطبية فإن مقدرة الفقراء على الوصول إلى الخدمات الصحية الكافية تنخفض باستمرار، والسبب يرجع إلى ارتفاع تكلفة الخدمات الصحية وإلى عامل الأمية والجهل الغالب على الطبقة العامة، الأمر الذي نتج عنه تفشي الأمراض المعدية والمزمنة في الأوساط الفقيرة، وتعتبر بعض الأمراض التي ظهرت خلال فترة مدار الدراسة مثل داء النسا (بوزلوم) وداء السل كلها من أمراض الفقر والبؤس والجهل، نظرا لارتباطهما بانعدام الوعي الصحي، ونقص التغذية، وسوء الأحوال المعيشية بصفة عامة مثل عدم وجود المساكن الملائمة والعيش في البيوت القصديرية، وتلوث الهواء وعدم وجود مياه نقية للشرب لذلك فالمدن التي" غلب على أهلها ... شرب المياه الراكدة في بطون الأودية والمارة بالغياض والآجام، فان أمزجتهم تكون أتم استعداد للتأثر،... وكذلك أرباب المياه الكبريتية، والتي فيها حدة كسكان الحامات"[2]، فضلا عن شربهم من ماء الخزانات العكر [3]، أما الأسباب البشرية فيتمثل أخطرها في طرح النفايات الصلبة والسائلة في المجاري المائية، بفعل عدم توفر الدور والأحياء على المراحيض وشبكة الصرف الصحي في تلك الفترة[4].

[1] – صوفية السحيري بن حتيرة، مرجع سابق، صص255-256.

[2] – سعيد بن حمادة، الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين(7-8هـ/13-14م)، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2007م، ص117.

[3] –الحسين فقادي، مرجع سابق، ص45.

[4] – سعيد بن حمادة، مرجع سابق، ص 117.

اعتبرت الأمراض المستعصية من بين الآفات التي هددت الإنسان خلال هذه الفترة لما كان لها من تأثير واضح على البنية الديمغرافية، وبالتالي على القاعدة الإنتاجية والمستوى المعيشي للسكان ومما زاد من حدتها عدم تطور الطب بالشكل الذي يتيح محاربة هذه الأمراض والأوبئة الفتاكة، أو على الأقل التقليل من خطرها.

لقد كان الفضل لكتب الطب والأغذية، والنوازل، والرحلات، في الوقوف على الأمراض الأكثر شيوعا بين الأهالي خلال فترة مدار البحث، ومن المصنفات التي أمدتنا بمادة غزيرة حول الأمراض كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان، الذي قام بعملية مسح لمختلف الأمراض التي تفشى خطرها ببلاد المغرب الإسلامي محاولا تفسير أسبابها. فمن الأمراض: مرض **داء الإفرنج**[1] وهو مرض نقل عن طريق اليهود الذين طردهم فرديناد ملك إسبانيا إلى بلاد المغرب الإسلامي، وكان بعض الأفراد المساكين من المسلمين أن حدثت لهم علاقات مع نساء يهوديات، والمصابون الأوائل بالعدوى اعتبرهم الناس مجذومين، وطردوا من بيوتهم كي يقيموا مع المجذومين. ويسميه أهل تونس بالمرض الإفرنجي الذي حصد الكثير من التونسيين، وكذلك الحال في مصر وفي بلاد الشام[2].

وهناك أمراض ظهرت نتيجة قلة الرعاية الصحية مثل: الجلوس على الأرض في فصل الشتاء الذي كان يسبب أحيانا لذوي المزاج الدموي سعالا قويا وأليما ويذكر الوزان أن هذا المرض **السعال**[3]

---

[1] -وهو مرض موجع جدا، مصحوب بآلام شديدة، مع بثور وقروح، ويتميز بسرعة الانتشار بين السكان، حتى أن القليل من الناس ينجون منه، ويقال أن سريع العدوى خاصة عن طريق الممارسة الجنسية، أو عن طريق العضة وظروف العمل المهنية (خلال عمل الأطباء)، وعند استعمال نفس الأدوات المنزلية المشتركة/ ينظر: سهام مقدم، الطب والأطباء بتلمسان في عهد الدولة الزيانية، (633-923هـ/1235-1517م) ، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط،جامعة سيدي بلعباس، 2009-2010، ص44/ الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص94.

[2] - المصدر نفسه، ج2، ص94.

[3] -السعال: جاء عند ابن الجزار القيرواني أن السعال إذا جاء من طرف الزكمة (نزلة البرد) الرطوبة وكان قديما، فينبغي أن يؤخذ لذلك بزر الكتان ويقلى ويعجن بمثله من العسل المنزوع الرغوة، ويتخذ منه على قدر الحاجة/ ينظر: ابن الجزار القيرواني، طب الفقراء والمساكين، تح: الراضي الجازي وفاروق عمر العسلي، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، ط1، قرطاج، 2009، ص 150.

كان ينتقل بين الأشخاص خاصة عند ملاقاتهم في المساجد يوم الجمعة للصلاة، فإذا وصل الخطيب إلى أحسن فقرة في خطبته واتفق أن سعل أحد الحاضرين سعل آخر ثم آخر حتى يسعل الجميع[1].

كما كثر خلال هذه الفترة مرض **ألم النَسَا** (بوزلوم) والركب بسبب الجلوس على الأرض وهم لا يلبسون أي نوع من السراويل وهو أمر يفسر شدة الفقر المدقع الذي كانوا يعيشونه، وانتشر كذلك مرض الجرب الذي يصعب التخلص منه[2].

وتجلى في شهادة الوزان أن الكثير من سكان بلاد المغرب كانوا يعانون من أمراض **المعدة** التي يسمونها جهلا أمراض القلب[3]، ويصاب الكثير منهم يوميا بإسهال أو مرض الزرب الذي أودى بحياة الشيخ أحمد الماوسي سنة(874هـ/1469م) بعد أن عانى منه لمدة أيام[4] وهذا المرض كانت ترافقه أوجاع حادة في أمعائهم بسبب الماء البارد الذي يشربونه[5]، ويذكر بن قنفد أن سكان بلاد المغرب الإسلامي كانوا يتخذون من ثمرة "النبق"كعلاج للإسهال أو مرض الزرب[6]، كما كثرت بينهم أمراض الأسنان والتي كانوا يظنون أنها ناشئة عن كون هؤلاء القوم يشربون الماء البارد فور تناولهم الحساء الحار[7].

تتفق معظم المصادر على أن مرض الجذري[8] يأتي من حيث الخطورة والعدوى بعد الطاعون، يتسم هذا المرض بظهور نفطات ودمامل وتسمم شديد في الجسم، وهو وإن لم يكن يقتل بنفس

---

[1] – الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، صص39-94.

[2] -المصدر نفسه، ج2، صص 95-96.

[3] -المصدر نفسه، ج2، ص 95.

[4] – ابن صعد، روضة النسرين، صص 235-236.

[5] – الحسن الوزان، ج2، ص 95.

[6] – ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، ص133.

[7] – الحسن الوزان،ج2 ، ص 95.

[8] – عرفت البشرية هذا المرض منذ زمن بعيد، أي حوالي 1000 سنة قبل عهد الدولة الزيانية، فقد حصد هذا المرض ملايين من الأرواح البشرية ومن أعراضه ارتفاع درجة الحرارة ، ويصاب المريض به بالرعشة والرجفة، فضلا عن الآلام التي يسببها بالرأس و هزالة للجسم وغثيان وتقيئ والدوران / سهام مقدم، الطب والأطباء بتلمسان في عهد الدولة الزيانية، ص 41.

السرعة التي كان يقتل بها وباء الطاعون، فإن النتائج النفسية والاجتماعية المترتبة عنه تجعله مرض خبيثا بامتياز[1].

كما لاحظ الوزان سكان بلاد المغرب الإسلامي يتألمون بمرض صداع الرأس المصحوب بالحمى في كثير من الأحيان، إلى جانب هذه الأمراض، مرض الأعصاب الذي كان منتشرا عند الأطفال والنساء بكثرة غير أنهم يُشفون منه كلما كبروا[2]، وخير مثال على ذلك مرض ابن الشيخ الهواري بمرض عصبي جعله يتصرف كالمجنون حتى لقب بالهائج[3].

ولدينا من القرائن ما يثبت إستفحال هذه الأمراض وانتشارها بين أفراد مجتمع المغرب الإسلامي، ففي المغرب الأوسط كان يعرف بين أفراد مجتمعه داء الحصبة[4]، فضلا عن داء يسمى "بالداء العضال" وهو مرض مزمن لا يبرأ منه صاحبه مدى الحياة إلا بمعجزة ربانية، فمن بين أعراضه؛ أن المريض به لا يتكلم و لا يبصر ولا يستطيع الحركة، فهو بمثابة الغائب عن الحياة[5]. وكان لفساد الأغذية والأشربة، سببا كبيرا في استفحال أمراض البطن بين الناس[6].

وعلاوة على ذلك كان استفحال الأمراض الجلدية بين سكان المغرب الأوسط بدرجة كبيرة، والتي يكون سبب حدوثها في الغالب تلوث مكان تواجد المياه أو سوء التغذية المتناولة أو غياب النظافة في كل من المأوى واللباس والفراش وهذا بالطبع ما ينطبق وحياة الفقراء ومعاناتهم من نقص في الإمكانيات المادية التي يحتاجونها للوقاية الصحية من هذه الأمراض. التي غالبا ما تكون مستعصية

[1] – سهام مقدم، مرجع سابق، ص41.

[2] – الحسن الوزان، ج2، ص 95.

[3] – ابن صعد، روضة النسرين، ص 18.

[4] – هي مرض معدي وحاد، ينتقل من شخص إلى آخر بسرعة عن طريق الهواء بسعال أو العطس أو التحدث، ويصيب الأشخاص صغيري السن أكثر وينتشر خاصة في فصلي الربيع و الخريق بكثرة ، ومن أعراضه ارتفاع درجة الحرارة ، احمرار العينين وتطفو بقع بيضاء فوق الجلد سرعان ما تتحول إلى بقع حمراء تزول بعد اسبوع أو اسبوعين وكان يعالج هذا المرض بواسطة الشحم ، لكن هذا المرض لم يخلف خسائر بشرية كبيرة مثل وباء الطاعون/ ينظر: سهام مقدم، مرجع سابق، ص42.

[5] – ابن الصباغ القلعي: زهر البستان، ورقة 19ب، 32ب. نقلا عن سمية مزدور، مرجع سابق، ص 141.

[6] – ابن خلدون، المقدمة، ص395.



وفتاكة لا يمكن الشفاء منها إلا بمعجزة أو كرامة[1]. ومن بين هذه الأمراض الجلدية التي كانت منتشرة في بلاد المغرب الإسلامي نجد "مرض القرع" الذي يصيب رؤوس الأطفال الصغار والنساء البالغات وكان الشفاء منه أمر صعبا[2]، بالإضافة إلى مرض الجرب الذي كان منتشرا بكثرة، ومرض البهاق[3] والبرص[4]، والدماميل[5] والأورام المستعصية والتي تصيب الأطفال بكثرة فقد كان ابن مرزوق مبتليا بها في صغره[6]. وكان منتشرا أيضا مرض الذبحة[7] والسعال الديكي[8]، الذي يسببه الجلوس على الأرض، بالإضافة إلى أمراض البرد[9] كالزكام والسعال[10]، ومرض الكبد الذي يصيب الرجال والنساء على حد سواء، إضافة إلى مرض الشلل[11].

---

[1] – أبو مروان بن زهر الاشبيلي، الطب العربي في الأندلس- مقدمة لكتاب التيسير في المداواة والتدبير- تقديم: فضيلة بوعمرون، دار ثالة، الجزائر، 2007، ص109.

[2] – الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 95.

[3] – يقول عن شفائه ابن الجزار، أنه إذا غسل البهق الأبيض بالفيجن مع النظرون يشفى منه صاحبه، وقد يضمد البهق بورق السلق نيا بعد أن يتقدم غسله بنظرون وإذا أخذت قشور أصل الكبار ودقت و أخلطت بالخل جليت تماما ،كما يشفى بخلط الفلفل مع عشبة النظرون وتطلى على البهاق /ينظر: ابن الجزار، مصدر سابق، ص 244.

[4] – عرفه الصقلي بأنه مرض دوري لا تصحبه حمى، ويعتري المصاب به نوب يحصل له فيها تشنجات بدون انتظام في الجسم كله مع فقد إحساس الأعضاء ويعقب ذلك شلل في الحس والحركة وفي كل نشبة منه يفقد المريض الإدراك ويحملق عينيه ويتجه إلى إحدى الجهتين، وأكد الوزان أن هذا المرض كان منتشرا بكثرة بين النساء في إفريقيا/ ينظر: الحكيم الصقلي، موسوعة الطب الشعبي، ج2، تح: منى عبود، دار الفكر اللبناني، ط1، 1993، ص37./ الوزان، ج1، 85.

[5] – يقول ابن الجزار عن شفائها" إذا أردت أن تشفى الدماميل فخذ خمرا واصبب عليها ماء وعسل ، واسحقه بها سحقا جيدا ثم ألزمه الدماميل فانه سيطيب، وكذلك اخذ الخمير ثلاثة أجزاء، وبورق وملح وحاشا وخرو الحمام وخرو الديوك من كل واحد جزء فيسحق ويعجن بزيت ويضمد به، وحب الرشاد مع الماء والملح والتضميد فتشفى منها/ ابن الجزار، مصدر سابق، ص237.

[6] –ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص 231.

[7] –تعريف الذبحة: يقصد بالذبحة الصدرية آلام الصدر التي تحدث أثناء ممارسة جهد وفي بعض الأحيان أثناء الراحة، فهي ناتجة عن نقص في إمدادات الأوكسجين إلى عضلة القلب. وقد ذكر ابن الجزار صفة دواء الذي ينفع في الحلق والذبحة ،وذلك أن يؤخذ حب رمان حامض وعفص وسماق، من كل واحد وزن درهم، يستحق ويترك في سكرجة من لبن ماعز حليب أو لبن حمارة ليلة حتى يصبح ثم تصفيه بعد أن يعصر ويؤمر العليل أن يتغرغر به مرارا / ينظر ابن الجزار، طب الفقراء والمساكين، ص142./ ينظر:موقع (w.w.w.ar.wikipedia.org) .

[8] – السعال الديكي أو الشاهوق: مرض بكتيري حاد، يصيب الأطفال دون سن الخامسة، يعرف أيضاً باسم "أبو شاهوق"، أو القحيبزان، موقع : (w.w.w.ar.wikipedia.org)

[9] – المازوني، الدرر المكنونة، ج1، ص325.

[10] – ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص 234.

[11] –المصدر نفسه، ص 224.

كما كان للحشرات والقوارض دور الوسيط مابين نقل الأمراض المنتشرة إلى جسم الإنسان، فهناك عدة داءات تصيب القوارض وبعض الحيوانات الداجنة ومصدرها الرئيسي القوارض البرية: الجرذان والفئران المائية والأرانب، فئران الحقول، السنجاب[1]، بحيث تعيش هذه الأمراض في جسم هذه القوارض وتتكاثر، ثم تخرج عن طريق الروث وبول الحيوان، وتنتقل من الحيوان إلى الحيوان عن طريق الماء، والطعام، وبول وبزاز الحيوان المصاب ولحم الجثث المريضة والحشرات اللاذعة كالبعوض والذباب، بحيث تصبح البراغيث عبارة عن وسيط ناقل للمرض من الفئران إلى الفئران، ومن الفئران إلى البشر وذلك على سبيل المثال حالات انتشار مرض الطاعون الأسود الذي ظهر أولا بآسيا الوسطى، ثم إنتقل إلى أروبا وبقية البلاد المتوسطية عن طريق البحر، حتى أن خريطة الوباء تطابق شبكة المواصلات البحرية في المجال المتوسطي، وكان أهم عامل في انتشار المرض هي الفئران التي كانت تنتقل من مكان إلى آخر عبر السفن البحرية[2].

ويبدو أن الكثير من الأمراض كانت منتشرة بشكل فعال بين أفراد الطبقة العامة الفقيرة، لكن الإشارات حولها نادرة؛ فهي من الأمور المسكوت عنها في مصادرنا، لأن جل المؤلفات صبت إهتمامها على كتابة أخبار السلطان وحاشيته الخاصة، ربما يعزى ذلك إلى أن جل الكتاب المؤرخين كانوا من أصحاب المدن الذين يحيون حياة كريمة ورغدة غير مبالين بالفقراء وأوضاعهم.

وعلى غرار المجتمع الزياني كان المجتمع الحفصي والمرييني هو الآخر يعاني من انتشار واستفحال هذه الأمراض إضافة إلى أمراض أخرى مثل: مرض الجنون، حيث جاء في الأساطير الدينية المبكرة، والحكايات الخرافية بوصفه قدرا أو عقابا، وقد أرجعت الاضطرابات الشديدة في المزاج والكلام والسلوك الصادرة من الشخص المصاب إلى قوى فوق طبيعية[3]، فالمجنون هو إنسان فقد عقله ودخلته الشياطين أي أنه فقد طبيعة الإنسانية وتحول إلى كائن خطير، وكما تقول العامة، الجنون فنون وهذا

[1] – نعيمة بوكرديمي، مرجع سابق، ص 26.

[2] – محمد فتحة، "الوباء الجارف بالغرب الإسلامي –معطيات ومواقف –" ضمن كتاب المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2011، ص89.

[3] – روي بورتر، موجز تاريخ الجنون، ص121.

يبين أن صوره متعددة ومختلفة بتنوع الغرابة في السلوك، ويعرف الجنون كذلك بأنه مس من الشيطان أي هو احتواء الجسد على كائن لا مرئي آت من عالم آخر عجيب[1]. وهذا ما أقره الحسن الوزان في قوله"وكثيرا ما يشاهد مرض الأعصاب عند الأطفال، لكنهم يشفون منه كلما تقدمت سنهم،...ومن البلاهة اعتبار هؤلاء كمصابين بمس من الجن"[2].

كما انتشر مرض البرص بكثرة، فقد أشار البرزلي إلى تأثير هذا النوع من المرض على حياة الفرد في المجتمع من خلال إحدى النوازل التي استفتي فيها "فقد سئل بن أبي زيد عمن زوج ابنته في مرضه من أبرص" فكان جوابه هو الإلزام بالزواج إن كان البرص خفيفا، أما إن كان منتشرا بكثرة وذو رائحة كريهة فلا زواج بينهما"[3] كما وردت نازلة أخرى يسأل فيها رجلا عن تزويج ابنته وعند طلب الزوج الدخول بزوجته هاته، شك الوالد بأن به برص ورفض تزويجه ابنته، فتحاكما إلى القاضي وشهد طبيب بأن جسمه به برص[4] ويفهم من فحوى هذه النصوص النوازلية أن مرض البرص كان منتشرا بكثرة حتى عدَّ عائقا أمام الشباب الراغب في الزاوج.

3: خطر الطواعين والجوع على الفقراء:

ا: الفرق بين الوباء والطاعون:

نستشف من متون النصوص الآنفة الذكر، أن المفاهيم العلمية لمصطلح الوباء اتفقت على أنه مرض عام مشترك بين الإنسان والحيوان، ناتج عن فساد الهواء. لكن الخلط بين مفهوم الوباء والطاعون ظل قائما في المصادر التاريخية فما الفرق بينهما؟.

[1] –صوفية السحيري بن حتيرة، مرجع سابق، ص 280.
[2] – الحسن الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 85.
[3] – البرزلي، مصدر سابق، ج2، ص338.
[4] – المصدر نفسه، ج2، صص338-339.

استعمل مصطلح الوباء والطاعون في المصادر التاريخية دون أن يفرق بينهما، وهو الأمر الذي عقد مهمة المؤرخ التاريخي في تشخيص نوع المرض الوبائي لأي فترة زمنية يحدث فيها[1]، على أن مفهوم الوباء في الاصطلاح العلمي أشمل وأعم من مرض الطاعون، فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا[2]، وهو ما يوافق كلام ابن خاتمة" كلّ طاعون وباء ولا ينعكس"[3]، أي أن الوباء يمكن أن يشمل أمراضا عديدة من بينها الطاعون؛ الذي يعرف بأنه نوع من الأمراض التي تحدث في الزمن الوبائي[4]. وهو مرض بكتري حاد، وهناك من يعرفه بأنه مادة سمية تحدث وربما قاتلا، وقد نعتته المصادر بعدة تسميات: فهو الوباء العام حسب المسند، والوباء الأول لدى البرزلي، والمرض الوافد حسب ابن خاتمة "وهو حمى خبيثة دائمة عن سوء مزاج قلبي بسبب تغير الهواء عن حالة الطبيعية إلى الحرارة والرطوبة، مهلكة في الغالب يتبعها كرب وعرق غير عام لا يعقب راحة ولا ترتفع عقبة حرارة "[5]. والطاعون الجارف عند صاحب المقدمة. على أن المصطلحات الأكثر استعمالا في المصادر ظلت عامة: الوباء والطاعون والموتان. وهو على ثلاثة أصناف: الطاعون العقدي أو الدملي، والطاعون الرئوي، والطاعون الدموي أو التسممي[6].

ب: أسباب حدوث وباء الطاعون و أضراره:

إذا كنا قد أعطينا كتعريف وصيغة مبسطة لمفهوم الوباء والفرق بينه وبين الطاعون في معرض حديثنا سابقا، واستنادا إلى قول القاضي عياض رحمه الله أن الطاعون أخص من الوباء، وإن كل الطاعون يصدق عليه الوباء والعكس غير صحيح، لأن الطاعون هو القروح الخارجية في الجسم، وتكون قاتلة غالبا، والوباء هو تلك الأمراض العامة الواقعة في الأجساد والقتال من ذلك غالبا هو

[1] -أحمد السعداوي، "**المجاعات والأوبئة في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط –النتائج الديمغرافية–**"، ضمن: الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي، ص37.

[2] - محمد المواق ومحمد الرصاع، مصدر سابق، ص 104.

[3] -ابن خاتمة، مصدر سابق، ص28.

[4] -الأنطاكي داود عمر، بغية المحتاج في المجرب والعلاج، ط1، دار الفكر، بيروت، 2001، ص335.

[5] - ابن خاتمة، مصدر سابق، ص130.

[6] -محمد المواق ومحمد الرصاع، مصدر سابق، ص 43.

الطاعون[1]، كما قال عنه ابن هيدور في مقالته أنواع هذا الداء" إما بسرعة وإما بمهلة، فما كان منها بسرعة ووحي يعم ناسا كثيرة سمي الطاعون الوبائي، ويسمى أيضا المرض الوافد، وما كان منها بمهلة، وغير عام، فيسمى مرضا شخصيا جزئيا..."[2]، وعليه فإننا سنركز في هذا الفصل على مجمل أسباب حدوثه وأضراره ومظاهره وكيف عايشت شريحة الفقراء والمحتاجين ظروف وباء الطاعون؟ وكذا ما هي سبل الوقاية منه وقتئذ ؟.

إن الحديث عن وباء الطاعون وأسبابه خلال فترة مدار الدراسة، يأتي في الغالب ضمن الإشارة عن تلك المعاناة التي عرفها أفراد مجتمع المغرب الإسلامي جراء ابتلائهم بالكوارث الطبيعية والجوائح البيئية، فقد تطرق للموضوع وإن كان بشكل مقتضب فئة من المؤرخين في مصادرهم أمثال ابن خلدون في المقدمة، وأبي الحسن النباهي في كتاب المرقبة العليا، وابن خاتمة في كتابه تحصيل الغرض القاصد في تفضيل المرض الوافد، وابن الخطيب في كتاب مقنعة السائل عن المرض الهائل، علاوة على عدد من المسائل الفقهية الواردة في كل من كتاب المعيار للونشريسي التي أجاب فيها بعض الفقهاء عن نوازل تتعلق بمرض الطاعون[3]، وكتاب الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية لمحمد المواق ومحمد الرصاع.

ويجمع أغلب من تطرق إلى هذا الموضوع على أن وباء الطاعون هو أخطر وباء أثر في تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من جانبيه الاجتماعي والاقتصادي خاصة في القرنين(8و9هـ/14-15م)، مقارنة بالأوبئة الأخرى كا (الجذام والجدري والزهري) كون هذا الوباء شديد الفتك وذو الانتشار السريع[4]، فقد وجد أرضية خصبة تتمثل في المجاعات المتعاقبة التي عرفها الغرب الإسلامي وما انجر عنها من آثار للفقر والبؤس والحرمان لدى الناس، والتي أضعفت مقاومة الأشخاص للمرض، وفضلا عن هذا العامل تتفق بعض الكتابات العربية مع ما تضمنته كتب الطب

[1] - محمد المواق ومحمد الرصاع، مصدر سابق، ص 104.

[2] - ابن الخطيب، مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، تحقيق وتقديم: حياة قارة، دار الأمان، مطبعة الكرامة، الرباط، 2015، ص 24.

[3] - محمد فتحة، مرجع سابق، ص89.

[4] - أحمد السعداوي، مرجع سابق، ص 38.



الأوروبية القديمة حول أسباب حدوث هذا الوباء بتأكيد دور العامل الفلكي أي فساد الهواء هو سبب الوباء، فحسب قول ابن خلدون هو" فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة "[1]، أما ابن الخطيب لسان الدين فيذكر أن له سبب أقصى: وهو الأمور الفلكية من القرانات التي تؤثر في العالم، حسبما يزعمه أرباب صناعة النجوم، ويأخذه الطبيب مسلما عنهم، وسبب أدنى: وهو فساد الهواء الخاص بمحل ظهوره ابتداء أو انتقالا[2] أما ابن خاتمة فيقول عن أسباب حدوثه وهو يقسمها إلى "قسمين الأسباب العامة والخاصة، وينقسم العام بدوره إلى قسمين، السبب القريب والبعيد، أما القريب فهو غالبا يكون في تغير الهواء المحيط بالإنسان الذي فيه تنفسه وهذا التغير يكون في الكيف وفي الجوهر"[3]، أما السبب البعيد حسب قوله ثلاثة أنواع: النوع الأول تغيير الهواء من جهة اتصال الأشعة الفلكية والأنوار السماوية والنصب العلوية، أما النوع الثاني فيخصه في أسباب تغير الهواء حسب قوله: "فهو تغير الهواء من جهة الزمان والوقت وما يتعلق به من غزارة المطر وقلته أو عدمه وهبوب الرياح وركودها، وذلك كأن يتغير الفصل من فصول السنة عن كيفيته الطبيعية إلى ضدها ..."[4]، أما الفصل الثاني في سببه الخاص، ومثال ذلك ما حصل في انتشار الطاعون ووصوله للمرية والذي يشخص ابن خاتمة أسباب حدوثه إلى النوع الأول من الأسباب التي تقدم ذكرها آنفا"[5].

وقد وردت أسباب حدوث الوباء عند المواق في شكل ثلاثة أراء فمنهم من اعتبره ناجم عن فساد المياه و الأهوئة والأطعمة، الذي يؤدي إلى تعكر الدم وتسمم الجسد و إذا ما اشتد حالها تعذر طبها، ويكون ذلك بقروح أو غيرها، فيما ذهب الفقهاء إلى ربطه بأسباب غيبية. ووفق رأي ثالث

---

[1] – ابن خلدون، المقدمة، ص 239.

[2] – ابن الخطيب، مقنعة السائل عن المرض الهائل، تح: حياة قارة، ص 65.

[3] –ابن خاتمة، مصدر سابق، ص131.

[4] – المصدر نفسه، ص138-139.

[5] – المصدر نفسه، ص141.



بين الرأيين، الطبي والفقهي، معتبرا أن الطاعون نوعان: نوع من فساد الدم كما ذكر الأطباء، وآخر من طعن الجان[1].

كما يذكر ابن هيدور في ثنايا مقالته الموسومة "بالمقالة الحكمية في الأمراض الوبائية" أن"سبب المرض الوبائي هو فساد الهواء وتعفينه، ويكون أيضا من فساد الأغذية، ويكون منهما معا وهو الطامة الكبرى"[2]ويدعم ذلك قول ابن خاتمة"فإن البلاد التي غلب على أهلها أكل...الأغذية العفونية السريعة الاستحالة كالحيتان والألبان وشرب المياه الراكدة التي في بطون الأودية والمارة للغياض، والآجام، فإن أمزجتهم تكون أتم إستعدادا للتأثر عن هذا الحادث، وكذلك أرباب المياه الكبريتية...[3]".

ج: أعراضه:

تنوعت أعراض الوباء وطرق انتشاره داخل الجسم فقد قال ابن الخطيب بشأنها "أعراضه أعراض الحمى الوبائية، أو المحرقة بجميع خواصها، ثم نفث الدم، أو ظهور الخراج فيما خلف الأذنين أو الإبطين أو الأَرْبِيَّتَيْن[4] أو غير ذلك[5]. وضحها ابن خاتمة في قوله بأنه"حمى خبيثة مهلكة في الغالب، يتبعها كرب وعرق غير تام لا يعقب راحة، ولا ترتفع عقبه حرارة، وقد يوجب لها فتور في اليوم الثاني واضطراب في عامة الأوقات، ثم تتزايد من بعد، وقد يتبعها تشنج وبرد وعطش وتورم في الحلق واختناق مع امتناع الابتلاع، ووجع في الرأس ودوران وغثيان؛ وقد يكون ذلك مع نتوء وطواعين تحت الإبطين أو خلف الأذنين... وقد تحدث قروح سود في مواضع من الجسد، خصوصا بالظهر والعنق وقد تحدث في الأطراف..."[6]. ويتضح من خلال معطيات هذا النص أن هناك طريقتين لانتشار

[1] – محمد المواق والرصاع، مصدر سابق، صص 56، 108، 114.

[2] – المصدر نفسه، ص25.

[3] – ابن خاتمة، مصدر سابق، ص150.

[4] –الأربية: أصل الفخذ، والأربية (بالتشديد): أصلها أربوية، وهي موضع طي الفخذ، ينظر : لسان الدين ابن الخطيب، مقنعة السائل، تح: حياة قارة، ص 66.

[5] – المصدر نفسه، صص 65-66.

[6] – ابن خاتمة، مصدر سابق، صص130-131.

الوباء في جسم الإنسان؛ دخول الفيروس عن طريق الجلد، وهو يتخذ فيه المرض شكل أورام غددية في ظرف لا يتعدى ستة أيام، وفي بعض الحالات النادرة يستغرق ذلك مابين أسبوع وثلاثة أسابيع، وغالبا ما ينتقل المرض بواسطة عضات الحشرات كالبق أو القمل، وعن طريق الفئران، وأكل الطرائد المصابة، وأهم أعراض المرض اضطراب عصبي ونفسي وفي الجهاز الهضمي يؤدي إلى القيء والإسهال[1].أما الصنف الثاني فهو الطاعون الرئوي، ويظهر في ثلاثة أيام، وأهم أعراضه ارتفاع نبضات القلب، وضيق التنفس، ورمي البصاق مخلوطا بالدم، إضافة إلى اضطرابات عصبية، ودخول المريض في حالة غيبوبة وينتقل هذا المرض من شخص لآخر عن طريق، اللعاب والسعال والعطس[2].

د: خطرها على المجتمع:

لم تكن الأمراض تشكل الخطر الوحيد لسكان مجتمع المغرب الإسلامي، وإنما عانى هذا المجتمع عددا من الأوبئة والطواعين الفتاكة زادت الفقراء المحتاجين تذمرا وبؤسا في حياتهم اليومية، وبالرغم من أن الأوبئة والطواعين تعتبر من الآفات السماوية أو العاهات التي لا دخل للإنسان فيها[3]، إلا أن حدوثها في بعض المرات يكون نتيجة عوامل مناخية وطبيعية مثل: تعاقب المجاعات وغلاء الأسعار وانعدام الأقوات والغلال، وإتباع الناس نمطا غذائيا صعبا يكون في معظمه ناقصا لشروط الصحة[4]، لأن مبتغاهم الأساسي هو سد رمق الجوع على حد قول ابن زهر"...اضطرار الناس إلى أكل الحبوب المتعفنة والفاسدة إما أن تكون رديئة في جوهرها، أو بقدمها من طول الاختزان في المطامير، وكذا أكلهم للحوم الرديئة"[5] كلحم الجيفة وغيرها من اللحوم المحرمة على الإنسان مثل لحوم الفئران

---

[1] – محمد فتحة، مرجع سابق، ص91.

[2] – المرجع نفسه، ص91.

[3] – المقريزي أبو العباس أحمد، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص115.

[4] – ابن خلدون، المقدمة، ص 288.

[5] –أبو مروان بن زهر، المصدر السابق، ص 459.



والكلاب وأكلهم للنباتات البرية، وبعض الأغذية الغريبة التي لم يعتادوا على أكلها إلا بسبب الجوع والفقر[1].

كما تحدث الأوبئة أيضا نتيجة شرب الناس للمياه القذرة والراكدة في البرك وذلك لانعدام المياه الصالحة للشرب بسبب القحوط الشديدة، والجفاف الحاصل في كثير من الأحيان الأمر الذي يؤدي إلى احتمال ظهور الوباء بين الناس وانتشاره بسرعة[2]، وذلك ما يؤكده أبو مروان عبد الملك بن زهر عن المياه" فإنها إن كانت مياها راكدة متغيرة حتى تنتن وتكون عكرة مما تحتها من الحمأة والأقذار، فإنها قد يكون عنها بما ذكرته من الوباء بالحميات الدقية... وبالأورام الطاعونية"[3].

وكان لظهور الأوبئة أحيانا سببا في تعاقب المجاعات، فيعجز السكان عن توفير احتياجاتهم الضرورية، لكن هذا ليس دائما فقد تحدث أوبئة دون أن تتبعها مجاعات أو أمراض والعكس صحيح. وهذا ما أثبتته المصادر التاريخية من خلال ما جاء بين متونها. فحسب شهادة الذهبي في قوله" عندما تفشى الطاعون بالبلاد الشامية، عدمت الأقوات، واشتدّ الغلاء بشكل كبير، وشرع الوباء، مما أدى إلى حدوث كارثتين معا، المرض أولا والمجاعة ثانيا، فعظم الأمر عليهم واشتدّ الخطب"[4]، وكان لشدة الجوع المقرون بالفقر أثر في تخلي الإنسان الشامي عن قيمه الأخلاقية والإنسانية، ففي سنة(718هـ/1316م) عم بلاد الشام قحط وجوع بالجزيرة، حتى أكل الناس لحوم الميتة، وبيعت الأولاد وجلا الناس إلى حيث توفر سبل العيش، ومات البعض من ذلك الجوع"[5]، وهذا بدوره أدى إلى ارتفاع أعداد الموتى بين السكان من شدة الجوع[6]، وبالمثل وصل الأمر خلال مجاعة (777هـ/1375م) ببعض الأسر إلى بيع أبنائهم لشراء الأقوات، أو التخلص منهم[7] نتيجة فقرهم

[1] - ابن السماك العاملي، الحلل الموشية، ص209/ ابن خلدون، العبر، ج7، ص128.

[2] - سعيد بن حمادة، الماء والإنسان في الأندلس، ص187.

[3] - ابن زهر، مصدر سابق، ص 453.

[4] - الذهبي محمد، ذيول العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985 ج3، ص114.

[5] - المصدر نفسه، ج4، ص48.

[6] - المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص 244-245.

[7] - الحنبلي ابن عماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج8، تح: محمود الآناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1993، ص431.

وخصاصتهم، كما أكلوا الناس أيام الشدائد الحيوانات الميتة وكذا لحوم أولادهم، وعبيدهم، وجواريهم[1] وما يبرر ذلك أكثر قول الذهبي" وأما أكل لحوم الآدميين فشاع وتواتر"[2] من شدة وقهر الجوع العظيم لهم، وفي هذا الصدد يقول أحد شعراء الفترة:

سِنينَ القِحْطِ قَدْ دَارَتْ وَعَمَتْ للكَبير مَعَ الصَغيْر

وَبِعْنَا الفَرَش وَالبسْط الغَوَالي وَنِمْنَا بالثيَاب علَى الحَصْير

لَقيْناَ منْ أَداَهَا ما لَقينَا وَزَاحَمْنَا الحَمير عَلىَ الشَّعير[3]

وبالمثل كان الوباء الحاصل في كل من المغرب الأقصى وإفريقية ومصر له علاقة مباشرة بالجوع وقلة الحاجة فيقول ابن أبي زرع"وفيها (أي سنة 693هـ/1293م) كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر، هلك فيها خلق كثير"[4] أما حصول الوباء دون مجاعة مسبقة فيبرره وباء الطاعون سنوات (748-749-750هـ/1347-1348-1349م) الحاصل في كل من الغرب الإسلامي والعالم برمته حسب قول صاحب العبر" ثم جاء الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه"[5]، وهي كلها قرائن تفسر لنا أن تفشي الوباء بالمجال ممكن أن يكون ناتج عن الفقر والجوع معا، واحتمال أن يكون أحد مسبباته على حد تعبير القلقشندي في قوله عن طاعون (749هـ-1348م) "كان من أشد الطواعين الذي عم أقطار الأرض ، وخرب أكثر البلاد، وخلت فيه من الناس"[6]، وزكى الطرح أكثر شهادة المقريزي في قوله "كان له تأثيرا في شيوع الفقر بين الناس؛ لنفوق الحيوانات، وإغلاق الأسواق، ودور الصناعة، والطواحين ولقلة وجود النقد عجز السكان عن شراء

---

[1] – ابن قاضي شهبة أبو بكر الدمشقي، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج3، تح: عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ودار الجفاف والجابي للطباعة والنشر،1994، صص 648-652.

[2] –الذهبي، مصدر سابق، ص117.

[3] – محمد ابن صصرى، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تح: وليم برينز، مكتبة بولدليان، أكسفورد، دت، ص 203.

[4] – ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص409.

[5] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص515.

[6] –القلقشندي أحمد، أثر الأنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار أحمد فراج،ج2، عالم الكتب، بيروت، دت، صص155-156.

أهم احتياجاتهم، وهذا بدوره أدى إلى حدوث مجاعة شديدة توفي بسببها عدد كبير من السكان من شدة الجوع"[1]، ونوه الوزان إلى أنه عندما "يداهم الطاعون الناس يقضي على الكثير منهم لأنه لا يوجد إنسان يهتم بهذا المرض ولا باستعمال أي علاج"[2] ولأن الوباء كان سريع التأثير في الفتك بأعمار الناس لم يستطيع حتى الأطباء تقديم خدماتهم على حد تعبير المقريزي " ولم يحتج أحد في هذا الوباء إلى أشربة ولا أدوية ولا أطباء، لسرعة الموت.فما تنصف شوال إلا والطرقات والأسواق قد امتلأت بالأموات "[3] .

هناك عدة أوبئة وطواعين نزلت بالمغرب الإسلامي كان لها أكبر الأثر على جميع مناحي الحياة، بسبب كثرة الوفيات سواء من الجنس البشري أو الحيواني الذي لم يسلم هو الأخر من شره، على حد تعبير المقريزي "عم الوباء بلاد الإفرنج، وابتدأ في الدواب"[4]، كما أشار في موضع آخر إلى أن أسماك البحيرات كانت تطفو على الماء بسبب مرضها بالوباء، وقد مات الصيادون في المراكب والشبك بأيديهم مملوءة سمكا ميتا. وامتنع الناس عن أكلها لخوفهم من الموت بهذا الوباء، بالإضافة إلى نفوق الحيوانات وموتها في قوله"وماتت القطط حتى قل وجودها..وأنهم كانوا يجدون الأسود والذئاب والأرانب والخنازير وغيرها من الوحوش ميتة "[5]، ونظرا لارتفاع عدد الموتى بسبب هذه الطواعين كانت أشلاء الموتى تترامى في الطرقات حسب شهادة ذات المصدر" فجافت الطرقات بالموتى، ومات سكان بيوت الشعر ودوابهم وكلابهم وتعطلت سواقى الحنا وماتت الدواب والمواشي، وامتلأت الفنادق والحوانيت بالموتى، ولم يجدوا من يدفنهم"[6].

عاث الوباء فسادا كبيرا في البلاد التونسية عام (857هـ/1453م) ، ثم ظهر وباء قتال ثالث، فتك فتكا ذريعا بالعباد في العاصمة، حيث بلغ عدد الضحايا عدة مئات، عند بلوغ الوباء ذروته،

[1] - المقريزي، السلوك، ج4، صص84-89.

[2] - الحسن الوزان، ج2، ص95.

[3] - المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج4، ص87.

[4] - المصدر نفسه، ج4، ص83.

[5] - المصدر نفسه،ج4، ص 89.

[6] - المصدر نفسه،ج4، ص85.

وذلك طوال أكثر من سنة، ابتداء من ربيع سنة(862هـ/1458م)، وفيها كان السلطان عثمان يلتجئ كل مرة إلى داخل البلاد فارا من العدوى[1].

هـ: الفئات الأكثر تعرضا للأوبئة و الطواعين:

إن المصادر التي أشارت إلى ذكر آفة الوباء والطاعون بالمغرب الإسلامي لم تكن لتقصد بذكر الفئات الأكثر تعرضا للوباء تفصيلا، وإنما أوردت الحديث عنهم عرضا واقتضابا، وهذا يؤكد لنا أن مصادر الفترة ظلت حبيسة الكتمان للتأريخ للفئات الضعيفة، في حين اهتمت بالكتابة عن الفئات المثقفة والسياسية حتى في زمن الآفات و الأوبئة.

وهذا لا يستثني أنه هناك نخبة من المؤرخين أشاروا بين طيات متون كتاباتهم إلى تضرر بعض الفئات، فهذا ابن الخطيب في نص دال يكشف عن تباين الإصابة بالوباء بين فئات الناس بحسب مستواهم المعيشي وأعمارهم فيقول: أن "أهل الشظف"هم أكثر عرضة للوباء من غيرهم في قوله"وفي الضعفاء وأهل الشظف أفتك، وبصنفي النساء والصبيان أمطى"[2]، وذلك بسبب مجاورتهم المباشرة للمرضى المصابين به و للجنائز والأثواب والآلات وضيق المساكن والتراكم وسوء التدبير لعدم وعيهم خصوصا في طبقات اللفيف[3]. وهو نص يوضح لنا أن المتأذي الأول من الوباء والطاعون هم الأطفال والصبيان لكثرة الرطوبة المتواجدة في أجسامهم. وما يعزز الطرح أكثر شهادة الرصاع في ذهاب مؤدب كتاب العباد بتلمسان لنزول الوباء ووفاة الصبيان في قوله في قوله "سافر المؤدب وخلا المكتب لوباء كان توفي فيه أهل المسيد من صبي وفاضل ومجيد، إلا من أفسح الله له في الأجل"[4] كما يؤكد ذلك المقريزي في أحد نصوصه عندما ضرب الوباء مصر سنة(672هـ/1270م) في قوله "كان بمصر وأريافها وباء، هلك فيه خلق كثير أكثرهم النساء والأطفال"[5]. وأشار في موضع آخر بقوله"عم الوباء

---

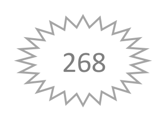
[1] – روبار برانشفيك، ج1، مصدر سابق، ص287.

[2] – ابن الخطيب لسان الدين، مقنعة السائل عن المرض الهائل، تح: حياة قارة، ص77.

[3] – المصدر نفسه، ص81.

[4] – محمد الأنصاري، فهرسة الرصاع، تح: محمد العنابي المكتبة العتيقة، تونس، دت، ص46.

[5] – المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص87.



بلاد الإفرنج...، ثم الأطفال والشباب"[1]، ويشير الخطابي إلى أن أحد الأوبئة اسمه وباء الجذري يصيب خاصة الأطفال[2].

وهي كلها نصوص تؤكد حدة الوباء وشدة فتكه على الفئات الفقيرة، وذلك بسبب قلة الإمكانيات وسوء التغذية، وهذا لا يعني أن الفئات الأخرى للمجتمع كانت مستبعدة من ضرره، فلم تسلم بعض النخبة المثقفة من زهاد ومتصوفة وأطباء وحتى رجال السياسة من الموت بسببه حتى وإن كانوا أغنياء، إلا أن هاجس التعرض له كان بنسبة أقل عكس الفئات العامة.

4:حرمان الطبقات الفقيرة العلاج الطبي:

ا: واقع الممارسة الطبية بالمغرب الإسلامي:

تعتبر صناعة الطب"من أشرف الصنائع وأربح البضائع، فقد جعل علم الأبدان قرينا لعلم الأديان، وقد قال الحكماء: إن المطالب نوعان: خير ولذة، وهذان الشيئان إنما يتم حصولهما للإنسان بوجود الصحة. لأن اللذة المستفادة من هذه الدنيا، والخير المرجو في الدار الآخرة، لا يصل الواصل إليهما إلا بدوام صحته وقوة بنيته"[3]. وحسب الأكفاني فإن"علم الطب يبحث في بدن الإنسان من جهة ما يصح ويمرض والتماس حفظ الصحة وإزالة المرض"[4]، ويقول عنه ابن خلدون" هو صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص عضوا من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الأدوية"[5].

---

[1] – المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، مصدر سابق، ج4، ص83.

[2] – نور الدين زرهوني، الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن(6هـ) ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، دت، ص 120.

[3] –ابن أبي أصبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص7.

[4]– ابن الأكفاني الأنصاري: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، نشر فؤاد سزكين وآخرين، معهد تاريخ العلوم العربية–فرانكفورت –ألمانيا، 2005، ص221.

[5] – ابن خلدون، المقدمة، ص490.

ولا يخفى على كل مسلم أن الإسلام ندب إلى الوقاية والاعتناء بالصحة عن طريق تسخير وسائل علاجية لحفظ الأبدان من أجل إبقاء واستمرار النوع الإنساني. والطب العربي قديما تطرق إلى أهمية الطب الوقائي وأطلق عليه بما يسمى"حفظ الصحة" [1]ومن الأطباء الذين اهتموا بذلك ابن سينا الذي عرف الطب بأنه "علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة، ليحفظ الصحة حاصلة، ويستردها زائلة"[2] وفائدة الطب تكمن في حفظ صحة الإنسان حسب قول ابن خلدون"حفظ الصحة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم"[3].

ولاشك أن حركة الترجمة للعديد من الكتب اليونانية والفارسية والسريانية والهندية[4] ساهمت في تقدم علم الأعشاب والصيدلة في الغرب الإسلامي نظريا وميدانيا، من خلال تعريبهم الكثير من المصنفات ذات الأهمية الكبيرة لدراسة علم الأعشاب[5]، ولعل ما سهل الممارسة الصيدلانية في صنع الأدوية احتواء الغطاء النباتي للمغرب الإسلامي والأندلس على العديد من الأعشاب الطبية المهمة، وذلك بفضل عناية واهتمام أمراء وسلاطين بلاد المغرب الإسلامي والأندلس خلال العصر الوسيط بالعمل على جلب العديد من النباتات الطبية من البلدان المجاورة، والقيام بغرسها والاعتناء بها لأجل التداوي بها، ومن الأمثلة على ذلك وإن كان المثال متقدم عن زمن الدراسة إنما لأجل الاستشهاد على الحرص والعناية الشديدة التي أَوْلَوْهَا سادة بلاد الغرب الإسلامي عبر مختلف العهود لهذا التخصص فهذا "عبد الرحمن الناصر (350هـ/961م) أنشأ حديقة نباتية بمدينة قرطبة خصصها للنباتات الطبية وبعث عدد من المتخصصين في علوم النبات إلى العديد من البلدان للبحث عن بذور النباتات وجلب أنواع من المغروسات الطبية والاقتصادية لغرض ضمها إلى حديقته الضخمة وعهد

[1] – أبو مروان بن زهر، مصدر سابق، ص53./ تواتية بودالية، مرجع سابق، ص320.

[2] – ابن سينا أبي علي الحسين، القانون في الطب تح: محمد أمين الضناوي، ج1، دار الكتب العلمية لبنان، ط1، 1999، ص13.

[3] – ابن خلدون، المقدمة، ص 395.

[4] –ابن جلجل أبي داود سليمان، طبقات الأطباء والحكماء، تح: فؤاد سنيد، مؤسسة الرسالة، ص (ح)(من المقدمة).

[5] – تواتية بودالية، مرجع سابق، ص 322.

إلى أكابر علماء النبات للإشراف عليها ومتابعتها"[1]،كما أمر بترجمة كتاب الحشائش للطبيب اليوناني ديسقوريدوس[2]، وفي القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين زاد الاهتمام بالزراعة التجربية بالأندلس، فظهرت الحدائق النباتية الطبية التجريبية، من بينها حديقة المعتمد بني عباد، وحدائق البحيرة التي أنشأها الموحدون بمدينة اشبيلية[3]، ساهمت هذه العوامل في تطور علم الصيدلة بالأندلس والمغرب الإسلامي للترابط والتقارب العلمي الثقافي الذي ميز العلاقات بين العدوتين.

وكان للتآليف المشرقية الطبية التي عرفت طريقها إلى بلاد المغرب الإسلامي، مؤلفات الطبيب أبي بكر محمد بن زكريا الرازي(ت 320هـ/932م)[4] وكتابه الحاوي في الطب، ومؤلفات الطبيب ابن سينا (ت428/1037)[5] وكتابه القانون في الطب و تآليف أبو الوليد ابن رشد[6]، فضلا عن مساهمة الأطباء الأندلسيون في بعث الحركة العلمية بالمغرب الإسلامي خاصة وأن الأندلسيين قد عرفوا تطورا

[1] – تواتية بودالية، مرجع سابق، ص323.

[2] –عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، –عصر الطوائف الثاني–دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 189.

[3] – نور الدين زرهوني، الطب والخدمات الطبية في الأندلس، مرجع سابق، صص 122–123.

[4] –هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب والفيلسوف الإسلامي الكبير، ولد ونشأ بالري ثم انتقل إلى بغداد، واختلف المؤرخون في تاريخ وفاته وذكروا أنها كانت سنة 311هـ أو سنة 320هـ. كان طبيبا مارستانيا، ألف في الطب كتبا كثيرة بديعة منها: كتابه الجامع سبعون مقالة، وكتابه الأقطاب، وكتابه الطب الملوكي، وكتاب التقسيم والتجسيد ومنها كتابه في الطب الروحاني وعدة كتب يطول ذكرها ، كان منذ صغره متطلعا وشغوفا بدراسة العلوم العقلية والآداب وقول الأشعار، أما الطب فقد تعلمه عندما كبر، واختاره عضد الدولة ببغداد أن يكون الرازي ساعور البيمارستان العضدي / ينظر: ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص77. / ينظر: ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص517.

[5] –هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا، كان من أهل بخارى، تلقى تعليمه الأول في المسجد عن معلم القرآن ومعلم الأدب، طالع العديد من كتب المنطق حتى صار أحسن من معلمه، وله العديد من المؤلفات منهم: الحاصل والمحصول في عشرون مجلدة، البر والإثم، القضاء والقدر، والقانون في الطب، وغيرها من الكتب الكثيرة،/ المصدر نفسه، صص437–441،438.

[6]–هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد؛ ولد ونشأ بقرطبة،كان متميزا في علم الطب، هو جيد التصنيف حسن المعاني، وله في الطب كتاب الكليات، وقد أجاد في تأليفه.فلما ألف كتابه هذا في الأمور الكلية قصد من ابن زهر أن يؤلف كتابا في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب، ولأبي الوليد بن رشد من الكتب: كتاب التحصيل، المقدمات في الفقه، كتاب نهاية المجتهد في الفقه،كتاب الكليات، شرح الأرجوزة المنسوبة إلى الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب ،كتاب الحيوان وغيرها من الكتب العديدة / ينظر: المصدر نفسه، صص 530–532.

كبيرا في المجال الطبي منذ العصر المرابطي[1]. كلها عوامل ساعدت على بروز وتكوين أطباء أكفاء منهم: الطبيب ابن البيطار[2](ت646هـ/1248م) الذي ألف كتاب"الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"والذي انتقد فيه كثيرا من الأخطاء عن خصائص الأدوية وتحديد فاعليتها العلاجية التي وقع فيها العديد من الأطباء كالطبيب الصيدلي ابن سينا والرازي، كما تميز الطبيب أبو العلاء زهر[3] (ت525هـ/1131م) بدوره في صناعة أدوية جديدة[4]، فضلا عن مساهمة الطبيب أبو بكر بن مروان بن زهر[5] (ت595هـ/1197م) في اكتشاف الترياق الخمسيني والمركب من خمسين مادة للخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور[6].

فإذا ما تحدثنا عن الطب والأطباء خلال الفترة المدروسة بالمجال الحفصي، نقول عنه أنه استمرار وتواصل لما عرفته إفريقية خلال العهود السابقة، إذ كانت مقر مدرسة طبية إسلامية هامة بالقيروان، وكان ابن الجزار من خريجي هذه المدرسة العريقة، هذه الشخصية التي لا يمكن تجاوز الحديث عنها، إذ يعد هذا الطبيب ومؤلفاته مصدرا ومرجعا مهما للكثير من الأطباء الذين ظهروا بعده، فمن مؤلفاته البارزة، كتابه:(طب الفقراء والمساكين)، وما يقال عن ابن الجزار" أنه كان يعالج المرضى بأقل كلفة

---

[1] -محمد الأمين بلغيث: الحركة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين(479-539هـ/1085-1144م)، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2003/2002، ص465.

[2] - هو الحكيم العالم أبو محمد عبد الله بن احمد المالقي النباتي، ويعرف بابن البيطار، أوحد زمانه ، وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره، ومواضع نباته اخذ هذا العلم عن جماعة من الإغريق، واجتمع أيضا بكثير من فضلاء المغرب وأتقن دراية كتاب ديقوريدس اتقانا، ذاع صيته في معرفة الأدوية والنباتات والحشائش المساعدة على الشفاء، تنقل بين دمشق والقاهرة فكان محظيا لدى الملوك، وكانت وفاته بدمشق سنة ست وأربعين وست مائة وله العديد من المؤلفات منها: كتاب الإبانة والإعلام، الجامع في الأدوية المفردة وغيرها من التصانيف المهمة./ ينظر: ابن أصبيعة، مصدر سابق، ص 602.

[3] -هو أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان، مشهور بالحذق، والمعرفة، وله علاجات مختارة تدل على جدارته في الطب وقدرته على المعالجة، وكان في دولة الملثمين، فنال المنزلة الرفيعة ، والذكر الجميل ، وفي زمانه وصل كتاب القانون إلى المغرب، ، وله العديد من التصانيف منها: كتاب الخواص، كتاب الأدوية المفردة، كتاب الإيضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان / المصدر نفسه، ص 519.

[4] - نور الدين زرهوني، مرجع سابق، ص 125.

[5] - هو الوزير الحكيم الأديب الحسيب أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر، ولد بمدينة اشبيلية سنة 577هـ ،ونشأ بها وتميز في العلوم، واخذ صناعة الطب عن أبيه، وباشر أعمالها ، كان حافظا للقرآن والحديث، كان حسن المعالجة جيد التدبير، توفي مسموما بسلا سنة 602هـ./ ابن أصبيعة، مصدر سابق، صص521-522.

[6] - المصدر نفسه، ص 522./ينظر: نور الدين زرهوني، مرجع سابق، ص 125.

وأيسر مؤونة"[1]، وكان يشفق على المرضى الفقراء المحتاجين من خلال" تفريق عليهم أدوية، يسلمها مجانا احتسابا لوجه الله"[2]، كما جاء في كتابه هذا عن دواعي تأليفه حسب قوله"رأيت عند ذلك أن أجمع لمحبّي الطب من قد يتمهّر في قراءة هذا المسمى...بأخف مؤونة وأيسر كلفة، فيسهل عند ذلك علاج العوام على الأطباء، من أهل الفقر والمسكنة منهم، بهذه الأدوية "[3]

وكان أبرز الأطباء الذين مارسوا هذه المهنة خلال العهد الحفصي ينتمون إلى عائلة الأشراف الصقليين فنذكر: الطبيب عبد السلام بن إبراهيم الزيات الصقلي (ت722هـ/1322م)، وابنه أحمد(ت820هـ/1418م)، والطبيب أبو سعيد الصقلي وابنه عبد الرحمن (ت1467م)، أما عن أحمد بن عبد السلام الشريف الحسيني الصقلي التونسي، أبو العباس، الطبيب، فمن المشاع أنه درس الطب في جامع الزيتونة، واشتغل بالمستشفى الذي أحدثه أبو فارس[4]،كما اشتهر أمر الطبيب محمد الشريف الحسني الزكراوي (ت 874هـ/1476م) الذي كان أديبا وطبيبا عمل بالمارستان الذي أقامه السلطان أبو فارس الحفصي[5].كما احتوت مدينة القيروان خلال هذه الفترة عدة أطباء آخرين مثل إبراهيم مزغيش ومحمد البلوي المعروف بالبكوش كان مفتيا وطبيبا[6]، وفي نهاية القرن التاسع الهجري/15م، ألف عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن التونسي (ت899هـ/1493م) كتاب الطب في تدبير المسافرين ومرض الطاعون وهو مخطوط بإحدى مكتبات استنبول[7]، ولكن حسب رأي المؤرخ برونشفيك فإن ازدهار الطب في العهد الحفصي كان نسبيا لأن العلوم الطبية لم تشهد تقدما محسوسا لا من الناحية النظرية ولا العلمية[8].

---

[1] – ابن الجزار، مصدر سابق، ص24.

[2] – المصدر نفسه، ص 24.

[3] – المصدر نفسه، ص 76.

[4] – صوفية السحيري بن حتيرة، مرجع سابق،ص 290.

[5] –أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ط1981،2، ص 280.

[6] – روبار برونشفيك، تاريخ إفريقية، ج2، ص 391.

[7] – محمد المواق ومحمد الرصاع، مصدر سابق، ص 53.

[8] –برونشفيك، ج2،ص391/ينظر: Claisse-Dauchy, Médecine traditionnelle au maghreb, Paris, 1996, p. 97

أما عن الأطباء الذين ذاع صيتهم بالمغرب الأوسط خلال فترة الدراسة نذكر الطبيب والصيدلي أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني صاحب مخطوط "قائمة مصطلحات صيدلية مرتبة على حروف المعجم"[1]، والذي يتحدث فيه عن أدوية مرتبة على حروف المعجم يشير إلى معلومات هامة في مجال الصناعة الصيدلية بتلمسان[2].

وبرز الطبيب أبو علي المغيلي أيضا في ميدان الطب وكان مقره بتلمسان ،كان حيا خلال القرن 8هـ/14م[3]، والطبيب حسن بن علي بن حسين بن عبد علي بن ميمون بن قنفد القسنطيني الذي كان بمدينة قسنطينة وله رحلة إلى المشرق[4]، كما اشتهر الطبيب أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي الجرائحي(طبيب جراح) بمدينة تلمسان توفي بعد سنة(767هـ/1365م)[5]، وعرف أحمد بن يحي بن أبي بكر بن عبد الواحد بن أبي حجلة بممارسته لمهنة الطب، وكانت له رحلتين إلى المشرق (الحجاز، ودمشق)[6]، وغيرهم من الأسماء التي لمعت في هذا المجال.

وبالمثل برز أطباء مرنيين نذكر الطبيب أبو جعفر أحمد بن جريح الذهبي(ت660/1261م)، له رحلتين إلى إفريقية وتلمسان، والطبيب أبو إسحاق إبراهيم الداني الذي عمل بمرستان مراكش في عهد السلطان المنصور أبو يوسف، كانت لهذا الطبيب عناية بالغة بصناعة الطب وأصله، وتقلد منصب أمين البيمارستان وكان طبيبا للحضرة، وتوفي في مراكش في عهد المستنصر بن الناصر.

ب: وسائل وطرق علاج الفقراء وعلاقتهم بالأطباء:

---

[1] -أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني (القرن 8هـ/14م) ، قائمة مصطلحات صيدلية، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 1777.

[2] -سعدي شخوم، **الصناعة الصيدلية بالدولة الزيانية من خلال مؤلفات ابراهيم بن أحمد الثغري التلمساني(ق8هـ/14م)**، **مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية**، العدد:4، منشورات جامعة معسكر، مكتبة الرشاد، الجزائر،2013، ص520.

[3] – ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن، ص 382.

[4] – ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، صص 86،88.

[5] -عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، ط2، 1980، ص 63.

[6] – هو أحمد بن يحي بن أبي بكر عبد الواحد بن أبي حجلة نسبة إلى جده الشيخ بوحجلة، انتقل إلى القاهرة واشتغل بالأدب وولع به حتى مهر، ثم ولي مشيخة الصوفية بالقاهرة، ومات فيها بالطاعون، اتبع المذهب الحنفي، له أكثر من ثمانين مصنفا في الحديث والفقه والنحو والأدب منها الطب المسنون في دفع الطاعون./ينظر: الزركلي، الأعلام، ج1، صص 268-269/ عادل نويهض، مرجع سابق، ص 364-365.

يعد حفظ الصحة غاية الطب الوقائي، وقد تكون الصحة كلية ينعم بها الجسم بكامله، وقد يقتصر أمرها على عضو ما وهي عند الأطباء" هيئة طبيعية بها يكون الإنسان في مزاجه وتركيبه، بحيث تصدر عنه الأفعال كلها صحيحة سليمة"[1]، وكان الأطباء يدعون دائما إلى ضرورة حفظ الصحة والوقاية من الأمراض قبل الوقوع فيها، لأن ذلك أهم بكثير من المداواة والعلاج وما يثبت ذلك أن أول ما افتتح به الطبيب أبو مروان بن عبد الملك بن زهر كتابه"التيسير في المداواة والتدبير" قوله"...وبعد فإنني ملبي بامتثال الأمر العزيز في تصنيف علاجات...وأبدأ في ذلك إن شاء الله بما يحفظ الصحة"[2]، وهو ما يفهم أن بن زهر أعطى أهمية كبيرة للعمل الوقائي عن طريق توفير الأغذية بإتباع نظام غذائي يلائم كل فصل من فصول السنة ويكون موافقا لأعمار الناس وأجناسهم، فضلا عن توفير الأدوية وتدبير ما لابد من تدبيره كنظافة الحمامات[3]، التي حرص الفقهاء والأطباء على ضرورة نظافتها والحفاظ عليها، فشددوا على مراقبتها لكونها أهم مكان يلجأ إليه عامة الناس للاغتسال فاشترطوا على المشرفين عليها أن يبيتوا محاكهم التي يحكون بها أرجل الناس في الماء والملح[4]، كما لابد من مراعاة تغير المناخ حسب الفصول والسنوات، في إطار ما يعرف في النسق المفهومي الطبي ب"الأمور الضرورية" و"الأمور غير طبيعية"التي تتوقف عليها المعرفة النظرية بشؤون الصحة[5].

ويظهر جليا أن حفظ الصحة متعلق أساسا بنظافة المحيط والبيئة التي يعيش فيها الفرد لأجل الوقاية من خطر الأمراض المزمنة والأوبئة الفتاكة، ولأن مجتمع المغرب الإسلامي عصفت به الكوارث والآفات البيئية في العديد من المرات والتي أدت إلى فساد الهواء والغذاء معا، الأمر الذي تسبب في ظهور أمراض وأوبئة كثيرة عان منها أفراد المجتمع، ولأجل ذلك تعددت طرائق العلاج والمدواة والاستشفاء.

[1] -سعيد بن حمادة، مرجع سابق، ص 225.

[2] - أبو مروان ابن زهر، مصدر سابق، ص50.

[3] -سعيد بن حمادة، مرجع سابق، ص 223.

[4] -فرانشيسكو فرانكو سانشت، **تطور الطب في الأندلس**، **المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم**، عدد27، تونس 1994، ص193.

[5] - سعيد بن حمادة، مرجع سابق، ص225.

ارتبط العلاج والتداوي لأفراد مجتمع المغرب الإسلامي خلال فترة الدراسة بمستواهم المعيشي، أي بحسب تقسيماتهم الطبقية داخل المجتمع -الخاصة الثرية والطبقة العامة الفقيرة -فثراء الطبقة الخاصة الأرستقراطية ساعدها على الاحتكاك بالأطباء المهرة الذين كانوا يتقاضون أجرة كبيرة مقابل الخدمات الطبية التي كانوا يقدمونها للمرضى[1]، في حين نجد الفئات الفقيرة الهزيلة الدخل لا تستطيع دفع أجرة الطبيب الواحد، على أن أبرز مثال لذلك ما أورده ابن بسام عن رجل يساوم طبيبا في الأجر الذي طلب منه دفعه مقابل الكشف عنه طبيا:

عَجِبْتُ لِذِي سَقَّم مُعْضِل   يَسُوم الطَبِيبَ وَيكْدِي عَليَهِ

يَظُـــنُ عَلَيْهِ بِدِينَـــــــارِهِ   وَيجْعَـــل مَهْجَتِـــهِ فِي يَدِهِ[2]

وهذا لا يعني أن كل الأطباء كانوا لا يقدمون خدماتهم للطبقة العامة، بل كان هناك أطباء يراعون الظروف المادية أحيانا للفقراء ويعالجونهم مجانا[3]، فإذا ما بحثنا في المصادر الطبية للأندلس نجد أن الكثير من أطباء وصيادلة الأندلس حرصوا على تقديم العلاجات ومداواة المرضى الفقراء والمحتاجين المساكين[4]ومثال ذلك الطبيب الصيدلاني أحمد بن يونس الحراني الذي كان " يواسي بعلمه صديقه وجاره، والمساكين والضعفاء"[5]،كما نحى منحاه الطبيب الصيدلاني الرميلي، الذي كانت له مكانة محبوبة عند العام والخاص داخل المجتمع الأندلسي فقد" عالج في بعض أوقاته المستورين بماله أدوية وأغذية، فأحبه البعيد والقريب وأصبح ما له إلا حميم أو حبيب حتى أودت به الأيام فاقدة إحسانه، نادبة مكانه"[6]، غير أن الكثير من الأسر الفقيرة والمحتاجة ألجأتهم الضرورة المادية والاعتقاد الجازم في

[1] -نور الدين زرهوني، مرجع سابق، ص 62.

[2] - ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، مج1، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، 1997،ص905.

[3] - نور الدين زرهوني، مرجع سابق، ص62.

[4] - تواتية بودالية، مرجع سابق، ص370.

[5] - ابن أبي أصبيعة، مصدر سابق، ص487.

[6] -المصدر نفسه، ص497.

نجاعة الطب الشعبي، ففضلوا الاستشفاء بالأعشاب والعقاقير، فضلا عن اللجوء إلى الأولياء والمتصوفة وزيارة قبور الموتى لعلاج الأمراض المستعصية[1].

كما كان لكثرة الأمراض، وقلة مدخول السواد الأعظم من الرعية، فضلا عن عجز الأطباء عن معالجة بعض الأمراض كالطواعين، جعل طرق الاستشفاء البدائية تعرف رواجا كبيرا، لا في البادية فحسب بل في الحواضر نفسها[2]، حيث شاع الاعتقاد في الطب الروحاني فالتجأ المرضى إلى الأولياء والصلحاء طمعا في بركتهم وشفائهم[3] بدلا من الأدوية المركبة التي يصفها الأطباء لمرضاهم، وعليه يمكن التساؤل عن أنماط وأساليب العلاج والتداوي عند هؤلاء الأولياء وفيما تمثلت؟.

1: الطب الشعبي:

ينقسم الى قسمين: العلاج الروحي والمادي.

ا: العلاج الروحي:

هو علاج وهمي روحي تتدخل فيه بركة الولي لعلاج بعض الأمراض المستعصية، مقابل ثمن رمزي ويكون العلاج أحيانا بالهمس أو الريق، وذلك ما أشتهر به بعض المتصوفة من المغرب الإسلامي[4]ومن بين تلك الأساليب المتخذة في هذا العلاج نذكر:

***الرقية**: العوذة، التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات[5]،يقال وعاذ به: لاذ به ولجأ إليه واعتصم، ويقال عوذت فلان بالله وأسمائه وبالمعوذتين إذ قلت أعيذك بالله وأسمائه من

---

[1] -إبراهيم القادري بوتيشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين –المجتمع، الذهنيات، الأولياء- دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993، ص102.

[2]- ابن خلدون، المقدمة، ص491.

[3] - إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع نفسه، صص103-104.

[4] - سهام مقدم ، الطب والأطباء، مرجع سابق، ص47.

[5] - ابن منظور، ج6، صص 209-210.

كل شر وكل داء وحاسد[1]، وهي من الطقوس القديمة عند العرب والتي ذكرها القرآن الكريم " وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ"[2]، وقيل أن الرقى يكره منها ما كان بغير اللسان العربي وبغير أسماء الله تعالى وصفاته وكلامه في كتبه المنزلة[3].

ورغم ضآلة المادة الخاصة بعلاج الفئات الفقيرة لكثير من الأمراض، إلا أن الشائع في علاجهم هو توجههم نحو الرقية لقلة التكلفة وسرعة الإبراء، فسلك أولياء المغرب الإسلامي أسلوب العلاج بالرقى للمرضى ذووا العاهات المستديمة، وعلاج الصرع والجن والعين، ومثال ذلك ما أورده البرزلي عن بعض الرقى التي تخص إزالة الوجع[4]، وأخرى لحل المعقود من الرجال[5]، وتسهيل عسر الولادة[6].

كما كانت الرقية تستعمل لبعض الأمراض الوبائية والمزمنة، فقد عرف أولياء المغرب الأوسط رقية لمرض الرمد[7]حسب شهادة البسكري[8]، وتنوعت أشكال ووسائل الرقية والتي تمثلت في الدعاء والنفث على مواضع العلة، وهي كرامة اشتهر بها الشيخ أبو يعزى[9] بالمغرب الأقصى ويبدو أن هذه الطريقة ساهمت في شفاء العديد من الأمراض مثل الجدري والجذام الذي استعصى أمره على الأطباء، فكان

---

[1] – ابن منظور، ج10، ص 329.

[2] – سورة الجن، الآية، 06.

[3] – ابن منظور، ج10، ص329.

[4] –البرزلي، مصدر سابق، ج6 ، صص478 -479.

[5] – المصدر نفسه، ج6، ص490.

[6] – المصدر نفسه، ج6، ص488.

[7] – هو من الأمراض التي كانت شائعة ومنتشرة في بلاد المغرب الإسلامي ، وهو مرض يصيب العيون سواء للكبار أو الصغار وأعراضه يكون بانتفاخ الأجفان مع دمع سائل ورطوبة كثيرة وبكاء للعين دائم ، ويرجع انتشاره إلى التجار الذين كانوا يقيمون بالصحراء ، إلا أن هذا المرض لم يشكل خطورة على السكان عكس الأمراض الوبائية الأخرى وكان يعالج بطرق تقليدية كوضع الكحل أو الرقى من طرف الأولياء أو بعض الخلطات الممزوجة بالأعشاب والعسل/ سهام مقدم، مرجع سابق، ص43.

[8] – البسكري عيسى بن سلامة، اللوامع والأسرار في منافع الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر ضمن رقم 1777، ورقة 52.

[9] – هو أبو يعزى آل نور بن عبد الله ،كان آية من آيات الله تعالى، كان أمره عجيبا ، بلغت كراماته حد التواتر ، يقال عن نسبه أنه من بني صبيح من هكسورة، وقيل من آغمات آيلان، نزيل تاغية من بلاد إيرجان ، من عمل مكناسة الزيتون، كان قطب عصره وأعجوبة دهره وإمام وقته ، يقال عنه " إليه انتهت تربية الصديقين والسالكين بالمغرب، فقد بلغ من مقامات اليقين مقاما لا يبلغه إلا الأفراد من العارفين ،أما مجاهداته فقل من يصل إليها من الأكابر / ينظر: أحمد التادلي الصومعي، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تح: علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996، ص64-67.

الأولياء يقومون بمعاينة موضع العلة والنفث عليها ولمسها ودلكها باليد، تبرأ في الحين، وهذا في باب الكرامات[1].

كما عدَّ الدعاء أحد أساليب العلاج الاشفائية الروحية، على اعتبار أن دعاء الأولياء الصالحين مستجاب من الله لتقواهم وزهدهم، فقد دعا الولي الصالح أحمد بن يوسف الراشدي لامرأة مريضة بداء العضال فبرأت بقوة الله، ورجعت إلى بيتها برفقة بعلها[2].

ب: العلاج المادي

تواجد هذا العلاج بالبوادي أكثر منه بالحواضر وذلك حسب قول ابن خلدون علم الطب صناعة ضرورية في المدن "لا تستدعيها إلا الحضارة والترف"[3] بمعنى أنه محتاج إليها في المدن أكثر منها في البوادي، كونه يرى "أن أصحاب البوادي لهم طبا ينبونه على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص الذين يتداولونه متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج"[4]، وذلك يفسر عدم حاجة البوادي إلى أطباء كما في المدن.

هو علاج يعتمد على التجربة المتراكمة عبر السنين، وأغلب القائمين على هذا العلاج هم من الشيوخ والمسنين، يضاف إليهم بعض الحرفيين كالحجامين والذين كانوا يمتهنون الحلاقة، وقلع الأسنان ، وضعوا هؤلاء المعالجين مجموعة من الوصفات الطبية للتغلب على الأمراض التي كانت شائعة وقتئذ كوجع الرأس والمعدة والحروق[5].

2: التداوي بالأعشاب:

[1] – أحمد التادلي الصومعي، مصدر سابق، ص123.

[2] – سمية مزدور، مرجع سابق، ص 177.

[3] – ابن خلدون، المقدمة، ص228.

[4] – المصدر نفسه، ص 380.

[5] – سهام مقدم، مرجع سابق، ص 45.

إحتوت العديد من المصنفات الطبية، على وصفات اهتمت بأمراض الإنسان من الرأس إلى القدم[1]، واشتملت على طرق علاجية كان أساس تكوينها الأعشاب والنباتات والزيوت وأنواع من الأطعمة والأشربة، وهو ما يبين أن العلاج كان يولي اهتمام كبير للأعشاب، وهؤلاء العشابون هم أشخاص من الناس لهم دراية بمفعول تلك الأعشاب الطبية على جسد الإنسان، من خلال تجاربهم المتوارثة جيلا عن جيل. ومثال ذلك كتاب ابن الجزار القيرواني الذي إحتوى على ثمانين بابا، وفي كل باب شرح لكيفية إستخدام الأعشاب الضرورية لكل مرض.

وقد أشارت بعض المصادر إلى تواجد هذا النوع من التداوي والعلاج في مجتمع المغرب الحفصي حسب شهادة الغبريني في تذمره من هذا النوع من الطب ناقما على من يمارسونه واصفا إياهم بالعوام من خلال ترجمته للطبيب محمد بن أحمد بم محمد الأموي(ت674هـ/1275م) في قوله" وأما عوامهم (عوام الأطباء) ومن يعد منهم في إعداد القوابل فعندما يسأل يجيب بغير علم، ولقد رأيت من كان مبخوتا في الطب يعالج المرضى فتخفى عليه الشكاية فيعالجها بالحار تارة وبالبارد تارة أخرى، بحيث ينظر فإن نجح فيها أحدهما استمر عليه"[2]، وتفسير النص أن هؤلاء الأطباء العوام يعتمدون في تقديم العلاج للمرضى على قاعدة الأضداد حسب قول الباحث سعيد بن حمادة"بأن يرد على البدن ما يضاد الحالة التي هو عليها، ويرده إلى حالتها الطبيعية بالغذاء والدواء"[3]، ويدلي مثال على ذلك فيقول" فإذا أصيب الإنسان بنزلة برد اعتقد الطبيب أنه شرب ماء بارد فكان يصف له دواء مسخنا، وكذلك الأمر في الحميات التي نصح الصيادلة لمقاومتها بالماء البارد"[4] حسب قول ابن قتيبة "الدواء هو الأزم (الحمية)"[5] .

---

[1] – ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، تح: محمد سعيد أبو شعر، ج3، المكتب الإسلامي، ط1، 2008، صص273-277.

[2] – الغبريني، عنوان الدراية، صص75-76.

[3] – سعيد بن حمادة، مرجع سابق، ص 234.

[4] – المرجع نفسه، ص224.

[5] – ابن قتيبة، مصدر سابق، ص159.

ويظهر جليا أن طرق الاستشفاء والعلاج قد تنوعت بالمغرب الإسلامي بين ما هو طبيعي وما هو روحاني، وأن الوضع المادي لطبقات المجتمع في المغرب الإسلامي الذي كان يتغير بحسب الظروف السياسية والاقتصادية للمنطقة، هو الذي كان يتحكم في ذلك.

كان لذلك التلازم المتسلسل لآثار الفقر من مرض ووباء وجوع وموت وغيرها من الآثار أن جعل من إنسان المغرب الإسلامي التعبير عن ما بداخله من آلام في شكل أمثال كانت قد أوحت بالمعنى من حيث الفقر والجوع والعرى، وعليه ففيما تمثل خطاب الفقر في الموروث الشعبي خلال فترة مدار البحث ؟.

5: خطاب الفقر في الأمثال الشعبية:

لطالما شكل الفقر هاجسا كبيرا في خطاب الموروث الشعبي، لاسيما أوقات المحن والشدائد التي تعصف بالدول بين الحين والآخر، هذا الخطاب الذي اعترته مقولات حول الفقر متمثلة تارة في الغذاء وتارة حول اللباس والمسكن، إضافة إلى ما نتج عنه من سلوكات مشينة وآفات اجتماعية، وكيفية تجاوز بعض مظاهره كنقص المواد الغذائية، وتدبير أزمة الطعام خاصة زمن المجاعة.

وإذا كنا سنحاول عرض مقولات هذا الخطاب من خلال مصادر متقدمة أو متأخرة أو خاصة بمجتمع معين كمجتمع الأندلس، فهذا لا يعني أن تلك الأمثال كانت مقتصرة على مجتمع معين، فما من شك أن أية مدينة إسلامية بالغرب الإسلامي كانت تتداول هذه الأمثلة بين أفراد مجتمعها، وذلك ما نلمحه في كتاب الأمثال للزجالي حيث يشرح المثل ثم يشير في الهامش إلى لهجته وصيغته في مناطق أخرى غير الأندلس، وأظن هذه الأمور لا تؤثر على زمنية الموضوع، لأن خطاب الفقر في الأدب الشعبي يندرج ضمن مسار "التاريخ الطويل"، فهو عبارة عن حلقات متصلة ومتسلسلة تجمع

بين ذاكرة الماضي والحاضر، والأمثلة الشعبية التي سنوظفها هي خلاصة لتجارب ذهنية تولدت من رحم تاريخ الفضاء المكاني والزماني الذي سنعالجه[1].

ويبدو أن الفقر والجوع يجعلان الإنسان يعبر عن ضجره وما يختلج بصدره من هموم ضنك المعيشة وقلة الحاجة في أمثلة معبرة، فحسب ما ورد في أحد الأمثلة بخصوص الفقر والسعي في طلب الرزق المثل القائل" العري، والجري"[2] أي الفقر والسعي وراء الرزق من أجل تحصيله، ويقال أيضا في مثال آخر إذا بليت بالسعي عليك الديار الكبار" أو"إذا بلاك الله بالسعي، قصد الديار الكبار" وهو مثل يضرب في التماس الخصب والسعة من عند أهلهما[3] .

كما عبر إنسان المغرب الإسلامي في أحد الأمثلة عن تضمره من الجوع وتمنيه الموت، لكن أمنيته ارتبطت بتحقيق أمنية أخرى، وهي تناول وجبة دسمة قبل أن يموت، والمثال هو" اللي مات على شبعة مات مرحوم "[4] .

ودائما في باب الجوع هناك مثل آخر يقول" لا تكلم من أعيا ولا من جاع" أو بصيغة أخرى العطشان ما تصفر له، والجيعان ما تناديه" ويقال بوجه آخر أيضا" الجوع مالو عينيين" وهي كلها أمثلة تدل على هول وعظم الجوع والعطش بالنسبة للإنسان، لاسيما الفقير المحتاج الذي يعيش دائما في صراع مع خصاصته[5].

وبالمثل، أثارت الأمثلة الشعبية مسألة ارتباط الفقر بالذل والهوان والتحقير وهو ما تصوره الأمثلة الآتية:" القلة ذلة" أو"الذلة مع القلة"، و"جُعْنَ وعرِينَ، وَحَقَّار النَّاس فينَ"[6] أي جعنا وعرينا فاحتقرنا الناس، وواضح أن هذه الأمثلة تقال في احتقار وذل الفقراء المساكين، ونقول ما جاء عند الزجالي:

---

[1] – إبراهيم القادري بوتشيش، "ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات، مرجع سابق، ص 43.

[2] – الزجالي القرطبي، أمثال العوام في الأندلس، ص 56.

[3] –المصدر نفسه، القسم 2، ص 16.

[4] – إبراهيم بوتشيش، ثقافة الطعام، ص 43.

[5] – الزجالي، القسم 2، ص 464.

[6] – المصدر نفسه، ص 108.



مَا يَذُلُ الزَّمَّانُ بِالْفَقْرِ حُراً ****كَيْفَمَا كَانَ الشَرِيفَ شَرِيفَ[1]

ومن خلال تحليل خطاب الفقر في الموروث الشعبي، يتبين أن الفقر قد يؤثر حتى على تدين الإنسان لاسيما إذا ارتبط بالطعام وهو ما يعكسه المثلان الآتيان:

- اشحال أكدك من استغفر الله يا لبايت بلا عشا
- بات بلا لحم تصبح بلا دين[2].
- ادهن لو حلقو ينسى اللي خلقو-الجوع والتفرعينة[3].

وفي هذا السياق يأتي المثل القائل الفران يسبق الجامع، وقد فسره أحد الباحثين بقوله" يعني أن غذاء الإنسان يسبق صلاته لأن الجائع لا يمكن أن يخشع قلبه وهو يصلي[4].

وتعكس بعض الأمثلة الشعبية ظروف المعيشة الحقيرة لبعض الفئات الفقيرة المحتاجة، وذلك ما نستشفه في إحدى المقولات" ذبان مع العافية، قال: يعوق"، والذبان في المثل كناية عن العيشة الحقيرة وكلمة يعوق تعني يمنع، ويقال بصيغة أخرى "ما كفى الزيت المر، إلا فيه الذبان" والذي يفهم من المثل أن العيش قليل وسقط فيه الذبان وهو ما يشبه المثل الذي نتداوله في زمننا هذا " شي قليل أو دار بيه الذبان"، ويقال في تعذر العافية والسلامة حتى مع العيش الذميم[5].

واختزنت الذاكرة الشعبية العديد من الأمثلة الشعبية التي أدت بالإنسان إلى الحفاظ على كرامته وعدم إظهار شعوره بالجوع رغم ظروف المجاعات القاسية التي تعاقبت على بلاد المغرب الإسلامي وذلك ما يتضح في فحوى الأمثلة الآتية:

[1] - الزجالي، القسم 2، ص 178.

[2] - إبراهيم القادري بوتشيش، ثقافة الطعام، ص 44.

[3] - محمد بلاجي، **أقنعة الطعام**، **مجلة أمل** -التاريخ-الثقافة-المجتمع- ع/16،السنة السادسة، مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء، 1999، ص162.

[4] - المرجع نفسه، ص162.

[5] - الزجالي، القسم 2، ص 220.



- كل التبن وأدهن فمك بالسمن و دوز على عدوك مصبن حتى يقول: هذا ولد من
- خبزي تحت باطي ما أسمع حد عياطي[1].

وقد تضمن خطاب الفقر في الموروث الشعبي أمثلة تعكس أحوال بعض الفقراء الطامحين إلى حياة البذخ ومتمنين أشياء تعدو احتياجاتهم الضرورية حسب المثل القائل" آش خصك أعريان؟ قال: خاتم وهميان"وهو مثل مازال متداول إلى يومنا هذا بصيغة أخرى "واش خصك يا العمية خصك الكحل"[2]، وقيل كذلك في شأن بعض الفقراء المتعالين المثل الأتي" الْفَلاسْ والأَنْفَاسْ" أي الفقر والتعاظم. وبصيغة أخرى" أنف في السماء وأست في الماء"[3].

كما يستدل من خلال بعض الأمثلة الشعبية على بعض الأشخاص الذين حاولوا التظاهر بعدم إظهار الجوع وذلك من خلال المثل القائل"من كتم الجوع فُجُّ يَظْهَرْ" أي ظهرت علامته على وجهه، وهو في أمثال فاس: "اللي خب جوعو على وجهو كيظهر"[4] .

ويبدو أن المخيلة الشعبية تجاوزت في بعض الأحيان الحد المألوف في أمثلتها، فراحت تعطي تشبيهات بين الإنسان الفقير المتسول، ببعض الحيوانات الضالة في الشوارع، حيث صيغت أمثلة عن متسولة الأندلس وأقرنتها بعلة الكلاب حسب المثل القائل:"علة الكلب: الجوع والبرد" وعبارة الجوع والبرد كانت مما يقوله المتسولون في الأندلس وذلك ما نستشفه من الحكاية التالية"خرج الأديب النحوي هذيل الإشبيلي فنظر إلى سائل عاري الجسم وهو يرعد ويصيح: الجوع والبرد فأخذه بيده ونقله إلى موضع بلغته الشمس وقال له: "صح الجوع فقد كفاك الله مونة البرد!"، ونستنتج منها أنهم كانوا يقولون في السائل: به علة الكلب: الجوع والبرد[5].

---

[1] -إبراهيم بوتشيش، ثقافة الطعام، ص 44/ محمد بلاجي، أقنعة الطعام، ص164..
[2] - الزجالي، مصدر سابق، القسم 2، ص27.
[3] -نفسه، القسم 2، ص46.
[4] -نفسه، القسم 2، ص325.
[5] -نفسه، القسم 2، ص 386.

كما ضربت بعض الأمثال بين الأقوام الغنية والفقيرة حسب المثل القائل" قوم يقول شُبْعِي، وقوم يقول غُلْبِي" وغلبي: فقري، والذي يفهم من هذا المثل أن قوما يشتكون من الشبع والتخمة وآخرين يشتكون من الفقر والجوع[1].

وعموما، هذه الأمثال ما هي إلا قليل من كثير، ولعل من المسلم به أن الموروث الشعبي من أمثال وغيرها تمثل مصدرا لا يستهان به في دراسة المجتمع، شأنها في هذا شأن فنون القول جميعا، بل قد تكون الأمثال –كوثيقة اجتماعية – أقرب إلى الصدق وأدنى إلى الأصالة من غيرها في تمثيل روح المجتمع وتصوير طبيعته العامة لأنها نابعة من عامة الشعب ومعبرة عن آرائه وتجاربه اليومية.

ثانيا: الانعكاسات الديمغرافية:

تعتبر الانعكاسات الديمغرافية كالوفيات والهجرة الكثيفة للسكان أحداث غير عادية تضرب بعمق، وتهلك السكان، وتخلف بصمات حالكة في الأذهان، وفي الذاكرة الجماعية للسكان[2]، ويمكن للكوارث الديمغرافية أن تكون ناجمة عن الفقر الذي طالما شكل هاجسا كبيرا على سكان بلاد المغرب الإسلامي لجسامة نتائجه التي عصفت بالبنية الاقتصادية والديمغرافية[3] معا، فقد أدى تعرض السكان لمختلف الكوارث الطبيعية المسببة للفقر، والعوز والصعوبة في تجاوزها إلى موتهم بأعداد تختلف بين كارثة وأخرى، ولا سيما منهم الطبقة العامة الفقيرة والمعدمة، مما كان له تأثير كبير على إعاقة النمو السكاني وإحداث خلل في التركيب النوعي والعمري لسكان بلاد المغرب الإسلامي، وعليه يمكن طرح التساؤل: هل كان لعامل الفقر علاقة بكثرة الوفيات زمن الأزمات أو دونها؟ وهل كان لتلك العلاقة صدى في المصادر التاريخية بنقل لنا حيثيات تلك الخسائر البشرية والهجرات البرية والبحرية ؟.

---

[1] – الزجالي، مصدر سابق، القسم 2، ص415.

[2] – محمد حالي، "**الديمغرافيا التاريخية في العصر الوسيط**"، **مجلة المستقبل العربي**، ع/416، 2013 ، ص 25.

[3] – الديمغرافيا: هو فرع من علم الاجتماع والجغرافية البشرية ،يقوم على دراسة علمية لخصائص السكان المتمثلة في الحجم والتوزيع والكثافة والتركيب والأعراق ومكونات النمو(الإنجاب، الوفيات، الهجرة)،ونسب الأمراض،والحالات الاقتصادية والاجتماعية،ونسب الأعمار والجنس،ومستوى الدخل/ من موقع: w.w.w. ar.wikipedia.org

1: الوفيات:

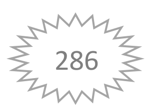
الظاهر أنه كان للفقر ومسبباته بالمغرب الإسلامي من مجاعات وأوبئة و أمراض وفتن وحروب واستغلال جبائي خلال فترة مدار البحث، إسهام في تدهور المنحى الديمغرافي وتراجعه، والشيء المؤسف أن المصادر لم تعطينا صورة واضحة المعالم عن حجم الكوارث الديمغرافية والخسائر البشرية الناتجة عن الفقر والخصاصة، فرغم البحث الجاد بين طيات المصادر المختلفة لم نصادف وثائق أو أرقام إحصائية يمكن من خلالها وضع جداول أو دوائر نسبية تخص الوفيات أو الهجرة، وهو ما سبب لنا عجزا كبيرا في محاولة إحصاء عدد الوفيات، وذلك لأن المسلمين سواء في المشرق الإسلامي أو الغرب الإسلامي، لم يهتموا بضبط تواريخ الأحداث السكانية وكرونولوجيتها، إذ لم يكن الوعي بتدوين المعطيات السكانية لذاتها أو لأغراض إحصائية حاضرا لديهم[1] عكس الديمغرافيا المعاصرة التي ترجمت كل أحداثها بلغة الأرقام.

إذا كان الوصف الكيفي لأزمة الوفيات أو الهجرات يبدو سهلا، فإنه يصعب تناولها كميا، لمعرفة مختلف مظاهرها وانعكاساتها الديمغرافية، ذلك أن الأمر يتطلب معرفة ليس عدد الوفيات فقط، ولكن عدد الأحياء أيضا، ومن هنا فان نسبة الوفيات إلى الأحياء هي وحدها الكفيلة بتحديد مدى هول الكارثة التي أصابت الساكنة المعنية[2].

وغني عن البيان أن الموت لم يعرف التفريق بين غني وفقير، ولم يأخذ معيار التفاوت الطبقي كمعطى لأخذ أحدهما دون الآخر، لكن مما لاشك فيه أن ظروف وطرق عيش الإنسان الفقير في الزمن المألوف أو وقت الأزمات والكوارث الطبيعية كانت تختلف عن تلك الظروف التي يحياها أصحاب القصور والطبقة الراقية، الأمر الذي أدى إلى كثرة الوفيات في أوساط الطبقة العامة بسبب سوء التغذية ومحدودية إمكانياتهم المادية، ولتأكيد ذلك يكفي أن نشير إلى بعض النصوص الدالة على حجم الوفيات الناتجة عن اقتران الفقر بالجوع والوباء، إلا أن ما يمكن ملاحظته في هذه

[1] - محمد حالي، مرجع سابق، ص 04.

[2] - المرجع نفسه، ص 25.



النصوص هو غياب لغة الرقم وإن وجدت ففيها مبالغة، فهذا صاحب القرطاس يصف لنا أعداد الموتى جراء الجوع في قوله" فكانت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتسل"[1]، وكثيرة هي القرائن التي تؤكد حصاد الآلاف من الأرواح البشرية بدون استثناء، عند حدوث أوبئة و طواعين حادة حسب قول الزركشي"في ذي القعدة ابتدأ الوباء بتونس ولم يزل يتزايد إلى شوال من عام 873هـ، حتى بلغ ألفا كل يوم، ثم ارتفع في ذي الحجة مكمل العام"[2]، وفي موضع آخر ذكر ابن أبي دينار شدة هول الوباء في قوله" وفي سنة ثلاث وسبعين كثر الوباء حتى انتهى عدد الأموات إلى أربعة عشرة شخص في كل يوم"[3]، وتعج مصادر الفترة بالحديث عن هول وخطورة هذه الأوبئة على الإنسان والحيوان حسب قول المقريزي" وعم الموتان أرض إفريقية... وجافت من الموتى وبقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها... وماتت المواشي بأسرها "[4].

ولا شك أن تفشي وباء الطاعون الأسود سنتي(748-749هـ/1348-1349م) ساهم إلى حد كبير في تفاقم الانهيار الديمغرافي، وهذا ما عبر عنه أحد المؤرخين" فلا ترى متصرفا إلا في علاج، أو عيادة مريض، آخذا في جهز ميت، أو تشييع جنازة أو انصراف من دفن. وكان الضعفاء يجتمعون إلى باب سلم–أحد أبواب القيروان– فتحفر لهم أخاديد ويدفن المائة والأكثر في الأخدود الواحد، فمات من طبقات الناس وأهل العلم والتجار والنساء والصبيان ما لا يحصى عددهم إلا خالقهم تعالى، وخلت المساجد بمدينة القيروان، وتعطلت الأفران والحمامات ... وقيل أن أهل البادية أكل بعضهم بعضا"[5].

والشيء نفسه أكدته مصادر المرحلة بتبيان كثرة الوفيات بالمغرب الأقصى جراء هذه الكوارث المقترنة بالفقر فخلال الربع الأول من القرن السابع الهجري يرصد لنا أحد المؤرخين استفحال المجاعة

[1] – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 539-540.

[2] – الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 158.

[3] – ابن أبي دينار الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، 1286، ص 147.

[4] – المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص 777.

[5] –صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع، ص 262.

وارتفاع عدد الضحايا بفاس في قوله:"فقلت الجبايات بالمدينة، ومات أكثر الناس جوعا وقل الإنفاق.."[1]، كما أشار ابن زرع بنص بالغ الأهمية يميط اللثام فيه إلى هول وباء و مجاعة عام(693هـ/1294م) بحصدها أرواح المستضعفين من سواد المجتمع في قوله "المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب"[2]، ولعل أبرز مثال هو ما أرخ له ابن الأحمر عن القحط الشديد الذي كان في القرن(8هـ/14م) في عهد أبي فارس عبد العزيز (ت799هـ-1397م) حيث عانى من وطأته المستضعفون أكثر من غيرهم"[3].

وعليه فلاشك أن النزيف الديمغرافي كان من بين أثار الفقر ومسبباته، وحسب النصوص المتقدمة فان نتائجه كانت أشد في صفوف شريحة العوام التي تمثل قاعدة هرم المجتمع، ذلك أنه من سلم من الهلاك عاش محنة التضور جوعا، فضلا عن وجود القابلية لاستفحال الأمراض والأوبئة، مع العلم أن وضعهم الاجتماعي كان منحطا ودخلهم ضعيفا، لا يسمح بتلبية حاجاتهم من الأقوات التي ارتفعت أسعارها، بحيث لا يمكنهم تغطية مصاريف العلاج، مما أقبل بعضهم على اقتناء أطعمة شاذة ومضرة بالصحة[4].

2: الفرار والهجرة:

شهدت بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط تحركات بشرية متقلبة شديدة التنوع[5]، هذه الأصناف من التنقلات يمكن إدراجها ضمن التحركات البشرية الاختيارية أو الطوعية. وعليه يمكن أن ندرج عامل الفقر كسبب مهم في الهجرة الاضطرارية للسكان ونزوحهم عن ديارهم إلى مناطق أكثر أمانا ووفرة، لاسيما إذا ما اقترن الفقر بأثر التحولات الطبيعية، وإن كنا لا نتوفر على

---

[1] – عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص 27.

[2] – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 539.

[3] – ابن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، ص 50.

[4] – إبراهيم القادري بوتشيش، ثقافة الطعام، ص33.

[5] –القبلي محمد،"**حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن 12-13هـ**" ، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** ع/21-22 ،1991-1992، ص 47.

معطيات رقمية، فإن كل القرائن تدل على ما ذهبنا إليه، من ذلك أن كثرة الكوارث من قحوط وسيول ومجاعات وأوبئة تزامنت مع مرحلة إنتقالية اشتدت فيها الحروب بين الكيانات السياسية الثلاثة، مما زاد من معاناة أهالي المناطق التي كانت فيها وطأة المجاعة شديدة وبالتالي هجرتهم. ومن الأمثلة البارزة على ذلك شهادة الوزان في قوله "...فإن المجاعة التي سادت في السنوات الأخيرة في إفريقيا قد أرهقتهم كل الإرهاق حتى أصبح هؤلاء الفقراء يهاجرون بمحض إرادتهم"[1].

وتركت موجات القحط والجفاف التي اجتاحت بلاد المغرب الإسلامي آثارا في هجرة السكان ونزوحهم عن أوطانهم، للبحث عن مصادر المياه ومراعي المواشي، مما ترك انعكاسات على الناحية السكانية سواء في المناطق التي هاجروا منها أو التي هاجروا إليها، فنجم عن هذا المسار إخلاء العديد من القرى، وتضخم عدد البطالين والبؤساء بمدن أخرى[2].

وأدى عامل الهجرة إلى التراجع الحضري كما وصفه ابن خلدون في قوله"والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران"[3]، وضرب لنا مثلا عن هجرة بني هلال لبلاد المغرب في قوله "وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها، بعد أن كان كله عمرانا"[4] .

ومن النماذج الأخرى التي أوردتها مظان الفترة بالمغرب الأوسط، عن الفرار والهجرة نحو المجهول بسبب البؤس والفقر، تلك القضايا والنوازل الفقهية الشائكة التي كانت ترد على الفقهاء أحيانا سائلين الحكم فيها، "فقد سئل عبد الرحمن الوغليسي عن فقير ألجأته الحاجة إلى السفر وكان عليه

---

[1] – الحسن الوزان، ج2، ص 74.

[2] – سعيد بن حمادة، مرجع سابق، ص58.

[3] – ابن خلدون، المقدمة، ص 152.

[4] – المصدر نفسه، ص152.



دين كبير ولم يترك لزوجته مالا، ولا يعلم الناس هل هو حي أم ميت؛ فهل تستحق زوجته الزكاة، فكان جواب الفقيه بإعطائها الزكاة إن كانت على الحالة المذكورة "[1].

كما وردت نازلة أخرى بخصوص هذا الشأن، "فقد سئل أبو الفضل العقباني عن هجرة وفرار فتاة مهملة بكر يتيمة زمن المسغبة إلى وطن غير وطنها، فتزوجها شيخ من ذلك الوطن بغير ولي وهي كارهة له"[2].

والحال نفسه بالمغرب الأدنى فقد أضحت إفريقية تشكو من نقص في عدد المزارعين وعمال الفلاحة نتيجة هجرانهم للأرياف والبوادي، إذ ذكر الوزان أن فحص القصبة أصبحت أراضيه غير مزروعة قاحلة مهملة. كما أضحى عدد الناس ببادية باجة لا يكفي للزراعة، وأضحت الأراضي بورا[3]، ولم يقتصر الأمر على القرى فقط، إنما تجاوز إلى تأثر المدن، فقد أهملت العمائر المخزنية بمدينة تونس وتحولت بعض الأحياء و الأرباض إلى خرائب[4].

ويبدو أن حتى المغرب الأقصى حلت به هو الآخر زمانة الفقر وهجرة الخواص والعوام، في وقت نضبت فيه مخازن الدولة، وقلت فيه اليد العاملة النشيطة، فكانت حركة الهجرة في حد ذاتها بحثا عن مناطق خصبة[5]، مما ضاعف من أعداد المنكوبين المهاجرين نحو المجهول، وبذلك أصبح شبح الفقر المقرون بالجوع قوة اجتماعية بوسعها أن تسلك بالجماعات البشرية مسالك غريبة تؤدي نحو الضياع والفساد.

[1] – المازوني، الدرر المكنونة، ج1، ص 341.
[2] – الوزان، ج2، ص 145.
[3] – نفسه، ج2، ص437.
[4] – محمد حسن، مرجع سابق، ص 612.
[5] – عبد الهادي البياض، مرجع سابق، ص 117.

ومن النصوص التي تكشف عمق البؤس والمعاناة والمحن التي عصفت بديمغرافية الحواضر، ما أورده بن عذارى في قوله "فكان الضعفاء يخرجون على الأبواب فان البلد ضاق بهم فأثاروا الفرار بأنفسهم ولم يبق بالبلد إلا الأقل ممن لا يستطيع الخروج"[1].

ومما يؤكد أهمية هذا الطرح ما أورده ابن القاضي عن النقص السكاني بسبب النزيف الديمغرافي الحاصل عن الجوع خلال القرن السابع الهجري في قوله" تفشت المجاعة العظمى التي خلا فيها المغرب وتوالت به الفتن وعدمت الأقوات"[2]، الأمر الذي جعل الخليفة المريني أبو بكر بن عبد الحق عام(646هـ/1248م) إلى تهجير القبائل الجبلية وتعميرها للسهول الفارغة وعمارة القرى و المجاشر الخالية وسكنى الأوطية[3].

من جانب آخر يمكن الإشارة إلى أن جموعا كبيرة من هؤلاء المهاجرين كانت تلفظ أنفاسها أثناء هذه الهجرات وذلك لبعد المسافة وقلة الزاد حسب ما صرح به التجاني أن أحد القضاة العدول حرر عقود إشهاد تثبت حجم النزيف الذي تكبده الفارون من المجاعة في قوله" ووصل إلينا عقد بشهادة عدول من أهل طرابلس وخطاب قاضيها أن ركبا فيه نيف على سبعمائة نسمة جاء من برقة وأنه لم يخلص منه حاشا مائة أو نحوها، وأما سبب ذلك لم يجد هنالك ما يقتاتون به"[4]، وهو نص يكشف صورة النزيف الديمغرافي الواقع بسبب الجوع والعطش وتعب التنقل من مكان إلى آخر.

كما لا نعدم من القرائن ما يؤكد تلك العلاقة المباشرة بين الفقر والأوبئة والطواعين في إلزام الناجين من الهلاك والموت على إخلاء القرى والمداشر والمدن، والفرار منها بحثا عن مواطن جد سليمة وآمنة، وهو ما أشار إليه ابن زرع في قوله "كان بالعدوة والأندلس في عام(630هـ/1233م)غلاء شديد ووباء مفرط هرب فيها أكثر أهل البلاد"[5]، وهو نص يبين حجم الهجرة نتيجة الكوارث في كلا

---

[1] - ابن عذارى، البيان المغرب، ص 326.

[2] - ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ص 34 .

[3] - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 72-73.

[4] - التجاني، رحلة التجاني، ص 191.

[5] - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص 336.

العدوتين، كما وردت نوازل على فقهاء الوقت بشأن الفارين زمن الوباء مستفسرين عن الحكم فيها؟ فاختلفت وجهات النظر بين أهل الفتوى[1]، بين مؤيد ومعارض في فرار الإنسان هروبا من العدوى وطلبا للرزق في المناطق الأكثر أمانا.

ويتضح أن هذا التلازم المتتابع الذي يشد بعضه بعضا بين كل من الجوع والمرض والوباء والفقر، هو تلازم تصاعدي، كان يزيد من إرهاصات الخوف لدى الإنسان الذي سارع إلى الهجرة والفرار نحو مصير مبهم، كلما لاحت هواجس أي ظاهرة من هذه الظواهر ببيئته الاجتماعية. وقد خلفت هذه الهجرة نتائج بعيدة الغور تتجلى أساسا في تغيير الخريطة البشرية ومواطن الاستقرار، وتعمير مناطق فارغة وإخلاء مناطق أخرى من ساكنيها[2].

وصفوة القول هو التأكيد على أن الفقر له دور في إجبار الإنسان على الهجرة والفرار كسلوك يعكس رغبته في البقاء، فصارع الموت البطيء بكل الوسائل بما فيها الفرار والهروب العفوي والمنظم إلى حيث اعتقد النجاة والخلاص[3]، مما انعكس ذلك سلبيا على شلل الوضع الاجتماعي، وعلى الرغم من هذه الإشارات الباهتة هنا وهناك، تبقى أخبار الفقراء الجياع والمرضى المهاجرين مطموسة، مع أننا لا نشك في مأساويتها.

ثالثا: الإنعكاسات النفسية والذهنية:

إن الصعوبات المادية التي واجهها الفقراء بالمغرب الإسلامي، خلال فترة الدراسة أملت عليهم ردود أفعال تميزت بالاضطراب والارتباك النفسي والذهني. فهيمن على تفكيرهم هاجس الخلاص من ضغط البؤس بأي وسيلة تتاح لهم. خاصة إذا ما تعلق الأمر بالغذاء والدواء. فكان طبيعيا أن ينساقوا مع كل صيحة رامت تلبية حاجياتهم مهما كانت خرافية.

[1] – المواق والرصاع، مصدر سابق، صص 138-139.

[2] – إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي خلال العصر المرابطي، ص21.

3-Dufourq Emmanuel ; la vie quoidienne dane l'Europe sous la domination arabe. paris. 1978,pp.93-94.

1: الانسياق وراء الدجل والخرافات:

تركت ظاهرة نقص وانعدام الغذاء والإصابة ببعض الأمراض والأوبئة كالطواعين أثارا نفسية على الفئات المستضعفة، فأصبحوا يتشبثون بدجل وخرافات المنجمين أملا في تغيير أوضاعهم السيئة خاصة أثناء فترات الأزمات الاقتصادية.

وكيفما كان الحال فقد استسلم هؤلاء العوام أمام فئة المشعوذين والدجالين، بما أظهروه من تأثير للطلاسم السحرية أمامهم وإقناعهم بتحقيق أحلامهم، دونما تفكير أو معارضة ومثال ذلك ما أورده الوزان" ويبيعون للجمهور الجاهل أوراقا صغيرة كتب عليها كلمات ووصفات ضد مختلف الأوجاع كما يزعمون "[1].

ويبدو أن ابن خلدون تنبه إلى تشبث واقتناع الناس بأحكام التنجيم والسحر والعرافة، ودَوَنَها في مقدمته، موضحا في ذلك أن الذي يؤدي بالإنسان على الانصياع والتوجه لذلك الأمر في الغالب هو" التشوف إلى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم، من حياة وموت، وخير وشر"[2].

ومما زاد من تمسك الفئات الدنيا بالمشعوذين والدجالين، إسهام الطبقة المثقفة عن قصد أو عن غير قصد في تشجيع الذهنية الساذجة، من خلال التنظير والتقعيد للفكر التنجيمي، فاتسعت بذلك دائرة التعليل الخرافي للعوام[3]، فكانت"سذاجاتهم تجعلهم يصدقون كل شيء مهما كان مستحيلا، لأن العامة تجهل نواميس الطبيعة جهلا تاما"[4].

---

[1] – الحسن الوزان، ج2، 279.

[2]– جاء في قوله عن هذه الفئة"ولقد نجد في المدن صنفا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه، فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه، فتغدوا عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها، وكثير من ضعفاء العقول، يستكشفون عواقب أمرهم، في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك، مابين خط في الرمل ويسمونه المنجم، وطرق بالحصى والحبوب، ويسمونه الحاسب، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل، وهو من المنكرات الفاشية في الأمصار"/ينظر: ابن خلدون، المقدمة ، صص 250.

[3] – عبد الهادي بياض ،مرجع سابق، 139.

[4] – الحسن الوزان، ج1،ص 70.



ومن بين الطقوس الخرافية التي لجأ إليها إنسان المغرب الإسلامي كوسيلة لتأمين موارد عيشه ورزقه التي تخضع دوما لمؤثرات القصوى للمناخ، إحيائه لبعض الاحتفالات كاحتفاله بعيد العنصرة[1].

2: اللجوء إلى بعض الطقوس الإشفائية:

يعرف مارسل موس الطقوس بأنها " أفعال تقليدية" أي يقع إنجازها حسب طريقة تم اعتمادها من طرف جماعة أو سلطة معترف بها، وبالتالي هي أفعال متكررة وتخضع لتقنين وتتميز عن غيرها من الأفعال التقليدية بكونها ذات نجاعة مادية، وتعود هذه النجاعة إلى تدخل قوى وتأثيرات محددة من خاصيات الطقس أن يحركها[2].

ويبدو أنه كان لعجز العديد من الناس الفقراء عن دفع أجرة الطبيب لأجل التداوي يؤدي بهم إلى البحث عن سبل أخرى للعلاج مهما كان نوعها، فكانوا يلجئون إلى الأولياء كأطباء لهم، خاصة بالقرى و المداشر النائية البعيدة عن المدن، ومن العلاج الذي استهوى شريحة العوام العلاج بالتمائم والعزائم رغم أنه كان ممنوعا لاتصاله بأمور السحر والشعوذة، وكذا العلاج بالرقية[3].

ففي إفريقية انتشرت مثل هذه الممارسات الطقوسية، فكان حمل التمائم الوقائية مقبولا من الجميع ومنتشرا على نطاق واسع بها، كما كان يعتقد بالكلام المطلسم أو الكلام المكتوب المذاب في الماء من الآيات القرآنية وغيرها وبأثرها في الشفاء. ويمدنا البرزلي بمثال لرقية عسر الولادة فيقول: يكتب في صحفة ثم تغسل وتسقى منها المرأة ثلاث: فيكتب بسم الله الرحمن الرجيم ،لا اله إلا الله العظيم الحليم الكريم، سبحان الله رب السماوات ورب العرش العظيم: " كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ

---

1 – العنصرة : هي ممارسة خرافية، يقوم الناس خلال موعد الاحتفال بها بإضرام النار في شعلة يسمونها العنصرة يقيمونها في الشوارع ويقفزون فوقها / ينظر :دندش عصمت عبد اللطيف، مرجع سابق، صص 327-328.

2-Mauss mersal , les fonctions sociqles du sqceè ,ed.Minuit, paris 1968,pp.402-408

3 –الرقية أو العوذة: التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغيرها من الأمراض، والعوذة: يقال عوذت فلان بالله وأسمائه وبالمعوذتين أي استعذت بالله و أسمائه من كل ذي شر وكل داء وحاسد وعين / ينظر : ابن منظور، مصدر سابق ،ج6، ص 209-210/ج10، ص329.

يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا"[1]، بعدها تقع محو الكتابة وتذوب بالنفخ في الماء ثم يتحلل ويدخل في جسد المريض اعتقادا منهم أن الطلسمات المذابة في الماء من خلال المحو تؤدي إلى تذويب الألم والمرض واضمحلال.

ويبدو أن ممارسة المعالجات المتعلقة بأسرار الحروف، وخاصيتها ومدى تأثيرها العلاجي للشخص المريض وجدت مناخا داخل المجتمع الحفصي، وذلك من خلال إحدى الفتاوى التي وردت على البرزلي، وهي تساؤل حول شرعية الرقى بالحروف المجهولة المعنى وطرح السؤال يكفينا بأن نفهم أن هذه الممارسات كانت موجودة ونص السؤال "ما يقال سيدنا فيمن يكتب حروفا مجهولة المعنى للأمراض فتنجح ويشفى بها. هل يجوز كتبها أم لا؟ فأجاب: الظاهر أن لا يجهل معناها، فإن الرسول قال "أَعْرِضُوا عَلَيَا رُقَاكُمْ، فلما عرضوا، قال: لَا أَرَى بَأْسًا مَنْ اْستَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ"[2].

وعلى نفس الشاكلة ذكر مثال آخر تمثل في كتابة بعض الألفاظ الأعجمية على خرقة كتان أزرق هذه الأسماء هي" عنشنش–دهنش–عند قرقش– ويجعل فيها بيضة الدجاجة ويشويها في النار، فان البيضة تطيب ولا تحرق للخرقة، فيأكلها المحموم ويجعل قشرها في الخرقة المذكورة ويربطها في عنقه، فانه يبرأ بإذن الله ولا ترجع الحمى إليه أبدا[3]،كما يذكر أن هذه التميمة ناجعة لبكاء الصبيان وإخراج الجان.

ومن الطقوس الأخرى التي ظلت مرتبطة بطابع السحر خلال الفترة الحفصية، المسح أو اليد الشافية التي خص بها الأولياء فقد أورد الوزير السراج في كتابه الحلل نقلا عن أحد المصادر الحفصية وهو الهواري صاحب كتاب المناقب كيف دخل عليه (علي الهواري) أبو عبد الله السقطي وهو

[1] – البرزلي، فتاوى، ج6، ص488/ سورة النازعات، الآية 46.
[2] – الونشريسي، المعيار، ج11، ص 87./ البرزلي، ج1، ص 380.
[3] –الونشريسي، ج1، ص 381-382.



أحد أولياء القرن التاسع الهجري وكان به مرض شديد" فوضع يده علي وقال: يا عظيم ثلاثا ولم يزد شيئا فوجدت العافية في الوقت"[1].

كما كان لاعتقاد الكثير من العوام أن شفاء بعض الأمراض يكون بكرامات بعض الأولياء الصالحين، ومثال ذلك شفاء بعض النساء من العقم من طرف السيدة عائشة المنوبية[2].

والظاهر أنه حتى بعد ممات هؤلاء الأولياء إلا أن مكانتهم وشهرتهم زادت حسب قول البرزلي " فإذا ماتوا زادت شهرتهم وتوالى ذكرهم"[3] وكما قال صاحب المعالم أن نعش والد الدباغ كسر"من كثرة ازدحامهم عليه"[4]، وكان التبرك بتراب قبور الأولياء من بين الاعتقادات السائدة للاستشفاء فهذا الونشريسي يقول "قلت من هذا القبيل ما جرى عليه عمل العوام في نقل تراب ضريح الشيخ أبي يعزى ...، للاستشفاء من الأمراض والقروح المعضلة "[5].

إلا أنه كان بعض الأولياء يسمحون لأنفسهم بخرق قواعد الشريعة وحول ذلك يقول الحسن الوزان " أن الكثير من الدجالين يهيم عن وجوههم في إفريقيا عراة مكشوفي العورة، وهم على درجة منحطة من عدم الاعتدال والاحترام الإنساني، بحيث يضاجعون النساء أحيانا في الساحات العمومية كما تفعل البهائم. ومع هذا يعتبرهم العامة من أولياء الله الصالحين ويوجد هؤلاء الأنذال بكثرة في تونس"[6].

وعموما يمكن القول أن الإنسان الذي يتعرض إلى أقصى درجات الشدة والفقر والحاجة، فهو بحاجة إلى طبيب أو ولي لشدة قصور إمكانيته في مجابهة مصيره حين تلم به النوائب أو يصاب في

[1] – صوفية السحيري، مرجع سابق، ص 307.

[2] – عائشة المنوبية: يقال أنها كانت تتجول في شوارع مدينة تونس، مرتدية ملابس رثة ومتظاهرة بالمرأة المجنونة ولكن الناس كانوا ينسبون إليها بعض الخوارق ويحترمونها ويقصدونها من أجل التداوي / ينظر: روبار برانشفيك، ج2، ص 344.

[3] – البرزلي، مصدر سابق، ج6، ص 403.

[4] – الدباغ، مصدر سابق ،ج3، ص 212.

[5] – الونشريسي، المعيار، ج1، ص 330.

[6] – الحسن الوزان، ج1، ص270.



نفسه أو قوته أو ذاته، فيتخذ من تلك الطقوس وسيلة يتوسط بها لدى العناية الإلاهية، لأن في تخمينه أن الولي هو ولي الله ومن خلال التقرب إليه تتحقق الرغبات وتفك المصائب عنه.

ونفس الطقوس كان يقوم بها عامة المغرب الأوسط، فمن خلال استقراء بعض النصوص، يتضح أن ثمة معتقدات متنوعة طغت على عقول الفئات العامة نظرا لسذجاتهم في تصديق الفكر الأسطوري وترسيخ جذوره.

وكثيرا هي الأمثلة عن لجوء هؤلاء العامة إلى التبرك بالصلحاء والأولياء بالمغرب الأوسط، إما رجاء في الاستشفاء أو لقضاء أغراض دنيوية، لذلك كانت قبورهم مزرات للإستشفاء من بعض الأسقام،كما أن تراب هذه القبور كان بالنسبة إليهم من أهم الآثار التي يستعملونها لعلاج العديد من الأمراض ومن الأمثلة على ذلك: ضريح الولي أبي سعيد الشريف الحسني كان مزارا للمرضى لطلب الشفاء"وما زاره ذو عاهة إلا وبرئ"[1]، وكذا ضريح الشيخ العالم حمزة المغراوي الذي مازاره ذو حاجة إلا وقضيت أو دعاء عند قبره إلا واستجيب له، وحتى كان المرضى يأخذون من تراب قبره ويحملونه معهم إلا وشفاهم الله[2] .

وكان للعلاج بالتمائم والعزائم مكان في مجتمع المغرب الأوسط فبعض الناس ألحقوها بالرقية لما فيها من القرآن والدعاء، ولعل ما يدل على ذلك كتاب ابن سلامة البسكري؛ الذي أدرج مثل هذه الطقوس ضمن منظومة العلاج الديني القائم على القرآن، فقد كان يكتب للمريض بعض الأوراق تحتوي على آيات قرآنية ويجعل معها أعشابا وتوضع في خرقة ويعلقها المريض ويبرأ منها ببركة القرآن[3].

أما بالمغرب الأقصى فلم تكن تلك الطقوس سوى تعبير له خلفيات ناتجة عن واقع مليء بالخوف والجهل لخفايا المجتمع. وفي هذا السياق نورد بعض الطقوس التي كان يبديها عوام المغرب الأقصى لأجل إبعاد الضيق والشدة، "فكان العوام يقومون بربط بعض فروع أشجار العشر والسلع في

[1] – ابن مريم، المصدر السابق، ص148.

[2] – المصدر نفسه، ص180.

[3] – سمية مزدور، مرجع سابق، ص 186.



أذناب البقر ويصعدونها إلى جبل مرتفع ويضرمون النار فيها زعما منهم أنهم يمطرون من وقتهم" وذهب بعض الباحثين إلى تفسير إيماءات العلاقة بين البقر ونزول الأمطار مبينا أنها علاقة قديمة إذ يمثل هذا الحيوان قوة له علاقة وطيدة تتحكم في السحب وتنزيل المطر، وما استسقاؤهم بالبقر إلا من مخلفات عبادة الثور، وما يرمز إليه من الخصب والإرواء، في حين النار هي طقس من طقوس احتفالات قديمة تتصل بهذا الإله (الثور)[1].

وعليه فلاشك أن الفقر مارس أنواعا من التأثير والضغط على إنسان المغرب الإسلامي، الأمر الذي جعله ينساق وراء سلوك ذهني خرافي مبني على بدع وأباطيل، هروبا من الضغط الممارس عليه، معتمدا طقوس ذات أغراض شبيهة بالأساطير[2] المستوحاة عن مختلف انعكاسات الحياة الاجتماعية بكل ملامحها ومؤسساتها وأنظمتها وبنياتها[3] والتي عبر عنها لوسيان ليفي في قوله" تكون نتاج عقلية بدائية، تظهر عندما تحاول هذه العقلية تحقيق مشاركة لم تعد فورية، وعندما تلتجئ إلى الوسطاء، وإلى وسائل معينة لتحقيق علاقة لم تعد معيشة"[4].

ثالثا: الآثار العلمية:

1: انتشار الجهل والأمية:

لقد ربط ابن خلدون بين العلم والفكر وتحصيل المعاش في قوله"إن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانته من الحس والحركة والغذاء، والسكن وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه، وعن هذا الفكر تنشأ العلوم والصنائع وتحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغبا في تحصيل ما ليس عنده"[5]. وبذلك فان الفكر يهدي إلى ابتكار صنائع وحرف تغني صاحبه عن السؤال، فإذا ما حاولنا قلب هذه المعادلة استنتجنا أن

[1] – محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، ج2 ، مطبعة فضالة، ط1 ،1996، ص 394.
[2] – عبد الهادي البياض، مرجع سابق، ص143
[3] – يونس لوليدي، الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية، مطبعة انفوبرنت، فاس، 1996، ط1، ص12.
[4] – المرجع نفسه، ص8.
[5] – ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003، ص 341.

هاجس انتشار الأمية والجهل داخل المجتمع يكون نتيجة عدم التعلم، وكثيرا هي الأسر الفقيرة خلال العصر الوسيط لم يسعفها الحظ في تعليم أبنائها وذلك لفقرها وعدم قدرتها على توفير مصاريف التعلم.

والظاهر أن لا جدال في الحديث عن العلاقة بين الأمية والفقر، فهذه الفرضية قد أخذت طابعا كونيا منذ الأزل وإلى يومنا هذا، حيث لا تختلف المجتمعات كثيرا في هذا الاعتبار، فالشيء الملاحظ من خلال الواقع أن انتشار ظاهرة الأمية بصورة كبيرة داخل المجتمعات سواء في العصر الوسيط أو المعاصر ترجع بشكل أساسي إلى الفقر بأنواعه، وذلك ربما لتعسر إمكانيات أرباب الأسر، أو عدم إدراكهم لأهمية التعليم، أو عدم قدرتهم على التضحية بالحاضر– الأشغال المنزلية أو الاهتمام بالنشاط الزراعي والرعوي بخاصة في الأوساط الريفية التي تعتمد على زراعة الأرض–من أجل مستقبل أفضل، وهو ما يعزز استمرار تفشي الأمية من جيل لآخر ضمن العائلة الواحدة.

وهناك صورة تأكد مدى أثر الفقر على تعليم الأولاد فهذا ابن مريم يورد لنا ما وقع للفقيه أحمد بن زكري "فكان في ابتداء أمره، صبيا يتيما أخذته أمه ليتعلم صنعة الحياكة وإذا بالولي الصالح عبد الرحمن بن زاغو أتى بغزل ينسجه فسمع الصبي أحمد بن زكري يغني فأعجبه صوته، فتمنى لو كان صاحب الصوت يقرأ، وعند خروج الصبي لشراء الطعمة لمعلمه رأى الشيخ في المسجد يقرئ الطلبة فدخل واجتمع مع الطلبة وعند انتهاء الشيخ من الدرس لم يفهم طلبته الدرس إلا أن أحمد بن زكري فهمه، وبعدها قام بشرحه للشيخ كما تلقاه منه أين زاد إعجابه به فسأله عن أبيه فقال له مات، وأمك ؟ فقال حية، وما أجرتك في الطراز؟ قال له: نصف دينار في الشهر، قال له أنا أعطيك نصف دينار في كل شهر وأرجع يا ولدي تقرأ وسيكون لك شأن؛ ثم ذهب عند أمه وقال لها أنا أعطيكي أجرته في الطراز على أن نرده يقرأ ؛ فقالت أو تنصفني فيه ؟ قال نعم وأخرج النصف من جيبه ودفعه

لها[1]. وهي صورة ترسم لنا سلبية الفقر في عدم تمكن الصبيان من التعلم والذهاب إلى احتراف الصنعة أو الحرفة من أجل إعالة الأسرة.

وتجدر الإشارة إلى أنه ضمن العائلات الفقيرة ذاتها، سواء في الحضر أو الريف، فان عبئ التضحية غالبا ما يقع على الإناث وبخاصة في حالة وجود خيارات، ولذا فإن الذكور تكون لهم فرص أفضل للتعليم. وبالموازاة، فقد ورد عند صاحب الدرر نازلة في شأن امرأة جاهلة، مفادها "أن رجلا من طلبة العلم تزوج امرأة و استخبرها بعد بنائه بها عن أمر الإيمان بالله وملائكته فوجدها جاهلة بوحدانية الله"[2]، وهي إشارة تدل على جهل المرأة في دينها وذلك ربما لعدم استطاعتها مزاولة التعليم بسبب الفقر.

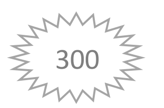
وربما كان يعزى عدم تعليم البنات عند الأسر الفقيرة مقارنة بالأولاد، هو راجع إلى اعتبار الأبناء من الذكور المتعلمين بمثابة ضمان اجتماعي للوالدين متمثلا في حظوظ المشاركة الاقتصادية التي يمكن أن يوفرها هؤلاء الذكور في حالة تعلمهم مستقبلا، ولذلك فقد يكون هذا الاختيار أفضل استثمار للوالدين في ضوء محدودية موارد الأسرة. وتتضح من هنا شدة التفاعل بين التعليم وظاهرة الفقر، باعتبار أن الأمية والفقر هما وجهان لعملة واحدة.

فبالنسبة لكتلة العامة المهمشة سياسيا والمقلة اقتصاديا، لا يتوفر السواد الأعظم من أبنائها على الإمكانيات المالية لمتابعة التعليم وتحصيل العلم. لهذا يرد مصطلح العامي في المصادر التاريخية كمرادف للأمي أو الجاهل في مقابل الطالب. وحتى المتعلمين منهم يقتصر أغلبهم على حفظ القرآن فقط، ولا يتجاوزون مرحلة الكتاب. وفي البوادي حيث ينتشر الفقر بين الفلاحين، لا يكاد يتعلم من أبناء الرعية إلا نسبة قليلة مقارنة بأبناء المدينة الميسورين فقد أشادت الكثير من المصادر إلى تعلم أبناء بعض العائلات الميسورة.

---

1 - ابن مريم المليتي، المصدر السابق، ص 100.

2 - المازوني، مصدر سابق، ج2، ص 190.



وعليه فالتلازم بين الفقر والجهل يؤثر تأثيرا مباشرا ويؤدي إلى تخلف المجتمع، فالفقير الجائع ينشغل بسد جوعه متخليا عن شيء اسمه العلم وكسب المعارف.

2: أثره على الفكر والعقيدة:

لاشك أن الفقر من أخطر الآفات على العقيدة الدينية وبخاصة الفقر المدقع، الذي بجانبه ثراء فاحش، وبالأخص إذا كان الفقير هو الساعي الكادح، والمترف هو المتبطل القاعد. وهو ما لمحناه في مصنفات الفترة الوسيطية باشتغال السواد الأعظم من العوام لدى العائلات المترفة وما يلقونه من ممارسات دنيئة ضدهم، فان لم يكن الفقير قوي الإيمان، فقد يصيبه إحباط و شك مريب في حكمة الخالق، حينما يرى الغني المترف قاعدا والرزق يصله، في حين يرى نفسه رغم كده وجده في العمل إلا أنه دائما في خصاصة وحاجة. فهنا ينتابه الارتياب في عدالة التوزيع الإلاهي للرزق وفي هذا الصدد عبر أحد الشعراء في قوله :

كَمْ عَالِمٍ عَالِمٍ أَعْيَتْ مَذاَهِبُهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقَا

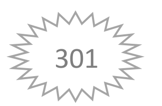
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الأَلْبَابَ حَائِرَة وَصَيَرَ العَالِمَ النَحْرِيرَ زِنْدِيقَا[1]

وهذا التخمين العقدي الذي تولد عن الفقر، أدى ببعض السلف إلى القول: إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر خذني معك !![2].

كما وردت أحاديث عن النبي في هذا الشأن تذم الفقر لخطره على عقيدة الإنسان ولا عجب أن يروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان يستعيذ من شر الفقر في قوله "**اللهم إني أعوذ بك**

[1] - يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص 14.

[2] -المرجع نفسه، ص 14.



من الكفر والفقر"[1] ويقول "«*اللّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ*»[2].

وصفوة القول أن الفقر شكل هاجسا كبيرا لدى أفراد مجتمع المغرب الإسلامي لما تركه من أثار وخيمة وأضرار جسيمة تجسدت في عدة نواحي منها: تأثيره على البنيات الاقتصادية والاجتماعية وعلى سلوك وذهنيات أفراد المجتمع، ولعل أخطر تأثير مسَّ الجانب الفكري والذي بدوره يؤثر على الجانب النفسي، فالفقير الذي لا يجد ما يأكله أو يلبسه لنفسه وأهله وولده، كيف يستطيع أن يفكر تفكيرا سليما، ويصبح رجل الغد والمستقبل. إلا أن في المقابل وطد الفقر أواصر التضامن وجعل النخبة السلطوية تمارس سيادتها على الإنسان والمجال، رغم القصور النسبي لدورها في تطويق أثار الفقر.

[1] – الألباني ناصر الدين، تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، ص10/ وهو حديث ضعيف أخرجه النسائي، ج2، ص316.
[2] – المصدر نفسه، ص10.

الفصل الرابع: جهود بعض سلاطين وفقهاء وصلحاء المغرب الإسلامي في مواجهة ظاهرة الفقر

أولا: المغرب الأوسط

1 : مساعي بعض السلاطين الزيانيين لتحسين المستوى المعيشي وبث الأمن والاستقرار.

2: آليات وجهود بعض الفقهاء والوجهاء الزيانيين للأجل الرفع من المستوى المعيشي ومواجهة الفقر

ثانيا: المغرب الأدنى

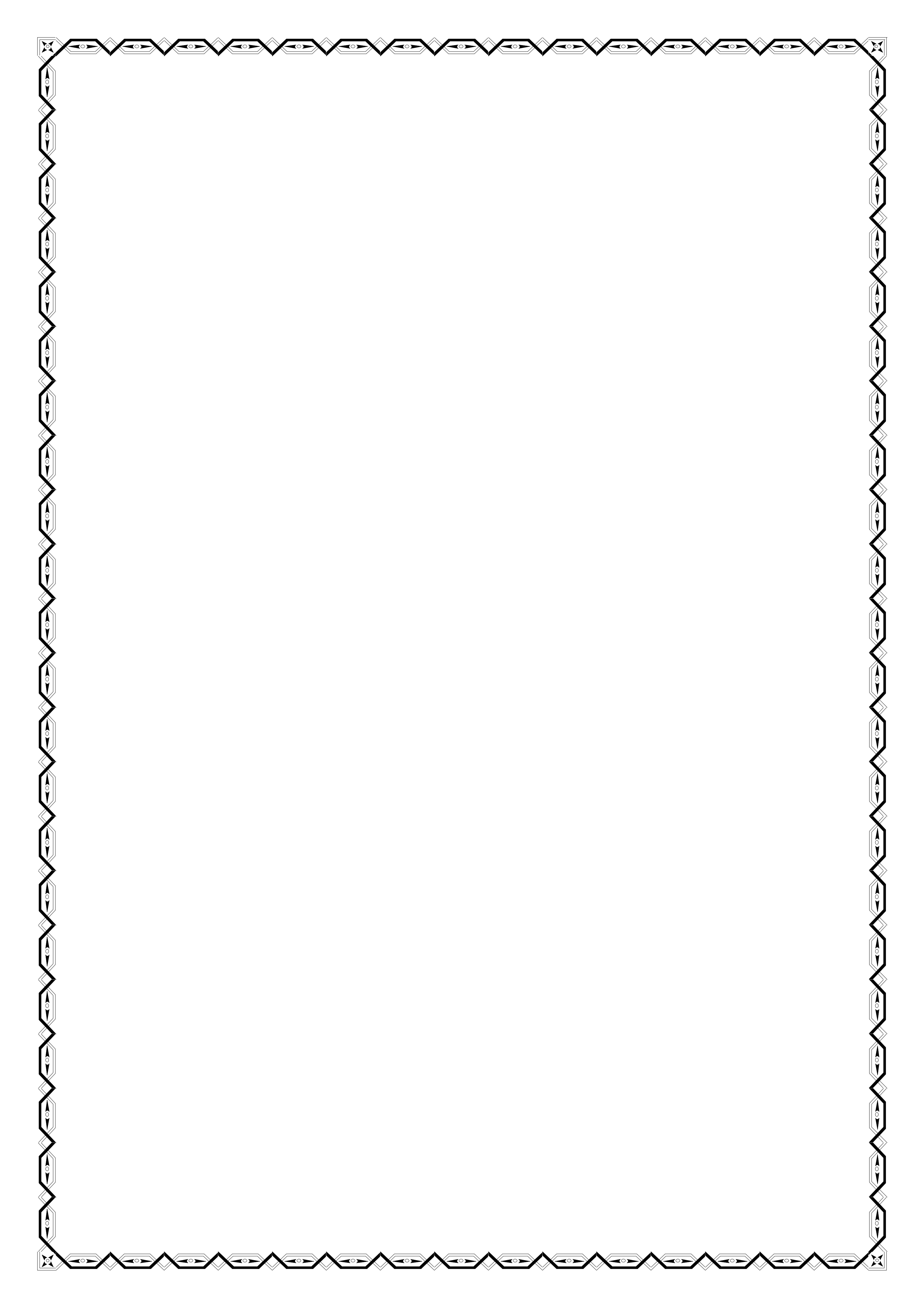
1 : مساعي بعض السلاطين الحفصيين لتحسين المستوى المعيشي وبث الأمن والاستقرار.

2: آليات وجهود بعض الفقهاء والوجهاء الحفصيين لأجل الرفع من المستوى المعيشي ومواجهة الفقر.

ثالثا: المغرب الأقصى

1: مساعي بعض السلاطين المرينيين لتحسين المستوى المعيشي وبث الأمن والاستقرار.

2: آليات وجهود بعض الفقهاء والوجهاء المرينيين لأجل الرفع من المستوى المعيشي ومواجهة الفقر.



أولى سلاطين المغرب الإسلامي اهتماما ورعاية كبيرة لاقتصاد دولهم، هادفين تحسين المستوى المعيشي وتحقيق الرخاء والأمن الغذائي وكذا الحد من تفشي ظاهرة الفقر داخل المجتمع بمختلف شرائحه، وتجلى حرص بعض السلاطين على تقوية البنية الاقتصادية من خلال ما أقاموه من هياكل دعمت اقتصاد دولهم وزادت من قوتهم.

أولا: بالمغرب الأوسط:

1-مساعي بعض السلاطين الزيانيين لتحسين المستوى المعيشي وبث الأمن والاستقرار:

يبدو أن تلمسان خلال العهد الزياني والتي تعاقب على حكمها – الوراثي – واحد وعشرون سلطانا[1]، عرفت رواجا اقتصاديا كبيرا ساد معظم نواحيها، بالرغم ما شهدته هذه المرحلة من ضغوطات وأوضاع أمنية متردية أحيانا، تكررت فيها تدخلات بني حفص وحملات بني مرين وتمرد القبائل المجاورة ضدهم، إلا أن هذا لم يمنع من ازدهار الحياة الاقتصادية في بعض الفترات وذلك بتوفر مجموعة من العوامل والمقومات نذكر منها:

– الدور الذي قام به ملوك بني زيان لأجل تحقيق الأمن والاستقرار، ففي عهد السلطان يغمراسن (633هـ-681م/1235هـ-1282م)[2] الذي عمل على تشجيع وتطوير الشق الاقتصادي والحرص على تحقيق الأمن بعموم البلاد، وذلك بمحاربة عناصر الفوضى والفساد[3]، وإرغام خصومه من الأعراب المجاورة له على الطاعة والخضوع، باقتطاع لهم أراضي واسعة داخل تلمسان بغرض الحماية والمحافظة على أمن واستقرار تلمسان من هجمات المرينيين و الحفصيين[4].

[1] – نبيل شريخي، دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين (7-8هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، 2010، ص19.

[2] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص100.

[3] – عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وأثاره، ص94.

[4] –رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص487.

أما في الجانب الفلاحي الذي كان يعتبر العمود الفقري لاقتصاد الدولة، شهد هذا النشاط تنظيما محكما خلال هذه الفترة إذ طبع بمميزات منها:

اعتماد هذا النشاط على نظام الشراكة القائمة بين الخماس ورب الأرض مما أعطى دفعا قويا لاستقطاب أعداد معتبرة من اليد العاملة المحتاجة والفقيرة[1]، وحرص يغمراسن على حسن مراعاة الزراع في الأراضي الواقعة تحت نفوذه[2]، وكان للتنوع الزراعي أثر واضح في تفعيل عنصر آخر من عناصر الحياة الاقتصادية خلال هذه الفترة ألا وهو التجارة، فقد تعدى نشاط تجار المغرب الأوسط الإطار المحلي إلى العالم الخارجي، وذلك بفضل دور يغمراسن في تخفيف الجبايات عليهم. وكان قسط كبير من تلك الجبايات على شكل غلات ومواد مختلفة تجمع تلك الغلات في مخازن الدولة لتمويل الجيش أو توزيعها على الأهالي أيام المجاعات[3].

كان يغمراسن أول من فرض العطاء وحدد الراتب للموظفين في تلمسان[4]، وشجع على شق القنوات المائية وبناء الخزانات مثل الصهريج الكبير، وأمر بشراء الإنتاج من المزارعين لتخزينه في مطامير لوقت الحاجة[5]، فكان الإنتاج الذي يزيد عن الحاجة يخزن لأوقات الحصار والحروب مثلما حصل ذلك مع السلطان أبي زيان الأول سنة(706هـ/1307م) إذ استدعى خازن الزرع وسأله كم بقي من الأهراء و المطامير المختومة[6]، وذلك حرصا وتجنبا للوقوع تحت طائلة الجوع.

كما تميزت فترة حكم السلطان أبي حمو موسى الأول(708هـ-1308م-718-1318م) بتدعيم وتوسيع إنجازات سلفه على حد تعبير ابن خلدون في الإشادة به في قوله"لقد أرجع الماضي وأزال آلام شعبه، حارب المتمردين، لقد كان ينهى عن الظلم ويأمر بالمعروف"والذي أصبح يلقب

[1] - عبد الحميد حاجيات، المرجع سابق، ص94.

[2] - المازوني، المصدر السابق، ج4، ص7.

[3] - رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص487

[4] - يحي ابن خلدون، بغية الرواد،ج2، ص47./ ابن خلدون، العبر ،ج7، ص106.

[5] - بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان على العهد الزياني (7-9هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2002، ص 173.

[6] - ابن خلدون، العبر، ج7، ص129.

بباعث ومؤسس الدولة الزيانية[1]، هذا السلطان الذي اعتنى بجانب الزراعة كثيرا، فمثلا كان يحصل على عشر الإنتاج في المناطق الشرقية، ويرسله إلى أحد الحصون القريبة من تلمسان، لوضعه في مطامير وتخزينه لوقت الحروب والحصارات والمجاعات، حتى وصفه ابن خلدون في قوله "وبحرا لا يدرك ساحله"[2] ، ومما يشهد له من إنجازاته تأسيسه سوق القيصرية[3] على مساحة كبيرة بوسط مدينة تلمسان لتكون السوق الرئيسية بالمدينة [4]، حيث كانت الحركة الاقتصادية بها نشيطة ومتطورة بفضل المخازن التي أقيمت بها [5].

وبالمثل عرفت فترة حكم السلطان الطموح أبو تاشفين الأول ابن أبي حمو موسى الأول خامس ملوك الأسرة الزيانية، إزدهارا كبيرا حيث قال عنه ابن خلدون" كان يعرف كيف يحمل عبء الحكم والدفاع عن الإمبراطورية" وهو الذي أمر بتحصين المدينة بالأسوار والآلات و بنى البناءات العجيبة الشكل كبناء المدرسة التاشفنية المعروفة باسمه. وكذا القباب الغربية والقصور المنيعة وغرس فيها البساتين من جميع الثمار[6].

كما شجع قطاع التجارة وحرية التبادل التجاري بين التجار سواء من الداخل أو الخارج، فكانت التجارة إن صح القول عصب ومصدر ثروة تلمسان الأساسي، الأمر الذي أدى إلى ظهور الثروة على المستوى الرسمي والشعبي، فقد مكنت التجارة السلطان أبو تاشفين من أن يعرض قرضا على جاك

---

[1] – رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص383.

[2] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص 99.

[3] –القيصرية: تعني سوق السلطان أو القيصر وهي اسم قديم من قيصر أكبر ملوك عصره بأروبا، وهي بمثابة حي تجاري كبير يتكون من مجموعة من البنايات بها دكاكين ومحلات تجارية وورشات صناعية مغطاة، ومخازن في بعض الأحيان من كل فوق الحوانيت وفوقها رايات الدول التي تتعامل مع تلمسان تجاريا مثل قشتالة وميورقة وبروفانس، بيزا، جنوة وبها فنادق يؤمه التجار الأجانب، ينظر: الوزان ، مصدر سابق، ج1، ص 242.

[4] – محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، ص130.

[5] – عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص135 .

[6] – رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص384.

الثاني ملك أراغون من خلال رسالة قال فيها "وإن كنتم في حاجة أن نقرضكم الذهب سنفعل"[1]، أما على المستوى الشعبي فقد ظهرت عائلات ذات ثراء كبير كعائلة المقري[2].

ويمكن اعتبار سنوات (707-1307م/738-1337م) فترة هامة في تاريخ الدولة الزيانية نظرا للاستقرار التام الذي عرفته[3] مما مكنها من إبرام معاهدات اقتصادية مع دول مختلفة، الأمر الذي أكسبها الثراء وغدت الخزينة تزخر بالأموال، وعاد بعميم النفع على الرعية، بالإضافة إلى ذلك يمكن القول بأن التزايد السكاني خير دليل على ذلك الرخاء الذي كانت تعيشه البلاد أثناء فترات الاستقرار فمثلا خلال فترة أبي تاشفين الأول بلغ الدور فيها ستة عشر ألف دار مسكونة، إذ وصل عدد السكان في المدينة ما يزيد عن مئة ألف شخص على اعتبار أن معدل الأسرة الواحدة سبعة أفراد[4].

ويبدو أن السلطان أبا حمو موسى الثاني(760-791هـ/1359-1389م)[5]لم يتوان في السعي لتحقيق الرخاء والازدهار الاقتصادي والاجتماعي للأفراد مجتمعه بل شرع في تنظيم شؤون دولته بما توفر لديه من الوسائل رغم أنه لم يكن ما وجده في بيت المال كافيا وذلك بسبب الغزو المريني الذي تعرضت له تلمسان مرة أخرى في عهد أبي عنان (752-760هـ/1351-1358م)، فحرص على إعادة ازدهار الدولة الزيانية رغم تقلب الأوضاع في العديد من المرات، فعمل على كسب تأييد العديد من القبائل مثل قبيلة المعقل ووجدة وندرومة والبطحاء، واسترجاع بعض المدن كوهران والمدية ومليانة[6]، فقد بلغت حركة توسعاته الشرقية والغربية منحا تصاعديا، الأمر الذي

---

[1] – رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص 487.

[2] –لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، تح: محمد عبد الله عنان،مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1974، صص-192-193.

[3] – رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص 383

[4] – حورية سكاكو، التحولات الاقتصادية في المغرب الأوسط خلال العهدين الموحدي والزياني من القرنين (6-10هـ/12-16م) –دراسة حضارية ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة تلمسان، 2014م، ص104.

[5] – أبو حمو موسى الزياني الثاني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص08.

[6] – مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، تح: بوزيان الدراجي، ج2، مؤسسة بوزياني والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص77.

انعكس إيجابا ببلوغ دولته قمة الازدهار الاقتصادي، مما أدى إلى استقامة أحوال رعيته في مختلف النواحي الاجتماعية.

وما طبع فترته هو تأسيسه لمنطقة صناعية خاصة، تجمعت فيها مختلف الصناعات داخل المدينة، عرفت هذه المنطقة باسم دار الصنعة على حد قول صاحب البغية "إن دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم، فمن رماح ودراع ولجام ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباغ وغير ذلك... ثم تعرض كل يوم مصنوعاتهم بين يدي الخليفة أيده الله"[1]، وكان لهذا الانجاز أثر ايجابي كبير على أفراد المجتمع الزياني بحيث كانوا ينصفون مالا من السلطان عند تقديم عروضهم عليه في قوله "ويخزن كل بحجار صنفه المعد له،وينصف الجاعلون من أرزاقهم عدلا أبدا"[2].

كما حرص على تحسين أوضاع العامة من الناس المستضعفين والفقراء المحتاجين، وذلك ما نلمسه بوضوح في الوصايا التي صاغها السلطان في كتابه "واسطة السلوك" على حد قوله "إن كان زمن القحط ومجاعة واقعة وأزل، فترفق بهم في المخازن والمجابي، وتحسن لضعفائهم المحتاجين، وتحابي وتؤثرهم مما ادخرته لشدائدهم في زمن الرخاء من فوائدهم، فتعمر أسواقهم بما اختزنته من الطعام مما يقام به أود الناس في ذلك العام، فإذا كنت يا بني عاملا على هذا الأسلوب جلبت محبتك كل القلوب ودعت لك الرعية ببقاء الدولة والتمهيد والنصر والتأييد وفي ذلك الصلاح التام لدولتك والخير العام لرعيتك"[3] .

وللتدليل على المستوى المعيشي الجيد خلال فترته لابد من الإشارة إلى فخامة تلك الاحتفالات العسكرية والمدنية التي كانت تقام في العديد من المرات كالاحتفال بالمولد النبوي الشريف حسب شهادة التنسي في قوله "كان يقوم بحق ليلة مولد المصطفى- صلى الله عليه وسلم – ويحتفل لها بما

---

[1] – يحي ابن خلدون، ج2، ص155.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص155.

[3] – أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك، ص153.

هو فوق سائر المراسيم، يقيم مدعاة، يحشد لها الأشراف والسوقة"[1]، وهو أمر يعكس الحياة الاجتماعية لسكان تلمسان خلال هذه الفترة من خلال مشاركة الرعية في هذه الاحتفالات بمختلف طبقاتها منها العامة والخاصة فكانت تقدم خلالها الأموال على الفقراء والمساكين وترد المظالم ويتم إكرام العلماء و الصلحاء[2].

أما فترة السلطان الزياني أبي تاشفين الثاني الذي عمل بوصية أبيه أبي حمو موسى، بلغت هي الأخرى ازدهارا وتنظيما في أنشطتها الاقتصادية، إذ مثلت الجباية مصدرا من مصادر الدخل لدى الدولة الزيانية خلال فترته وفترة ما قبله و هذا ما يتضح من خلال قول ابن خلدون يحي حينما يروي لنا خبر رفع أبي تاشفين لمبتدع الوظائف عن الناس[3]، وفي موضع آخر يؤكد قوله" وتضاعفت قواهم بما استحوذوا عليه من جبايات الأمصار والقبائل"[4].

حرص معظم ملوك الدولة الزيانية على توفير السلع التجارية على مدار السنة عن طريق تسهيل عملية التبادل بين التجار من مختلف الجنسيات كما جاء في قول أحد المؤرخين"يحرصون أن تكون مدينتهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه"[5]، وكان الهدف من ذلك توخي الحذر لأي طارئ خارجي يهددهم.

تقيد ملوك بني زيان خاصة خلال فترة الرخاء إلى درجة كبيرة بالمصادر الشرعية لجمع الضرائب، ولم يكلفوا الناس ضرائب غيرها، على عكس عصر التراجع والانحلال والتي ظهرت خلاله ضرائب أسهمت هي الأخرى في إفقار العامة بفرض مغارم ومكوس جديدة خاصة تلك المفروضة على التجارة الداخلية.

ا–دورهم في أوقات المحن والشدائد:

---

[1] – أبو عبد الله التنسي، مصدر سابق، ص 162.

[2] – عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ص 281.

[3] – إدريس بن مصطفى، العلاقات السياسية والاقتصادية للمغرب الأوسط مع إيطاليا وشبه الجزيرة الأيبيرية في عهد الدولة الزيانية، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة تلمسان، 2007، ص41.

[4] –المرجع نفسه، ص 41.

[5] – الحسن الوزان، مصدر سابق،ج2، ص 21.

برزت مظاهر تحسن المستوى المعيشي لسكان المغرب الأوسط بشكل جلي، خلال فترة الخلفاء الأقوياء ومرحلة الاستقرار، وذلك من خلال استقرار الأسعار والتمكن من ضبطها ومنع ارتفاعها داخل الأسواق، ومحاربة ما ينجر عن ذلك من إخلال بالحركة التجارية والمعاملات بين الناس والتجار، خدمة للقدرة الشرائية لجميع الفئات. إلا أنه رغم كل هذه المعطيات والمؤشرات الايجابية لاقتصاد الدولة الزيانية لم يمنع من تفشي ظاهرة الفقر وتدني المستوى المعيشي للسكان مما انجر عنه الكثير من المآسي وخاصة أثناء فترات الضعف التي انعكست أحوالها على أفراد المجتمع.

لا يمكن معرفة تأثير المحن والشدائد الطبيعية وغير الطبيعية على إنسان المغرب الأوسط، إلا من خلال مستوى المعيشة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك، وليس أدل على ذلك من القدرة الشرائية لدى العامة، والتي كثيرا ما تأثرت أثناء ظهور أزمات اقتصادية و جوائح طبيعية كالمجاعات والأوبئة وما شابه ذلك من آفات بيئية، فكان لهذه الأزمات أن أفرزت سلوكات اجتماعية بين أفراد المجتمع الزياني عبرت بوضوح عن مدى الترابط الاجتماعي والتكافل فيما بينهم، فكانت عملية تضامن بعض السلاطين الزيانيين زمن هذه المحن من أبرز السمات التي ميزتهم بتقديم مساعدات للفقراء والضعفاء والوقوف إلى جانبهم، وعليه يمكن طرح التساؤل الآتي: فيم تمثلت المساعدات الإنسانية والإجراءات الميدانية التي اتخذها السلاطين الزيانيين لتجسيد اهتمامهم بهذه الشرائح من المجتمع ؟.

يسجل في هذا الإطار اتخاذ السلطة لعديد الإجراءات، قصد التخفيف من حدة تلك الأزمات والمحن، خاصة إذا ما تعلق الأمر منها بنقص المحاصيل الزراعية، فكان اتخاذ المطامير[1] لتخزين المواد الغذائية كخطوة أولى لمحاربة ظاهرة الجوع فعند زيادة الإنتاج يتم شراؤه من المزارعين لخزنه فيها لأوقات الحرب والحصار وتلك السلع المخزنة كان لها فائدة كبيرة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي[2]، خاصة عند اشتداد الأزمات كطول الحصارات أو حدوث جوائح طبيعية داخل مدن وقرى المغرب الأوسط.

[1] – المطامير: ج/مطمورة وهي التي كانت جزءا لا يتجزأ من مرافق الكثير من الأسر في المغرب الأوسط في مدنه وبواديه على حد سواء، كانت تستخدم لتخزين الفائض من الزرع تحسبا لسنوات المجاعات والحصارات/ إدريس بن مصطفى، مرجع سابق، ص117.

[2] – بسام كمال شقدان، مرجع سابق، ص 174.

نوهت المصادر إلى بعض جهود ومساعي السلاطين الزيانيين أيام المجاعات مثلما فعل السلطان أبو حمو موسى الأول على حسب ما ذكره العمري في قوله "لم يدع ما يحتاج إليه المحاصر لعدة سنين كثيرة حتى حصله من الأقوات والآلات حتى سليت الشحوم، وتمليت بها الصهاريج وملئت أبراج المدينة بالملح والفحم والحطب، واختزن أرضا داخل المدينة كلها زرع"[1] والدور نفسه قام به ابنه السلطان أبو تاشفين حسب قول ذات المصدر " فزادها تحصيلا من الأقوات، وتحصينا من الأسوار والآلات "[2].

ومن جهة أخرى برز دور السلطان أبي حمو موسى الثاني من خلال ما قام به من جهود لصالح الطبقات الضعيفة و المحتاجة خاصة أوقات المجاعات مثل مجاعة(767هـ/1365هـ) وهذا ما أورده يحي ابن خلدون بقوله:" واشتملت هذه السنة (أي767هـ) أجمل الله ختمها على مجاعة شديدة أكل فيها بعض الناس بعضا لريح ذات إعصار أهلكت زرع صائفتها وحيوانها فافتقر الناس إلى ما عند الخليفة بنصف جباية حضرته الكريمة كل يوم على ضعفائها تجمع آلافه العديدة لأخر سبع ثم يحشرون بمشوار أيمي أن لهجي[3]، وغيره من الرحاب الفسيحة، فيقسم ذلك حفظته عدلا بينهم ...ثم اقتضى نظره الكريم أن ضمنهم أجمعين بمارستنات[4] يأتيهم فيها رزقهم بكرة وعشيا ..."[5] ، فلقد اعتبرت محاولة السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني بمثابة الخطوة المهمة لإيواء والتكفل بالمحتاجين، ناهيك عن إخراج وفتح مخازن الزرع لبيع بأقل ثمنا تيسيرا للمحتاجين المنهكين من جراء الغلاء الفاحش عقب حدوث المجاعات[6].

---

[1] –ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب، تح: حمزة أحمد عباس، دار الكتب الوطنية، الإمارات، 2003، ص 204

[2]– المصدر نفسه، ص 204 .

[3] – لم نستطع الوقوف عليه، لكنه ترجيحا أحد قصور الحضرة الكريمة بتلمسان.

[4] – بيمارستان: هو مكان مخصص للتكفل بمداواة المعتوهين والمجانين والغرباء من المرضى مزود بأدوية وأطباء، يسهرون على رعاية هؤلاء الفئة من المجتمع/ ينظر: عابد بن تومي، الكوارث الطبيعية والجوائح والأوبئة في المغرب الأوسط وأثرها في المجتمع مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين، (القرن13/15م)، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط غير منشورة، معسكر، 2010، ص143.

[5] – يحي ابن خلدون، مصدر سابق، ج2، ص298.

[6] – عابد بن تومي، مرجع سابق، ص143.

كما نلمس وصيته لابنه أبي تاشفين بالادخار كوسيلة كفيلة لمواجهة المجاعات والأوبئة وخطر الحصارات لحماية أفراد مجتمعه من الأزمات الاقتصادية وما ينجم عنها من مخاطر في قوله "ينبغي ألا تفارق ذخيرة من الذخائر، مما غلا ثمنها وخف حملها، كاليواقيت و الجواهير الثمينة التي لها نفاسة وخطرا وقيمة بها أعداءك وتصلح بها أراءاك ، فان اقتناء الذخائر عونة على الشدائد والضرائر[1].

كما أوصاه باتخاذ يوم الجمعة للنظر في المظالم التي عبر عنها ب"الشكيات" وحدد صلاحياته في عض الأمور من بينها: "نصر المظلومين وتفقد الضعفاء والمساكين والأرامل والمحتاجين في إشارة لما يقع عليهم من ظلم تحقيقا منه للتكافل الاجتماعي الذي يضع السلطان موضع راع للعدل وكافل الحقوق، كما أمره بالنظر في أمر المسجونين وتسريح من استحق"[2].

ويبدو أن الحديث عن غلاء الأسعار أثناء المجاعات يقودنا إلى الحديث عن ظاهرة التسعير، فبالرغم من غلاء أسعار مختلف المواد الغذائية أثناء المجاعات الواقعة بالمغرب الأوسط، إلا أن المصادر لم تشر إلى لجوء السلاطين إلى عملية التسعير على اعتبار أن التسعير منهي عنه شرعا[3]، لأنه يعد مظلمة في حق التجار والباعة في الأسواق سيما أوقات الشدائد، وهناك إشارة يبرزها صاحب البغية عن دور السلطة الفعال أيام المجاعات دون اللجوء إلى عملية التسعير في قوله"عن المبادرة التي قام بها أبو تاشفين أيام مجاعة (776 هـ/1374م)للتخفيف من حدة الغلاء المسلط على الرعية"وإباحة بيعه (الزرع) بعد الحط من سعره الذي اقتضته المجاعة رفقا بالناس وحفظا لنظام حياتهم"[4].

وكان كثيرا ما ينفذ الطعام ويتوجه الأهالي إلى السلاطين شاكين حال أمرهم مثلما حدث أيام حكم السلطان أبو زيان حسبما ورد ذلك عند الوزان " فلم يطق السكان تحمل هذه المجاعة واشتكوا

---

[1] – سعيد من حمادة "**الخطاب الإسلامي في تلمسان خلال القرن 8هـ/14م من خلال واسطة السلوك لأبي حمو موسى الزياني**"، **عصور الجديدة**، ج2، وهران ، 2011، ص 306.

[2] – صابرة خطيف، فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية، دار جسور للنشر والتوزيع،الجزائر، ط1، 2011، ص214.

[3] – سمية مزدور، مرجع سابق، ص 202.

[4] – يحي ابن خلدون، مصدر سابق، ج2، ص298.

إلى الملك، فأجابهم بأنه قابل أن يطعمهم لحمه لو كان يكفي لإعالتهم جميعا، إذ يعدهم بخسا بالنسبة لولائهم"[1].

ويظهر جليا أنه لولا السياسة المنتهجة من طرف العديد من سلاطين بني زيان لما تمكنوا من اجتياز معظم الأزمات التي قلت فيها الأقوات وكادت أن تقضي على الحياة في أكبر حواضرها، من خلال الاعتداءات المتكررة على المدن التابعة لها من طرف الجارتين الحفصية و المرينية.

ب– تقديم خدماتهم للفقراء:

لعل من أبرز الخدمات التي قدموها، تحبيسهم للعديد من الأحباس، لأجل محاصرة الفقر، وإعانة الفقراء والمساكين لاسيما في أوقات الأزمات التي كانت تزيد من التضامن والتكافل الاجتماعي بين مختلف شرائح المجتمع، كانت أموال الأوقاف تستغل في دفع هذه الكوارث، ففعلا أسهم الوقف في التخفيف من عناء وتضور فئات الفقراء والمحرومين واليتامى والمرضى الزمنى[2]، ولقد احتفظت لنا متون المصادر التاريخية وخاصة النوازلية العديد من الأمثلة على ذلك.

فهذا السلطان أبو حمو موسى الثاني حرص على مد يد العون لهذه الفئات الضعيفة في المجتمع وعمل على تقديم الجرايات لهم في مختلف المناسبات والاستماع لانشغالاتهم مرة في كل أسبوع [3]، وكان يولي اهتماما خاصا بالطلبة حيث أوقف عليهم الكثير من الاحباس، وكان يتعهدهم برعايته الخاصة مثل كسوتهم وإطعامهم[4].

كما ذكر صاحب كتاب البستان أن السلطان محمد ابن أبي تاشفين قد زار الشيخ أبا الحسن أبركان وترك عنده دراهم كثيرة، ليفرقها على الفقراء والمساكين[5].

[1] – الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 18.

[2] – عمر بلبشير، **نظام الوقف ودوره في الرعاية الاجتماعية من خلال نوازل المعيار**، **مجلة الحضارة الإسلامية**، **ع/14، جامعة وهران، 2010، ص192.**

[3] – عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج1، ص226.

[4] – عبيد بوداود، الوقف في المغرب الإسلامي (مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13-15م) ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م، ص 533.

[5] – ابن مريم المليتي، مصدر سابق، ص 172-173.

أما فيما يخص دورهم في مجال الصحة فقد نوه يحي ابن خلدون إلى وجود بيرمارستان في عهد السلطان أبي تاشفين حسب قوله"ثم اقتضى نظره الكريم أن ضمهم أجمعين في بيرماستان يأتيهم فيها رزقهم بكرة وعشية شتاء السنة"[1]، وهي إشارة مهمة عن اهتمام السلطان أبي تاشفين بالجانب الصحي لرعيته لا سيما الفئات العامة من المجتمع.

كما قاموا بمحاربة ظاهرة احتكار السلع بوضع محتسب يراقب عمليات البيع والشراء في الأسواق، إذ يذكر الونشريسي لجوء بعض التجار الجشعين إلى احتكار الطعام في السوق مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وإضرار الناس، كان المحتسب يأمر بيع الطعام لهم ويكون للمحتكر رأس ماله، أما الربح فيصدق به على ذوي الحاجة أدبا له، وإذا أعاد التاجر انتهاج هذه السياسة مرة أخرى يضرب ويطاف به في الأسواق ويسجن عقوبة له[2].

2- مساعي الفقهاء والصلحاء والوجهاء الزيانيين لأجل الرفع من المستوى المعيشي ومواجهة الفقر:

أدت مخالطة فقهاء و صلحاء تلمسان لأفراد مجتمعهم ومعاملتهم، إلى اطلاعهم على أحوالهم ومعرفة مشاكلهم وحاجتهم وما يشغل بالهم فتباينت أدوارهم تجاه الفئات العامة والمحتاجة من أفراد المجتمع الزياني، لأجل تحسين مستواهم المعيشي والتقليل من وطأة الفقر عليهم خاصة في أوقات المحن والشدائد على اختلاف طبيعتها، عن طريق الأداء الكرامي أو الدعاء أو حث الأغنياء على الصدقة للفقراء المحتاجين[3]، كما تجلى دورهم في التوسط لدى السلاطين وأعوانهم خصوصا المكلفين منهم بجمع الضرائب، فكانوا بمثابة واسطة لدى الحكام لحل الكثير من مشاكل الرعية، وهذا يجعلنا نتساءل ما هي أهم الخدمات والمساعدات التي قدموها لأجل تحسين وضعية هؤلاء الفقراء خاصة زمن الشدة؟.

[1] - سمية مزدور، مرجع سابق، ص156.

[2] - كمال السيد أبو مصطفى، مرجع سابق، ص 73.

[3] - ابن الزيات، التشوف، ص 429



ا– المساعدات المادية للفقراء: (الصدقات، توقيف الأوقاف، بذل الزكاة لهم)

نالت شريحة الفقراء والمحتاجين اهتماما كبيرا لدى الفقهاء والصلحاء والوجهاء الزيانيين، فسعوا إلى تحسين أوضاعهم سواء ماديا أو معنويا ولم يبخلوا عليهم بل بذلوا من أجل ذلك أعز ما يملكون ومثال ذلك: العالم الفقيه أبي عبد الله بن أبي بكر مرزوق[1]، عرف هو وعائلته بحبه وعطفه على الفقراء حيث كان يهب المال لمن أراد التجارة، وكان يكتال من زرعه للضعفاء طوال السنة، ويمنحهم مقدار من المال وكان مجيب الدعاء لمن حل به فقرا، أو مرضا فتتيسر حاله، مثلما دعا لأبي الحسن علي بن ميمون كان ضعيفا فقيرا كثير العائلة فدعا له الشيخ فأصبح ذو مال كثير[2]، كما عرف والده أبو العباس ابن مرزوق (681هـ/741هـ) بكثرة الصدقات وأعمال البر، له جرايات على الطلبة وأهل الدين والخير، وما يعضد تلك الصفات ما جاء في كتاب المناقب"حيث كانت له مطامير من قمح وفحم وكان يعد اللحم المدخر المعروف بالمسلي والخليع والزيت، فإذا كان يوم الثلج، فتح مطمورة من قمح وأخرى من فحم، ويتصدق بالزرع والفحم و الأدام طول يومه، فلا يرجع إلى داره حتى يفرغ من المطمورتين كما كان له كل يوم خبز الصدقة ، وثياب في كل سنة "[3].

ووصف الولي الصالح العارف أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق جد ابن مرزوق الحفيد (629هـ/1226م) الذي عاصر فترة السلطان أبي يحي يغمراسن والذي حرص على الإجتماع به في العديد من المرات، فكان ذا شهرة كبيرة وتميز بحبه وعطفه على الفقراء والمساكين فكان يكتال بين يديه للضعفاء والمحتاجين"[4]، كما قيل أنه كان يمسك صرة بها دراهم ويتصدق بها على المساكين الذين يتفرس فيهم الحاجة إلى شيء مما عنده[5]، وهي كلها قرائن تبين لنا مدى حضور هذه الأسرة إلى جانب الفئة المهمشة في المجتمع.

[1] – ولد بتلمسان في أواخر سنة(710هـ/1310م) ونشأ بها وتعلم مبادئ العلوم وحفظ القران وأخذ العلم عن علمائها أمثال ابني الإمام وإبراهيم الآبلي، أسس مسجد العباد، كان عظيما محببا لدى السلطان أبي سالم المريني/ ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، 165.

[2] –المصدر نفسه، ص 165.

[3] –المصدر نفسه، صص190-191 .

[4] –المصدر نفسه، ص155.

[5] –ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص155.

وبالمثل بلغ الشيخ العالم الشريف أبو عبد الله التلمساني[1] (710هـ/1310م-771هـ/1371م) ، الدرجة الرفيعة والمنزلة العالية ولعل شهادة شيوخه أبلغ دليل على ذلك إذ يقول فيه الشيخ عبد السلام "ما أظن أن في المغرب مثل هذا"[2]. هذا العالم كان لا يألو في إعانة الناس مع كرم واسع معهم، وكانت نفقاته عليهم عديدة يعطيهم رفيع الكساء، كما أجرى جرايات عليهم كثيرة من ماله[3]، كما وصف التنبكتي إحسانه لفئة الفقراء في قوله: "...كان مشفقا رحيما بالناس، يعينهم ويعطيهم عدة نفقات... ويواسي رحمه بكثير من ماله ... ويطعم الأطعمة "[4].

وحذا حذوهم الفقيه الشيخ أحمد بن الحسن بن عبد الرحمان الغماري: نزيل تلمسان (ت 874هـ/1470م)، في مساعدته للفئات العامة الفقيرة على حسب ما ورد في قول ابن صعد الأنصاري "أنه كانت تأتيه ثمرات من كل شيء، ويقصده الناس بالصدقات والنذور، وربما جاءه من الذهب المائة والمائتان فلا يدخر ذلك... وإنما يفرقه في الفقراء و المحاويج"[5] ، وما عرف عنه أنه كان يتولى بنفسه خدمة المرضى من الفقراء، ويسقي لهم الماء ويحمل الطعام إلى منازلهم ويتفقد أحوالهم[6]، ولم يكن الفقراء الذين يأتون إليه طالبين المساعدة ليعودوا خائبين من عنده[7]، وقيل عنه أنه كان يخرج إلى سوق ندرومة ويأخذ معه إبريقا مملوءا ويدور به على أهل السوق ويسقيهم منه جميعا[8].

وعلى نفس الشاكلة كان الشيخ الحسن أبركان (ت857هـ/1453م) من قبيلة مزيلة من بني راشد، لم يتحدث المترجمون له على تاريخ ولادته ولكنه كان في نهاية القرن الثامن الهجري كان ولي صالح حسن المعاملة، صاحب كرامات، وله مكاشفات، كثير الرحمة والشفقة على أفراد مجتمعه،

[1] - كان بروز هذه الأسرة مع بداية القرن الثامن الهجري، عرفت بشرف النسب وشرف العلم والأخلاق /نصر الدين بن داود، بيوتات العلماء بتلمسان، من القرن (7-10هـ)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة تلمسان، غير منشورة، 2010/2009، ص21.

[2]- التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج في تراجم المالكية، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004، ص 340.

[3] - ابن مريم، مصدر سابق، ص288.

[4] - التنبكتي، كفاية المحتاج، صص339-340.

[5] - ابن صعد الأنصاري التلمساني، روضة النسرين، ص194.

[6] - المصدر نفسه، ص194.

[7] - المصدر نفسه، ص 197.

[8] - المصدر نفسه، ص 219.

مبالغا في إيثارهم ومبادرا لإغاثة ملهوفهم، رغم صعوبة الحياة المادية التي كان يعيشها، إلا أنه كان سخيا، وكثير التصدق للصدقات التي كانت تصله من بلاد السودان فلا يدخر منها شيئا[1] طمعا في لطف ربه وكسب ثوابه.

كما كان لفئة الأولياء الصالحين دور كبير تجاه الفئات الفقيرة بالمجتمع الزياني، وذلك ما نستشفه في قول الوزان" أن أحد الأولياء الصالحين القاطن في إقليم البطحاء قد اشتهر بالغنى وكانت تصله الصدقات من كل البلدان فيجمع سنويا مبلغا من المال، فيطعم به الفقراء والمساكين، فقد جاء في سياق حديثه عن هذا الأمر" وأخذ يتقاطر عليه جمهور غفير من الناس، فيطعمهم جميعا"[2].

ولا سبيل للإنكار أن بعض الفئات الميسورة الحال في المغرب الأوسط ساهمت هي الأخرى في الحد من الفقر وتقديم خدمات جليلة لهذه الفئة الضعيفة، فقد أمدتنا كتب النوازل ببعض صور التكافل الإجتماعي فقد أشار الونشريسي في أحد النوازل "أن رجلا أوصى لصبية يتيمة بأن يدفع لها بعد وفاته ربع حانوته، وينفق عليها إلى أن تتزوج "[3].

كما أمدنا بصور حول الرعاية الاجتماعية التي كانت تقدم للفقراء والمساكين واليتامى في تلمسان، حيث أورد في أحد المسائل" هل يرخص لمن وجبت عليه الزكاة قبل يوم عاشوراء في تأخير إخراجها إليه إذا كان موسما للمساكين يبرزون فيه ويلحون في الطلب ولا يعذرون من لا يعطيهم فيه قياسا على لزوم تأخير الزكاة عن حلول حولها"[4]، فأجاز الفقيه المازوني ذلك.

---

[1] – ابن مريم، مصدر سابق، ص150-176.
[2] – الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص27-29.
[3] – الونشريسي، المعيار، ج10، ص294.
[4] – المازوني، مصدر سابق، ج1،ص337./ عبيد بوداود، مرجع سابق، ص256

وفي نازلة أخرى ذكر أن رجلا من أكابر التجار وذوي الأموال الطائلة أوصى زمن الوباء رجلا بأن يتصدق بمبلغ "مائة وخمسين دينارا من الذهب وأنها كانت أمانة بيده ثم علقها بذمته على الفقراء والمساكين"[1].

ب-دورهم في قضاء حوائج الفئات المحتاجة لدى الحكام:

كان لتلك العلاقات السياسية بين نخبة الفقهاء والوجهاء الزيانيين مع السلطة الحاكمة لتلمسان أثار طيبة وحسنة في الكثير من المرات، وهو الأمر الذي استغلته هذه الطبقة لأجل أن تكون وسيط بين السلطة الحاكمة وانشغالات أفراد المجتمع لاسيما تلك الفئات العامة المحرومة، فهذا الولي أبو العباس أحمد بن الحسن، الفقيه القاضي العدل من أكابر علماء تلمسان، كان رحيما بالناس ساعيا في مصالحهم على حد القول "ثم ينصرف بكليته لذوي الحاجات فيصبرهم ويؤنسهم ويغيث ملهوفهم ويكاتب ملك الوقت وأرباب الدولة فيقضي الله على يده كثيرا من رد الظلمات وفك العناة"، وكان يتحمل المشاق من أجل خدمة الناس، ويبادر إليها بنفسه: " وكان ربما مشى بنفسه في دفع مظلمة أو رفع وظيف، فكان بعض أصحابه يقول له يا سيدي تتكلف المشي على قدميك فهلا بعثت بكتابك أو برسولك، فيتبسم رحمه الله ويقول لعل هذا انفع لنا ولهم "[2].

كما برز دور الفقيه أبي العباس بن مرزوق (ت741هـ/1340م) من خلال اللقاءات التي كانت تجمعه مع السلطان أبي تاشفين الأول بجامع العباد بتلمسان، بطلبه في شان بعض المساجين فأمر السلطان بإطلاق سراحهم[3]، وقد شفع ابنه الخطيب محمد بن مرزوق (ت781هـ/ 1379م) لأحد أعيان تلمسان، وهو أحمد بن قاسم بن الحاج، الذي قام بسجنه السلطان أبي الحسن المريني، وبعد تدخل ابن مرزوق الخطيب أطلق السلطان سراحه وأمر له بكسوة[4]، وعلى غرار تقديم الشيخ أبي

[1] - الونشريسي، مصدر سابق، ج6، صص5-6.
[2] - عبيد بوداود، مرجع سابق، ص252.
[3] - نبيل شريخي، مرجع سابق، ص 142.
[4] - ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 322-323.

الحسن أبركان للفقراء الصدقات كان يقوم بمكاتبة الملوك وأرباب الدولة في قضاء حوائج الناس، ولم يسأم أو يفتر من ذلك[1].

وبالمثل فعل الفقيه الإمام المفسر محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ/1490م) الذي كان قاضيا مباركا صالحا آية في علمه وهديه وورعه، تميز باللين والرحمة على الضعفاء، كان مبتسما في وجه من لقيه، يوقر الكبير ويقف مع الصغير ويتواضع للضعفاء، كان يأمر أهله بالصدقة سيما وقت الجوع ويقول: من أحب الجنة فليكثر من الصدقة خصوصا وقت الغلاء[2]، وكثيرا ما كان يتولى الصدقة بنفسه، وكان يتزاحم الأطفال في تقبيل أطرافه، وما اتصف به أنه لم يكن يحبذ ربط علاقات مع السلاطين، إلا أن حبه للمساعدة وحل مشاكل الناس وقضاء حوائجهم جعلته يضطر إلى الذهاب ولقاء الملوك[3]، حسب قول التنبكتي"كان شديد الحياء فإذا كلف بالكتابة للأمراء يكتبها حياء لأنه يستحي أن يرفض طلبا لأحد"[4].

كما عظم دور الشيخ الولي الصوفي محمد بن عمر المعروف بالهواري (751هـ/ 843هـ)، له كرامات كثيرة، اشتهرت بين العام والخاص، يقال أنه كان آية في الكرم والرحمة للمساكين، كان خدوما مؤديا لحاجة من يقصده على حسب ما ورد عند ابن صعد "كنت عند الشيخ يوما، وقد ورد إليه جماعة من الشرفاء الكائنين بمواطن مغراوة من بلاد الشلف ظلم واليهم وجوره على الأهالي وغيرهم من الرعية فاشتد غضبه الشيخ، ثم بعث للخليفة كتابا بذلك الأمر فوضع حدا لذلك [5]، ومن الفقهاء أيضا، الذين كانوا شديدي الحرص لقضاء حوائج الناس الفقيه إبراهيم بن علي الخياط الولي الصالح كان يتكسب من عمل الخياطة، "كان كثير الدخول على أمير المؤمنين أبي يحي بن يغمراسن

---

[1] – ابن صعد الأنصاري، مصدر سابق، ص 129.

[2] – التنبكتي، نيل الابتهاج، ص567-568.

[3] – المصدر نفسه، صص 563،565/ ينظر: نبيل شريخي، مرجع سابق، ص 144.

[4] – التنبكتي، نيل الابتهاج، ص567-568.

[5] – ابن صعد، مصدر السابق، 233.

لقضاء حوائج الناس، وربما دخل عليه في اليوم سبعين مرة، فقيل لأمير المؤمنين في ذلك فقال: دعوه فهو رحمة للمسلمين، وما قضاه الله تعالى يقضيه، والله لا أمنعه من قصده "[1].

ج-مجابهتهم للضرائب والمكوس وجهودهم زمن الكوارث والمحن:

لا شك أن الفقهاء والوجهاء ساهموا في التخفيف من المغارم أو إلغائها على بعض الفئات المتضررة منها، ساعين إلى وضع حد لبعض تجاوزات السلاطين كفرض مقادير معينة من المال على أعيان البلد، حتى يتجاوز هذا الأخير ضائقته، فشكلت هذه الضرائب عبئا ثقيلا على معدومي وضعيفي الدخل، الأمر الذي اضطرهم إلى العيش في ضيق وضنك كبير على حد تعبير الخطيب أبي عبد الله، ابن مرزوق بقوله"...فكم أدت المطالب بها إلى افتقار، وكم هتكت فيها من حرمة أموال وأعراض..."[2]، فقد أخذ هذا الرفض والتصدي للمكوس والضرائب من قبل هذه الفئة في المجتمع سلوكات عملية بغية الدفاع عن أفراد مجتمعهم ومثال ذلك ما قام به أحد متصوفة تلمسان الصوفي أبو الربيع سليمان (779هـ/1377م) ويسمى أيضا الربيع سليمان بن المعز الصنهاجي المعروف بالتلمساني كان فقيها ورعا معظما للعلم قيل عنه أنه كان لا يأخذ قوته من الطعام إلا من موضع يعرف أهله" الذي حذر أحد الوزراء بما قد يلحقه إن قام بعملية المكس متوعده بالعقوبة التي تعرض لها سابقوه من فارضي المكوس[3]، كما شارك الصوفي أبي عبد الله ابن شعيب مع العامة في ضرب المكاس محتجا بقوله " ليس في الشريعة مكس"[4].

---

[1] - ابن مريم، مصدر سابق، ص 126-127.

[2] - ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 286.

[3] - نبيل شريخي، مرجع سابق، ص 145.

[4] - الغبريني، مصدر سابق، ص191.

وأظهر الشيخ أحمد الغماري (ت874هـ/1470م) معارضته لهذه الضرائب والمكوس، من خلال فتح داره للمطالبين بالمغارم والمكوس، والفارين من أيدي السلطة[1] كإيوائه لرجل من قبيلة بني ورنيد، فر إليه بعد أن طولب بما عليه من الغرامة[2].

كما سعى الفقيه أبو زيد بن الإمام (ت743هـ/1342م) بالتوسط للفقيه أبي العباس بن عمران البجائي عند السلطان أبي تاشفين الأول بعد حلوله بتلمسان، فرفع السلطان مغرمه ومغرم من جاء معه وكان يقدر بمائتي دينار وزاد عن ذلك بأن أعطاه مائتي دينار ذهبية[3] .

أما فيما يخص جهودهم أثناء الكوارث والمحن كالمجاعات والأوبئة والحروب والحصارات وغيرها من الآفات التي جعلت إنسان المغرب الوسيطي يعيش تحت وطأة الفقر في كثير من المرات. فقد عثرنا بين متون بعض المصادر صورا واضحة لعملية التضامن والتكافل الاجتماعي لبعض الفقهاء والوجهاء الزيانيين فهذا الغبريني يذكر لنا مدى أثر كرامة الاستسقاء للولي أبي الحسن علي أحمد بن الحرالي (ت637هـ/1239م) أندلسي الأصل، مراكشي الدار، نزيل بجاية، قيل أنه عندما أصاب الناس قحط وجفاف عظيم ببجاية وقلت المياه، وجف أميسيون، ووصل الزق من الماء إلى أربعة دراهم، فدعا الله بأن يمطرهم فاستجاب الله وأمطرهم مطرا غزيرا وأخذ يغسل ويشرب ويقول " مرحبا بقريب عهد من ربه"[4].

سعى بعض الصلحاء إلى وقف أوقاف لمساعدة المحتاجين الفقراء والمتضررين زمن الشدائد فقد أورد الونشريسي" أن رجلا من أهل مليانة أوصى بأن يصرف ثلث أملاكه عند وفاته على المساكين،

[1] – ابن صعد، مصدر سابق، ص 220.

[2] – نبيل شريخي، مرجع سابق، ص 145.

[3] – التنسي أبو عبد الله، مصدر سابق، ص 142.

[4] – الغبريني، مصدر سابق، ص 149 .



وقد حدث ذلك سنة ثمانية وثلاثين وسبعمائة (738هـ/1338م)"[1]. وكان لهم دور أيضا في التوعية بخطبهم ومواعظهم المؤثرة في المساجد، كحثهم على الصبر أيام المجاعات التي اجتاحت تلمسان[2].

وعموما، يمكن القول أن كلا من السلطة والفقهاء الزيانيين، شكلا همزة وصل بينهم وبين الضعفاء والفقراء من خلال تقديم لهم بعض الخدمات المادية والمعنوية، فبرزت ملامح التكافل الاجتماعي داخل المجتمع الزياني.

ثانيا: المغرب الأدنى:

1-مساعي وجهود بعض السلاطين الحفصيين لتحسين المستوى المعيشي للسكان ومواجهة الفقر:

إن الحديث عن مساعي بعض السلاطين الحفصيين لأجل تحسين المستوى المعيشي وبث الأمن والاستقرار داخل المجتمع الحفصي خلال الفترة (ق7-9هـ /13-15م) ، يجرنا إلى الحديث عن الجهود التي بذلت من طرف بعض ملوك الدولة الحفصية في مختلف الأنشطة الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، خدمة لأفراد مجتمعها خاصة أثناء الأزمات الاقتصادية، والكوارث البيئية،كالمجاعات والأوبئة والأمراض، وانتشار معضلة الفقر بين السكان لاسيما أوقات الحروب والفتن الداخلية والخارجية. وعليه فلاشك أن ضمان السلم والأمن والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي في أي بقعة جغرافية مرهون بنظام حكم له مرتكزات قادرة على تسيير أمور الدولة، وذلك سوف يكون كفيلا بضمان الاستقرار السياسي، ومن ثمة انتعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان.

وغني عن البيان أن إفريقية الحفصية شهدت هي الأخرى إنتعاشا اقتصاديا كبيرا عم مختلف مناطقها خلال فترات الاستقرار، بفضل عدة عوامل منها : المقومات الطبيعية التي تمتلكها، وسيطرة

[1] – الونشريسي، المعيار، ج6، 457.
[2] – المازوني، ج1، ص337.



الإنسان الحفصي على الطبيعة بالزراعة والصناعة، والتغلب على نواقص البيئة واستثمار فائضها بالتجارة، وهي دعائم مثلت ركيزة من ركائز الاقتصاد الحفصي.

وقد كانت سياسة الأمير أبو زكريا الحفصي الذي استفرد بإمارة بني حفص حسب قول ابن الشماع " هو أول بني حفص بالاستفراد بالإمارة "[1]، بداية طيبة لتحقيق ذلك الاستقرار، فعمل هذا الأخير على إخضاع كامل أنحاء افريقية تحت سلطته في وقت قصير إلى ما كانت عليه في عهد الدولة الصنهاجية، الأمر الذي مكنه من تأسيس المملكة الحفصية من منطقة القبائل الكبرى إلى منطقة سرت الكبرى، التي سيكتب لها الدوام مدة ثلاثة قرون[2] بتعاقب –حوالي واحد وعشرون سلطانا– بين قوي وضعيف على حكمها، وقد سعى البعض منهم إلى العمل على تحقيق الأمن والاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي لأفراد المجتمع من خاصة وعامة.

إتسمت سياسة السلطان المؤسس للدولة الحفصية أبو زكريا الحفصي(626-647هـ /1229-1249م)[3] بالصلاح والاستقرار حسب قول الزركشي"حيث صلحت به البلاد، ورخت الأسعار، وأمنت الطرق، وجمع من الأموال والسلام ما لم يجمعه أحد"[4]، كما أشار بن الخطيب إلى ذلك في قوله "فخلا للأمير أبي زكريا الجو ودانت له إفريقية فاستكثر من الأموال و استلحق الجيوش ودوخ العربان ..."[5]، وتعد فترة حكمه أبهى وأعظم الفترات في حكم الدولة الحفصية، وما يعزز ذلك شهادة ابن قنفد بأنه كان"...ملكا جزلا، فاضلا مدركا، عالما مجيدا،...وله أحوال جميلة لم تكن في

---

1 –ابن الشماع، الأدلة البينة، ص 58.

2 – روبار برانشفيك، مصدر سابق، ج1، ص 51.

3 – محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواري، محمد محفوظ، مج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988 ، ص549.

4 – الزركشي، مصدر سابق، ص 25.

5 – لسان الدين ابن الخطيب، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1316هـ، ص 67.

غيره من الملوك، ... وكانت أيامه خير أيام وأكثرها سعادة وأدرها أرزاقا، وأكثرها أفراحا، ونام الناس معه على مهاد العافية، واكتسبوا الأموال، وأكثروا الغراسات"[1].

وأشار ذات المصدر في موضع آخر إلى عدله وسياسته في جمع الأموال التي لا تحصى ولا تعد لكثرتها حسب قوله"جمع بعدله وسياسته أموالا لا تحصر إلا بالبيت. والبيت عبارة عن ألف ألف. وذلك مائة ألف عشر مرات"[2]، وأكد ذلك ابن أبي دينار القيرواني في قوله"سبعة عشر ألف بيت والبيت ألف ألف"[3]، وهي نصوص تبين وتؤكد لنا أن أبا زكريا الحفصي استطاع تحقيق الاستقرار الاقتصادي بتوفير احتياط مالي كبير لبناء دعائم الدولة بمختلف ركائزها، وهياكلها ساعيا إلى تحسين ظروف و أحوال رعيته لاسيما منها الفئات الضعيفة الدخل.

والظاهر أن في عهده تمكن الحفصيون من السيطرة على الطرق الصحراوية لتجارة الذهب وإبرام معاهدات تجارية مع جنوة وصقلية وايطاليا، فازدهر بذلك قطاع التجارة مما انعكس ايجابيا على الناحية الاجتماعية للسكان، ومما شجع أيضا الأندلسيين على الهجرة إلى تونس والإسهام في الحياة الاقتصادية والعلمية معا، ولتسهيل عملية البيع والشراء بين أفراد مملكته قام بإنشاء أسواق لائقة حول جامع المدينة[4]منها سوق العطارين[5]، وقد كان نجاحه –أكثر – في التشجيع على طلب العلم وإقامة معالمه فقد أنشأ أقدم مدرسة عمومية وفقا للنماذج المشرقية بافريقية وكانت في متناول رغبات سواد الشعب[6].

ولعل فيما أوردناه أعلاه عن جهود أبي زكريا الحفصي يبين ويؤكد مدى حرصه وسعيه في ضمان السلم والأمن للبلاد والرخاء الاقتصادي للرعية، اللذان تحققا بالفعل في عهده. فقد انتعشت الزراعة

[1] –ابن قنفد، الفارسية، ص 112.
[2] –المصدر نفسه، ص 113.
[3] – ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، دار المسيرة، بيروت، مؤسسة سعيدان، تونس، ط3، 1993، ص 157.
[4] – روبار برانشفيك، مصدر سابق، ج1، ص 53.
[5] – ابن الشماع، مصدر سابق، صص56-57.
[6] –روبار برونشفيك، مصدر سابق،ج1، ص 67.

والصناعة بقوة وانجر عن ذلك ازدهار التجارة، وخير دليل على ذلك توطيد العلاقات التجارية الخارجية مع النصارى[1].

وإمعانا في الاهتمام بشؤون الرعية والبلاد الحفصية واصل ولي العهد السلطان محمد المستنصر بالله ابن أبي زكريا يحي الحفصي (647-675هـ/1249-1276م)[2] على نفس الدرب الذي سار عليه والده في تحقيق الأمن والسلام، وذلك بالتصدي للحملات الخارجية التي كانت تهدد كيان الدولة بين الحين والآخر[3]، ومثال ذلك تمكنه من إفشال حملة لويس التاسع الصليبية على تونس في (668هـ/1270م)[4] بفضل تمرسه ومعرفته لشؤون الحكم وخباياه وبعد نظره للأمور السياسية، وعهده كان يمثل أقصى الاتساع في النفوذ و الإشعاع. فمن أعظم ما أحدثه، إقامته البستان الطائر المعروف بأبي الفهر الذي يشتمل على جنات معروشات التي طار لها ذكر في الآفاق[5]، كما اهتم بالجانب العمراني فأكثر بناء المنشآت الدينية.

ولعل جهود السلطان الواثق يحي بن المستنصر(675هـ-1277م) كان لها بالغ الأثر داخل المجتمع الحفصي فقد اهتم بنظيمة العدل وعمل على تطبيقها، وإفاضة العطاء على المحتاجين والفقراء[6].

ويبدو أن فترة إمارة الأمير أبي حفص عمر (683هـ/1285م)[7]، تميزت هي الأخرى برسوخ العدل، وانتشار الأمن و الهناء، فصرف عنايته للاهتمام بشريحة الفقهاء و الصلحاء والوجهاء فكان يبرهم ويبادر إلى قضاء حوائجهم[8]. وكان الأمير أبو زكريا يحي ابن إسحاق(684هـ-1286) أميرا

---

[1] - برونشفيك، مصدرسابق، ج1، ص 54.
[2] - ابن قنفد، الفارسية، ص 117.
[3] - ابن خلدون، العبر، ج6، صص 424-429.
[4] - ابن قنفد، الفارسية، ص 131/ينظر: ابن الشماع، ص 62.
[5] - ابن خلدون، ج6، صص404-405.
[6] - المصدر نفسه، ج6، ص433.
[7] - الزركشي، مصدر سابق، ص 51.
[8] - ابن قنفد، الفارسية، ص 148.

على بجاية له اهتمام كبير بالعلم وأهله فقد قيل فيه "اشتغل أولاد الأمير أبي إسحاق بالملك والدنيا، واشتغل منهم الأمير أبو زكريا، بابتناء المدارس، واقتناء الكتب وجمعها، وضم أنواع العلوم لها حتى الوعظ،...و بنى مسجدا بها، ورتب لها المساكن للطلبة، وأوقف عليها حبسا،...فلما ملك ولده أبو البقاء أكمل غرض أبيه في ذلك"[1].

وبالمثل تعاظمت فترة الأمير أبو عبد الله محمد المعروف بأبي عصيدة (694هـ-1296م)[2]، باستقامة الأحوال والاهتمام بشؤون الرعية من خلال دفع المضرة عنهم والإحسان والكرم إليهم، فكانت أيامه أيام هدنة وسلم لا حرب، الأمر الذي مكنه إلى الانصراف والعناية بالجانب الزراعي والعمراني على حد تعبير ابن الشماع " فغرست الغراسات وشيدت الأبراج"[3]، وما يعزز الطرح أكثر شهادة ابن قنفد في قوله"ورتب الدولة أتم ترتيب"[4].

وغير خفي أن المولى أبا يحي أبو بكر(718هـ-1318م) استطاع أن يستقطب جموع العامة والخاصة حوله، من خلال انتهاج سياسة اللين والحسنى التي تميز بها معهم، فحسب ما وصفه ابن الشماع في أحد النصوص" كان حليما ورحيما بهم،... وكان لا يولي قاضيا حتى يشهد فيه بالخير من يثق بدينه، وكان لا يكافئ من فعل معه سوء إلا بالخير[5]، ومما زاد تشبث الرعية به و الإهلال به أنه كان كثير الصدقة عليهم "وتصدق بمال جزيل"[6]. وفي عهده عرفت تونس نهضة اقتصادية لا مثيل لها رغم الثورات الداخلية التي كانت لا تنطفئ واحدة إلا وتشتعل أخرى، فقد بلغ من قوة اقتصادها حسب ابن الشماع في قوله " إلى أن كان بها أزيد من سبعمائة حانوت للعطارة، وما يزيد على مائة

[1] - ابن قنفد، الفارسية، ص155-156.
[2] - المصدر نفسه، ص 152.
[3] - ابن الشماع، مصدر سابق، ص83.
[4] - ابن قنفد، الفارسية، ص 152.
[5] - ابن الشماع، مصدر سابق، صص 77، 88-89.
[6] - المصدر نفسه، ص91.

وعشرين طاحونة، وكان يطحن بها آلاف قفيز قمحا كل يوم، ألف تُبَل وألف تطحن وألف تغربل وألف تصنع "[1].

والجدير بالذكر أنه خلال هذه الفترة (من بعد خلافة أبي يحي أبي بكر إلى غاية خلافة أبي البقاء خالد بن أبي إسحاق إبراهيم) ظل التوتر السياسي وكثرة الدسائس والفتن الداخلية قائمة متمثلة في حركات تمرد وعصيان قامت بها الفئات الشعبية أو العامة من المجتمع، و التي ظهرت وتزامنت مع مرور المنطقة بسنوات عجاف كالجوع والفقر الذي لعب دورا بارزا في قيام اضطرابات اجتماعية واقتصادية أخلت بالأمن والاستقرار، إضافة إلى الصراع الأسري الحفصي حول السلطة، الأمر الذي أدى إلى انشغالهم وتسخير قواهم المادية والبشرية لتهدئة الأوضاع السياسية وإخماد الفتن الحربية فيما بينهم، متناسين الاهتمام بشؤون الرعية اجتماعيا واقتصاديا وعلميا.

وخلال هذه الفترة بالذات والتي تزامنت بحركة السلطان أبي الحسن المريني إلى تونس سنة (747هـ/1249م)عكف هذا الأخير على جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم لمواجهة المد النصراني، كما حاول نشر التعليم وتعميمه في مراكز إفريقية، بواسطة العدد الكبير من كبار العلماء والفقهاء(حوالي 400عالم) الذين ساروا معه في هذه الحركة،كما كان يرمي من هذه الحركة إلى محاولة تطويع البدو في إفريقية بسلوك سياسة تجعل منهم عنصرا مندمجا في الجماعة ،لا عنصرا يسلك سلوك الفوضى والتخريب،كما عمل على رفع العديد من المغارم والضرائب بها[2].

ولعل سياسة الأمير أبي العباس أحمد بن أبي بكر (772-796هـ/1375/1398م) جاءت بالنفع على البلاد والعباد، فقد استطاع ترتيب أمور الأقاليم، وإيقاف الفوضى والقضاء على الفساد الذي أشاعه الأعراب في البلاد، وحسبنا في ذلك كلام ابن الشماع: "ثم شغبت العرب عن السلطان لأنه مسك أعنتهم عن التغلب، والاستبداد، وانتزع ما بأيديهم من الأمصار" [3]، فتمكن السلطان من

[1] – ابن الشماع، مصدر سابق، ص91.

[2] – الزرهوني، ملعبة الكفيف، تح: محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1987، ص 24.

[3] –ابن الشماع، مصدر سابق، ص110.

توحيد الدولة الحفصية بعد أن كانت مقسمة إلى قسمين بجاية وتونس، الأمر الذي ساهم في ازدهار الاقتصاد الحفصي من خلال إبرامه العديد من المعاهدات التجارية مع دول أروبا[1]،كما وجه السلطان عنايته واهتمامه بالأسطول البحري وحرص على زرع الأمن بالبلاد والطرق حسب قول ابن قنفد" وأصلح ما هدم وأسكن ما تزلزل"[2].

وفضلا عن ذلك فقد أشادت مصادر الفترة بشيم هذا السلطان وفضائله على رعيته فعلى سبيل المثال قول ابن الشماع "ومن فضائله وبره برعيته أنه كان يقيم القراءة بالأسبوع بالمقصورة غربي جامع الزيتونة في كل يوم"[3] ولم تستثن مصادر الوقت ما قام به الأمير لصالح رعيته "رفع الضرر والتضييق على أهل قرطاجة وقت خروجه[4]،كما سُرَ به أهل قسنطينة من خلال إصلاحه ما فسد من الأمور بها وإخراجهم من الضرر الذي كانوا فيه[5]، ومن مناقبه زيارته لقبر شيخ المشائخ أبي مدين ووعده لله سبحانه وتعالى هناك أن لا يكافئ من عمل معه سوءا إلا بالخير[6].

وتعج مصادر الفترة بفضائل السلاطين الحفصيين تجاه رعيتهم من خلال السعي لإرضاء الرعية وتحسين المستوى المعيشي لهم، بسماع شكاياتهم وقضاء حاجياتهم فهذا السلطان أبو فارس عبد العزيز (797-838هـ/1394-1434م) الذي قام بالأمر أتم قيام وحسبنا في ذلك قول ابن قنفد "بويع...على رضا الناس، رتب الأحوال، وجعل في كل خطة من يصلح لها، وظهرت الدولة الحفصية أتم ظهور، وتضاعف الفرح بها والسرور"[7]، ومما يعزز الطرح أكثر ويعظم فضائل هذا السلطان على رعيته شهادة الزركشي في قوله "فاستقامت الأمور بتونس في أيامه كلها أحسن إستقامة"[8]، كما كانت

---

[1] - ابن الشماع، مصدر سابق ، صص110-111.

[2] - ابن قنفد، الفارسية، ص 177.

[3] - ابن الشماع، مصدر سابق، صص110-111.

[4] - المصدر نفسه، صص 110-111.

[5] - ابن قنفد، الفارسية، ص 184.

[6] - المصدر نفسه، ص184.

[7] - المصدر نفسه، صص190-189.

[8] - الزركشي، مصدر سابق، ص115.

له التفاتة طيبة في تشيد الكثير من المرافق ذات الطابع العمراني المدني والديني التعليمي، وذاع صيته في العالم الإسلامي، بفضل التبرعات التي كان يقدمها إلى المؤسسات الدينية في جميع المدن الإسلامية بما في ذلك القاهرة والحرمين الشريفين[1].

وأحدث الكثير من الإجراءات من أجل الحماية والأمن والسلام، بانجاز العديد من المحارس التي ثبطت عمليات القرصنة والتي أدت إلى ثراء العديد من أصحاب المدن[2] فمن المحارس نذكر"...ومنها بناؤه محارس جملة تحوط ثغور المسلمين كمحرس ءدار والحمامات وأبي الجعد ورفراف وغير ذلك..."[3].

ا- دورهم في أيام المحن والشدائد وفي رفع الضرائب والمفاسد:

لا شك أن المتصفح للمصادر الحفصية المتوفرة حول سير السلاطين الحفصيين يكشف دون عناء حجم الجهود والمساعي المبذولة من طرف أمرائها في سبيل تحسين ظروف وحياة أفراد المجتمع الحفصي، خاصة في أوقات المحن والأزمات الاقتصادية، بتطبيق سياسة محاربة الفساد والغش، ومنع المعاملات التجارية غير القانونية(القرصنة)، وكبح جور وظلم الولاة الذين يقومون بفرض جبايات و مغارم مجحفة في حق فقراء وبؤساء ضعاف الدخل.

فالإسلام أقر كفالة الغني للفقير وجعل بواعث التعاطف والتراحم والتساند أوثق عروة، والخلفاء الحفصيون كان لهم دور بارز تجاه فقرائهم ومحتاجيهم وعليه يمكن أن نتساءل حول نوعية تلك المساعدات والخدمات التي باشرها الخلفاء لأجل التخفيف من معاناة تلك الشرائح المهمشة في المجتمع ؟.

---

[1] – روبار برانشفيك، مصدر سابق، ج1، ص247.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص 445.

[3] – الزركشي، مصدر سابق، ص 116.

فيدون في هذا الباب أهم التدابير، وحجم المعونة، ومقدار تكافل السلطة لرعيتها أيام المحن والشدائد التي ضربت المغرب الحفصي، خاصة في أوقات المجاعات والقحوط وطول فترة الحروب والفتن.

جرت العادة لدى سلاطين الدولة الحفصية حسب ما أشادت به الكثير من مصادر المرحلة، الوقوف بجانب أفراد مجتمعها زمن المسغبة أو الحصارات وما شابه ذلك من الفواجع، فهذا السلطان أبو عمرو عثمان (839-894هـ/1435-1488م) كان له دور بارز عقب المجاعة التي ألمت بالشعب الحفصي سنة(862هـ/1460م)فحسبنا في ذلك شهادة الزركشي في قوله "وقعت بتونس مجاعة وغلاء في الطعام أصاب الناس فبلغ قفيز القمح أربعة دنانير ذهبا والشعير على الشطر من ذلك فشكى الناس قلة الطعام وغلاءه للسلطان فأمر بأن يخرج من المخزن في كل يوم ما يصنع منه ألف خبزة وتفرق على الفقراء بتونس بباب ينتجمي فابتدى بتفريقها في ثالث ربيع الثاني إلى رجب حتى كثر الطعام ورخص ثمنه"[1].

وقد تعددت أوجه المساعدات واختلفت، فشملت رفع المظالم ودفع الضرر، وتسريح أهل السجون، وإبطال الكثير من الضرائب و المغارم المسلطة أيام الشدة على الرعية، ومثال ذلك ما فعله السلطان الواثق يحي بن المستنصر خلال اعتلائه الحكم حسب قول ابن خلدون "فقد افتتح أمره برفع المظالم عن الناس، وتسريح أهل السجون و إفاضة العطاء على المحتاجين والفقراء، واهتم ببناء وإصلاح المساجد، وسعيا منه لدفع الحرج عن رعيتة لعدم تمكنهم من دفع الضرائب والمغارم أبطل الكثير منها، وأمر بإحراق دفاترها، وإزالة كثير من الوظائف عن الناس"[2].

[1] - الزركشي، مصدر سابق، ص 150.

[2] - ابن خلدون، العبر، ج6، ص433.

ولعل أبرز نموذج مساعدة ما فعله السلطان أبو يحي أبو بكر (718هـ/1318م) حسب شهادة ابن الشماع حيث قال كان السلطان"لا يقع بصره على مسجون إلا أطلق سراحه في الحين"[1].

ويبدو أن الخلفاء الحفصيين اتخذوا من الأعياد الدينية مناسبة لفك المساجين فهذا السلطان أبو عبد الله المستنصر(838هـ/1434م) وحسب قول الزركشي"قام السلطان يوم عاشوراء بإطلاق أهل السجون"[2].

كما برز دور الخليفة أبي فارس عبد العزيز(779هـ1394م) في رفع المظالم عن الخلق...وإزالة المنكرات "[3]، وأحدث الكثير من الإجراءات ذات الصبغة الدينية والاقتصادية مثل إلغاء كثير من الاداءات غير الشرعية الموظفة على التجارة والصناعة، وتركه العديد من المجابى لوجه الله سبحانه فمنها "مجبى سوق الدهانة وكان قدره ثلاثة ألاف دينار ذهبا في كل عام إذ كان كل من اشترى شيئا من أنواع الأمتعة واللباس يغرم نصف عشر الدينار"[4].

ورفع بعض المغارم على بعض الفئات حسب قول ابن الشماع"...وكذلك كان على الزفافين ،والغانيات مغارم فتركها عنهم وكذلك على المخنثين فتركها وأجلاهم من جميع بلاده لما بلغه عنهم من عمل المناكر فجميع هذه المجابي كلها تركها عنهم لوجه الله سبحانه"[5]، كما أمر بهدم الفندق الذي كان بباب البحر تباع فيه الخمر وكان مجباه عشرة ألاف في العام، فأقام بدله زاوية ومدرسة لطلبة العلم وحبس عليها ما يقوم بها[6].

[1] – ابن الشماع، مصدر سابق، صص88،77-89.

[2] – الزركشي، مصدر سابق، ص 132.

[3] – ابن قنفد، الفارسية، ص 195.

[4] – الزركشي، مصدر سابق، ص 116.

[5] – المصدر نفسه، ص 117,

[6] –ابن قنفد، الفارسية، ص196/ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 116.

كما لا ننسى الخدمات الجليلة التي قدمها أبو الحسن المريني اثر حركته إلى تونس فباشر برفع المظالم على المظلومين والمسجونين بغير حق ورفع المكوس والضرائب الجائرة[1] وإلغاء الاداءت التي يستخلصها الأعراب الرحل من المقيمين، سواء في المدن أو في الأرياف، بمقتضى الاقطاعات الحكومية أو العرف الجاري، وعوضهم عن استخلاص الجباية في بعض المدن، بعطايا عسكرية تدفعها الخزينة لهم مباشرة[2].

ب–تقديم خدماتهم للفقراء والمحتاجين:

لدينا من القرائن ما يدل و يكشف عن صفات السلاطين وحبهم لفعل الخير والبر بفقرائهم و محتاجيهم، فهذا السلطان أبو يحي أبو بكر كان حليما رحيما برعيته،كان كثير التصدق، حسب قول ابن الشماع "وتصدق بمال جزيل"[3]، كما روي عنه أن من محامده خجله واحترامه للمرأة التي أرضعته فكان لا يردها إن سعت في حاجة ما إليه، حسبنا في ذلك ما رواه ابن قنفد في قوله"ومن محامد أحواله أن المرضعة التي أرضعته كانت يتوسل بها في بعض الحوائج فإذا أرادت حاجة كشفت عن ثديها وجعلته في كفها ودخلت عليه، فكان إذا رآها غض بصره، وقال " اقضوا حاجتها"[4]،كما كان لا يرد من يأتي إليه ساعيا في أمر ما، مثل حفيد الشيخ الفقيه أبي علي عمر الجبالي الذي كان يضع السوط الذي كان الفقيه جده يضرب به الخليفة أيام التعليم على كتفه الأيمن ظاهرا، فإذا رآه أحسن إليه وقضى حاجته، ومن خصاله الحسنة أيضا وصدقاته المؤبدة، تحبيسه الربع المعتبر على الجامعين بقسنطينة[5].

---

[1] – الزرهوني، مصدر سابق، ص24.

[2] – روبار برانشفيك، ج1، صص198-199.

[3] – ابن الشماع، مصدر سابق، ص91.

[4] – المصدر نفسه، ص91

[5] –ابن قنفد، الفارسية، ص 162.

أما السلطان أبو العباس أحمد بن أبي بكر فقد كان من شيمه السؤال عن الأقوام المخصوصين والمحتاجين لأجل مساعدتهم[1]. ومن فضائله أيضا ما أوقفه من أوقاف مؤبدة كإنشائه السبالة ببطحاء الشيخ ابن مردوم بداخل باب قرطاجة، وأوقف عليها أوقافا جليلة، فعم النفع بها جميع الناس[2].

وتظل فضائل السلاطين تجاه رعيتهم من فقراء وبؤساء متواصلة خلف عن سلف، فنجد السلطان أبا فارس الذي قام بالأمر أتم قيام حسب ابن قنفد " ...وأعطى الأموال، وأكرم من كان مكرما عند والده"[3]، كما كانت لهذا السلطان التفاتة طيبة في تشيد الكثير من المرافق ذات الطابع النفعي التي عادت بالنفع على السكان حسب شهادة الزركشي"وأحدث في أيامه بتونس حسنات ذات طابع ديني ونفعي منها:بناؤه لزاوية باب البحر من تونس بعد أن كانت بقعة معدة للمعاصي مجبلها للمخزن عشرة ألاف دينار ذهبا في كل عام ومنها بناءه للسقاية خارج الباب الجديد من تونس ترده الناس والدواب وأوقف عليه أوقافا تقوم بها...، ومنها بناءه للماجل ...وهو من الأبنية الضخمة التي قل أن يبنى مثلها وأخرج منه سبيلين أحدهما للشرب للعاطش"[4]. ويصف ابن قنفد في موضع آخر ما أحدثه السلطان من خدمات لرعيته إذ يقول "...لأن أمير المؤمنين –أيده الله –بنى دولته السعيدة على مركز الحق،...وبذل المال الكثير للضعفاء، والواردين عليه من الشرفاء، وإزالة المنكرات، والأخذ مع ذوي الحاجات، والتفقد للأمور، والقرب من الخاصة والجمهور"[5]، أما عن كرمه وسخائه فكان كثير الصدقة محبا للخير وأهله، ومثال ذلك صدقته لأهل الأندلس، فقد كان يقوم بإرسال مداخيل العشر[6] والكثير من الطعام و غيرها من الحاجات الضرورية كإعانة لهم على عدو الدين[7].

---

[1] – ابن قنفد، الفارسية، ص 183.

[2] – ابن الشماع، مصدر سابق، صص 110-111.

[3] –ابن قنفد، الفارسية، صص 190-189.

[4] – الزركشي، مصدر سابق، ص 116.

[5] –ابن قنفد، الفارسية، ص 195.

[6] – روبار برانشفيك، مصدر سابق، ج1، ص 258.

[7] – ابن الشماع، مصدر سابق، صص 113-114.

أحدث الكثير من الإجراءات ذات الصبغة الدينية كإنشاء مؤسسات المرستان للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين، إضافة إلى إنجازه لأحدث الأشغال المائية[1].

ولاشك أن هذا الشبل من ذلك الأسد، إذ سار السلطان أبو عبد الله على نهج والده أبي فارس بتقديم خدماته للمحتاجين حسب ما ورد ذلك في المصادر" كان رحيما موصوفا بالعفاف، محبا في الخير وأهله، مجبولا على فعله، مواضبا على أفعال البر، أنشأ زاوية سيجوم في غاية الحسن والإتقان، وعمل فيها جامعا للخطبة، وأسس بها رباطا لسكنى طلبة العلم، وأوقف عليها حبسا كبيرا، وجعل فيها سماطا للمقيمين بها والواردين عليها، فعم النفع بها وكان نعم العون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جبله الله على فعل الخير والمسارعة إليه[2].

كما أسهم السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر(838هـ/1434م) في تقديم خدمات عظيمة لرعيته فمن خصاله أنه كان رحيما، محسنا عفيفا حليما بشعبه جواد يحوى كثيرا من خصال الخير، اخرج مالا كثيرا تصدق به على أهل المدارس والزوايا وذوي الحاجات والمرضى والمزمنين والأرامل والأيتام ووجه مالا جليلا لأهل الأندلس وأمر ببناء زاوية الشيخ الصالح الولي سيدي أحمد بن عروس، و بنى سقاية الماء بداخل باب أبي سعدون وأوقف عليها ما يكفيها[3]، وشهادة الزركشي تكفي في ذلك"السلطان قام بالتصدق بالأموال الكثيرة على الفقراء والمساكين وطلبة العلم، كما زار قفصة وهو مريض وأمر بصدقة المال على الفقراء والمساكين وطلبة العلم[4].

ويبدو أن السلطان أبا عمرو عثمان أخذته الرأفة على رعيته فأمر ببناء قلاع بجامع الزيتونة ليقي الناس من حر الشمس[5]، كما قام بإكمال المدرسة المستنصرية التي بدأ بناءها أخوه السلطان المنتصر بسوق الفلقة بتونس، و بنى المدرسة و الزاوية بجوار دار صولة وأمر ببناء السبالة الكائنة بداخل باب

---

[1] -روبار برانشفيك، ج1، ص 445.

[2] - ابن الشماع، مصدر سابق، صص117-118.

[3]- المصدر نفسه، ص 120.

[4] - الزركشي، مصدر سابق، ص 132.

[5] -المصدر نفسه، ص155.



أبي سعدون سبيلا للناس والدواب[1]. وأمر بالسبيل قرب المارستان، وبناؤه للساقية بإزاء باب الجبيلة، وكذا إقامته لخزانة الكتب الكبيرة، وتحبيسه للكتب داخل المقصورة بمختلف تخصصاتها، وبناؤه لزاوية الفندق فوق غابة شريك وجعلها ملجأ للمبيت للواردين من الغرباء من تونس والقيروان ومختلف البقاع، وعدة زوايا أخرى يصعب تعدادها [2]، وبنى إلى جانب مدرسته التي بناها بزنقة الشيخ الولي سيدي محرز بن خلف مسجدا للصلاة، وأوقف عليها وقفا يكفي من بها من الغرباء وغيرهم، وجعل فيها سماط مستمرا يتصدق كل يوم على المحتاجين وجعل فيها ماء للسبيل مستمرا[3].ومن مآثره أيضا بناؤه لزاوية الزميت في موضع خوف وقفر على طريق المسافر من تونس مغربا، وجعل بها جامعا للصلاة ودرسا لقراءة العلم وأوقافا للمقيمين بها دائما والوافدين عليها، كما بنى ميضأة للوضوء في غاية الإتقان بدرب ابن عبد السلام وأوقف عليها أوقافا مؤبدة فكان فيها منفعة عظيمة[4]، ومن كرمه أنه كان يخصص صدقة جارية في كل عام لأهل الأندلس متبعا في ذلك سبيل آبائه وأجداده الكرام وهو السلطان الذي كان منتهى أوج الدولة الحفصية[5]. ومن مآثره أيضا السفر مع المسافرين لركب الحجاج لردع اللصوص[6].

2-مساعي الفقهاء والصلحاء والوجهاء الحفصيين لأجل الرفع من المستوى المعيشي ومواجهة الفقر:

إن الظروف التاريخية التي عرفتها إفريقية خلال الحقبة الحفصية لعبت دورا كبيرا في ظهور أزمات واضطرابات اجتماعية، جعلت من فئة الفقهاء والصلحاء والوجهاء الحفصيين تسعى بشتى الطرق المادية أو المعنوية لأجل تحسين أوضاع الطبقات الدنيا من المجتمع.

---

[1] - الزركشي، مصدر سابق ، صص135-136./روبار برانشفيك ، ج1، ص272.

[2]- الزركشي، مصدر سابق، صص135-136.

[3] - ابن الشماع، مصدر سابق، ص 122

[4]- المصدر نفسه، ص126

[5] -المصدر نفسه، ص126.

[6] -المصدر نفسه، ص132.

أ-دورهم في تقديم المساعدات المادية للفقراء:

لم يكن فقهاء العهد الحفصي بمنأى عن المشاركة في مصالح مجتمعهم، سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الفكري، إلا أن المصادر أحجمت عن ذكر دورهم تجاه الفئات الضعيفة ما عدا بعض الإشارات المقتضبة هنا وهناك بين متونها وعليه فسنرصد بعض المواقف المشرفة لهم تجاه هذه الفئات فمنهم الشيخ الفقيه الجليل، العابد المتقي، أبو النجم هلال بن يونس بن علي الغبريني، كان من أهل الجد والاجتهاد ومن أهل العباد، له جاه ووجاهة اقتضاهما منصبه الرفيع وعرف عنه أنه كان يصرف أكثر مستغلاته من أرضه لوجه الصدقات[1] رجاء كسب رحمة وثواب الله، كما كان الشيخ أبو القاسم أحمد بن الشيخ سعيد، منقادا إلى فعل الخير ببثه الصدقات في أهل الحاجات وبذل المعروف إلى المعارف[2]. كما بادرت الولية الصالحة أم العلاء العبدرية بتقديم مساعدتها لهذه الفئات المستضعفة حيث يذكر أن من حسناتها تبرعها بما تتقضاه من أجرة عملها في التعليم، وما كان يصلها من الجوائز الملكية الحفصية لصالح الفقراء والأسرى المسلمين[3].

كما ورد عند صاحب التشوف أن الفقيه أبا زكريا الزواوي (ت611/1214م) اكترى فندقا من العامل بنحو ثلاثمائة دينار أيام مجاعة ببجاية وصفها بالشديدة ثم مر إلى أعيان بجاية فكلمهم واحدا بعد واحد في معونة المساكين، "فيدفع كل واحد منهم ما يطيقه... ثم مشى بطرقات بجاية، فكلما مرّ بمسكين قال له: اذهب إلى الفندق الفلاني. فلما اجتمع المساكين بالفندق اشترى لهم من اللباس ما يدفع عنهم البرد واشترى لهم ما يقوم بهم من الطعام وجعل عليهم قيما يقوم بهم وأغناهم عن السؤال"[4]. ومن جهة أخرى يذكر الونشريسي في أحد نوازله " أن رجلا من أكابر التجار وذوي

[1] – الغبريني، مصدر سابق، ص 185.

[2] – ابن قنفد، الفارسية، ص 147.

[3] – نبيلة عبد الشكور، إسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي، (النصف الثاني من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن التاسع للهجرة)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، الجزائر، 2008، ص331.

[4] – ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص429.

الأموال الطائلة أوصى رجلا بأن يتصدق بمبلغ مائة وخمسين دينارا من الذهب وأنها كانت أمانة بيده ثم علقها بذمته على الفقراء والمساكين" [1].

كما ذكر ذات المصدر في إحدى النوازل فيما يخص جواز شراء الطعام للفقراء من الزكاة أيام المسغبة، "فقد سئل الشيخ القابسي عمن وجب عليه زكاة، فربما جاز به الرجل المريض والمرأة المريضة والصبي من هؤلاء الضعفاء وهو يصيح من الجوع، فهل يجوز أن يشتري لهم الخبز ويعطيهم؟ فأفتى بإجازته"[2]. كما أفتى الزواوي عمن يملك أرضا لا تكفيه في معاشه يعطى من الزكاة مادام محتاجا لها وهو تسهيل منه لعسر الشخص وحاجته[3].

ب-دورهم في قضاء الحوائج لدى الحكام:

سعى فقهاء الدولة الحفصية إلى التوسط لدى الحكام الحفصيين، لأجل المساهمة في حل مشاكل الرعية وقضاء حوائجهم، فهذا العالم يوسف بن يعقوب البويوسفي (الملاري) ،كان كثير التردد على باب الأمير بقسنطينة لقضاء حوائج الناس[4].

كما كان العالم الكبير أبو عبد الله الرعيني ثم السوسي شيخ الأمير أبو زكريا، حسن الواسطة بين الناس الضعاف والأمراء، كان قاضيا لحاجات الناس مقبول القول عند الملوك وقيل فيه " أحب الأشياء إلى الشيخ أبي عبد الله السوسي المشي في حاجة الطالب على رجليه"[5].

وكان الشيخ المعظم أبو سعيد ابن أبي زيد من بني أبي زيد الكبار بالمغرب، كان أحد الأخيار حسن الواسطة كثير التغافل عن الهفوات عظيم العناية بمن لاذ به، محسنا للفقراء لا يدل إلا على

---

[1] – الونشريسي، المعيار، ج6، صص 5-6.
[2] – المصدر نفسه، ج1، ص542.
[3] – المصدر نفسه، ج1، ص546.
[4] – عبيد بوداود ، مرجع سابق، ص 251.
[5] – ابن قنفد، الفارسية، ص 126.



الخير، ولا يسعى إلا في مصلحة، توفي في(673هـ/1275)[1]،وعرف الشيخ الصالح أبو مسعود بن عريف من جبال شلف بتقديم مساعداته للضعفاء، ولد سنة(630هـ/1232م) كان بحضرة السلطان أمير المؤمنين أبي بكر الحفصي سنة(711هـ/1415م) بقسنطينة، فوضع الله له القبول عند الأمراء الحفصيين، فكان لا يرد له حاجة عندهم "وأعانهم على ما يرضاه منهم، وعند ولاتهم في قضاء الحاجات وقبول الشفاعات وكف المدعى بالجنايات، فكان يدخل بذلك على المكروبين المسرات"[2].

ومما يحكى عنه أنه حضر عند السلطان أبي العباس بالجامع الأعظم بقسنطينة، وطلبه في حوائج قضاها كلها إلا واحدة في تسريح مسجون تردد السلطان فيه وعسر عليه إطلاقه"فقال له الشيخ والله فان لم تطلقه لا خرجت عنك إلا غير طيب" فأبى السلطان وخرج الشيخ ولكن بعد تفكير من السلطان، أعاد الشيخ أبي مسعود وقال له"لا تأخذ علينا يا سيدي ونحن أولادك ...ثم قضى له الحاجة "[3]،كان كثير المسعى في حوائج الناس، والوقوف إلى باب السلطان في ذلك، وقال له الحاجب يوما "أكثرت من هذا فلا تعد، فسكت عنه، فخرج فلقيته امرأة وكلمته أن يرجع، فرجع في حاجتها إلى الحاجب فأعلمه، فقضى حاجته وقال له"يا سيدي لا تتأخر عني في حاجة"وقد توفي سنة(749هـ/1450)[4].

وكان كذلك الشيخ أبو هادي فارس، يقبل عطاء الأمراء وجوائز العمال، ويطلب ذلك ويوسع بها على المحتاجين وعلى تلامذته ولما توفي رفع كثير من متروكه لبيت المال لأنه لم يظهر له وارث وكان قد أوصى بذلك[5].

---

[1] – ابن قنفد الفارسية، ص 133.

[2] –ابن قنفد، أنس الفقير وعز الحقير، صص 40-44.

[3] –المصدر نفسه، ص44

[4] –المصدر نفسه، ص46.

[5] –المصدر نفسه، ص 52.

وإجمالا، يمكن القول أن مساهمة السلاطين والفقهاء الحفصيين تجاه الفئات الفقيرة داخل المجتمع الحفصي، كانت ضمن انشغالاتهم الاجتماعية، فقد عكفوا على توفير لهم الأمن والسلم، وتقديم لهم بعض الخدمات كوقف لهم أوقاف مدى الحياة وبناء لهم بعض المرافق الصحية كبيرماستانات لأجل التداوي والعلاج فيها.

ثالثا: المغرب الأقصى:

1-مساعي بعض السلاطين المرينيين لتحسين المستوى المعيشي وبث الأمن والاستقرار:

إن الدارس للواقع الاقتصادي في المغرب الأقصى في العهد المريني، يدرك مدى حرص واهتمام سلاطين الدولة على انتعاش وازدهار اقتصادها، بهدف تحسين المستوى المعيشي للسكان، وبالرغم من تواتر الفتن والغارات النصرانية، إلا أنهم استطاعوا تحقيق الأمن والاستقرار خلال بعض الفترات على حد تعبير صاحب البيان لما ذكر قيام بني مرين في قوله"...فما قدموا عملا من الأعمال قبل تمهيد البلاد، والضرب على أيدي أهل الضرر والفساد، فأمنوا السبل، وسدوا الخلل، فاتسعت أحوالهم، وانبسطت آمالهم، فصار أهل تلك البلاد يعظمونهم غاية الإعظام، ويعاملونهم بالبر والإكرام"[1]، فقد كان لبني مرين جنوح إلى الخير ومحبة الرعية خاصتها وعامتها، وكان أكثر من شجع واهتم بعلو كعب الدولة المرييينية الأمير أبو محمد عبد الحق الذي كان معروفا بين عشيرته بالورع والعفاف والصلاح، ومما قيل فيه أيضا أنه "مخلص العهد مع رعيته، وقاهرا لأعدائه حفاظا على سلامة وأمن دولته"[2].

كما نحى منحاه ابنه الأمير عثمان بن عبد الحق في شدته وعزمه على بناء صرح الدولة المرينية، فهذا الأمير ردَّ الاعتبار لدولته والنظر في مصالح رعيته فبادر بأخذ البيعة من القبائل المجاورة لحفظ الأمن مستخدما أسلوب الترغيب والترهيب فمن أطاعت له أمنها وألزمها الخراج وأخرج لهم الحفاظ،

[1] – ابن عذارى المراكشي ، مصدر سابق، صص 388، 356/ينظر: المنوني، مرجع سابق، ص 19.

[2] – ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، ص 30.

ومن كانت غير ذلك فتح بلادها بالقوة[1]، فحسب قول ابن أبي زرع" فلم يزل على السنن قويم، والهدي المستقيم، حتى أتاه اليقين"[2].

وبالمثل واصل السلطان أبو بكر بن عبد الحق (642هـ/1244م) والذي يعتبر في نظر بعض المؤرخين المؤسس الحقيقي للدولة المرينية، بعث دعائم الدولة، وسعى إلى تنظيم البلاد إداريا، وماليا، وسياسيا، مما مكن للدولة تأسيسا واستمرارا، فقد عمل على تقسيم البلاد المرينية بين قبائلها حتى يستتب الأمن ويعم الرخاء، وصاحَب هذا الإشراف الإداري تكليف مالي، حيث أصبحت كل قبيلة مسئولة عن جباية المنطقة التي تتبعها، وكان على شيوخ القبائل مهمة تنظيم الفرسان والعناية بتوفير المقاتلين حتى أصبح حسب قول ابن زرع" أول ملك في بني مرين جند الجنود، وضرب الطبول ونشر البنود وملك الحصون والبلاد واكتسب الطارف و التلاد...فكان عنوان سعد بني مرين"[3].

وفي عهده تم الاستيلاء على مدينة فاس التي كانت تحت سيطرة الموحدين، فعمها الاستقرار والتنظيم المحكم، مما أدى بالناس إلى عمارة القرى والمداشر والإسكان بالبسائط، وحراثة الأرض، وبذلك صلحت أمور الناس واغتبطت النفوس، وتهدنت البلاد، و تأمنت الطرقات، وكثرت الخيرات، وتحركت التجارة، وأصبحت فاس عاصمة ومركز حكم الدولة المرينية[4].

والظاهر أن فترة الأمير يعقوب بن عبد الحق (656هـ/1258م)تميزت هي الأخرى بالانتعاش الاقتصادي وحسبنا في ذلك قول صاحب الأنيس" في السنة التي ولي فيها الأمير يعقوب زمام الحكم أنزل الله تعالى على أهل المغرب البركات، وفتح عليهم بالخيرات، فرأى الناس فيها من الدعة والخير ما لا يوصف ولا يقوم أحد بشكره، بيع الدقيق فيها بمدينة فاس وغيرها من بلاد المغرب ربع بدرهم، والقمح ستة دراهم للصحفة والفول وجميع القطاني مالها سوم، ولا يوجد من يشتريها، والعسل ثلاثة

[1] - ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب، ص288-289.

[2] - ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية، ص 37.

[3]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، صص 296،291/ الذخيرة ، ص83.

[4] - عمر سعيدان، بنو مرين بالمغرب وعلاقاتهم باسبانيا القطلانية، ط1، منشورات سعيدان، تونس، 2003، ص22.

أرطال بدرهم، والزيت أربعون أوقية بدرهم، والكبش بخمسة دراهم، والزيت درهم ونصف للربع، والتمر ثمانية أرطال بدرهم، واللوز صاع بدرهم، و الشابل الطري فرد بقيراط، والملح حمل بدرهم، وذلك ببركة ويمن خلافته وحسن سيرته ونيته"[1] .

ما عرف عنه أنه كان كريم جواد ذو حزم وعزم في سياسة الرعية، قاهرا للطغاة المفسدين، متوقفا في سفك الدماء[2]، ومن أعماله طرده للنصارى الاسبنيول من مدينة سلا وبناء السور الغربي لتأمينها من خطرهم، وقد شارك بنفسه في هذا البناء ابتغاء ثواب الله وتواضعا وسعيا في صلاح المسلمين، كما عمل على ضم مدينة مراكش سنة(668هـ/1269م)[3] بعد القضاء على آخر حاكم موحدي أبي دبوس[4]"وبه قطع ملك الموحدين ومحا أثرهم، واستقام له الأمر وفتح البلاد من أقصى السوس إلى وجدة، فكان السلطان الذي حمى الإسلام وشتت الصلبان وغزى الروم فدوخهم وقهر ملوكهم"[5].

فتم له ملك المغرب واستقر أمر البلاد والعباد، وتأمنت الطرقات، وأذعن الناس إلى الطاعة، حسب قول ابن زرع "فلا ثائر ولا قاطع، ولا مفسد ولا ملحد"[6]، وبذلك دانت له جميع أراضي المغرب الأقصى، ولم يبق له معقل يدين بغير دعوته[7].

أثمرت رغبة السلطان في الجواز إلى الأندلس لمواجهة خطر إسبانيا النصرانية وتأكد ذلك بسيطرته على مدينة رندة وطريف والجزيرة الخضراء[8]، وقد تكرر جوازه عدة مرات حقق من خلالها عدة

---

[1] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 302.
[2] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص 210./ ينظر: السلاوي ، ج3، ص 20
[3] –ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص307.
[4] – السلاوي، ج3، ص21/ ينظر:ابن زرع، الذخيرة، ص 62.
[5] – ابن زرع، الأنيس المطرب، ص299,
[6] –المصدر نفسه، ص 307.
[7] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص 223.
[8] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 314.

انتصارات[1]، منها انتصارين في سنة(678هـ/1279م) وسنة(684هـ/1285م) أثبت فيهما تفوق البحرية المريينية[2] حتى قيل فيه

فَأَمَنَ الغَرْبَ منَ الفَسَاد ***** وَنَشَرَ الْعَدْلَ عَلَى العبَاد

وَلَمْ يَدَعْ فِي الْغَرْب منَ يَجُور ***** وَزاَلَت الأَهْوَال وَالفُجُور

وَرَفَعَ الظُلْمَ عنْ الرَعيّة ***** وَقَمَعَ اَلطُغَاة فِي البَرِيَة [3].

أما السلطان يوسف (685هـ/1288م) فقد انصب اهتمامه على توزيع الأراضي للقبائل الموالية له في نواحي المغرب فعملوا على استصلاحها واستثمارها [4]، وقام بإجراءات وقائية رادعة للحد من عبث بعض القبائل المستقرة و المتسلطة على جهات المغرب[5]وخير مثال لذلك تأديبه لعرب المعقل بصحراء درعة لأنهم كانوا يقومون بقطع طريق سجلماسة[6].

وكان من أهم أعماله حصاره لتلمسان عاصمة بني عبد الواد مرتين عام (689هـ/1299م)[7]وعام(698 هـ/1300م) الذي دام مائة شهر، ونحن هنا لا نخوض في أسباب الحصار وتفاصيله وإنما نود أن نشير إلى أهم الانتصارات التي خدمت رعيته وشعبه، حيث استطاع هذا السلطان السيطرة على جميع مدن المغرب الأوسط وجميع بلاد بني عبد الواد وبلاد توجين ومغراوة[8].

---

[1] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 325.

[2] – عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص 199/ ينظر: ابن زرع، الأنيس المطرب، ص341.

[3] – المصدر نفسه، ص 301.

[4] – ابن خلدون، العبر، ج7، ص 171.

[5] – المصدر نفسه، ج6، ص 307.

[6] – ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص 378.

[7] –السلاوي، ج3، ص 69.

[8] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 386.

وما يبين سعة الرزق وحسن أحوال بيت المال خلال فترة حكمه بناءه لجامع بتازا سنة(693هـ/1295م) والذي علقت به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثلاثون قنطارا، فقد كلف إقامته حوالي ثمانية ألاف دينار ذهبا[1].كما التفت إلى بناء ما يخدم رعيته وما يحتاجونه في حياتهم اليومية على حد تعبير صاحب الذخيرة " بنى بها حماما عظيما وأمر عماله ببناء الدور بها...، وأمر ببناء المدرسة لطلبة العلم فبناها"[2] .

كان لاهتمام السلطان يوسف بالناحية الزراعية آثار ايجابية على دولته ورعيته، فقد تخلل ذلك الازدهار تنوع الإنتاج الزراعي ونشاطه كزراعة القمح والشعير في السهول الغربية وعلى الأودية الشمالية الشرقية مثل مدينة فاس ومنطقة دكالة، ومدينة سلا التي اشتهرت بزراعة القطن والكتان[3].

والظاهر أن نباهة السلطان يوسف جعلته يلتفت ويوجه نظره إلى قطاع الصناعة كذلك، وخاصة الصناعة الحربية لمواجهة الأخطار لاسيما أن حدوده الشمالية والغربية كانت دائما عرضة للاعتداءات الخارجية، ولهذا كان تركيزه الكبير على صناعة السفن مثل دار صناعة السفن بسلا[4]، كما اهتم أيضا بصناعة الأسلحة النارية كالمنجنيق[5].

ويبدو أن قطاع التجارة ظل ركنا أساسيا في برامج السلاطين المرينيين لأن التجارة تعتبر ركيزة الاقتصاد، فقد أولى السلطان يوسف عناية كبيرة بها ويظهر ذلك من خلال إجراءاته تجاه التجار فقد أمن لهم الطرق بصرف عنهم عرب المعقل بصحراء درعة[6]، وجعل رؤساء على التجار يسمون

[1] – السلاوي، ج3، ص76/ ينظر:ابن زرع الفاسي، الذخيرة السنية، ص 162.

[2] –المصدر نفسه، ص162.

[3] – المنوني، ورقات، ص 111.

[4] – محمد شريف، سبتة الإسلامية، ص 49.

[5] – نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي، الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، جامعة الموصل، 2004، ص 106.

[6] – ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص 378.

بالأمناء[1]، وعمل على بناء الأسواق على حد تعبير صاحب الذخيرة "وبنى في المدينة الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة"[2]، مثل سوق مدينة المنصورة بتلمسان فقد امتلأت بالتجار من جميع البلدان[3].

و تدعمت علاقاته التجارية مع الممالك الإسبانية النصرانية التي سعت في طلب الحبوب المغربية بكميات كبيرة ذات الجودة العالية، الأمر الذي أدى به إلى تحديد سعرها دون تخليص الرسوم عليها، وهو أمر محفز للنهوض بالاقتصاد المريني[4]، فضلا عن تصدير مواد أخرى كالجلود والأصواف والمنسوجات وفق اتفاقيات ومعاهدات مع مصر والحفصيين وجنوة الايطالية والمشرق[5]، وهي علاقات فسرت ووضحت مدى نجاح التجارة التي عادت بالفائدة على الاقتصاد المريني وبالتالي تحقيق الرخاء وتحسين المستوى المعيشي للسكان.

أما في المجال العمراني فقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران خلال فترة حكمه ومن أهم ما دشنه بنائه مدينة المنصورة عام(700هـ/1300م) بجانب تلمسان المحاصرة وأحاطها بسور وأسواق ودور عظيمة ومارستان ومسجدا[6].

وتنامت جهود ومساعي سلاطين بني مرين نحو تحقيق الأمن والرخاء للرعية، فهذا الأمير أبي سعيد عثمان المريني (710-731هـ/1310-1331م)، كانت أيامه كلها خير وبركة للرعية ،صلح

---

[1] – نعيمة هراج التوزاني، الأمناء بالمغرب في عهد مولاي الحسن، مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة فضالة، 1979، ص 135./ينظر: حمدي عبد المنعم، مدينة سلا في العصر الإسلامي –دراسة التاريخ السياسي و الحضاي، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ص 65.

[2] – ابن زرع، الذخيرة، ص162.

[3] –ابن خلدون، العبر، ج7، ص 221.

[4] –نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي، مرجع سابق، ص 108.

[5] – المرجع نفسه، ص 109.

[6] – السلاوي، ج3، ص80.

حالهم وكثرت خيراتهم فكانت الرعية بحمد الله بها في "جنات ذات منزل رحب، ومنزل عذب، وظل ظليل، وحرز كفيل، وخير كامل، فكان متخذا الحق في إمامته، رافعا لدعوة المظلوم حجابه"[1].

كما وجه عنايته إلى تطوير الأسطول البحري لمواجهة المد الاسباني النصراني فأمر ببناء الأجفان(السفن)بدار الصناعة بمدينة سلا برسم جهاد الفرنج[2]. وكان قد أمر ببناء حصن تاوريرت وبناء سور مدينة كرسيف كحماية لمرافق دولته، ومن محاسنه صلته الطيبة بالفقهاء والصلحاء والوجهاء، بتقديم لهم الأموال و الزروع وقضاء حوائجهم متى طلبوا ذلك[3].

وكان حال السلطان أبو الحسن المريني (731-752هـ/1331-1351م) لا يقل عن سابقيه من السلاطين في البر برعيته والسهر على توفير الأمن والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي لهم، فقد أشادت المصادر المرينية وغيرها بما صنعه من صنيع لرعيته، إذ شهدت فترة حكمة التوسع والقوة بمحاولته توحيد بلاد المغرب الإسلامي من خلال بسط نفوذه على كل من المغرب الأوسط والأدنى [4]، والتفت إلى بناء الأساطيل لمواجهة المد النصراني حسب قول السلاوي "إن الأساطيل التي سار بها في حملته بلغت الستمائة قطعة "[5] واهتم كذلك بتحصين القواعد البحرية في جبل طارق حسب قول ابن بطوطة "فتطوفت على الجبل فرأيت عجائب ما بنا مولانا أبو الحسن، وما عد فيه من العدد وددت لو كنت ممن رابط فيه طول العمر"[6].

ومن أهم أعماله الخيرية التي قدمها لرعيته تأسيسه لقبة العدل في كل من سبتة وتلمسان لسماع الشكايات ورفع المظالم حينما يكون بإحدى المدينتين، وكان يتولى الأمور فيها بنفسه، أو يعين من يثق به من كبار أهل حضرته من الوزراء والفقهاء مثل: الفقيه أبي عبد الله الرندي والسطي وابن

[1] - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 397.
[2] - السلاوي، ج3، ص104/ ينظر: ابن زرع، الأنيس المطرب، ص 398.
[3] -المصدر نفسه، ص400-401.
[4] -السلاوي، ج3، ص 155.
[5] -المرجع نفسه،ج3، 171.
[6] -ابن بطوطة الطنجي، مصدر سابق، ص211.

مرزوق[1]، وكان أثناء انتهائه من القراءة مع فقهاء حضرته ينتهي إلى الحديث عن ما يهمه من حوائج المستضعفين وقرى الواردين حسب قول ابن مرزوق"وفي غير يوم الركوب يجلس...، فتعرض عليه القضايا، ومهمات الشكايات"[2]وقوله أيضا فيه"وإن كثرت الشكايات ورقاع الوقائع، نترك كل عمل ونشتغل بقراءتها والتوقيع عليها الأهم فالأهم ، فكانت أوقاته كلها معمورة إما بعمل بدني أو تدبير في مصلحة"[3] .

ويبدو أن فترة السلطان أبي الحسن المريني تميزت بالرخاء وسعة الرزق على الناس وذلك لاهتمامه الكبير بجهاز العدالة فمما ورد في خصاله أنه كان يطبق حدود الله حتى مع أبناءه حسب ابن مرزوق "بلغه أن ابنه الأمير أبي مالك شرب الخمر فبحث عن ذلك حتى صح الأمر فأحضر القاضي وأقام عليه الحد فاقلع عن ذلك"[4]. وشهادة ابن الأحمر في عدله تثبت ذلك حسب قوله"كان عادلا في رعيته"[5].

وكان السلطان أبو الحسن عطوفا رحيما بأهل تلمسان حسب قول ابن مرزوق"فقابل جميع سكان تلمسان بالعفو، واسترد جميع ما صار تحت أيدي المنتهبة من اللصوص، ومثال ذلك أنه رأى رجلا من جيشه يحمل قطيفة انتهبها، فرماه برمحه، وأمر سائر خدامه وقواده بأن يفعلوا مثله في معاقبة كل من يجرأ على أخذ مال غيره من التلمسانيين، وأمر بالنداء بكف الأيدي ومن أخذ شيئا بعد هذا النداء كان عقابه القتل، فقد أحسن معاملة الضعفاء والصلحاء والعلماء والكتاب وحاشية السلطان الزياني[6].

---

[1] -المنوني، ورقات، ص 82./ينظر: ابن مرزوق، المسند الصحيح، صص 137- 173.

[2] – المصدر نفسه، ص137.

[3] -المصدر نفسه، ص 139.

[4] – المصدر نفسه، ص 142.

[5] -ابن الأحمر، روضة النسرين، ص 23.

[6] -ابن مرزوق، المسند الصحيح، 202.

كان من أهم أعماله الجليلة، تعمير طريق الحج للركاب والمسافرين من حضرته بفاس إلى مراكش وإلى تلمسان وإلى سبتة وغيرها من البلاد، "بخيام يأمر بسكناها على مقدار اثني عشر ميلا يسكنها أهل الوطن ويجري لهم في ذلك إقطاع من الأرض يعمروها على قدر الكفاية، يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم والمرافق التي يضطرون إليها هم وبهائمهم ويحرسونهم ويحوطون أمتعتهم، فكان المسافر لا يخاف في ذهابه وإيابه"[1].

وسار السلطان أبو عنان فارس(749-759م/348-1358م) على نفس النهج، فعمل على تجديد الأسطول المريني[2]، وصرف عنايته بالعلم وأهله فقد زود مدينة فاس بأكبر خزانة للمطالعة عرفتها العاصمة العلمية في عهد بني مرين[3]، ودشن المدرسة البوعنانية وهي من أجمل مدارس بني مرين وخصص لها أحباسا عديدة منها حمام ومنزل مجاور ورحى بجانبها وفرن وإسطبلات ودكاكين وحوالي أربعة وسبعين دكانا من أجل الإنفاق على طلبتها وأساتذتها وقومتها[4].

أما فترة السلطان أبو فارس(767-774هـ/1365-1372م) فاستطاع أن يعيد للدولة المرينية حيويتها بعد أن كادت تتلاشى فقد قضى على المستبدين بالدولة الذين زرعوا الفتنة في البلاد[5]، عمل على استرجاع الجزيرة الخضراء بعد أن كانت بيد النصارى[6]، واستطاع إعادة المغرب الأوسط تحت سيطرته وعمل على نشر الأمن والطمأنينة في وسط رعيته[7]، "كان محبا في الخير وأهله"[8].

ا-دورهم في أوقات المحن والشدائد ورفع الضرائب والمفاسد:

[1] - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 429.

[2] - المنوني، ورقات، ص 108.

[3] - ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص 132.

[4] - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ص 158.

[5] - السلاوي، ج4، ص 52.

[6] - ابن خلدون، العبر، ج7، صص 383-384.

[7] - ابن الأحمر، روضة النسرين، ص 43.

[8] -المصدر نفسه، صص 60،52.

لقد أدت الحروب بين الدويلات الثلاث(المريينين، الحفصيي، الزيانيين) وما انجر عنها من محن وخراب ودمار وجدب، بالإضافة إلى الفتن والمنازعات الداخلية التي يشهرها أولئك الخلفاء كل على الآخر حول السلطة، وكذا اعتلاء بعض الخلفاء الضعاف الحكم، خاصة مع نهاية عمر الدولة، وهو الأمر الذي مكن بعض الوزراء والولاة بفرض ضرائب و مغارم مجحفة أنهكت عاتق الرعية لاسيما ضعفي الدخل، بالإضافة إلى تأثير بعض الكوارث الطبيعية. إلى جعل إنسان المغرب المريني في وضع حرج، وسط محن وشدائد وظهور منكرات ومفاسد، ولكن هذا لا يعني أن خلفاء الدولة المرينية كانوا على نفس الوتيرة بل قيض الله منهم سلاطين عرفوا بصلابة الرأي وحب الخير والبر بالرعية زمن الشدة والمحنة، فكان لهم الاهتمام البالغ بشئون رعاياهم، فاتجهوا إلى إعمار المدن، وإصلاح البلاد، وفرض العدل وبعث الأمن، وتحبيس الأوقاف وبناء المارستان خدمة للمرضى، وصرف الأموال للمحتاجين والفقراء، ومدهم بالزروع أيام المجاعات و القحوط، وعمدوا إلى تشييد المدارس والمساجد، حتى ساد الأمن والنظام، وانتعش الاقتصاد في البلاد.

لاشك أن الحضور الفعال للخلفاء المرينيين زمن المحن والشدائد كان السمة الغالبة على معظمهم، فبقدر ما تعاظمت الشدائد والمحن على الناس تعاظم دورهم، فهذا السلطان يوسف الذي عرف بسخائه ومواقفه المشرفة أيام حدوث الأزمات والكوارث فقد بلغ عنه أنه كان يوزع الحبوب والمؤن عندما أصاب القحط البلاد وأطعم الناس خوفا من المجاعة عقب سنوات (687-693/1288-1293م)[1].

وبالمثل برز دور أمير المسلمين أبي سعيد عثمان المريني (710-731هـ/1310-1331م)، وذلك بتقديم مساعدات أيام الكوارث فقد تزامنت فترته مع قحط شديد، فاستسقى الناس له فخرج أمير المسلمين إلى إقامة صلاة الاستسقاء(711هـ-1312م)، فقدم بين يديه الصدقات لذوي الحاجات[2]، وعظم دوره أيضا من خلال تقديم مساعدات للناس إثر مجاعة (724-

[1] -السلاوي، ج3، ص90/ ينظر: مرمول كربخال، ج1، ص45.

[2] - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، صص 400-401.

725هـ/1226-1225م) حسب قول ابن زرع " كانت المجاعة بالمغرب، وارتفع السعر في جميع البلاد، وغلت الأسعار في جميع الأمصار، فوصلت صحفة القمح تسعين دينارا ،...وصنع أمير المسلمين في هذه الشدة والمجاعة مع رعيته من الخير ما لا يقدر واحد على وصفه، فتح لهم أهراء الزرع وأخرجه للبيع، فبيع أربعة دراهم للمد، والناس يبيعونه بخمسة عشر درهما"[1]، ولم يقتصر على ذلك بل أمر بالصدقات للمحتاجين أيام الشدة حسب قول ذات المصدر"فلم يزل يفرقها بطول أيام الشدة، يمر بها الثقات على حارات المدينة فيعطونها أهل التستر و البيوتات وذوي الفاقات والحاجات كل على قدر حاله وضعفه، فكانوا يأخذونها من دينار ذهبا إلى ربع دينار، ولم يزل من يوم ولايته إلا الآن يأمر بالجباب والأكسية في زمن الشتاء و القر للضعفاء والمساكين، وأمر بمن مات من الغرباء أن يجهز ويكفن في الثياب الجديدة ويقام بحق دفنه أحسن قيام "[2].

ويبدو أن السلطان أبا الحسن كانت له أيضا مساهمات أيام الكوارث والمحن فقد ذكره ابن مرزوق في قوله: "يخرج زرعه المختزن الخاص به، فيقيم به أود المحاويج عموما، في كل ليلة بطول الجدب"[3].

ومن جانب آخر برزت جهود بعض السلاطين في متابعة أحوال الرعية والاستماع إلى أمورهم برفع الضرائب والمغارم عنهم فهذا السلطان أبي سعيد عثمان المريني عرف بمعاملته الحسنة للخاصة والعامة، والاستماع إلى أمور رعيته، فكان يباشرها بنفسه فرفع المظالم عن الناس وحط المغارم، ورفع عن أهل فاس مجبى الضرائب على حد تعبير ابن زرع "رفع عنهم ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية كل سنة "[4]،كما كان الناصر لدين الله يوسف بن يعقوب(685/1288م) متفقدا لأحوال البلاد والرعية، ساعيا إلى توطيد حكم الدولة المرينية بفضل جهوده المستمرة في شتى الميادين. رافعا ولاغيا للضرائب التي كان الفلاح يتحمل وزرها حسب قول صاحب القرطاس"وأزال المكوس ورفع

[1] - ابن زرع، الأنيس المطرب، ص 401.

[2] - المصدر نفسه، ص 401.

[3] - ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 191.

[4] - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 397.

الإنزال عن دور الرعية، وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس، وأمن الطرقات، وقمع البغاة، وأباد الطغاة، وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة، فأزال أكثر الرتب و القبالات التي كانت بالمغرب إلا ما كان منها في الأقطار الخالية، و المفازات المخوفة فخضعت مرين تحت قهره وصلح أمر الناس في أيامه"[1] وهو الأمر الذي ساهم في رفع دخل الفرد مما أدى بدوره هو الآخر إلى ارتفاع إنتاج المواد الأساسية[2].

وبالمثل برز دور السلطان أبي الحسن المريني (ويسمى أبو الحسنات) لشدة رأفته وحسنه مع رعيته، وفي ذلك أمثلة ما محاه من المناكر ورفعه من المكوس من البوادي والحواضر، فرفع عن الناس وأصحاب البساتين مكس الخرص الذي كان عظيم المضرة على الرعية حتى أن البعض منهم قطع جنته بسبب وظيف الخرص الذي يعتبر كغريمة الجزاء بافريقية[3].

ومن جملة ما نزع عنهم أيضا وظائف استغراق السلع[4]، ورفع أيضا اكتراء الولاة للبلاد،كما أزال مغرما آخر عن أهل سجلماسة يسمونه الجمون في النخل والزرع، والتزموا بدفع خراج الزكاة والعشر فقط[5].

وكان من عظيم الضرر الذي محا أثره عن الرعية أيضا، رفعه للمغارم التي كانت توظف على جميع الرؤوس أو الأشخاص، صغيرا أو كبيرا، قويا أو ضعيفا حتى الرضيع، مغرما يخصه حتى صارت أخت الجزيات المفروضة على أهل الذمة بل أشد، فأسقط كل ذلك، ورد المغارم على الأموال والأملاك بحسب الجدة والقدرة[6].كما رفع جباية الإنزال في دور المعتبرين بعدوة الأندلس، ونزع عدة

---

1 – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 375.

2 – ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 74.

3 – ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص 282-283.

4 – وهو أن الولاة حملوا التجار سرقة المخازن، فكانوا يجعلون عقوبة ذلك اخذ السلعة كلها أو تغريم خمسة مخازن، وهو تضعيف المغرم المعهود خمس مرات، فكان الولاة يجمعون في ذلك أموالا كثيرة / ينظر: المصدر نفسه، ص 283.

5 – المصدر نفسه، ص283.

6 – المصدر نفسه، ص284.

ألقاب ومغارم على أهل البوادي لا تحصى ولا تعد كالبرنس والضيافة و الإنزال والقاعة والخطيئة وهي كلها حوادث أحدثها الولاة قديما وهلك الخلائق بسببها[1].

وقد كان من أكبر أعمال السلاطين وسير الملوك، متابعة أحوال الرعية وتفقد شؤون المملكة، والسلطان أبو الحسن كان له ما يميزه في هذا الأمر، إذ ورد عنه أنه كان يخصص يومي الاثنين والخميس للنظر في القضايا و الشكايا، فيقضي فيها قضاءه، وكان في كل سنة يعين ويتخير الأشخاص المناسبين فيمن يتوجه لتفقد أحوال الرعية عبر مختلف نواحي البلاد، فترفع إليه الشكايات من كل الأقاليم [2].

وكان يكتب للقضاة والخطباء بالبلاد في رفع ما يرفع لهم من الشكايات، ثم عمد إلى الاجتماع بنفسه في كل بلد بعد صلاة الجمعة مع قائدها ووالي قصبتها وواليها وخطيبها والعدول بها، للسماع إلى جميع الشكايات التي تورد عليهم وذلك لكي تكون شفافية في إصدار الأحكام، ومتابعة أحوال الناس والسماع لانشغالاتهم عن قرب. فكان السلطان شديد الحرص على الكل، يتبع أسلوب التخويف والترهيب أحيانا مع ولاته وحكام الأقاليم إن تأخر إعلامه بقضية تخص الرعية، فكان دائم المطالعة بما تصله من شكاوي من رعيته ويتعهد بالرد عليها حتى لا يشد عنه شيء من أخبار رعيته حتى أنه كان يباشر ذلك بنفسه[3].

وكان السلطان أبو الحسن يركب ويشق وسط البلدان لمعاينة الأمور فقد ورد عنه أنه كان يذهب نحو الأسواق وبين الحوانيت لأجل "...التعرض لرفع ظلامة، وسماع شكية"[4]، فكان دائم النظر في مصالح رعاياه رافعا لما يرفع إليه به الشكايات، حتى أنه لقد أمر بعض المرات بالنداء لأجل ذلك،

---

[1] – ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص284.

[2] –المصدر نفسه، ص174.

[3] –المصدر نفسه، ص 174.

[4] –المصدر نفسه، ص 175.

وما كان يلاحظ عليه أنه كان شديد الحرص على متابعة أخبار قواده وعماله بشتى المناطق واتخاذ إجراءات العقوبة ضدهم في حالة إثباتها عليهم[1] .

من جانب آخر إلتفت السلطان يوسف المريني إلى تحقيق المكاييل المغربية، إذ جعل الصيعان المرينية على عهد النبي عليه الصلاة والسلام ما يعادل كيلا سعته (2914) لتر وستون من هذا الصاع، وهو ما يسمى بالمغرب بالصحفة وهو ما يعادل كيلا سعته (365.544)لتر[2]، فسعى إلى تطبيق ذلك (تحديد الصاع) أيام حدوث مجاعة (693هـ/1296م) حسب قول صاحب الأنيس "كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم فكان الناس يحملون من الموتا أربعة وثلاثة واثنين على نعش، وبلغ القمح فيها عشرة دراهم للمد والدقيق ستة أواقي بدرهم وفيها أمر أمير المسلمين يوسف بتبديل الصيعان وجمعها على مد الني عليه أزكى الصلاة والسلام وذلك على يد الفقيه عبد العزيز الملزوزي، ومع دخول سنة 694هـ/1297م استقام الحال وصلح أمر الناس ورخصت الأسعار في جميع الأقطار، فبيع القمح بعشرين درهما للصحفة" [3].

ب–تقديم خدماتهم ومساعداتهم للفقراء والمحتاجين:

لا سبيل لإنكار ما قدمه خلفاء بني مرين لفقرائهم و محتاجيهم من إعانات مادية كانت أو معنوية، فمتون مصادر الفترة أمطرت شواهد وقرائن دالة على كثرة عطاء وسخاء هؤلاء السلاطين لفقرائهم، بالإضافة إلى تدشينهم وتسخيرهم لمرافق ودورا خدمة لهم، خاصة خلال فترات الأمن والرخاء والاستقرار.

وكان أكثر من اهتم بخدمة الرعية الأمير يعقوب بن عبد الحق (656هـ/1258م) ، فلما استقام له الحال "صنع المارستان للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية و الأشربة، وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم كل يوم غدوة وعشية، وأجرا على الكل الإنفاق من

[1] – ابن مرزوق، المصدر السابق، ص175.

[2] – المنوني، ورقات، ص 104/ينظر: إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2، ص129.

[3] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 384.

بيت المال، وأجرا على الجذما والعميان والفقراء مالا معلوما يأخذونه في كل شهر من جزية اليهود، وبنا المدارس ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن وطلب العلم، وأجرا عليهم المرتبات في كل شهر، كل ذلك ابتغاء ثواب الله ورحمته"[1]،كما نستشف نصا آخر يجسد لنا حجم مساعدة السلطان للفقراء حسب شهادة ابن مرزوق وما ذكر عنه في مساعدة الضعفاء و المحاويج "أنه اشترى يوما دار من أسرة آل خالد المتواجدة بالسوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء ومعاناة هذه الأسرة، فأرجع لهم الدار والمال معا وهذا لا يفعله إلا سلطان كريم تقي يخاف الله" [2].

وعلى ذكر بعض المواقف المشرفة تجاه الفئات الفقيرة و المحتاجة فقد أولى الأمير أبو محمد عبد الحق اهتماما كبيرا بهذه الشريحة "فكان يطعم الطعام، ويكفل الأيتام ويؤثر على نفسه المساكين ويحنوا على الفقراء والمسضعفين"[3].وبالمثل فعل السلطان يوسف برعايته للأيتام فقد أمر بتطهيرهم وكسوتهم والإحسان إليهم بالدراهم والطعام في كل عاشوراء، و بنى الزوايا في القرى وأوقف عليها الأوقاف العديدة لإطعام عابري السبيل وذوي الحاجات[4]. كما كان يخصص في ليلة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف جزءا خاصا من الصدقات للمحاويج فهذا السلطان أبو الحسن كان كريما جوادا مع المحتاجين وحسبنا في ذلك شهادة ابن مرزوق، "فكانت الخيرات خلال هذه الليلة لا تزال بسبب الاعتناء بها على الحضور من الخاصة والعامة متكاثرة و متظافرة، فكانت الأشياء التي تفضل لكثرتها تقسم على الفقراء على قدر استحقاقاتهم ويجمع لهم من ذلك العدد الكثير"[5].

وبالمثل بنى السلطان أبو لحسن المارستان وجدد الذي كان بمدينة فاس وغيرها، كما بنى السلطان أبو عنان مارستان بمدينة سلا وسط حارة اليهود وهو كما يذكره المؤرخ بن علي الدكالي بناء حافل،

[1] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 298.

[2] –ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص191.

[3] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، صص 285-287.

[4] – ابن أبي زرع، الذخيرة، ص 91.

[5] – ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص154.

مشتمل على بيوت كثيرة لاستقرار المرضى والمجانين والحمقى، وأجرى له الماء من الداخل، ورتب له أبو عنان قومة وأطباء وكان في القديم فندقا للزيت [1].

كما برزت لمسة السلطان عثمان حيث أمر بتسريح المساجين إلا أهل الفساد في الأرض، وتوزيع الصدقات على الضعفاء والمساكين وأهل الستر من البيوتات، "وكان فاتحا للضعفاء بالخير بابه، فوطأ الرعية بالحلم بابه، فأفاض عليهم عدله وبذل إنصافه"[2].

وبالمقابل ظهرت طيبة السلطان أبو الحسن مع رعيته إذ ورد عنه أنه اشترى ساحة جامع العباد بتلمسان بحساب شبر بدينار، فجاءت عنده امرأة وقالت له" يا مولانا، توصي علينا هنا فأنا يصعب علينا السكنى في غير هذا الموضع، فوقف و أمر في بقية الساحة ببناء دار تشتمل على مساكن كفت جميع أهاليهم"[3] .

ومن حسنات وبر السلطان يوسف وشفاعته للضعفاء والمساكين أيضا، تفريق الأموال عليهم و إجزال الصلات وتسريح أهل السجون،كما رفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر ووكلهم فيها إلى أمانتهم وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس[4].

والظاهر أن مساعدة الفقراء والمحتاجين كانت سمة راسخة في عقول وقلوب خلفاء بني مرين فما ذكر عن السلطان أبو الحسن ومساعدته للضعفاء والمحاويج ليس بقليل فقد ورد في أحد النصوص أنه " أعطى الضعفاء أهل تلمسان اثنا عشر ألف دينار واثنا عشر ألف كساء ، ومن الطعام مطامير لا

---

[1] – ابن مرزوق، المسند الصحيح، صص160-161.

[2] – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 397.

[3] – ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 192.

[4] – السلاوي، ج3، ص 66/ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 375.

تحصى كثرة "[1]. وبالمثل اتصف الأمير عثمان ابن عبد الحق بشفقته وعطفه على الفقراء فحسب قول ابن زرع "كان متواضعا مع رعيته ، كثير الصدقة" [2].

ويظل أبرز مثال ما قام به السلطان أبو الحسن تجاه من علت سنه ووهنت قوته حسب قول ابن مرزوق "فقد أجرى على من اتصف بالشياخة من الضعفاء ولازم الخير رواتب تكفيهم ورسمهم في جرائد عماله شيوخ الجامع، وبنى لهم دورا وأجرى لهم كساء في كل عام تكفيهم"[3]. وكان من شيمه وخصاله النبيلة والخيرة يسأل الناس المحتاجة والفقيرة عن عدد أفراد عائلاتهم، وأين يريدون أن يسكنوا "فإذا اختاروا موضعا، أعطاهم ما يحتاجون إليه من كراء بحسب ذلك، ومن كان لديه حرث وزراعة كتب له بتحرير ما يحرث به، بقدر حاجته"،كما أوصى الأمناء في ربوع البلاد على الاهتمام بالصناع من أهل كل صناعة، ومثال ذلك أنه أوصى "على امرأة كانت سواقة تنادي على السلع بالدور، فكتب لها بالوصية عليها "[4].

وهناك مثال آخر يبرز محامد وكرم السلطان أبو الحسن إذ يقال "أنه سمع برجل من رندة أن له أولاد زهاء عشرة، كلهم فرسان مجاهدون، فطلبه السلطان وسأله عن حاله فأخبره بأن الفقر آذاه وأتعبته القلة والفاقة، فكان رد السلطان له"كفيت".فأمر لحينه بكسى ومراكب على عدد أولاده، وأعطى كل واحد مائة دينار ذهبا، وأعطاه بلدا جعل له فوائده و مجابيه، وأعطاه دارا، وكسوة لسائر أهله، واخدمه خدما، وكتب له بمرتب له ولأولاده، وجعل لأولاده محترثات على عددهم "[5] .

أما عن الخدمات ذات الطابع النفعي فقد اهتم الكثير من السلاطين في بناء وتشييد العديد من الأسواق والدور والمساجد والمدارس والزوايا والأربطة وغيرها من المرافق المهمة لخدمة مصالح الناس في حياتهم اليومية فهذا السلطان يعقوب بن عبد الحق واليه يعود الفضل في تجديد دار صناعة السفن

---

[1]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص192/ينظر: المناقب المرزوقية، صص 192-193.

[2] - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، صص 288-289.

[3] - ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 427.

[4] -المصدر نفسه، ص 194.

[5] -المصدر نفسه، ص194.



بسلا، كما قام بانجاز دار أخرى للصناعة بتطوان سنة(685هـ/1286م)[1]، وبنا في أيام ملكه مدينتين: فاس ومدينة بالجزيرة الخضراء، وبنا بالمدينتين الجوامع والحمامات والأسواق وبنا القناطر بالطرقات مثل قنطرة وادي النجا وقنطرة مارين[2].وعمد إلى بناء صرح كبير لخدمة الدين فبنا الجامع الكبير الذي لا يزال قائما لحد اليوم حسب كلام المنوني والذي أسس عام(677هـ/1279م) بمداخيل معصرة مكناس، كما أسس دار لضرب السكة بفاس بالقرب من القصر الملكي[3]، ويعود له الفضل في بناء أقدم مدرسة وهي مدرسة الشماعين سنة(670هـ/1271م)، بسوق النحاس في فاس وزودها بمكتبة للطلبة من سواد الشعب ما لبث أن نقلت إلى جامع القرويين[4].

وبالمثل كان للسلطان يوسف اهتمام بالغ بمجال الري وكيفية استغلاله والانتفاع به من طرف الرعية، فمن إجراءاته الاروائية قيامه بنصب الناعورة[5]، على نهر فاس بدأ العمل فيها سنة(685هـ/1275م) وانتهوا منها سنة(686هـ/1287م) وذلك لرفع المياه إلى البستان الشهير بالمصارة [6]، كما أولى اهتمامه بإسالة المياه فدشن قنطرة وادي النجاة و ماريج[7]. كما اهتم أبو عنان كذلك بإقامة النواعير[8]. وأكثر أبو الحسن السقايات و الميضآت والقناطر ببلاد المغرب حسب كلام ابن مرزوق الذي نقله عن اليعمري "ما مررت في بلاد المغرب بسقاية ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء فسألت عنها إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن

---

[1] -عامر أحمد عبد الله حسن، مرجع سابق، صص 224-225.

[2] - ابن أبي زرع، الذخيرة، ص 90.

[3] - المنوني، ورقات، ص 28، 33.

[4] - مسجد القرويين: من أقدم مساجد المغرب، انشأ في القرن التاسع الميلادي من قبل فاطمة الفهري القيروانية، ومنها اشتق اسمه /ينظر، عامر أحمد عبد الله حسن، مرجع سابق، ص 239.

[5] - الناعورة: جمع نواعير وهي آلة لرفع المياه تحتوي دولاب كبير والدولاب هو اسم لشيء واحد وهي أشياء في الساقية التي تجري/ ينظر: ابن أبي زرع الأنيس المطرب، ص 390.

[6] - المصارة : المصارة بالضم تعبير عربي يعني الموضع الذي يمصر فيه الخيل وقد اشتهر هذا الاسم على عهد السلطان يوسف /ينظر: المنوني، ورقات، ص 43-44.

[7] - السلاوي، ج3، ص 89.

[8] - نفسه،ج3، ص182.

رحمه الله "أما عمله في جلب الماء لداخل مدينة سلا فقد أنفق العديد من الأموال إلى الموضع المسمى برج حمام إلى الجامع الأعظم بداخل المدينة[1].

أما عن تحبيساته فقد أقطع السلطان يوسف أراضي لبعض القبائل مثل قبائل بنو ورا[2] وذلك لأجل تفاديهم وتأمين الطرق من شرهم[3].ومن أوقافه أيضا بناؤه لزاوية تافرطاست على قبر الأمير عبد الحق ،كوقف لعابري السبيل على الدوام[4] سنة(685هـ/1285م)، وتصدق عليه بمحرث أربعين زوجا [5]وبناءه زاوية أخرى تقع شمال غرب فاس[6]، كما شيد حمامات عامة وخاصة لخدمة السكان[7]مثل حمامات المنصورة ووجدة وتاوريت[8].

ولعل خدمته للعلم وأهله أخذ جانبا كبيرا من اهتمامه فقد بنى العديد من الكتاتيب والمساجد والجوامع والمدارس إضافة إلى الزوايا وزود تلك المعاهد التعليمية بمدرسين أكفاء يسهرون على تعليم الطلاب وأوقف عليهم أوقاف تخدم مصالحهم وذلك كله لأجل ازدهار الحركة العلمية والثقافية للدولة المريينية حسب صاحب العبر في قوله "فأمر ببناء الحصون والقلاع والمدن والمساجد لتعمير بلاده"[9].

على أن السلطان أبو العنان كان له فضل كبير على الناس قليلي الدخل"ففي سنة(750هـ/1452م) نادى بالعطاء وأزاح العلل"[10].

---

[1] – ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 417.

[2] – بنو وارا : وهم فخذ من مغراوة كانوا يسكنون بناحية مراكش والسوس اقطعها لهم السلطان يوسف ناحية شلب وذلك لأجل حمايته من إغارتهم /ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، ص 48.

[3] – المصدر نفسه، ج6، ص 223.

[4] – ابن زرع، الدخيرة السنية، ص 34.

[5] – ابن زرع، الأنيس المطرب، ص 373.

[6] – الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 213-214، 293.

[7] – العمري، مصدر سابق، ج4،ص 74.

[8] – ابن خلدون، العبر، ج7، صص 119-220.

[9] – المصدر نفسه، ج7، صص219 -220./ ينظر: السلاوي، ج3، ص 76.

[10] – نفسه، ج3، ص182.

2-مساعي الفقهاء والصلحاء والوجهاء المرنيين لأجل الرفع من المستوى المعيشي ومواجهة الفقر:

مما لاشك فيه أن مشاركة الفقهاء و الصلحاء للطبقة الفقيرة والمستضعفة في حياتهم الاجتماعية في أتراحهم، وأزماتهم كان السمة الغالبة على معظمهم، وتمثل دورهم في أشياء كثيرة منها قضاء حوائجهم لدى أولي الأمر، مستخدمين مكانتهم التي يتمتعون بها عند السلطة، كما ساهم البعض منهم في تقديم ما يملكونه من مال لصالح الفقراء والأيتام ومنح لهم الزكاة ووقف لهم أوقاف لرعايتهم وحفظهم من شبح الفقر.

ا-دورهم في تقديم المساعدات المادية للفقراء:

لم يكن الفقهاء والصلحاء بمعزل عن المجتمع في المغرب الأقصى، بل شاركوا مجتمعهم همومهم وآلامهم متمسكين بتعاليم الإسلام، وما دعت إليه السنة السمحاء من الحث على التعاون والتضامن من أجل تخفيف الهموم عن الفئات الضعيفة والمحتاجة لاسيما في أوقات الشدة والأزمات، عن طريق الإنفاق والعطاء وإخراج الصدقات والزكوات لهم، ولدينا من القرائن ما يدل على ذلك، فالفقيه محمد بن موسى الحلفاوي نزيل فاس الاشبيلي الدار، كان له إذن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حسم به أدواء الفساد، وقمع الأشرار عن بغيهم المعتاد، "كان معظما عند الخليفة أبي عنان، فكان يؤثره ويعينه على الأخذ على أيدي المعتدين المرتكبين ما نهى عنه الدين والإيثار على الضعفاء والمساكين"[1]، وربما كان لصدقته ما ينفع بها المحتاجين من جميع المؤن كالقوت واللباس، فمن خدمته وبره أنه كان يطوف على الفقراء والمحتاجين في الحضرة حسب قول الحضرمي"ويتفقد بالفواكه الرطبة واليابسة في أوانها ولا يستطيع لفقره أن يصلها، يبتاع منها الكثير متى أظل زمانها وكان يحمل على رأسه ما يقدر على رفعه، فيقصد به المظان إلى أن يفرغ الوعاء فيعيد امتلاءه فيلحق تلطفه الضعفاء

[1] – الحضرمي، السلسل العذب والمنهل الأحلى، ص55.

بالأغنياء، في استطعام شهوات ما أنعم الله به على خلقه، ويبعث العيون للبوادي فيعانى به المرضى، ويلين لهم خشن العيش كما اتخذ دار للحيوانات والرفق بهم"[1] .

وكان الشيخ الفاضل العالم الحجة الزاهد العارف بالله أبو العباس السبتي مقصودا في حياته من طرف الناس، مستغاثا به في الأزمات، وكان من وعده وفضائله أنه لا يأتيه قليل أو كثير إلا تصدق بثلثه في سبيل الله، عرف بالإحسان مع جميع الناس حتى أنه أجاب أحد السلاطين لما سأله في قوله "إلى متى تحيرنا ولا تفصح لنا عن الطريق" فقال له: هو الإحسان فقال له بين لي، فقال كل ما أردت أن يفعله الله معك فافعل مع عبيده" واشتهر بعطفه ورحمته للأرامل والأيتام، ويحض على الصدقة ويذكر فيها آيات ومن كلامه "تصدق تصب ما تريد "، وكان يصرف أجرته على الطلبة الغرباء[2]،كما يروى أن جاءه رجل كان غني ثم افتقر وشكى حاله له فأخذ بيده إلى مكان طاهر فأعطاه ثوبه الذي يلبسه"[3] وهذا ما يبين إحسانه ومساعدته للفقراء المحتاجين بشتى الطرق إما ماديا أو بالدعاء أو بالكرامة .

وبالمثل كان الفقيه موسى بن محمد بن معطى الشهير بالعبدوسي من ذوي العطوفين على شريحة الفقراء والمحتاجين وذلك من خلال تقديم مساعداته لهم فيروى عنه أنه كان إذا حرث يخرج للضعفاء تسعة أعشار من صابته ويمسك عشرها عكس الزكاة ويقول"من سوء أدبي أخرج العشر وأتمسك بالتسعة" توفي في سنة(776هـ/1478م)[4]،كما أشار الفقيه أبو العباس الونشريسي في أحد النوازل التي سئل عنها سيدي محمد بن مرزوق "هل تدفع الزكاة لأهل البيت إن خيف عليهم الضياع، وهو أن رجلا شريفا أضر به الفقر، هل يواسى بشيء من الزكاة أو صدقة التطوع، لاسيما أن له عيال

---

[1] – الحضرمي ،مصدر سابق،ص55./ المنوني، مرجع سابق، ص 414.

[2] – التنبكتي، نيل الابتهاج، ص72.

[3] –المصدر نفسه، ص74.

[4] –المصدر نفسه، ص604.

تحت فاقة"[1]، فكان جوابه بالجواز خوفا من ضياعه وضياع أولاده وهو تسهيل من الفقيه لهذه الفئة الفقيرة.

كما عرف عن الولي الصالح أحمد بن المطارحي(ت724هـ/1428م) العابد الزاهد، بحبه وعطفه وإيثاره على المساكين والإحسان إليهم[2]. وكان لبعض الأوقاف التي أوقفها بعض الفقهاء والعلماء على الفقراء والمحتاجين، دور كبير في مساعدتهم ومثال ذلك ما حبسه الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الله ابن جابر الغساني، العالم الصالح المتواضع المكناسي الدار، قال عنه صاحب روض الهتون"له مناقب كثيرة ومن مآثره الخالدة تحبيساته الوافرة على الضعفاء والغرباء والمنقطعين وذوي العاهات توفي سنة(827هـ/1429م) بمكناسة الزيتون[3].

ويورد لنا الونشريسي في هذا الباب إحدى النوازل "سئل عنها عبد الله العبدوسي عن دراهم موقوفة على مساكين وأخرى على الحجاج الواردين على المدينة، وأخرى على المسجونين، وعدم المساجين والواردون، فهل تصرف الدراهم المذكورة للمساكين، أم لا يجوز ..." فأجاب بأن ما وقف على المساكين والحجاج والمسجونين، يفرق على المساكين ما وقف عليهم بالاجتهاد، وأما الحجاج وأهل السجون إذا عدموا فتوقف غلات أحباسهم حتى يوجدوا"[4]، ويفهم من هذه النازلة أن كثرة الفقراء والمحتاجين جعلت الفقيه العبدوسي لا يجز لناظر الأحباس صرف جميع الدراهم لمساكين مدينته، على الرغم من انعدام الحجاج والواردين عليها[5]، واعتراف العبدوسي مخاطبا الناظر بقوله: عن المساكين" لايعدمون هنا، بل جل أهل بلدتكم مساكين"[6].

[1] – الونشريسي، المعيار ،تح: محمد عثمان،ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، الجزائر،2011، ص550.

[2] – ابن القاضي، ج1، صص 17-18.

[3] – ابن غازي المكناسي، الروض في أخبار مكناسة الزيتون، ص 114 /ينظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس،ج1، ص 317.

[4] – الونشريسي، المعيار، ج7،ص45

[5] –عمر بلبشير، مرجع سابق، ص111.

[6]– الونشريسي، ج7، ص45.

كما سعى الفقيه اللجائي مسعى علماء وفقهاء وقته، بتقديم بعض المساعدات المادية وحسبنا في ذلك شهادة ابن قنفد "كان ساعيا في حوائج المسلمين، وتفريق الصدقات على الفقراء والمساكين، وكان يأخذ في إيصال الحقوق، ونصر المظلوم، ويسعى إليه الغريم كما يدعى إلى الحاكم ولا يتخلف بوجه، وكان يجري على المحتاجين منهم بالنفقة المرتبة اليومية"[1]، ويستشهد ابن قنفد بمثال حي عن سخاء وصدقة اللجائي على الناس فيقول أنه سأل بعض الصالحين "من أين عيشك"؟ فقال له"من نفقة أجراها علي اللجائي يأتي بها في عشية كل يوم"[2]، كما كان له بعد نظر في بعض الأمور الاجتماعية النبيلة لهؤلاء المحتاجين مثل تزويجهم حسب قول ابن قنفد"...ومزال يعين من احتاج منهم إلى التزويج"[3].

وهذا عبد الرحمن بن يعقوب بن علي من خيار الصالحين الفضلاء يقول عنه ابن مرزوق "حضرته يوما، وقد جاءه ضعيف يشتكي جوعه وجوع عياله، وكانت سنة مجاعة، فأمر من جاء من الفرن بخبز عياله، وأهل داره، فرفع الضعيف جميعه، فخرج ولده يشتكي الجوع، ووقفت الخادمة تشتكي جوع أهل الدار، فقال لها: ذهب بخبزكم من هو أشد حاجة منكم، وسيأتيكم، إن شاء الله أكثر وأطيب، فما أتم كلامه إلا ومائدة كبيرة جاءته بعثها إليه أحد القواد"[4].

وبالمثل كان الفقيه أبي العباس أحمد المدعو القباب من أهل فاس وممن يعرف بالفضل والدين متواضعا مع العام والخاص، خافضا جناح الرحمة للضعفاء والمساكين [5].

[1] – ابن قنفد، أنس الفقير، ص 77.

[2] – المصدر نفسه، ص 77.

[3] – المصدر نفسه، ص 77.

[4] –ابن مزوق، المناقب المرزوقية، ص 299.

[5] – الحضرمي، مصدر سابق، ص 85.

وكان للشيخ المبارك أبو عبد الله محمد بن يحي، من أصحاب سيدي أبي العباس بن عاشر ،ممن لاح له بارق في الخير، وإيثار كبير على إخوانه وتحنن على الضعفاء والمساكين، و ما كان يدخر من قوته إلا قدر كفاية عائلته، ويتصدق بالباقي على ذوي الحاجات[1].

ولاح في العطف والرحمة على هذه الفئات الشيخ الحاج المبارك أبو الفضل محمد بن أبي مدين العثماني من مجتهدي الزهاد، وأخبار العباد، عرف بتواضعه مع الخاص والعام،كان ياسر الطعام رحيما بالمساكين، شفيقا على المستضعفين[2].

كما لم يبخل الفقيه الحافظ العالم المجتهد عبد الرحمان بن محمد بن يوسف الملجوم من أهل فاس، بالصدقة من ماله لذوي الحاجة، فقد عرف عنه أنه كان له مال جليل ورباع عظيمة، كانت غلته في كل شهر من رباعه ثلاثة ألاف دينار، وكان يتصدق في كل يوم بخمسين درهما منها توفي (سنة 605هـ/1207م)[3].

ب-دورهم في التوسط وقضاء الحوائج:

ومثال ذلك الفقيه إبراهيم بن عبد الله بن زيد بن أبي الخير اليزناسي، الذي عرف بالفضل والإنصاف، كان مفتيا قاضيا لحوائج المسلمين ساعيا في مصالحهم وكان حيا بعد الأربعين وسبعمائة [4]، كما اتصف العالم الفقيه عليم بن عبد العزيز بن هانئ العمري أحد الزهاد بسبقه للأعمال الخيرية لاسيما للفئات المحتاجة، قال ابن عباد عنه"كان مسرعا لقضاء حوائج الناس سندا لهم فيها يظل يومه ساعيا في مآربهم مهتما بأمورهم معظما عند الخاصة والعامة" [5].

---

[1] - الحضرمي، مصدر سابق، ص 87.

[2] - المصدر نفسه، صص 59-60.

[3] - ابن أبي زرع، الذخيرة، ص 45

[4] -التنبكتي، نيل الابتهاج، ج1، ص 40/ ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس 86/ المقري، نفح الطيب، ج5، ص 252/ محمد بن محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص 218.

[5] - المصدر نفسه، صص348-349.



وإمعاناً بالاهتمام كان الفقيه العالم محمد بن محمود الونكرمي المعروف "ببغيع" "مطبوعا على الخير وحسن النية، ساعيا في قضاء حوائج الناس وارتكاب ضرر نفسه والتفجع لمكروههم والإصلاح بينهم، أفنى عمره في تشبثه بحوائج العامة "[1].

وسعى مسعاه الفقيه الفذ المجتهد إلى فضل الطبع وكرم الخلال مأثور الأفعال وسني الأعمال مهتم بشؤون عامة المسلمين، أبو الربيع سليمان بن يوسف بن عمر الأنفاسي نخبة أهل عصره، كان لا تأخذه في الحق لومة لائم،كثير المواساة، شديد الحرص على عمل الحسنات، آخذ بالتوسط في جميع أموره [2].

وما بلغ عنه أن الناس كانوا يلجئون إليه في وقت الشدة أو إذا أصابتهم مجاعة أو مرض فيدعوا لهم فيذهب الله عنهم ما أصابهم مثل ما روي عن أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر قال: ما رأيت أعجب من بركة الشيخ أبي الربيع الأنفاسي، وذلك "أن أهلي من عادتهم أن يصيبهم في رأسهم طارق ووجع مبرح أعيا الأطباء، وتكرر عليها ذلك حتى أشرفت على الهلاك، ففزعت لبركته وقصصت عليه القصة فكتب لها تميمة، فوا لله ما وضعتها على رأسها إلا سكن الوجع لحينه وذهب البأس والحمد لله "[3].

وبالمثل برزت أعمال وخدمات الفقيه أبو العباس أحمد البرنسي دفين لمطة وروضته مزارة معروفة عند أهل فاس، كان مقصودا لدى الناس لقضاء حوائجهم ومثال ذلك "أن رجلا أتاه يشتكي من ولد الأمير أبا الحسن لأنه أخذ له ماله وجاريته واشتكى الرجل إلى الأمير لكن لم يقضي له حاجته، فقال له الشيخ امض الساعة واجلس بباب دار ولد الأمير حتى أتيك، فمضى الرجل بسرعة إلى حيث أمره، ثم لحق به الشيخ ابن برنس إلى ولد الأمير لكن هذا الأخير لم يستقبله فدعا عليه فمات" عندها جاء الأمير أبو الحسن إلى الشيخ طالبا عفوه وأرجع مال الرجل وجاريته"[4]،كما طلب منه

[1] - محمد بن محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية مصدر سابق، صص600-601.

[2] - ابن عيشون، الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تح: زهراء النظام، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص300.

[3] - المصدر نفسه، ص 302/ الحضرمي، مصدر سابق، ص 76.

[4] - الحضرمي، مصدر سابق، ص 76.

رجلا آخر مالا ليتخلص من دين كان عليه "فقال له امض فان الله يخلص عنك دينك، فمضى الرجل فما جاءت الجمعة حتى فتح الله عليه وخلص دينه ببركة الشيخ ودعائه له" [1].

وقيل عنه أنه كان في بعض الأحيان يمشي حافيا في الطين لقضاء حوائج الناس أو تغيير منكر، ويدخل مجالس الأمراء بحالته، فإذا قضى حاجته غسل رجليه وانتعل[2]، كان له النظر في أحوال المسلمين، والوساطة في الصدقات عليهم، والمبالاة بأمرهم [3].

وتعاظمت مساعي وأعمال الفقهاء والوجهاء بالنظر في شؤون هذه الفئات المحتاجة سواء ماديا أو معنويا، فهذا الفقيه أبا عبد الله الجناتي العالم الصالح والزاهد الوارع"كان يبادر إلى خدمة الغريب المريض ويسعى في أمره وكان الصلحاء يعظمونه والعامة ترمقه وتشير إليه"[4].وحذا حذوه الشيخ أبو عثمان سعيد ابن توالا التقي الصالح الفاضل مشهور البركات، كان كثير الاجتهاد في قضاء حوائج المسلمين: "فَقَلَّ من يأتيه في شيئا، لا ويقضيه الله سبحانه على يديه"[5] .

وصفوة القول أن الرعاية الاجتماعية بالفقراء والمساكين كانت من أولويات العلماء والفقهاء والصلحاء وأهل وساسة بلاد المغرب الإسلامي عامة، إلا أن المصادر التاريخية اعترتها نوعا من الضبابية حول دورهم ومجهوداتهم تجاه هذه الفئات من المجتمع، على خلاف ما حظيت به أعمالهم وجهودهم في الجانب الفكري، والثقافي، والعسكري من قبل المؤرخين، لذلك اقتصرنا على ذكر بعض جهود السلاطين ومساعي بعض الفقهاء والصلحاء، وهذا لا يدل على أن السلاطين والعلماء والفقهاء الآخرين لم يقدموا خدمات و إسهامات لأفراد مجتمعهم وإنما ذكر المصادر لهم كان مجحفا أحيانا، لاسيما سلاطين فترة نهاية الدولة.

---

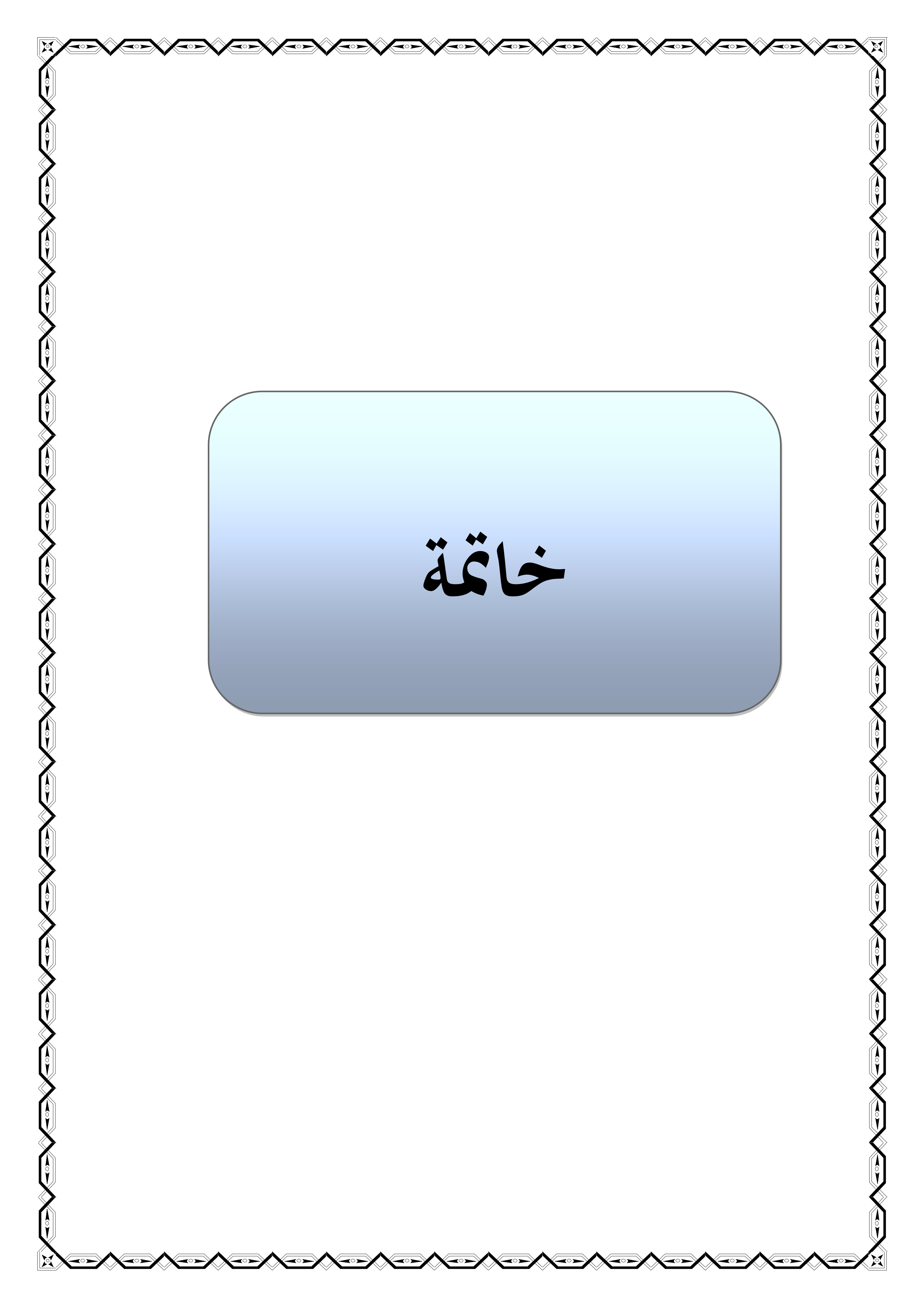
[1] – ابن عيشون، مصدر سابق، صص 312-315.

[2] – نفسه، ص77.

[3] – الحضرمي، مصدر سابق، ص 84.

[4] – المصدر نفسه، ص 76.

[5] – المصدر نفسه، صص60-61.


خاتمة

إن معالجة ومناقشة موضوع الفقر في مجتمع ما، يستدعي رفع وإظهار مشكلتين أساسيتين: تعريف الفقر من جهة وتحديد مختلف شرائحه من جهة أخرى.

وغني عن التأكيد فقد اعتبرت ظاهرة الفقر من المشكلات العويصة، قديما وحديثا وقد تفاقم خطرها عندما كثرت الحروب والفتن بين الدول بسب التنازع حول البقاء، والمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط لم يكن بمنأى عن مثل هذه الأحداث، فقد رصدت متون مصادره العديد من النصوص الكفيلة برسم صورة تقريبية عن معاناة الأفراد والأسر جراء تلك الأزمات الاقتصادية والاجتماعية.

وعموما فقد أسهمت دراسة موضوع الفقر بالمغرب الإسلامي مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13 -15م)، في كشف اللثام عن الهوة الفاصلة بين فئات مجتمع المغرب الإسلامي الذي قسم إلى طبقات خاصة وأخرى عامة.

كما تم الكشف من خلال هذه الدراسة عن واقع الفئات الفقيرة الضعيفة ومعاناتهم التي لا تنتهي في مجتمع طغت عليه سمة الحروب والصراعات الداخلية والخارجية.

واتضح أن الفقر يأتي كنتيجة لجملة من المسببات منها العوامل البشرية والاقتصادية والروحية والأسباب الطبيعية التي تأتي هي الأخرى كنتيجة حتمية عن تقلبات المناخ، فإنها عدت من أهم الأزمات التي أثرت في القطاع الزراعي والحرفي والتجاري، والتي ترتب عنها ظواهر اجتماعية انعكست على أفراد مجتمع المغرب الإسلامي وهذا ما يوافق والطرح الخلدوني الذي يعتبر من أشد المدافعين عن الحتمية المناخية لتخصيصه أربع مقدمات من الباب الأول من كتابه المقدمة، لدراسة أثر المناخ على الإنسان ومحيطه الطبيعي. فحسب رأيه أن المناخ يتحكم في كل شيء أي(النوع والقلة والوفرة و المعاملة والأخلاق).

وتصدى هذا البحث إلى إبراز تلك العوامل من خلال التحليل المعزز بالنصوص المصدرية التي تمثلت أساسا في ثلاث عوامل هما: عامل بشري من صنع الإنسان، تمثل في إثارة النزاعات السياسية والفتن الداخلية، والتي أسفرت عن حالة شبه دائمة من للأمن وللاستقرار جسدت معالمها في قيام الحروب والحصارات الطويلة الأمد، التي تمخض عنها مظاهر وسلوكات، ومن تجلياتها نذكر: الفقر والعرى والتشريد والجوع بسبب الاحتكار والغلاء في الأسعار،كما تبعها انحدار ديمغرافي أخل بالوضع السكاني، وإفقار في المجالين العمراني و الفلاحي لسكان بلاد المغرب الإسلامي.

أما العامل الثاني فتمثل في وطأة الطبيعة وقساوتها على الإنسان، وشح الموارد، وعدم تكافؤ توزيعها في المجال، و إكراهات المناخ، ودورية الجوائح الطبيعية التي كادت أن تعصف بإنسان المغرب الإسلامي.

هذه الجوائح الطبيعية التي كان وقعها أشد على الفئات الفقيرة والمعوزة، وعلى تدمير البنية التحتية لمجتمع المغرب الإسلامي، وذلك من خلال تأثيرها على طبائع الناس من حيث العطاء والجوع والعطش، فكثرة الأمطار وقلتها من شأنها أن تتسبب في انتشار الفقر من خلال حدوث فيضانات أو سيول عارمة أو قحوط طويلة الأمد، والتي يعبر عنها بنقص في تساقط الأمطار أو تأخر سقوطها في المواسم المعتادة، الأمر الذي يؤدي إلى خصاص في الماء بالنسبة للمحاصيل الزراعية وقت الزراعة في بداية الموسم الفلاحي، فيظهر أنه ثمة علاقة تراتبية بين المناخ والماء والغذاء، فإذا اختل المناخ وحال دون تساقط الأمطار، قل الماء فيقل المعاش، فينتشر الفقر والجوع.

ومن خلال تتبع الدراسة تبين أن هناك تفاوت في درجة التأثر بالجوع، فقد ثبت أن الفئات الميسورة الحال كأصحاب الطبقة الخاصة من سلاطين وعلماء وتجار وموظفين لدى الدولة لم تذكر لهم المصادر قط وفاة أحد منهم بسبب الجوع، في حين ذكرت ولو بإشارات وميضة عن موت الفئات الفقيرة أوقات المجاعات، فهي أكثر الفئات تضررا بهذا الحدث العارض.

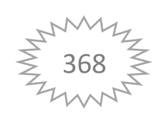
ولم تغفل الدراسة عن التلميح لدور الأوبئة كعامل طبيعي وأثره في تفشي الفقر بين أفراد المجتمع، ذلك أن انعدام شروط النظافة وسوء التغذية لدى الفئات الفقيرة، وعدم تمكنهم من توفير جو صحي ملائم للعيش الكريم، جعل الوباء يتقوقع في مناخهم القاسي، ويزيد من عنائهم وتذمرهم.

والظاهر أن الأوبئة لم تجعل فارق بين الفئات الفقيرة والفئات الغنية، فكلهم سواء في التعرض لها، لكن المفارقة سجلتها المصادر بعد الموت، فوفاة الغني وصاحب الجاه والسلطة ليس كوفاة الفقير، فالفئات التي لها وزن كبير في المجتمع تحظى بقبور لائقة ومتميزة وتدفن في مقابر خاصة أو في الزوايا، عكس الفئات العامة والفقيرة التي تنتشل جثثهم في الطرقات والأودية وما شابه ذلك دون أن يلقوا الاهتمام والعناية نفسها.

والحق أن تردد موجات الكوارث الطبيعية بالمغرب الإسلامي جعل حياة الإنسان محكومة برهان دائم مع المؤثرات المناخية، التي طالما أظهرت عجزه عن التكيف معها أو الحد من خطورتها، هذا التلازم المتسلسل الذي يشد بعضه بعضا من غلاء ومجاعة ووباء، هو تلازم تصاعدي،كان يزيد من هواجس الخوف والفقر لدى الإنسان الذي سارع إلى الفرار والهجرة.

وما كان لهذه الدراسة أن تتغلغل في مجتمع المغرب الإسلامي دون أن تتوقف عند المفاهيم الأساسية للبحث الاجتماعي، كمفهومي "الخاصة والعامة" اللذين اعتبرا معيارين للتصنيف والتقسيم الطبقي لهذا المجتمع، وقد تعاملنا مع هذه المفاهيم على أساس تكامل الرؤى السياسية والاقتصادية والاجتماعية لها، وهذا بعد تمكننا من معرفة العوامل الأساسية التي ساهمت في تطور البنيات الاجتماعية.

واتضح من الاستقراء التاريخي لمظاهر الفقر داخل مجتمع المغرب الإسلامي، أنها لم تكن سوى صورة تعبيرية لواقع مر، مشحون بدورية الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية التي كابدتها الفئات العامة الضعيفة، تجلت ملامحها في قلة الطعام أو انعدامه، ورداءة اللباس ورثه، وغياب المسكن والمأوى.



ولأجل تحصين النفس من الموت في بعض الأحيان بسبب الجوع والفقر المدقع، اهتدى إنسان المغرب الإسلامي إلى تحويل منظومته الغذائية وابتكار بعض الأساليب الجديدة في غذائه كأكله بعض الأطعمة الشاذة مثل: أكل الجيفة و الميتة ولحم القطط، وأكل الجراد بطبخه أو قليه، وأكل خسيس الحيوانات ولعل من أبشع السلوكات ما أقدم عليه البعض من أكل فضلاتهم بالرغم ما ينتج عنها من خطر على صحتهم.

وقد أبانت الدراسة تلك الآثار الناجمة عن ظاهرة الفقر سواء في الحالة العادية أو الاستثنائية، كظهور بعض السلوكات العدوانية المشينة كاللصوصية والقتل، لغاية في نفسهم وهي الحصول على المال والطعام كمبرر لدفع زمانة الفقر والجوع، فالإنسان الجائع والفقير قد يفعل أي شيء لإسكات جوعه ودفع فقره.

كما تبين أن أثار الفقر ولَّدَتْ ذهنيات مقرونة بالتفكير الخرافي والاعتقاد في المشعوذين، كطريقة لجأ إليها الفقراء لقراءة الطالع باعتبارها في نظرهم وسيلة تمكنهم من دفع البلاء والشر والفقر.

وجرى تتبع أثار الفقر في صياغة أفكار خاطئة بعيدة عن عقيدة الدين الإسلامي، بتأثيره نفسيا على الإنسان إلى درجة التشكيك في إيمانه، وذلك بابتعاده عن أداء العبادات والقنوط من رحمة الله، والتذمر من مصاعب الحياة، وعدم الرضى بما ابتلاه الله، فيصبح تفكيره منصب على كيفية الحصول والوصول إلى إشباع رغباته المادية حتى ولو كان على حساب عقيدته، لأن ضغط الحاجة يدفع الإنسان إلى الكفر وحسبنا في ذلك ما قاله علي -رضي الله عنه- لأحد أبنائه: "**يا بني إني أخاف عليك الفقر، فإن الفقر مَنْقَصَة للدِّين، مَدْهَشَة للعقل، داعية للمقت**"[1].

[1] - الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج4، دار المعرفة، بيروت، (د،ط)، ص76.

كما قد يؤثر الفقر على أخلاق الإنسان ويدفعه إلى الكذب والخيانة، وارتكاب المحرمات كمد الرشوة أو السطو على أملاك الناس، بل لا يبعد أن يؤدي الفقر إلى الانحراف في فطرته والتفريط في عرضه.

ولم تغفل الدراسة عن التطرق إلى أثار الفقر على الأسرة وعلى استقرارها واستمرارها. فالبنسبة لتكوين الأسرة نجد الفقر يقف حائلا دون تكوينها في كثير من الأحيان فكثير من الشباب يرغب في الزواج ليُكَوِّن أسرة يجد فيها السكن والمودة ولكنه لا يستطيع الزواج؛ نظرا لقلة ذات يده وعجزه عن القيام بأعباء الزواج؛ ولذلك أوصى الإسلام هؤلاء بالتمسك بالعفة والصبر حتى يغنيهم الله من فضله. وأما عن استقرار الأسرة فإن الفقر كثيرا ما يهز هذا الاستقرار فكم من المشكلات الأسرية تنشأ نتيجة لأسباب مادية؛ بل إن ضيق الأحوال المادية قد يسبب جرائم شنيعة داخل الأسرة.

وتصدى البحث إلى إبراز دور وجهود بعض سلاطين المغرب الإسلامي في مواجهة ظاهرة الفقر عن طريق التكافل والتضامن مع الفئات الفقيرة و المحتاجة، بتقديم لهم المساعدات المادية كفتح الأهراء والمطامر والمخازن للمتضورين جوعا، و كساء الضعفاء المساكين، وقضاء حوائجهم ، وإزالة عنهم بعض المغارم الجبائية، وتوفير لهم بعض الرعاية الصحية كبناء لهم المرافق الاستشفائية كبيمارستان للتداوي والتطبب.

كما نوهت الدراسة بدور الفقهاء والصلحاء تجاه الفئات الفقيرة في أوقات المحن والشدائد وتوسطهم لدى الحكام في قضاء لهم الحوائج، وتجلت صورة أخرى من صور التكافل مع الفقراء والمعوزين في تحبيس لهم بعض الأوقاف لضمان لهم مورد يسترزقون منه، وحماية لهم من خطر الفقر. كما قام الفقهاء والعلماء بإبراز أهمية القيم الدينية في استقامة السلوك من خلال التشبث بالصبر لدفع الخصاصة والفقر.

وعلى الرغم من الجهد المبذول في جمع المادة الخبرية المبعثرة بين المتون الأصلية للمصادر، يظل البحث يتطلع إلى تلاقي النقائص، ويستدعي الأمر كما معرفيا آخرا، لسد الثغرات الموجودة في ثنايا



الدراسة، وإن تم التعرف على واقع الفقر والفقراء بالمغرب الإسلامي خلال الفترة الزمنية (7-9هـ/13-15م) من العصر الوسيط، وما عانوه من إقصاء وتهميش في الكتابة التاريخية، رغم الدور الفعال لهم في شتى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإنه دل على قوتهم كطرف أساسي في صنع التاريخ وبالتالي فهم يستحقون البحث والتنقيب، وهو ما يمنح أحقية مواصلة البحث في الموضوع في زمن غير زمن الدراسة، بخاصة في الفترات المتقدمة من تاريخ المغرب الإسلامي، وهي آفاق تستدعي الباحثين للخوض فيها.

الملاحق

1 : مخطط: يمثل خاصة المدن والبادية.

2 : مخطط: يمثل عامة المدن والبادية.

3 : رسم توضيحي لأسباب الفقر بالمغرب الإسلامي.

4 : رسم توضيحي لأثار الفقر(أخطبوط الفقر).

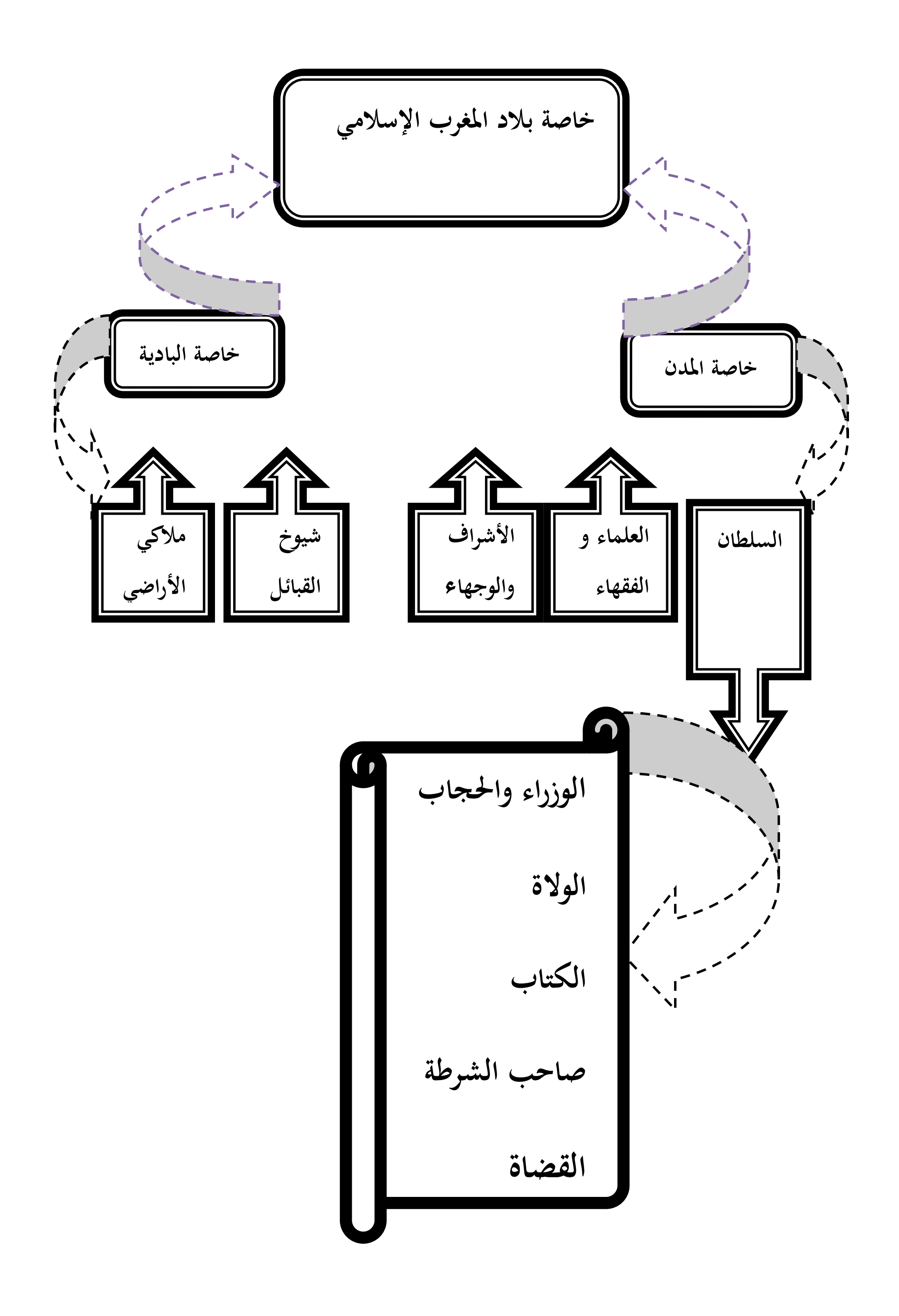
5 : جدول لأهم المجاعات الواقعة بالمغرب الإسلامي.

6 : جدول يمثل أهم الأعراض والأمراض التي كانت منتشرة زمن البحث وطرق علاجها

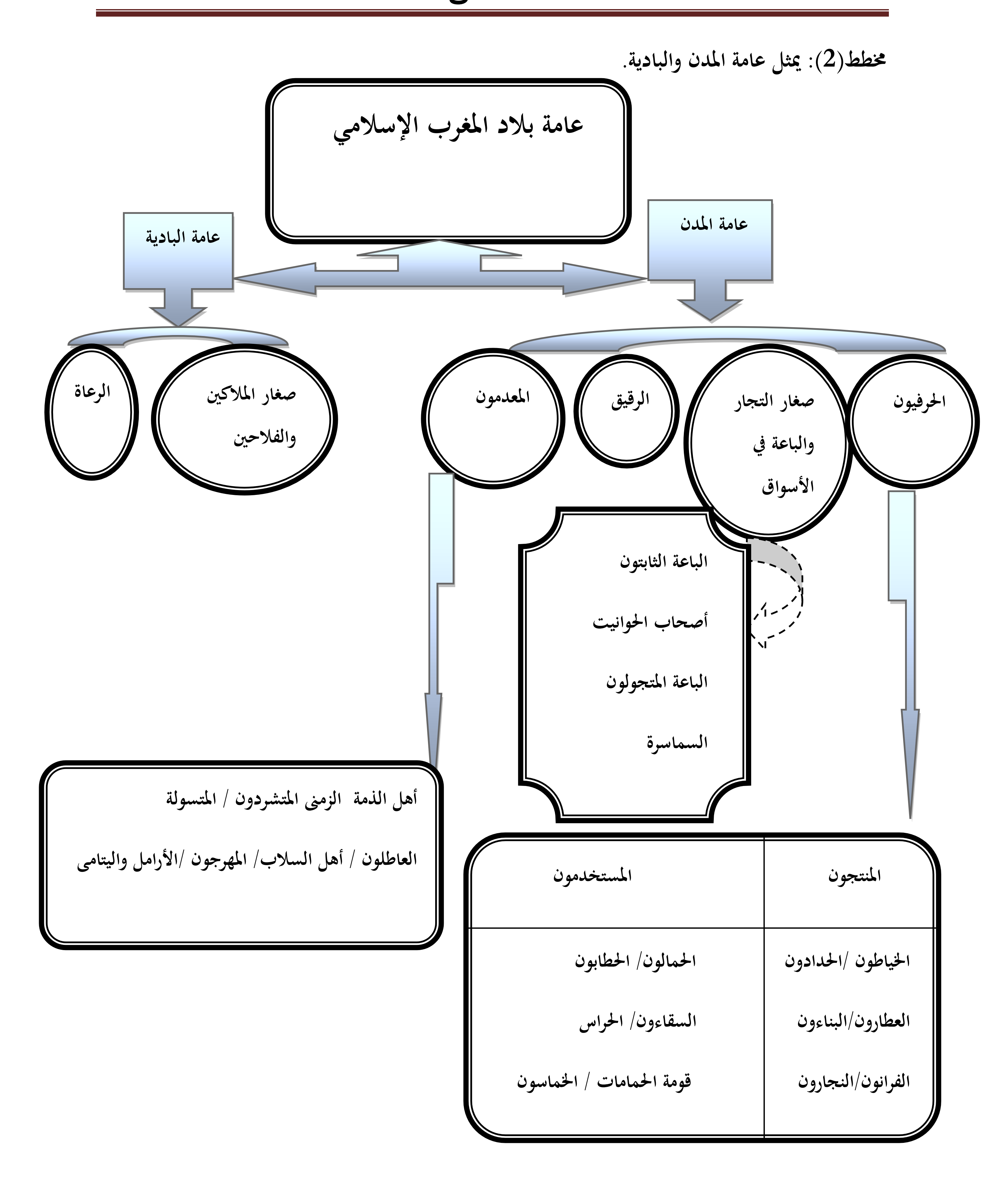
7 : جدول يمثل أهم الحصارات الواقعة بالمغرب الأوسط

8 : صور من مخطوط صلحاء الشلف

مخطط(1): يمثل خاصة المدن والبادية

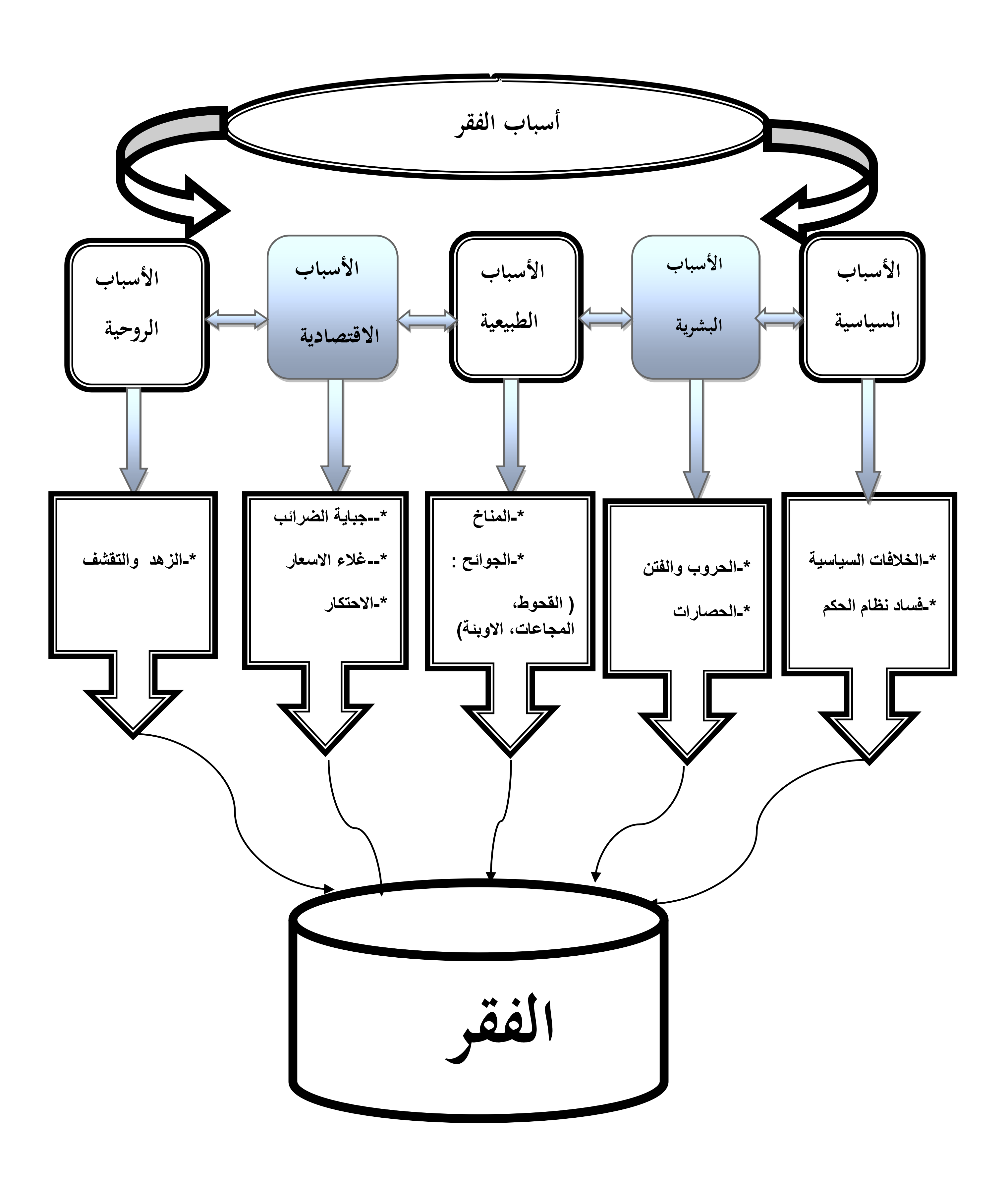


مخطط(2): يمثل عامة المدن والبادية.

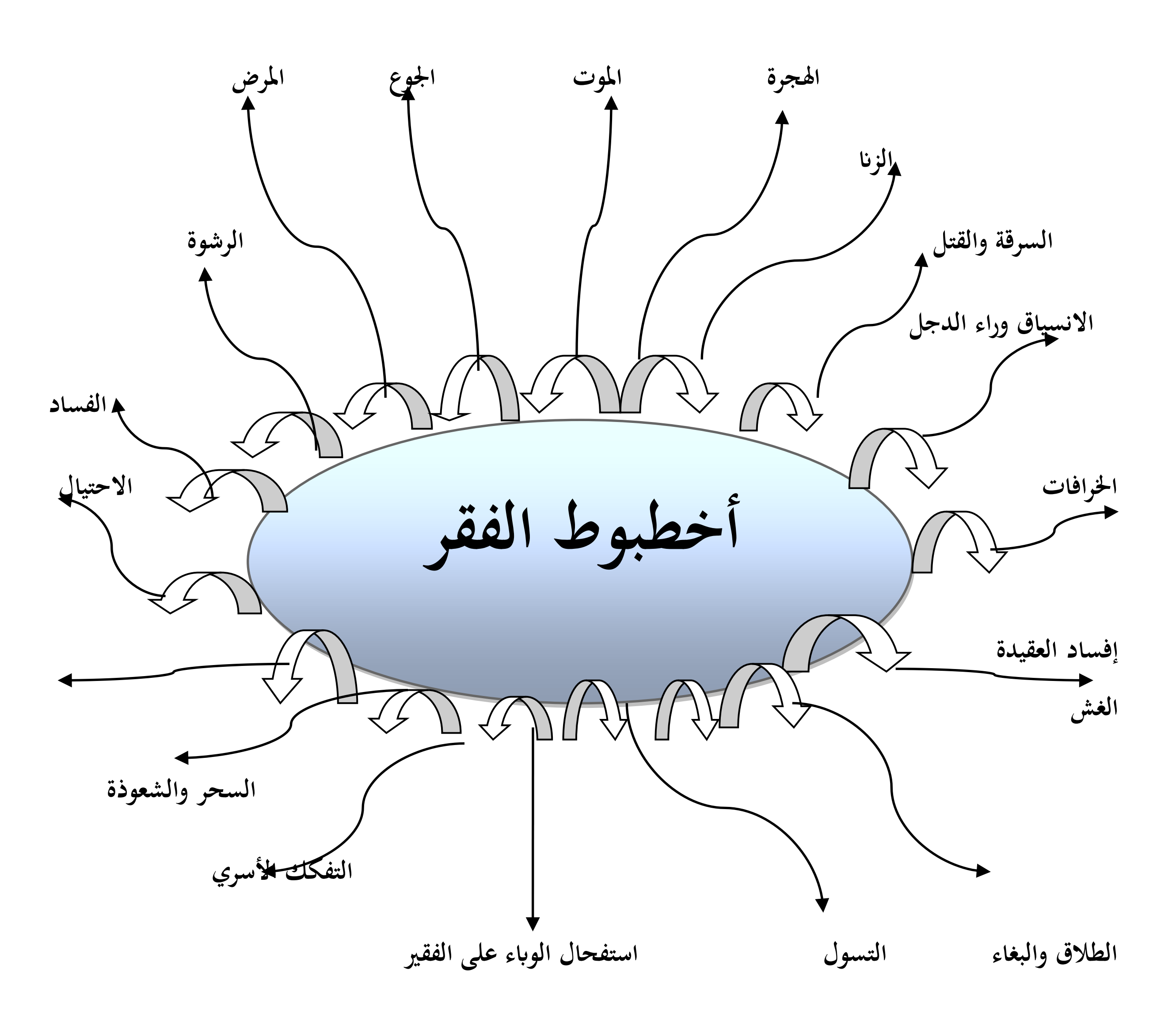


المصادر: ابن خلدون ،المقدمة/ الونشريسي،المعيار/ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب/ دلال لواتي /عامة القيروان

-مخطط (03): يمثل رسم توضيحي لأسباب الفقر بالمغرب الإسلامي.



الشكل رقم (4): يمثل رسم توضيحي لأثار الفقر أخطبوط الفقر



االجدول رقم (1): يمثل أهم المجاعات الواقعة بالمغرب الإسلامي مابين (ق7-9هـ/13-15م).

زمن وقوع المجاعة	مكان ومجال وقوعها	المصدر/ المرجع
616هـ/1219م	كل بلاد المغرب	ابن عذارى: البيان المغرب،ص266-267./ الذخيرة السنية، م س، ص54.
624هـ/1226م	المغرب والاندلس	ابن ابي زرع، روض القرطاس، ص274.
632هـ/1235م	المغرب	ابن عذارى ، البيان المغرب، ص325،326.
635هـ/1237م	المغرب	ابن أبي زرع، الروض القرطاس ، ص36/ الباديسي، المقصد الشريف، ص61.
683هـ/1224م	المغرب	السلاوي، الاستقصا، ج3/ص89
693هـ/1293م	المغرب، وإفريقية ومصر	ابن أبي زرع، القرطاس، ص539-540
698-707هـ/1298-1307م	تلمسان	ابن مرزوق، المناقب المرزوقية ، ص194،/ ابن خلدون، العبر ، ج7، ص197-198
723هـ/1322م	المغرب	ابن زرع، الانيس المطرب، ص544،529
749هـ/1348م	افريقية	ابن الشماع، الادلة البينة النورانية ، ص97-98.
776هـ/1374م	المغرب الأوسط ككل	ابن قنفد، أنس الفقير وعز الحقير، ص149/ الونشريسي، المعيار المعرب، ج5، ص97، 99
842هـ/1438م	تلمسان	ابن صعد ، روضة النسرين، ص221

862هـ/1455	تونس	الزركشي، م س، ص150
ق9هـ/15م	المغرب الأوسط	الونشريسي، م س، ج5/ص102

الجدول رقم: (2): يمثل أهم الأعراض والأمراض التي كانت منتشرة زمن البحث وطرق علاجها.

العرض / المرض	السبب	العلاج
قروح الرأس(في الأطفال)	خلط بلغمي	-نظام غذائي: تخفيف الغذاء: يمام وعصافير بالمري النقيع ، خبز مختمر وزيت وخل -على القروح :خل ثم ذر قرطاس محرق ثم عسل -مسهل:إهليلجهندي أو أبازخ الفيفرا
داء القرع (في الرأس)	خلط بلغمي	-نظام غذائي : خبز التنور بالزيت والخل +يمام وعصافير -غسل الرأس :بخل وعسل +كندر محرق -مسهل:أيارج الفيفرا +اغاريفون +نقيع شحم الحنظل ثم ذر دخان اللأفران وأذناب الخيل وحرافة الكندر وحناء + الدهان بدهن الجوزأو دهن حب الخروب.
الصلع		• في الشباب: دهن الرأس بدهن اللوز الحلو • في الشيوخ : لا علاج
السعفة (الرأس والوجه)	خلط صفراوي	-قصد -مسهل الصفراء :سقمونية+ بزز

		القرطم، زهر الورد، عصارة الموسج،او لسان الحمل أو الماميثا -نظام غذائي: خيار ، فواكه
الشامة في الرأس	خلط بارد	-نظام غذائي : يمام وعصافير

المصدر:أبو مروان ابن زهر، الطب العربي في الأندلس، مصدر سابق، ص259

الجدول رقم (3): يمثل أهم الحصارات التي وقعت بالمغرب الأوسط

تاريخ الحدث	مكان ونوعية الحدث	المصدر/المرجع
646هـ/1248م	حصار تلمسان	ابن خلدون عبد الرحمن، العبر،ج7، ص168-169/ ابن زرع، الأنيس، ص293.
659هـ/1260م	حصار مدينة مليانة	ابن خلدون، العبر،ج7،ص656-658
670هـ/1271م	حصار السلطان المريني لتلمسان وقيام قبائل بني توجين بتهخريب تلمسان	ابن الأحمر،روضة النسرين،ص66
679هـ/680هـ/1280-1281م	حصار قسنطينة	ابن قنفد القسنطيني، الفارسية، ص139-140.
698/696هـ/1296-1298م	حصار مدينة ندرومة وتلمسان	ابن ابي زرع، الانيس، ص386/ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص194-197.
732-337هـ/1331-1336م	حصار تلمسان لمدة ثلاث سنوات	الزركشي، تاريخ الدولتين،ص72-73.
753-754هـ/1352-1353م	حصار مدينة قسنطينة	ابن قنفذ/الفارسية،ص180.

الصور رقم:(1،2،3): تمثل بعض الأوراق من مخطوط صلحاء الشلف لموسى المازوني عن العلاج وطرق التبرك بالأولياء.

فلم يكن عنده ما يدفع ورجع الى الوالي قال فتوسلت به عنده
فتنزه ومشيت للوالي وحدها وطالت المحلة عبيت ووضعت
راسي تحت شجرة واخذني نوم خفيف فاذا بالشيخ على
الصفة التي يوصف لنا بها الشيخ سيدي واضح واقف
علي وقال لي ما لك خفت انت تخلو هذه براءتك قال
فنظرت الى البراءة ورايت فيها ما تغير خلاصي فانتبهت
فرحا فبينما انا كذلك واذا برجل يقول لي ابشر خلصك الله
هذه براءتك فاخذت البراءة فاذا هي بعينها التي ناولني
الشيخ وبالجملة فاحوال الصالحين من عجايب الزمان يا اخي
اشارة قربك من الله ملازمة الموافقات وقربه منك بدوام
التشويق والخواطر خطاب على الضماير وجاء مرة للشيخ
سيدي ابي يعقوب جماعة من الفقراء برسم الزيارة فلم يكن
عنده ما يطعمهم فتلقاهم بالفرح والسرور واخذ الفاس
والحبل والقاه على عاتقه وقاد دابته امامه ومشى لمكان
يحفر منه ترابا او رملا الشك من الراوي عنه وحمله
وعاد واشترى شيئا من الفضل وجاء بذلك الى اهله
وقال لهم اطعموا جماعة الفقراء لتنالوا منهم دعوة طيبة فانهم

ورقة ص140من مخطوط صلحاء الشلف

ويسهل عليهم سلوكه وقيل لابي يزيد ان الله اخبر ان الشيطان
هو وقبيله يرونا من حيث لا نراهم فقال الاية منعكسة
في حقي فانا لا اراه هو وقبيله من حيث لا يرونني وانشد
تسترت عن دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسال الايام ما اسمي ما درت واين مكاني ما عرفن مكاني
قال ابن العربي عنى بالدهر الشيطان وبالايام اولاده وانهم
محجوبون عنه باسرار انوار الالهية نسال الله ان يجعلنا
من الراسخين في العلم القايلين امنا به كل من عند ربنا ه

فصل وقد ان الشروع في جلب حكايات مما
تحصل لدينا من مناقب المشايخ المشتهرة بالصلاح ببعض
الاوطان الشلفية لخصتها الكتب منها من موضوعاتنا
في التصوف حيث بسطنا القول في ذلك وانتشا ما نقل
الينا على السنة بعض الثقات من جلة فضلاء علماء حوزتنا
وكثير من المشتور بين من نستكن النفس لقوله من عجيب اخبارهم
وكريم اثارهم ومقصودي بذلك علم الله تشويق الفقراء
وتنشيطهم للطاعة والخدمة بسماع تلك الحكايات
الجليلة ليتقوى عنصر يقينهم وتضمحل الشكوك والاوهام

ورقة رقم 39 من مخطوط صلحاء الشلف

ونسأله استصحاب العصمة والسلامة ونستوهبه الهداية
والتوفيق والوفاة على دين الاسلام يا اخي كيف يحل
مريد الهداية من هو في ليله ونهاره من احزاب اهل التخليط
من اجل الاكل الباطل لمن يريد دنياه بل كيف يتوصل الى هدايات
القلوب والنظر بالنور من هو مقيم على شيء مما نهاه الله
عنه وهو مع ذلك راض عن نفسه اعلم ان من اظهره الله
للناس بمعنى من العلم او بضرب من الخير ولم يقدر النعمة حق
قدرها فقد عرض به للمحنة اما بلوى في نفسه لنفسه واما
ابتلاء من غيره لنفسه ولغيره فبلاؤه المدخول عليه من نفسه
لنفسه الرياء والعجب ومحبة الثنا والحمد وكلما استحلى
ذلك تزيد له قبول الناس منه وتزيد استبعاده لموافقتهم
والتصنع لهم فيما يحبون ويشتهون حتى انه ليحب ان يبذل
دينه ودنياه لئلا يسقط في اعينهم نعوذ بالله من الخذلان
وتسويل الشيطان يا اخي الحق تعالى مطلع على
السرائر والظواهر في كل نفس وحال ان الله كان عليكم رقيبا
فأيما قلب رآه مؤثرا له حفظه من طوارق المحن ومضلات
الفتن قال الشيخ ابو مدين من تحقق بالعبودية نظر افعاله

ورقة رقم 43 من مخطوط صلحاء الشلف



الفهارس العامة

1: فهرس الآيات القرآنية

2: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

3: فهرس الأعلام

4: فهرس الأماكن والمناطق

5: فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	الرقم	الصفحة
« يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلىَ اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»	فاطر	15	26–20
«إِنمَّاَ الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعَامِلِينَ« عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفيِ الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ عليها وَفيِ سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّن اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»	التوبة	60	26–25
« إِن تُبْدُوْا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »	البقرة	271	26
«الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ»		268	26
«لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَعفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا... »		273	26 29
« وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »		195	47
«فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوْا الْبَآئِسَ الْفَقِيرِ»	الحج	28	26 42

فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»			
«وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ»	الأنعام	151	42
«وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا»	الإسراء	31	42
«وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا»		26	47
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ»	النساء	71	45
«مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ»	المدثر	42	47
« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ »	الحديد	20	144
«فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ»	نوح	10–11	50
«ف ولَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً»	الاسراء	32	242
« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ»	النور	2	242
«الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ		3	243

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام

فهرس البلدان والأماكن

قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم.

أولا: كتب الحديث الشريف

1-الألباني محمد ناصر الدين، **تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام**، المكتب الإسلامي، دمشق، ط1404،1هـ/ 1984م.

2-أبو داود السجستاني سليمان بن الأشعث الأزدي(202-275هـ)، **سنن أبي داود**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ، بيروت، طبعة خاصة،1430هـ/ 2009م .

3-البخاري الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(ت256هـ-870م)، **الصحيح**، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 1423هـ/2002م.

4-الهيثمي الإمام الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر(ت807هـ)، **مجمع الزوائد**،ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ /2001م.

5-ابن حنبل الإمام أحمد أبو عبد الله الشيباني (164-241هـ)، **المسند**،ج4، مؤسسة قرطبة، القاهرة، (د،ط)، (د،ت).

6-ابن حزم أبي محمد بن أحمد الأندلسي(ت456هـ)، **المحلى بالآثار**، ج6، تحقيق: أحمد محمد شاكر، إدارة الطباعة المنيرية، مصر،(د،ط)، 1349هـ/1930م.
7-ابن حبان الأندلسي(ت254هـ) ، **صحيح ابن حبان**، تحقيق: شعيب الأرناءوط،ج3، مؤسسة الرسالة، بيروت،(د،ط)، 1414هـ/ 1993م.

8-الطبراني الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد(360/260هـ)، **المعجم الأوسط**، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ج9، دار الحرمين، القاهرة، (د،ط)، 1416هـ/ 1995م.

9-(ـــــــــــ)، **المعجم الكبير**،ج18، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د،ط)، (د،ت).

10-مسلم بن الحجاج القشري النيسابوري(261هـ/875م)، **صحيح مسلم**، عناية: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض،(د،ط)، 1426هـ/2005م.

11-النووي أبو زكريا يحي بن شرف(631-676هـ/1233-1277م)، **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، تحقيق: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، دار بن الجوزي للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1421هـ/2000م.

12-(ـــــــــــ) ، **المنهاج بشرح صحيح مسلم**، ج6، دار الخير، بيروت، (د،ط)، 1420 هـ/ 1999م.

13-(ـــــــــــ) ، **المجموع شرح المهذب للشيرازي**، ج6، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الرشاد، جدة، (د،ط)، (د،ت).

14- السرخسي شمس الدين، **المبسوط**، ج2، دار المعرفة، بيروت، ط2، (د،ت).

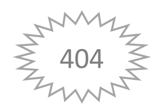
15-ابن علان الصديقي، **دليل الفالحين بشرح رياض الصالحين**، تحقيق: عصام الدين الصباطي ،ج2، دار الحديث، القاهرة، (د،ط)،1419هـ/ 1998م.

16-ابن عابدين محمد أمين بن عمر الدمشقي الحنفي، **الدر المختار**، ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1408هـ/ 1987م.

17-ابن قدامه المقدسي، **الشرح الكبير**، دار الكتب العلمية، ج2، بيروت،(د،ط)، (د،ت).

18- القرطبي الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر(ت671 هـ)، **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**، ج14، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1427،1هـ/ 2006م.

19-القرافي شهاب الدين أحمد بن إدريس(ت684-1285م)، **الذخيرة**، تحقيق: محمد بوخبزة، دار الغرب الإسلامي، ج3، بيروت، ط1، 1415هـ/ 1994م.



20-الخطابي أبو سليمان، **معالم السنن**، تح: أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي، ج2، دار المعرفة، بيروت، ط1401،1هـ /1980م.

ثانيا:المصادر المخطوطة:

21-البسكري عيسى بن سلامة، **اللوامع والأخبار في منافع الأخبار**، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ضمن مجموع رقم:1777.

22-المازوني موسى بن عيسى، **صلحاء وادي شلف**، مخطوط، نسخة مصورة عن مكروفيلم، مكتبة الخزانة العامة للرباط، رقم: 52343.

23-القباب أبو العباس، **أسئلة وأجوبة**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: 1447 ضمن مجموع.

24-الثغري إبراهيم بن أحمد التلمساني، **قائمة مصطلحات صيدلية**، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 1777.

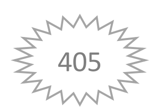
ثالثا: المصادر المطبوعة:

25-ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت630هـ/1232م)، **الكامل في التاريخ**، تقديم: أبو الفدا عبد الله القاضي ومحمد يوسف الدقاق،ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 1427هـ/2006م.

26-(ــــــــــــــــ)، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود أحمد الطناحي، ج2 ، المكتبة الإسلامية، بيروت، (د،ط)، 1400هـ/1979م.

27-ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف(ت810هـ/1408م)، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، مطبوعات القصر الملكي، الرباط، (د،ط)، 1388هـ/1968م.

28-(ــــــــــــــــ)، **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط،(د،ط)، 1392هـ/ 1972م.



29-ابن الأزرق أبي عبد الله(ت896هـ/1490م)، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق: علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 1429هـ/ 2008 م.

30-الأنصاري محمد، **فهرسة الرصاع**، تحقيق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، (د،ط)،(د،ت).

31-ابن الأكفاني محمد بن إبراهيم بن سعد الأنصاري(ت749هـ-1279م): **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد**، نشر فؤاد سزكين وآخرين، معهد تاريخ العلوم العربية-فرانكفورت – ألمانيا،(د،ط)،1426هـ /2005م.

32-الأنطاكي داود عمر(1008هـ/1600م)، **بغية المحتاج في المجرب والعلاج**، دار الفكر، بيروت، ط1، 1422هـ/2001م.

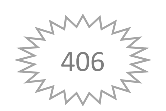
33-الأبشيهي شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح(ت850هـ/1446م): **المستظرف في كل فن مستظرف**، مراجعة وتعليق: محمد سيد، ج1، دار بيروت ،ط1، 1422هـ/ 2001 م.

34-الإدريسي أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف(ت558هـ/1163م)، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،(د،ط)،1404هـ /1983م.

35-إخوان الصفا وخلان الوفاء، **الرسائل**، دار بيروت للطباعة والنشر، ج1، بيروت، (د،ط)، 1404هـ/1983م.

36-ابن أبي أصبيعة أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي(668هـ/1269م)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تح: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،(د،ط)،1385هـ/ 1965م.

37-ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس** –في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس– صور للطباعة والوراقة، الرباط،(د،ط) ،1392هـ/ 1972م.



38-(ــــــــــــــ) ، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط،(د،ط)، 1392هـ/ 1972م.

39-ابن أبي دينار أبي عبد الله الشيخ محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، دار المسيرة، بيروت، مؤسسة سعيدان، تونس، ط3،/1393هـ 1993م.

40-ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي(770هـ/1369م)، **رحلة ابن بطوطة**(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) تحقيق: عبد المنعم عريان ومصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1،1408هـ/ 1987م.

41-ابن بسام أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني(ت542هـ/1147م)، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القسم الثالث، مج1، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان،(د،ط)، 1418هـ/1997م.

42-ابن بلكين، **كتاب التبيان**، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة،(د،ط)،1375هـ/ 1955م.

43-ابن الجوزي أبو الفرج البغدادي(ت1201م)، **نوادر وأخبار الحمقى والمغفلين**، تحقيق: خاقاني، مطبعة البصري، بغداد، ط2، 1386 هـ/1966م.

44-ابن الجزار أبو جعفر أحمد القيرواني(ت369هـ/980م)، **طب الفقراء والمساكين**، تحقيق: الراضي الجازي وفاروق عمر العسلي، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، قرطاج، ط1، 1430هـ/2009 م.

45-ابن جلجل أبي داود سليمان بن حيان الأندلسي(ت377هـ/987م)، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406هـ/1985م.
46-البكري أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز(487هـ/1094م)، **المسالك والممالك**، تحقيق: جمال طلبة، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،1424هـ/ 2003 م.

47-الباديسي عبد الحق، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق: سعيد اعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1414هـ/ 1993م.

48-البرزلي أبو القاسم بن أحمد البلوي(ت844هـ/1440م)، **فتاوى البرزلي**-جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1423هـ/ 2002م.

49-الدلجي أحمد بن علي، **الفلاكة والمفلكون**، مطبعة الشعب، مصر، 1322م/1904مم.

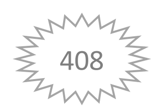
50-الدباغ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي(605-696هـ)، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، أكمله ابن ناجي(ت739هـ)، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس،(د،ط)، (د،ت).

51-الهمداني عبد الرحمن، **ألفاظ الأشباه والنظائر**، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1402هـ/1981م.

52-الوزان الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1404هـ/ 1983م.

53-الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي(ت914هـ/1508م)، **إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك**، تحقيق: أحمد بوطاهير الخطيبي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية،(د،ط)،1401هـ/ 1980م.

54-(__________)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والمغرب**(في فقه النوازل)، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية،1301هـ/ 1901م.



55-(ــــــــــــــ)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والمغرب**،ج1، تحقيق: محمد عثمان، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، (د،ط)،1428هـ/ 2011م.

56-(ــــــــــــــ)، **وفيات الونشريسي**، تحقيق: محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر،(د،ط)،(د،ت).

57-الوليدي أبو الفضل راشد، **الحلال والحرام**، تحقيق: عبد الرحمن العمراني الإدريسي، وزارة الأوقاف المغربية، (د،ط)، 1411هـ/ 1990م.

58-ابن زهر أبو مروان الإشبيلي(ت757هـ/1162م)، **الطب العربي في الأندلس**- مقدمة لكتاب التيسير في المداواة والتدبير- تقديم: فضيلة بوعمرون، دار ثالة، الجزائر،(د،ط)،/1428هـ/ 2007م.

59-الزهري أبي عبد الله محمد بن أبي بكر(توفي أواسط القرن 6هـ)، **كتاب الجغرافية**، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د،ط)،(د،ت).

60-الزجالي أبو يحي عبيد الله بن أحمد القرطبي(617-694هـ)، **أمثال العوام في الأندلس**، القسم2، تحقيق: محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي،(د،ط) (د،ت).

61-الزرهوني، **ملعبة الكفيف**، تحقيق: محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، (د،ط)، 1408هـ/ 1987م.

62-الزركشي أبي عبد الله بن إبراهيم (ت894هـ/1488م)، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، (د،ط)، 1423هـ/ 2002م.

63-الزبيدي الإمام محمد مرتضى الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مصطفى حجازي، ج35، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط1، 1422هـ/2001 م.

64-الزمخشري أبي القاسم محمود بن عمر(467-538هـ)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض،ج4، مكتبة العبيكان، ط1، 1418هـ/1998م.

65-أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت،(د،ط)،1414هـ /1993م.

66-أبو حمو موسى الثاني الزياني(723/791هـ-1321-1389م)، **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تحقيق: محمود بوترعة، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر،(د،ط)،1432هـ/ 2011م.

67-ابن الحاج النميري أبي القاسم برهان الدين إبراهيم بن عبد الله بن محمد ابن قاسم الغرناطي (ت774هـ/1372م)، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد: محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، الرباط، ط1،1411هـ/ 1990م.

68-ابن حوقل أبو القاسم النصيبي (ت360هـ/977مم)، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1992 م.

69-الحميري أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت 726هـ/1326م) ، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، (د،ط)، 1405هـ/ 1984م.

70-الحفناوي محمد أبي القاسم محمد، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج2، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، (د،ط)، 1324هـ/ 1906م.

71-الحضرمي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، **السلسل العذب والمنهل الأحلى**، تحقيق: محمد الفاسي، مج: 10،ج1، مجلة معهد المخطوطات العربية،(د،ط)،1384هـ/ 1964م.

72-الحنبلي بن عماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي(1032هـ/1089م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج8، تحقيق: محمود الآناؤوط، دار بن كثير، دمشق،(د،ط)،1414هـ/ 1993م.

73-ابن الطواح عبد الواحد محمد، **سبك المقال لفك العقال**،تحقيق: محمد مسعود جبران، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1428،2هـ/2007م.

74-ابن كثير أبي الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي(700-774هـ)، **تفسير القرآن الكريم**، ج5، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1420،2هـ/1999م.

75-الكتاني الشريف أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس(1234-1345م)، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1425،1هـ/ 2004م.

76-كربخال مرمول، **إفريقيا**، ج2، ترجمة: محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بن جلون، دار المعارف الجديدة للنشر والتوزيع،(د،ط)، 1410هـ/ 1989م.

77-الكاساني، علاء الدين أبي بكر بن مسعود الحنفي(ت587هـ)، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، ج2، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ/2003م.

78-الكناني أبو بكر، **مصباح الزجاجة**، تحقيق: محمد المنتقي الشناوي، ج4، دار الكتب العربية، بيروت، 1403هـ/1982م.

79-ابن مريم المليتي المديوني، **البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان**، تحقيق: عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1432،1هـ/ 2011م.



80-ابن مرزوق محمد الخطيب التلمساني(781هـ/1380م)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن،** تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،(د،ط)، 1402هـ/ 1981م.

81- (__________)، **المناقب المرزوقية،** تحقيق:سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1، 1429هـ/2008 م.

82-ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي(ت711هـ/1311م)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، (د،ط)، (د،ت).

83-مقديش محمود، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار،** تحقيق: علي الزواري، محمد محفوظ، مج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1409هـ/ 1988م.

84-المرسي أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المعروف بابن سيده(ت458هـ)، **المحكم والمحيط الأعظم،** تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج6، دار الكتب العلمية، بيروت(د،ط)، 1421هـ/2000م.

85-المراكشي عبد الواحد بن علي(647هـ/1249م)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب،** تقديم وتحقيق: محمود زينهم محمد عزت، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، (د،ط)، 1415هـ/ 1994م.

86-(__________)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب،** تحقيق: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، (د،ط)، 1382هـ/ 1962م.

87-(__________)، **وثائق المرابطين والموحدين،** تحقيق: حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، (د،ط)، 1418هـ/ 1997م.



88-المقري أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (1041هـ/1631م)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، ج2، ج5، دار صادر، بيروت، (د،ط)، 1409هـ/1988م.

89-(__________)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، شرحه وضبطه: مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل،ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،1416هـ/ 1995م.

90-(__________)، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق: محمد النيقا وإبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (د،ط)، 1358هـ/1939م.

91-المواق محمد والرصاع محمد، **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، تحقيق: محمد حسن، دار المدار الإسلامي، ط1، 1428هـ/2007 م.

92-المقريزي تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي (ت845هـ)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**،ج2، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ 1997م.

93-(__________)، **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، تحقيق: كرم حلمى فرحات، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007 م.

94-المازوني أبو زكريا يحي بم موسى بن يحي المغيلي(883هـ/1478م)، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، ، تحقيق: مختار حساني، مراجعة: مالك كرشوش الزواوي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (د،ط)، 1430هـ/2009م.

95-مجهول، **زهر البستان في دولة بني زيان**، السفر الثاني، تحقيق: محمد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 1432هـ/2011 م.



96-(ــــــــــــــــــــ) ،**زهر البستان في دولة بني زيان**، تحقيق: بوزياني الدراجي، ج2، مؤسسة بوزياني والنشر والتوزيع، الجزائر، (د،ط)، 1434هـ/2013م.

97-مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، (د،ت).

98-مجهول(كان حيا بداية القرن 10هـ/16م)، **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**، تعريب: الفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، ط1423،1هـ/ 2002 م.

99- النعمان أبو حنيفة المغربي، **دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل البيت رسول الله عليه وعليهم فضل الإسلام**،ج1، تحقيق: آصف بن علي، أضفر فيضي، دار المعارف، ط1، 1383هـ/1963م.

100-ابن السكيت إسحاق أبي يوسف يعقوب، **مختصر تهذيب الألفاظ**، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، (د،ط)، (د،ت).

101-ابن السماك العاملي أبي القاسم محمد بن أبي العلاء محمد بن سماك المالقي الغرناطي (ق9هـ)، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1431،1هـ/2010م.

102-ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي(ت 428/1037م)، **القانون في الطب** تحقيق: محمد أمين الضناوي، ج1، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1420هـ/1999م.

103-ابن سلمون الكناني الغرناطي المالكي(ت 741هـ): **العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من الوثائق والأحكام**، المطبعة العامرية الشرقية، مصر، ط1، 1301هـ/1883م .

104-ابن سعيد المغربي الأندلسي علي بن موسبن محمد بن عبد الملك(ت685هـ/1286م)، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، ج1، دار المعرف، القاهرة، ط3، 1416هـ/ 1995م.

105-السُلمي بن أبي عبد الرحمن(ت412)، **طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفية**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ/2003م.

106-السيوطي جلال الدين والمحلي جلال الدين: **تفسير الإمامين الجليلين**، بيروت: دار المعرفة، (د.ت).

107-ابن عطية القاضي أبي محمد بن عبد الحق بن غالب الأندلسي(ت546هـ)، **المحرر الوجيز في الكتاب العزيز**، ج3، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، (د،ط)، 1422هـ/2001م.

108-ابن عذارى أبي العباس أحمد بن محمد المراكشي(كان حيا 712هـ/1312م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د،ط)، 1406هـ/1985م.

109-ابن عيشون أبي عبد الله محمد الشراط (1109هـ/1697م)، **الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، تح: زهراء النظام، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1418هـ/1997م.

110-ابن عبدون محمد بن أحمد (ت527هـ/1133م)، **رسالة في القضاء والحسبة**، نشر: ليفي بروفنسال، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، القاهرة، (د،ط)، 1375هـ/ 1955م.

111-ابن عبد الرفيع، **معين الحكام على القضايا والأحكام**، تحقيق: محمد بن قاسم عياد، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د،ط)، (د،ت).

112-العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الحيحي(كان حيا688هـ/1289م)، **رحلة العبدري**، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 1426هـ/ 2005 م.

113-(ـــــــــــــــ)، **الرحلة المغربية**، تقديم: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر(د،ط)، 1424هـ/2007 م.

114-العقباني أحمد التلمساني(ت871-1467م)، **تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**، تحقيق: علي الشنوفي، نشر معهد الدراسات الشرقية، دمشق،(د،ط)،1387هـ/1967

115-العنتري صالح، **مجاعات قسنطينة**، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،(د،ت)، 1394هـ/ 1974م.

116-العمري ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحي (ت749هـ)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب، تحقيق: حمزة أحمد عباس، دار الكتب الوطنية، الإمارات، (د،ت)، 1424هـ/ 2003 م.

117-الفيومي أحمد بن محمد المقرئ، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، مكتبة لبنان، 1987م.

118-ابن فرحون إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم فرحون محمد اليعمري المدني المالكي برهان الدين أبو الوفاء(ت799هـ/1397م)، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، ط1،/1417هـ 1996م

119-الصدفي صلاح الدين: **الوافي بالوفيات**،ج8، اعتناء محمد يوسف نجم، مطابع دار صادر، بيروت، (د،ط)، 1391هـ/ 1971م.

120-الصقلي الحكيم، **موسوعة الطب الشعبي**، ج2، تحقيق: منى عبود، دار الفكر اللبناني، ط1، 1414هـ/ 1993م.

121-ابن صاحب الصلاة عبد الملك بن أحمد الباجي(ت 594هـ/1198م)، **المن بالإمامة**-تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين- تح: عبد الهادي تازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،(د،ط)، 1408هـ/1987م.

122-ابن صعد أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي الفضل بن سعيد بن ميمون بن سعيد بن صعد(ت901هـ/1496م)، **النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، حققه وقدم له محمد أحمد الديباجي، دار صادر، بيروت، ط1، 1432هـ/2011م.

123-ابن الصباح الحاج عبد الله، **أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار -رحلة المدجن** - تعليق محمد بن شريفة، دار أبي الرقراق، المغرب، ط1، 1429هـ/2008م .

124-ابن صصرى محمد، **الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية**، تحقيق: وليم برينز، مكتبة بولدليان، أكسفورد،(د،ط)، (د،ت).

125-ابن القاضي المكناسي أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية (ت1025/1616م)، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور،ج1، مكتبة دار التراث القاهرة، ط1، 1402هـ/1981م.

126-القاضي النعمان أبو حنيفة بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي (363هـ/974م)، **إفتتاح الدعوة**، تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط2، 1407هـ/ 1986م.

127-(________)، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط،1393هـ/ 1973م.



128-القلقشندي أبو العباس شهاب أحمد بن علي (756هـ-1355م/821هـ-1418م)، **أثر الأنافة في معالم الخلافة**، تح: عبد الستار أحمد فراج، ج2، عالم الكتب، بيروت، (د،ت).

129-ابن قنفد أبو العباس أحمد بن حسين بن علي الشهير بابن الخطيب القسنطيني (ت810هـ/1407م)، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر،1388هـ/ 1968م.

130- (ـــــــــــــــ)، **أنس الفقير وعز الحقير**، تصحيح: محمد الفاسي وأودلف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط،(د،ط)، (د،ت).

131-ابن قاضي شهبة تقي الدين بن أبي بكر بن أحمد الدمشقي(ت851هـ)، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، ج3، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ودار الجفاف والجابي للطباعة والنشر، (د،ط)، 1415هـ/1994م.

132-ابن قتيبة الدينوري، **عيون الأخبار**، تحقيق: محمد سعيد أبو شعر، ج3، المكتب الإسلامي، ط1، 1429هـ/ 2008 م.

133- ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي (ت520هـ/1126م) ، **فتاوى ابن رشد**، تحقيق: المختار بن الطاهر التليلي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ/1987م.

134- ابن رشد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالحفيد(595هـ/1199م)، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، تحقيق: حسن حلاق، مكتبة بن تيمية، ج2، القاهرة، ط1، 1994/1415م

135-(ـــــــــــــ)، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، تحقيق: يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي وعدنان علي شلاق، ج5، دار عالم الكتب، بيروت، ط1408،1هـ/ 1987م.



136-الرصاع أبي عبد الله محمد الأنصاري التلمساني(ت894هـ/1489م)، **شرح حدود ابن عرفة المعنون با: الهداية الكافية الشافية**، تحقيق: أبو الأجفان والطاهر المعموري، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1414،1هـ/1993م.

137-الرافعي عبد الكريم بن محمد القزويني (555-623هـ/1160-1226م)، **التدوين في أخبار قزوين**، ج1، تحقيق: عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، بيروت،(د،ط)،1408هـ/1987م.

138- الشوكاني محمد بن علي بن محمد(ت1250هـ)، **فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2، 1384هـ/ 1964م.

139-ابن الشماع أبو عبد الله أحمد، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب،/1405هـ/ 1984م.

140-التادلي أبو يعقوب يوسف بن يحي بن عيسى بن عبد الرحمن المعروف بابن الزيات (ت627هـ/1229م)، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ط2، 1418هـ/ 1997م.

141- التادلي أحمد الصومعي(920هـ/1514م)، **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق: علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، (د،ط)،1417هـ/ 1996م.

142-التنبكتي بابا أحمد(ت1036هـ/1627م)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1410هـ/1989م.

143-(ــــــــــــــ) ، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج في تراجم المالكية**، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1425،1هـ/ 2004 م.

144-التيفاشي شهاب الدين أحمد(ت580هـ)، **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب**، تحقيق: جمال جمعة، رياض الزين للكتب والنشر، قبرص، ط1، 1413هـ/1992م.

145-التنسي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (899هـ/1494م) ، **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان،** تحقيق: محمود آغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر، (د،ط)، 1432هـ/2011م.

146-التجاني أحمد عبد الله بن محمد بن أحمد (كان حيا 712هـ/1312م) ، **الرحلة التجانية،** تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، (د،ط)، 1402هـ/1981م.

147-الثعالبي النيسابوري إسماعيل(350هـ/429هـ)، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب،** تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط1424،1هـ/ 2003 م.

148-(ــــــــــــــ)، **فقه اللغة**-في تفصيل الفقر وترتيب أحوال الفقير-مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، (د،ط)، 1406هـ/1885م.

149-ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي(ت776هـ/1374م)، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام،** تحقيق وتعليق: ليفي بروفنسال، دار الكشوف، بيروت، ط2، 1376هـ/1956م.

150-(ــــــــــــــ)، **مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل،** تحقيق وتقديم: حياة قارة، دار الأمان، مطبعة الكرامة، الرباط، (د،ط)، 1436هـ/ 2015م.

151-(ــــــــــــــ)، **مقنعة السائل عن المرض الهائل**-ضمن كتاب ثلاث رسائل في الطاعون الجارف (749هـ/1348م)، تحقيق: محمد حسن، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، قرطاج، ط1434،1هـ/ 2013 م.

152-(ــــــــــــــ)، **الإحاطة في أخبار غرناطة،**ج2، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1394هـ/ 1974م.

153-(ــــــــــــــ)، **رقم الحلل في نظم الدول،** المطبعة العمومية، تونس، 1316هـ/1898م.

154- ابن خلدون عبد الرحمن أبو زيد بن عبد محمد الحضرمي الإشبيلي(ت 808هـ/1406م)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر(العبر)** ، ضبط: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، (د،ط)، 1421هـ/2000م.

155-(ـــــــــــــــ)، **شفاء السائل وتهذيب المسائل**، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر دمشق،(د،ط)،1417هـ/ 1996م.

156-(ـــــــــــــ)، **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د،ط)، 1424هـ/ 2003 م.

157-(ـــــــــــــ)، **المقدمة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د،ط)، 1433هـ/ 2012م.

158- ابن خلدون يحي أبو زكريا بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ت 780هـ/1378م) ،

159-**بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد**، ج1/ج2 ،تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر،(د،ط)،1432هـ/ 2011م.

160-(ـــــــــــــ)، **بغية الرواد**، ج2، تحقيق: بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، (د،ط)، 1428هـ/2007م.

161-ابن خاتمة أبو جعفر أحمد بن علي، **تحصيل غرض القاصد في تفضيل المرض الوافد**-ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف (749هـ/1348م) -تحقيق: محمد حسن، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، قرطاج، ط1، 1434هـ/2013م.

162-ابن خلوف شهاب الدين(ت899هـ/م1494)، **ديوان شهاب الدين بن خلوف**، تحقيق: هشام بوقمرة، الدار العربية للكتاب، تونس، (د،ط)، 1409هـ/1988م.

163-الذهبي الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/1374م) محمد (ت748هـ/1347م)، **ذيول العبر في خبر من غبر**، ج3، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1406هـ/ 1985م.

164-الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله البجائي(ت704هـ/1304م) ، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2،1400هـ/1979م.

165-الغرناطي أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن(ت579هـ/1132م) ، **الوثائق المختصرة**، أعدها مصطفى ناجي، مركز إحياء التراث المغربي، الدار البيضاء مطبعة النجاح الجديدة، الرباط،(د،ط)، 1409هـ/1988م.

166-(_________)، **الوثائق المختصرة**، تحقيق: إبراهيم بن محمد السهيلي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، (د،ط)، 1432هـ/2011 م.

167-ابن غازي محمد العثماني المكناسي(ت919هـ/1513م)، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، تحقيق: عطا أبو ريا وسلطان بن مليح الأسمري، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1428هـ/2007م.

168-الغزالي أبو حامد محمد بن محمد (ت450-505هـ)، **إحياء علوم الدين**، ج2، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1425هـ/ 2004م.

169-ابن غالب الغرناطي محمد بن أيوب(ق6هـ/12م)، **قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس**، تح: ونشر لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات، القاهرة، مج 22، (د،ط)، 1375هـ/ 1955م.



رابعا:المراجع:

170- إسماعيل محمود، **سسيولوجية الفكر الإسلامي**، دار الثقافة، البيضاء،(د،ط)،1401هـ/ 1980م.

171-أركون محمد، **تاريخية الفكر العربي الإسلامي**، ترجمة: هاشم صالح، بيروت، (د،ط)، 1407هـ/ 1986م.

172- استيتو محمد، **الفقراء في المغرب،-نماذج من القرنين (16-17م)**- منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، (د،ط)، 1427هـ/ 2006م.

173-بيجو فيتش علي عزت، **الإسلام في الشرق والغرب**، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران، ط1، 1415هـ/ 1994م.

174-البزاز محمد أمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كلية العلوم الإنسانية، الرباط، (د،ط)، 1413هـ/1992م.

175-بوروبية رشيد و لقبال موسى وحاجيات عبد الحميد و دهينة عطاء الله و بلقراد محمد، **الجزائر في التاريخ -العهد الإسلامي من الفتح إلى العهد العثماني-**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د،ط)، 1405هـ/ 1984م.

176- بوداود عبيد، **ظاهرة التصوف بالمغرب الأوسط مابين القرنيين السابع والتاسع الهجريين (ق13/15م)** -دراسة في التاريخ السوسيو ثقافي-، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، (د،ط)، 1424هـ/ 2003 م.

177-(ــــــــــــــ)، **الوقف في المغرب الإسلامي (مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13-15م) ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية)** ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1432هـ/2011م.

178-البياض عبد الهادي، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس من القرن 6-8هـ**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1429هـ/2008 م.

179-بونابي الطاهر، **التصوف في الجزائر خلال القرنين(6-7هـ/12 -13م)**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، (د،ط)، 1425هـ/2004 م.

180-برونشفيك روبار، **تاريخ افريقية في العهد الحفصي –من القرن 13الى القرن15م-**، ج2، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1409هـ/ 1988 م.

181-بنميرة عمر، **النوازل والمجتمع–مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (8-9هـ/15/14م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة الأمنية، الرباط، (د،ط)، 1433هـ/ 2012م.

182-بوتر روى، **موجز تاريخ الجنون**، ترجمة: ناصر مصطفى أبو الهيجاء، مراجعة أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، (د،ط)، 1433هـ/ 2012م.

183-بنمليح عبد الإله، **الرق في بلاد المغرب والأندلس**، دار الكتاب الوطني، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 1425هـ/ 2004 م.

184-بوطالب محمد نجيب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1423هـ/ 2002 م.

185-بهنسي أحمد فتحي، **الموسوعة الجنائية في الفقه الإسلامي**، ج2، دار النهضة العربية، بيروت، (د،ط)، 1412هـ/1991م.

186-بن حمادة سعيد، **الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين(7-8هـ/13-14م)**، دار الطليعة، ط1، بيروت، (د،ط)، 1428هـ/2007م.

187-بولقطيب حسين، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، (د،ط)، 1423هـ/ 2002م.

188-بعيزيق صالح، **بجاية على العهد الحفصي**، -دراسة اقتصادية واجتماعية-، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، (د،ط)،1427هـ/ 2006 م.

189-باشا نجاة، **التجارة في المغرب الإسلامي**، (من القرن (4هـ/8هـ) ، تونس، المنشورات الجامعية التونسية، (د،ط)، 1396هـ/1976م.

190-برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، **تقرير اجتماع الخبراء عن القضاء على ظاهرة الفقر**، وتوفير سبل العيش المستدام في الدول العربية، المجلد1، 1417هـ/ 1996م.

191-جمعة محمد علي، **المكاييل والموازين الشرعية، القدس للإعلان والنشر**، القاهرة، ط2، 1422هـ/2001م.

192-الجيلالي عبد الرحمن، **تاريخ الجزائر العام**، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط8،1429هـ/ 2008م.

193-جدلة إبراهيم، **المجتمع الحضري بافريقية في العهد الحفصي**، مطبعة قطيف، قفصة، (د،ط)، 1431هـ/2010م.

194-جودت عبد الكريم يوسف، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،(د،ت).

195-الدراجي بوزياني، **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د،ت).

196-(__________)، **العصبية القبلية**- ظاهرة اجتماعية وتاريخية، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط1، 1424هـ/2003م.

197-دهينة عطا الله، **الحياة الاقتصادية لدولة بني زيان**، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،(د،ط)،1405هـ/ 1984م.

198-دندش عصمت عبد اللطيف، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، -عصر الطوائف الثاني-دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د،ط)، 1409هـ/1988م.

199-هيلبرونر روبرت، ماذا يعرف الاقتصاديون عن التسعينات وما بعدها، ترجمة دانيال رزق، الدار الدولية للنشر والتوزيع، مصر،(د،ط)، 1414هـ/ 1994م.

200-هريدي يحي، **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د،ط)، 1385هـ/1965م.

201-هراج التوزاني نعيمة، **الأمناء بالمغرب في عهد مولاي الحسن**، مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة فضالة، (د،ط)، 1400هـ/ 1979م.

202- وردم باتر محمد علي، **العولمة ومستقبل الأرض**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، (د،ط)، 1424هـ/ 2003 م.

203-زرهوني نور الدين، **الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن(6هـ)** ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د،ط)، (د،ت).

204-حركات محمد، **الاقتصاد السياسي وجدلية الثروة والفقر**، مطبعة المعارف الجديدة، المغرب، ط2، 1423هـ/ 2002م.

205-حمدي عبد العظيم، **فقر الشعوب بين الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي**، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د،ط)، 1416هـ/ 1995م.

206-حسن محمد حسن، **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس**-عصر المرابطين والموحدين-، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1401هـ/ 198

207-حاجيات عبد الحميد، **أبو حمو موسى الثاني، حياته وآثاره**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د،ط)، 1400هـ/ 1979م.

208-الحريري محمد عيسى، **تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني**، دار القلم، ط2 1408هـ/1987م.

209-حسن محمد، **المدينة البادية بافريقية في العهد الحفصي**، ج2، جامعة تونس، (د،ط)، 1420هـ/ 1999م.

210-(ــــــــــــ)، **حركات العامة بمدن افريقية في العهد الحفصي**، ضمن كتاب: المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة قرطاج،1420هـ/ 1999م.

211-الحاج محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د،ط)، 1432هـ/ 2011 م.

212-حركات إبراهيم، **المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط**، إفريقيا للشرق، الدار البيضاء، المغرب، (د،ط)، 1419هـ/ 1998م.

213-(ـــــــــــــ)، **المغرب عبر التاريخ**، ج2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، (د،ط)، 1421هـ/ 2000 م.

214- حميش سالم، **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1418هـ/1997م.

215-حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، **الأحوال الاجتماعية**، ج3، دار الحضارة، الجزائر، (د،ط)، 1430هـ/2009م.

216-الطمار محمد بن عمرو، **تلمسان عبر العصور—دورها في سياسة وحضارة الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د،ط)، 1405هـ/ 1984م.

217-الطاهري أحمد، **جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط**، سلسلة ندوات، طبقة العامة في المجتمع الإسلامي الوسيط(إمكانية البحث من خلال النموذج الأندلسي) ، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، (د،ط)، 1412هـ/1991م.

218-طه جمال، **الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي**،-عصري المرابطين والموحدين-دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 1425هـ/ 2004 م.

219-الطريقي عبد الله بن عبد المحسن، **جريمة الرشوة في الشريعة الإسلامية**، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط3، 1403هـ/ 1982م.



220-كونستيل أوليفيار يمي، **التجارة والتجار في الأندلس**، تعريب: فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، ط1، 1423هـ/ 2002م.

221-كامل محمد كمال، **التصوف والمتصوفة- في المغرب الأقصى في عصر بني مرين**- دار الأفاق العربية، ط1، 1435هـ/ 2014م.

222-كواتي مسعود، **اليهود في المغرب الإسلامي**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2000م.

223-لوليدي يونس، **الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية**، مطبعة انفوبرنت، فاس، ط1، 1417هـ/ 1996م.

224-مان ميشيل، **موسوعة العلوم الاجتماعية**، ترجمة عادل مختار الهواري، وسعد عبد العزيز مصلوح، دار المعرفة الجامعية، (د،ط)، 1420هـ/ 1999م.

225- ماهر علي، **الخدمة الاجتماعية في مجال الدفاع الاجتماعي**، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ط4، 1424هـ/2003م.

226-المزاري آغا بن عودة، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر والأسبان وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق : يحي بوعزيز، دار البصائر، 1435هـ/ 2009م.

227-المنوني محمد، **ورقات عن حضارة المرنين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ط3، 1421هـ/2000م.

228-مارشالي جوردون، **موسوعة علم الاجتماع**، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، مراجعة وتقديم محمد الجوهري، المطبوعات والنشر، ط1، 1421هـ/ 2000 م.

229-ماسينيون وعبد الرزاق مصطفى، **التصوف**، دار الكتاب اللبناني، دار المدرسة، لبنان، ط1، 1405هـ/1984م.

230-مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ/ 2004م.

231-مسعد محي محمد، **نظام الزكاة بين النص والتطبيق**، مكتبة الإشعاع الفنية، الإسكندرية، (د،ط) ،1419هـ/ 1998م.

232- نامق صلاح الدين، **قادة الفكر الاقتصادي**، دار المعارف، القاهرة، (د،ط)، 1399هـ/ 1978م.

233- نويهض عادل، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، ط1401،2هـ/ 1980م.

234-الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة المرينية**. تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج3،ج4، دار الكتاب، الدار البيضاء،(د،ط) 1418هـ/1997م

235-السبكي محمد عبد اللطيف ومحمد محي الدين عبد الحميد، **المختار من صحاح اللغة**، مطبعة الاستقامة، القاهرة، (د،ت).

236-السعداوي أحمد،"**المجاعات والأوبئة في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط –النتائج الديمغرافية–**"، ضمن:كتاب الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي، (د،ط)، (د،ت).

237-سلاطنية بلقاسم، سامية حميدي، **العنف والفقر في المجتمع الجزائري**، دار الفجر للنشر والتوزيع، الجزائر، (د،ت).

238-السيد أبو مصطفى كمال، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي**، مركز الإسكندرية للكتاب، (د،ط)،1417هـ/1996م.

239-سامي النبراوي نجلاء، **ذوو الاحتياجات الخاصة بالمغرب والأندلس**، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية، (د،ت).

240-السحيري بن حتيرة صوفية، **الجسد والمجتمع-دراسة أنتروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد** –دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 1434هـ/ 2008 م.

241-سعيدان عمر، **بنو مرين بالمغرب وعلاقاتهم باسبانيا القطلانية**، منشورات سعيدان، تونس، ط1، 1424هـ/2003م.

242-عبد الحليم عمر محمد، **موقف الإسلام من الفقر والفقراء**، ضمن أبحاث ندوة الفقر والفقراء في نظر الإسلام، مركز صالح كامل بجامعة الأزهر، القاهرة، (د،ط)، 1420هـ/ 1999م.

243-عبد المجيد أحمد فتحي والنجفي سالم توفيق، **السياسات الاقتصادية الكلية والفقر مع إشارة خاصة بالوطن العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1434هـ/2008م.

244-العيسوي عبد الرحمن محمد، **تحليل ظاهرة الفقر –دراسة في علم النفس الاجتماعي –** منشورات الجلي الحقوقية، بيروت، ط1، 1435هـ/2009م.

245-العذاري عدنان داود محمد، هدى زوير مخلف الدعمي، **قياس مؤشرات ظاهرة الفقر في الوطن العربي**، دار جديد للنشر والتوزيع، الأردن، (د،ط)، 1436هـ/ 2010م.

246-العز بن عبد السلام، **زبد خلاصة التصوف**-المسمى بحل الرموز ومفاتيح الكنوز- تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبه، مكتبة الثقافة الدينية، (د،ط)، 1435هـ/2009م.

247-عطية العربي، الياس بن ساسي، **التحليل الكمي للفقر الإنساني**، دراسة تحليلية لمستوى الفقر البشري في الجزائر والمنطقة العربية، الملتقى الدولي حول مؤسسات الزكاة في الوطن العربي، دراسة تقويمية لتجارب مؤسسات الزكاة ودورها في مكافحة ظاهرة الفقر، جامعة البليدة، (د،ط)، 1425هـ/ 2004م.

248-العيدوسي محمد حسن، **المغرب العربي في العصر الإسلامي**، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1، 1434هـ/2008م.



249- العامري نيللي سلامة، **الولاية والمجتمع كلية الأداب والفنون والإنسانيات تونس**، منوبة، دار المعرفة للنشر، تونس، ط2، 1427/ 2006م.

250-(ـــــــــــــــــ)، **التصوف بافريقية في العصر الوسيط،-من القرن (3- 9هـ/9 – 15م)**-شركة السنباكت، 1435هـ/2009 م.

251- عمارة محمد، **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، دار الشروق، (د،ت).

252-ابن عبد العزيز بن عبد الله محمد، **الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي**، ج2، مطبعة فضالة، ط1417،1هـ/ 1996م.

253-عبد الباقي محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف**، دار الحديث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1364هـ/1944م.

254-عبيد هشام، **تونس وأولياؤها الصالحون في مدونة المناقب الصوفية**، مركز النشر الجانعي، تونس، (د،ط)، 1427هـ/ 2006م.

255- العلوي القاسمي هاشم، **مجتمع المغرب الأقصى– حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر ميلادي–** ج2، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (د،ط)، 1416هـ/ 1995م.

256-عطا علي محمد شحاته ريه، **اليهود في بلاد المغرب الأقصى،-في عهد المرينيين والوطاسين**-دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1420،1هـ/ 1999م.

257-عبد العالي مصطفى كمال و راشد فرج، **اليهود في العالم القديم**، دمشق، دار القلم، ط1، 1416هـ/1995م.



258-العلي صالح صالح والشيخ سليمان الأحمد أمينة، **المعجم الصافي في اللغة العربية**، الرياض،1401هـ/1980م.

259-عبد المنعم محمود عبد الرحمن، **معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية**،ج3، دار النصر للطباعة الإسلامية، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، (د،ط) ، (د،ت).

260-عيسى بك أحمد، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1402هـ/1981م.

261- العروي عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**، ج2، المركز الثقافي العربي، بيروت، (د،ط)، 1415هـ/ 1994م.

262-فيلالي عبد العزيز، **تلمسان في العهد الزياني**، موفم للنشر، ج1، الجزائر، (د،ط)،1432هـ/ 2011م.

263- فتحة محمد، **الوباء الجارف بالغرب الإسلامي–معطيات ومواقف–**"ضمن كتاب المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب–، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، (د،ط)، 1432هـ/2011م.

264-الفارس عبد الرزاق، **الحكومة والفقراء والإنفاق العام–دراسة لظاهرة عجز الموازنة وأثارها الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية–**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1423هـ/ 2002 م

265-القرضاوي يوسف، **مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام**، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د،ط)، 1406هـ/1985م.



266-(ـــــــــــــــــ)، **دور الزكاة في معالجة المشاكل الاقتصادية**، قراءات في الاقتصاد الإسلامي، مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي، كلية الاقتصاد والإدارة، جامعة الملك عبد العزيز،ط1، السعودية، (د،ط)، 1408هـ/1987م.

267-القادري بوتشيش إبراهيم، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،(د،ط)، 1414هـ/1993م.

268-(ـــــــــــــــــ)، **المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي**، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، (د،ط)، 2014/1436م.

269-(ـــــــــــــــــ)، **تاريخ الغرب الإسلامي- قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة** – دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1،1415هـ/ 1994م.

270-(ـــــــــــــــــ)، **ظاهرة الدين والسلف في المجتمع المغربي خلال العصر الوسيط**: أساليب التعامل والإشكاليات المطروحة ضمن كتاب: حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، بيروت، دار الطليعة ، 1434هـ/ 2006م.

271-(ـــــــــــــــــ)، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين–المجتمع، الذهنيات، الأولياء-** دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1414هـ/ 1993م.

272-رواس قلعة جي محمد و قنيتي حامد صادق: **معجم لغة الفقهاء**، دار النفائس، بيروت، ط2، 1409هـ/1988م.

273-رزوق محمد، **الأندلسيون كفئة اجتماعية داخل المجتمع المغربي**، ضمن كتاب جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، سلسلة ندوات،(د،ط)،1412هـ/ 1991م.

274-رشوان حسين، **مشكلات المدينة ودراسة في علم الاجتماع الحضري**، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية،(د،ط)،1423هـ/ 2002م.



275- الرضي الشريف، **نهج البلاغة**، ج4، دار المعرفة، بيروت، (د،ط)، (د،ت).

276-شابرا محمد، **الإسلام والتحدي الاقتصادي**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي والمعهد العربي للدراسات المالية والمصرفية، عمان، ترجمة :محمد الزهير السمهوري، مراجعة محمد أنس الزرقاء، ط1، 1417هـ/1996م.

277- الشريف محمد، **سبتة الإسلامية**، عصر الموحدين والمرينيين، تقديم أمحمد بن عبود، منشورات جمعية تطوان، أسمير، الرباط، ط1427،1هـ /2006م.

278- تيتاو حميد، **الحرب والمجتمع**، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، منشورات عكاظ، (د،ط)، 1431هـ/ 2010 م.

279-خالفي علي، **علاقة التنمية البشرية بجهود محاربة الفقر لدى المنظمات الدولية**، أبحاث ندوة: تجارب مكافحة الفقر في العالمين العربي والإسلامي، جامعة سعد دحلب، البليدة، (د،ط) 1428هـ/2007م.

280-خالد محمد خالد، **رجال حول الرسول**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،1421هـ/ 2000م.

281-خطيف صابرة، **فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية**، دار جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1432هـ/2011م.

282-غيث محمود عاطف، **قاموس علم الاجتماع**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997م.

283-غازي الشمري، **دراسات في النظم الإسلامية**، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1423هـ /2002م.

خامسا: الرسائل:



284-الأعرجي نضال مؤيد مال الله عزيز، **الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني**، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، جامعة الموصل، 1425هـ/ 2004م.

285-بوعمامة فاطمة، **اليهود في المغرب الإسلامي خلال (7-9هـ)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، منشورة، الجزائر، 1429هـ/ 2008م.

286-بلبشير عمر، **جوانب من الحياة الاجتماعية الاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط الأقصى من القرن(6- 9هـ/12-15م) من خلال كتاب المعيار للونشريسي**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة وهران، 1430/1431هـ/ 2009-2010م.

287- بوعوينة سليمة، **ظاهرة الفقر وانتشارها في الجزائر**، رسالة ماجستير في العلوم الاقتصادية، جامعة الجزائر، 1424هـ/ 2003م.

288- بونبعو ياسين حفصي، **مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة حالة صندوق الزكاة في الجزائر**، رسالة ماجستير في الاقتصاد، فرع التحليل الاقتصادي، جامعة الجزائر،1431هـ/ 2010م.

289- بودالية تواتية، **البيئة في بلاد الأندلس عصري الخلافة وملوك الطوائف**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، غير منشورة، جامعة وهران، 1434-1435هـ/ 2013-2014م.

290- بوكرديمي نعيمة، **الرحلة العلمية لعلماء تلمسان إلى فاس-خلال القرن (8هـ/14م)** - رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، غير منشورة، سيدي بلعباس، 1431هـ/2010م.

291- بورملة عربية، **إمارة بني توجين بالونشريس خلال القرنين(7-8هـ /13-14م) من خلال كتاب العبر لعبد الرحمن ابن خلدون**، رسالة ماجستير، جامعة معسكر، غير منشورة، 1430-1431هـ/2009-2010م.

292- بوعامر مريم، **الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأدنى ودورها في الازدهار الحضاري**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة،1431هـ/ 2010م.

293- بلمداني نوال، **نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (4-5هـ/10-11م)**، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، غير منشورة، جامعة وهران،1434هـ /2013م.

294- بن مصطفى إدريس، **العلاقات السياسية والاقتصادية للمغرب الأوسط مع إيطاليا وشبه الجزيرة الأيبيرية في عهد الدولة الزيانية**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة تلمسان، 1428هـ/ 2007 م.

295- بن حمو محمد، **العمران والعمارة من خلال كتاب النوازل بالمغرب الإسلامي**، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 2، غير منشورة، 1432هـ/2011 م.

296- بلحسان محمد، **قضايا مجتمع المغرب الأوسط من خلال كتب النوازل مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين (13-15م)** ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة معسكر، 1434-1435هـ/ 2013-2014 م.

297-بلغيث محمد الأمين: **الحركة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين(479-539هـ/1085-1144م)**، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 1423-1424/ 2002-2003 م.

298- بكاي هوارية، **العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى خلال القرنين السابع والعاشر**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، غير منشورة، جامعة تلمسان، 1434-1435هـ/ 2013-2014م.

299- بن داود نصر الدين، **بيوتات العلماء بتلمسان، من القرن (7-10هـ)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة تلمسان، غير منشورة، 1430-1431هـ/2009-2010م.

300-بن تومي عابد، **الكوارث الطبيعية والجوائح والأوبئة في المغرب الأوسط وأثرها في المجتمع مابين السابع والتاسع الهجريين (13/15م)**،رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط غير منشورة ، معسكر،1431هـ/ 2010م.

301-جبودة مريم محمد عبد الله، **التجارة في بلاد افريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحدي والحفصي، (555-980هـ)** ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الزقازيق،1429هـ/ 2008م.

302-هواري موسى، **تربية الحيوانات في بلاد المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين (1-7هـ)/(7-13م)** ، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، غير منشورة، جامعة الجزائر، 1430هـ/2009م.

303- الهلالي محمد ياسر، **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري/14-15م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة محمد الخامس، الرباط، غير منشورة، 1421هـ/2000 م.

304-ولد غسال سليمان، **جهود الفقهاء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين ستة (922/633هـ)**، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية- تخصص: أصول الفقه- جامعة الجزائر، غير منشورة، (د،ت).

305-حسن عامر أحمد عبد الله، **دولة بني مرين، تاريخها وسياستها تجاه مملكة غرناطة والممالك النصرانية في إسبانيا(668-869هـ/1269-1465م)**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة النجاح، نابلس، 1424هـ/ 2003م.

306-حاجي فطيمة، **إشكالية الفقر في الجزائر في ظل البرامج التنموية للجزائر للفترة (2014/2005)** ، رسالة دكتوراه في العلوم الاقتصادية، غير منشورة، جامعة بسكرة، 1434هـ/2013م.

307- الطويل محمد، **الفلاحة المغربية في العصر الوسيط**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1409هـ/1988م.



308- يخلف سهيل، **تقنيات قياس وتحليل الفقر في الجزائر**، رسالة ماجستير في الديمغرافيا، جامعة باتنة، 1429هـ/ 2008م.

309-كررزا فوزية، **عامة المغرب الأوسط في ظل السلطة الموحدية**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، جامعة وهران، غير منشورة، 1435-1436هـ/ 2014 -2015م.

310-لواتي دلال، **عامة القيروان في العصر الأغلبي**، (**184-296هـ/800-908م**)، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري قسنطينة، 1422-1423هـ/2001-2002م.

311- لمودة فاطمة الزهراء، **إستراتجية التنمية البشرية في معالجة الفقر،-دراسة حالة الجزائر**-رسالة ماجستير في العلوم الاقتصادية، جامعة الجزائر، 1433هـ/ 2012م.

312-مقدم سهام، **الطب والأطباء بتلمسان في عهد الدولة الزيانية**، (**633-923هـ/1235-1517م**) ، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة سيدي بلعباس،1430-1431هـ/ 2009-2010م.

313-مغراوي سميرة، **تطور نظام الجباية في المغرب الأوسط -دراسة نماذج من دول المنطقة**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة معسكر غير منشورة،1434-1435هـ/ 2013-2014م.

314-مزدور سمية، **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط من القرن** (**6-10هـ/12-16م**) ، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة قسنطينة، غير منشورة، 2008م.

315-سياب خيرة، **المياه ودورها الحضاري في بلاد المغرب والأندلس**، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة وهران، غير منشورة، 1435هـ/ 2014 م.

316-سكاكو حورية، **التحولات الاقتصادية في المغرب الأوسط خلال العهدين الموحدي والزياني من القرنين** (**6-10هـ/12-16م**) **-دراسة حضارية**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة تلمسان، 1435هـ/ 2014م.



317- عبد الشكور نبيلة، **إسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي، (النصف الثاني من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن التاسع للهجرة)**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، الجزائر،1429هـ/ 2008م.

318-العيوسي إبراهيم، **مناهج قياس التنمية**، رسالة ماجستير في الاقتصاد، معهد التخطيط القومي، القاهرة، عمان،1428هـ/ 2007م.

319-صالحي صالح، **الآليات المؤسسية لعلاج ظاهرة الفقر في الاقتصاد الإسلامي والنتائج المتوقعة لتطبيقها في الاقتصاد الجزائري**، رسالة ماجستير في الاقتصاد الإسلامي، غير منشورة، 1432هـ /2011م.

320- صقر محمد، **اللباس المغربي من بداية الدولة المرينية إلى العصر السعدي**، أطروحة دكتوراه في الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1423هـ/ 2002 م.

321- قويسم محمد، **مدينة قسنطينة مابين القرنين(7-10هـ/13-16م)-دراسة سياسية، وعمرانية، واجتماعية، وثقافية**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر،(د،ط)، 1436هـ/2014م.

322- القرقوطي معمر الهادي محمد، **الحياة الاقتصادية خلال العهد المريني**، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، غير منشورة، جامعة الجزائر، 1429هـ/2008 م.

323- قندوز ماحي، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة، دراسة وتحقيق لمسائل الطهارة حتى مسائل الضحايا والعقيقة**، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، تخصص فقه وأصول، وهران، 1431-1432هـ/2010-2011م.

324-الرفاعي محمد عبد الله، **معوقات بيانات قياس الفقر**، المؤتمر الإحصائي العربي الأول حول الفقر، عمان، 1428هـ/2007م.

325- شرقي نوارة، **الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، غير منشورة، جامعة الجزائر، 1429هـ/2008م.

326- شقدان بسام كامل عبد الرزاق، **تلمسان على العهد الزياني (7-9هـ)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 1423هـ/2002م.

327- شريخي نبيل، **دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين (7-8هـ)**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، 1431هـ/2010م.

328- الخرشي عبد السلام، **فقه الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة**، أطروحة دكتوراه في القرآن والحديث، دار المؤيد، ط2، 1423هـ/ 2002م.

329- ذياب محمد، **الفكر الاقتصادي عند أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي-دراسة تحليلية لكتاب الأموال**- رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة باتنة، 1427-1428هـ/ 2006-2007م.

330-غرداوي نور الدين، **دراسة وتحقيق للجزء الرابع من كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 1432هـ/2011 م.

سادسا: المجلات:

331-بن حمادة سعيد، **الخطاب الإسلامي في تلمسان خلال القرن 8هـ/14م من خلال واسطة السلوك لأبي حمو موسى الزياني**، عصور الجديدة، ع/2، وهران،1432هـ/2011م.

332-بلبشير عمر، **نظام الوقف ودوره في الرعاية الاجتماعية من خلال نوازل المعيار**، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد14، جامعة وهران، 1431هـ/2010م.

333-بلعربي خالد، **المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني (698-845هـ/1299-1442م)** ، دورية كان التاريخية، ع/4 ،1430هـ/ 2009م.



334-باقة رشيد، **الأقليات الدينية في بلاد المغرب ومدى مساهمتها في ازدهار الحياة الاقتصادية من_الفتح إلى العهد الموحدي**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية،ع/4، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1425هـ /2004 م.

335-بلهواري فاطمة، **النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري– العاشر** ميلادي، دورية كان التاريخية، ع/8، 1431هـ/ 2010م.

336-بلاجي محمد، **أقنعة الطعام، مجلة أمل–التاريخ–الثقافة–المجتمع**–، ع/16، السنة السادسة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1420هـ/1999م.

337- أبو دياك صالح فياض ،**النظام المالي عند الحفصيين**، مجلة الدراسات التاريخية، السنة السابعة، ع/21-22، إشبيلية للنشر والتوزيع، دمشق، 1407هـ/ 1986م.

338-حركات إبراهيم، **الحياة الدينية في العهد المريني**، مجلة البحث العلمي، السنة 16، ع/29-30، 1400هـ/1979م.

339-حداد أنطوان، الفقر في لبنان، **سلسلة مكافحة دراسات الفقر**، العدد:2، الأمم المتحدة، (د،ت).

340-حالي محمد، **الديمغرافيا التاريخية في العصر الوسيط**، مجلة المستقبل العربي، ع/416، 1434هـ/2013 م.

341-حمدان اللوح عبد السلام و عنبر محمود هاشم: **علاج مشكلة الفقر**، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية)، مج 17، ع/1، 1430هـ/2009م.

342-مزدور سمية، **مقاربات حول مستوى معيشة التجار والحرفيين في المغرب الأوسط**، الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، منشورات جامعة معسكر، ع/4، 1434هـ/ 2013م.



343- نشاط مصطفى، **التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني،** مجلة أمل، وجدة، السنة السادسة، ع/17، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1420هـ/ 1999م.

344- سعدي العربي، **تنظيم الأسواق والحرف في بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني من القرن (13-16م)** ، المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، منشورات مخبر الجزائر، تاريخ ومجتمع في الحديث والمعاصر، مكتبة الرشاد، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، ع/03، 1432هـ/2011م.

345- فقادي الحسين، **من مظاهر التغذية في تاريخ المغرب الوسيط،** مجلة أمل- التاريخ، الثقافة، المجتمع- مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة السادسة، ع/1420،16هـ/1999م.

346-القبلي محمد،**حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف (ق12- 13هـ)** ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع/21-22، 1412-1991/1413-1992م.

347- القادري بوتيشش إبراهيم، **المجال الحرفي بالمغرب خلال العصر المرابطي،** مجلة دراسات تاريخية، ع/1435،03هـ/2014 م.

348-(ـــــــــــــــــ) ، **ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات-المغرب والأندلس من (ق6- 8هـ) نموذجا**- مجلة عصور الجديدة، ع/7-1433،8-1434هـ/ 2012-2013م.

349-شوقي الحسن، **مجمل عن الطعام والشراب في القبائل المغربية -نموذج: قبيلة السراغنة-** مجلة أمل، مطبعة النجاح الجديدة، السنة السادسة، ع/16، 1420هـ/1999م.

350- شحلان أحمد: **مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه،** مجلة التاريخ العربي، ع/ 1، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 1417هـ/ 1996م.

351-شخوم سعدي، **الصناعة الصيدلية بالدولة الزيانية من خلال مؤلفات إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني(ق8هـ/14م)**، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، ع/4، منشورات جامعة معسكر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 1434هـ/ 2013م.

352- الغريب عبد العزيز، **قراءة في التدابير المتخذة، مجلة المستقبل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ع/311، 1426هـ/ 2005م.

353- غرداوي نور الدين، **مناقب وكرامات أبو البيان سيدي واضح وتأثيرها في منطقة الونشريس**، مقتطفة من مخطوط صلحاء وادي شلف، مجلة أبحاث، منشورات دار الثقافة، تيسمسلت، ع/3، 1435هـ/ 2014م.

354-عبيدة محمد بدر صالح، **النموذج القياسي للفقر في الجمهورية اليمنية**، مجلة بحوث اقتصادية عربية، العدد:17، القاهرة، 1417هـ/ 1996م.

355- فرانكو سانشت فرانشيسكو، **تطور الطب في الأندلس**، المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ع/27، تونس، 1415هـ/1994م.

356- لقبال موسى، **زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان، مجلة الأصالة**، السنة 4، ع/26 /جويلية-أوت، 1395هـ/1975م.

سابعا: المراجع بالأجنبية:

357-Abdallah Larawi. L,hisoire du Maghreb un essai desnthese Casablanca ,Maroc. 1995.

358- ATallah Dhina ,les états de l'occident musulman aux XIII^{e}, XIV^{e} et XV^{e} siècles, Alger: ENAL- 1984.



359-.Braudel fernandes :Civilisation materielle et capitalisme xvéxvIII .S les structures du-quotidien paris, 1979 .

360-Dauchy Claisse, Médecine traditionnelle au maghreb, Paris, 1996.

361- Dufourq Emmanuel ; la vie quoidienne dane l'Europe sous la domination arabe . paris. 1978.

362-Ferhat.H," Un nouveau documont sur la grande mosquée" de Tamuda,XXIV , 1986, sabta , Hespéris .

363-mersal Mauss , les fonctions sociqles du sqceè ,ed.Minuit, paris 1968.

ثامنا: المواقع الالكترونية : موسوعة ويكيبيديا الحرة : w.w.w. wikipedia.org

مركز ودود للمخطوطات w.w.w. wadod.com.

فهرس الموضوعات

الفصل الثاني: مسألة التراتبية الاجتماعية ومظاهر الفقر بالمغرب الإسلامي

الملاحق